AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

A S
AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT
136.7
I81A
C.1
Cat. Sept. 1951

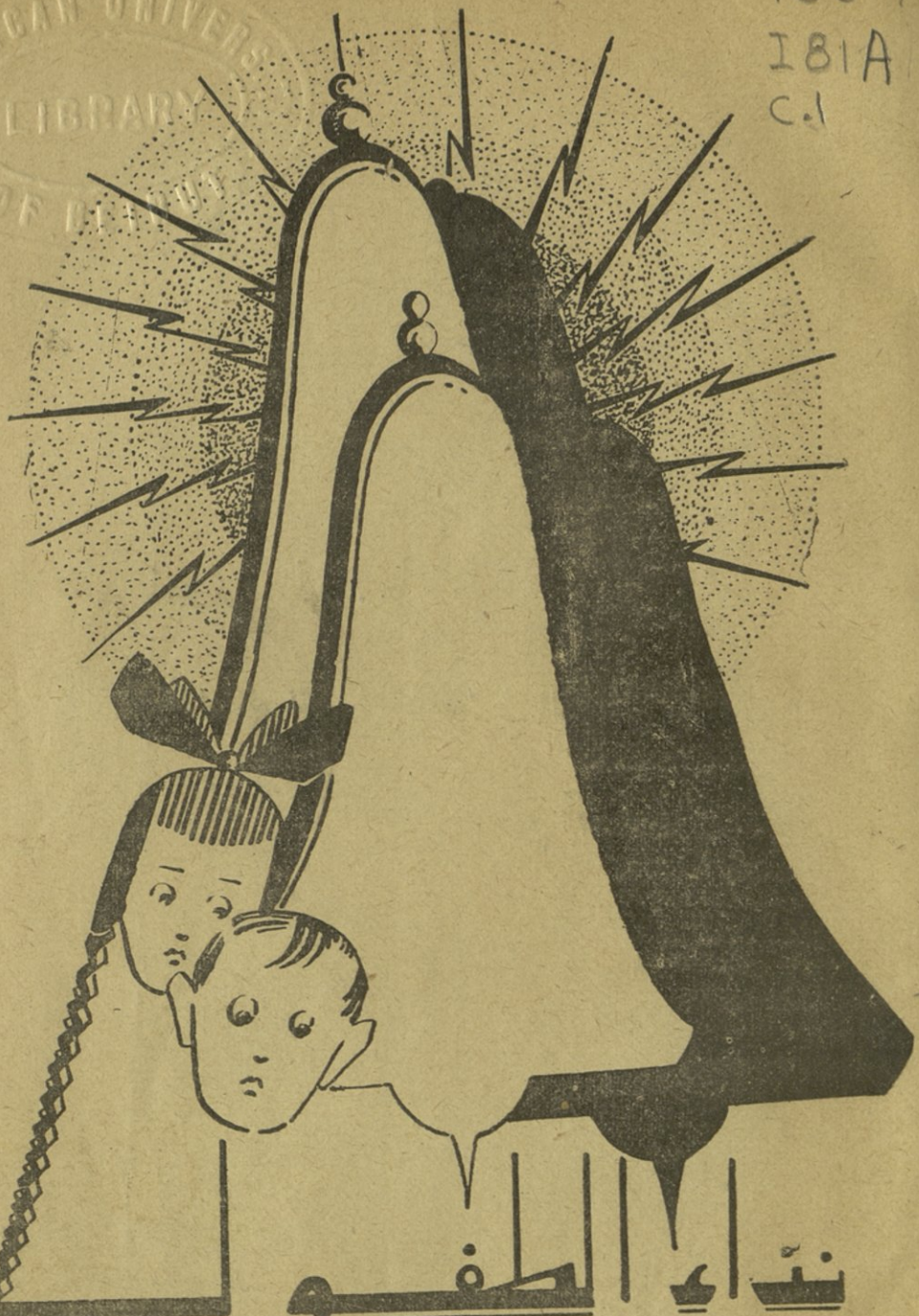

نداء الطفولة

فايز اسكندر

الثمن
٤٠

مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع حماد الدين بمصر

دبلوم كلية الآداب
ومعهد التربية

77578

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARY

إلى من طوق عنقي بقلائد من نور ..

أستاذي الدكتور عبد العزيز القوصي ..

أقدم قطرة من نبعه الزاخر

مقدمـــة

« الانسان مجموعة من المتناقضات » حقاً كما يقول دافيد هيوم .. مجنون!

وإلا فما رأى القارىء فيمن يتناول مبضعاً حاداً ويمرره على وجه طفله البض وبشرته الرقيقة محدثا خطوطاً عميقة غائرة ستظل ندوبها باقية على مر السنين ؟ لابد أننا إزاء وحش نضب من نفسه معين الرحمة وخلت مشاعره من أبسط مبادىء الانسانية. ولكنك قد تجلس وسط مجموعة من الزوار فى منزل أحد أصدقائك فترى المضيف وهو شاب وسيم لطيف المعشر يؤثر أحد أطفال الضيوف برعايته فيجلسه على فخذه ويربت عليه فى حنو ويؤثره بإحدى ألاعيب طفله ، كل هذا والأخير ينظر فى حزن وألم بالغين ويجـــذب طرف « بنطلونه » فى مزيج من الاستعطاف والاحتجاج والغضب . ويبتسم الوالد وهو ينظر بزهو الى الزوار فهذا فى نظره ونظرهم دليل على مدى حب أبنائه له ..

وإذن فهى جرعة من جرعات « الغيرة » يقدمها الوالد الى طفله وهو يبتسم ..!.

أو قد تراه يخفى لعبة أثيرة من أحد الأطفال ، ويضحك الجميع لمحاولات الطفل الساذجة للبحث عنها هنا وهناك ، حتى اذا أعياه البحث انفجر باكياً فيعلق صديقنا بعبارات لطيفة على ما يصاحب هذا الغضب من أعراض تبدو على الوجه والجسم مقارناً إياها بما يتميز به طفله . ولكنه كريم النفس سريع الحساسية ولا يحب أن يرى الطفل يبكى ولذا سرعان ما يعيد اليه ما سبق انتزاعه منه معلقاً على سرعة انتهاء النوبة بشكل لايقارن بالأعراض العنيفة التى كانت ترتسم على الوجه ، اذ سرعان ما تسكن الاختلاجات الجسدية ويزول احمرار الوجه بل ويبتسم الطفل ويجرى ليتابع لعبه . هذه فرصة ذهبية لنتحدث عن براءة الطفولة وطهارتها وابتسامها وسط الدموع لمجرد اعطائها ما تطلب ، وهو حديث جميل يقتطع وقتا من الزيارة على أى حال ..!

واذن فهى جرعة أخرى من جرعات « الغضب » يقدمها المضيف « اللبق » الى الطفل فى كرم وسخاء .. !.

وغير هذا وذاك قد تسمعه يقص قصة جذابة عن تمسك طفله به وقد أدرك أنه ينوى السفر فى المساء . ولكن الوالد يؤكد الطفل أنه لن يفعل مبرهنا على ذلك بنومه الى جانبه على الفراش . ويستغرق الطفل فى النوم وقد لف ذراعه الصغير يحتضن والده فى حنان ساذج عميق حتى اذا اطمأن الوالد الى أن صغيره قد أخذته سنة من النوم تسلل من جانبه وهو يطبع على جبينه قبلة حانية ، ثم يعجل بارتداء ملابسه والخروج حتى لا يفوته موعد القطار ..! وتتابع القصة لطيفة جذابة تتخللها عبارات التأثر لرقة مشاعر الطرفين . ولعل أحدا من الحاضرين لا يخطر بباله أن يتساءل عن مشاعر الطفل بعد أن يستيقظ فى الصباح ، أو أن هذه جرعة أخرى من جرعات « الكذب » .. وتنتهى الزيارة ونخرج ونحن نؤمن على كياسة صديقنا الشاب وحلو مجلسه ، ولا عجب اذا أحبه أبناؤه حباً جماً فهو يخفف عنهم بمداعباته متاعب الحياة ويعرف كيف يربيهم أنجع تربية . .

لعمرى لو أزيحت عن الطفل حجب الغيب المتكاثفة وقيض له أن يرى حياته المقبلة لاختار أن يمزق جسده بالمبضع وتترك فى وجهه ندوب عميقة غائرة من أن يقدم له المبضع ملفوفاً فى منديل ملون ليمزق حياته العقلية ويحيله شخصاً غيوراً حقوداً ضاعت ثقته بنفسه لايثار الآخرين عليه فانطوى على نفسه واعتزل ليدبر الشراك للآخرين أو ليلعق جراحه الدامية . هو سوداوى المزاج يفسر كل لفظة بأنها اهانة ويؤول أى ابتسامة على أنها سخرية .. تغلى دماؤه فى ثورة من الحقد مكتسحه .. أو يتراجع فى استسلام ليتخطاه الآخرون ، ولا عجب فقد آثروا عليه غيره وهو طفل صغير ، بينما هم يقصدون المزاح أمام الزوار .. !

ولست الآن بصدد بحث حقن الغيرة والغضب والكذب التى قدمها صديقنا الكريم لطفله فسأفرد لكل مكاناً فى الصفحات القادمة وانما أردت أن أشير الى ما نبديه من تناقض اذ نصعق للتشوه الجسدى ونصفق للتشوه العقلى والنفسى .

ثم ما قولك أيها القارىء فى السيدة التى تظل ترضع طفلها وقد جاوز عامه الثالث أو حتى الرابع ؟ لا بد أنها سيدة جاهلة لا تدرك أبسط المبادىء الصحية ، اذ كيف يقيم أوده هذا الغذاء الهزيل الذى أصبح الآن لا يحمل من صفات اللبن سوى اللون . . بل كيف ينتظر أن يعيش وسط أترابه بينما هو معد هذا الاعداد الكسيح ؟

ولكنك قد ترى سيدة «ترضع» طفلها عقليا وخلقيا حتى يصبح فتى فى السادسة عشرة مثلا فما ظنك بها ؟ هناك من منازلنا عدد ليس بقليل ينصب الولدان فى كل نفسيهما لخدمة الطفل خدمة لا تقل عن الرضاعة ، فهو فى سن المراهقة مثله كمن فى العاشرة أو حتى فى الثالثة . . يدللونه بأرق الأسماء ، ويغسلون له رأسه عندما يستيقظ فى الصباح ، ويعدون له الطعام من مزج للأصناف المحببة الى تقطيع لما هو صلب منه ، ويختارون له ملابسه . . ، ثم يأخذه الوالد وهو ذاهب الى عمله ليعبر به الشارع حتى لا تصدمه المركبات العابرة . وهكذا يختارون له أصدقاءه ، ومواعيد نومه الذى يجب أن يشاركه فيه أحد الوالدين حتى اذا احتاج شيئا أو سهد وجد الى جانبه من يسد حاجاته .

أليس من العجيب أن أحداً منا اذا دخل بيتا مثل ذاك لا يتساءل «وماذا بعد عدم الانفطام الاجتماعى هذا ؟» كيف يمكن أن يقيض لهذا الفتى أن يعيش وسط أترابه الذين اتسعت دائرة تفكيرهم فأصبحوا يكونون مجتمع المدرسة الثانوية القوى المتماسك ، فهم يدينون لمبادئهم بالولاء ويعرفون كيف يتكاتفون لتحقيق هدف معين سواء أكان جمعية كونوها أو كونتها المدرسة أو حتى «اضرابا» منظما يضحى فيه الفرد من أجل الزعيم أو الزعيم من أجل الفرد فى اخلاص منقطع النظير . وهم يستعدون فى كل هذا لمجتمع أكبر هو الوطن فى مجموعه اذا ماتخرجوا . .

كل هذا وصديقنا الذى قيض الله له والدين يحنوان عليه لا يزال « يحبو » فى دائرة المنزل الضيقة ، فهو لا يمكن أن يشترك فى ناد أو يغيب عن المنزل بعد الثامنة ، وهو يرجع اليهم فى كل أمر وينتصح بنصحهم ولو خالف هذا مجتمعه المدرسى

ولم نذهب بعيداً وأمامنا أبسط الحالات ؟ هل تتصور اينها القارىء ان هناك من يضن على طفله بالغذاء أو الكساء ؟ ان الانسان لا يستريح حتى يسد احتياجات كلبه أو قطته الصغيرة او حتى اصص النبات التى يحتفظ بها فى الشرفة ، فكيف يترك طفله وهو قطعة منه جائعاً او عارياً ؟ ولكن الطفل لديه من الميول والحاجات النفسية ما يساوى فى عنفه واهميته غريزة البحث عن الطعام .. لديه الميول الحركية على سبيل المثال . ومع هذا فقد تدخل منزلا لصديق لك فتجد الطفل هادئا ساكنا تتعلق نظراته بالوالد فى رهبة نفسرها نحن بأنها احترام ، لا يلعب الا لماماً فإذا اجرى او تعلق من الشرفه فسرعان ما تعيده نظرة صارمة الى مجلسه الهادىء الوقور . ثم هو قد يستغرق فى لعبة حبيبة فيفك شيئا او يركبه وهو منصرف اليه كلية واذا بالساعة تدق الثامنة فيلفت الوالد نظر الطفل الى هذا بنظرة تحمل كثيراً من المعانى ، فيترك الطفل لعبته الحبيبة ويذهب الى فراشه . ونخرج معجبين بهذه « الطاعة » الدقيقة و « الاتزان » المبكر اللذين يبدوان على الطفل مقارنين اياه بطفل الجيران « العفريت » الذى لا ينقطع عن الحركة واللعب مادام مستيقظا . ان صديقنا هذا هو عنوان التربية الحقة . مساكين نحن حقا .. فانا نثور اذ يسلب أحد حاجات الطفل الجسدية ونهنىء من يسلبه ميوله العقلية .. !

والعجيب أننا نكبر هذا الحنان والاهتمام اللذين يقدمهما الوالدان لابنهما ، ونتمنى لو أن كل طفل وجد هذه الرعاية أو لو ان كل شاب نشأ هكذا كصاحبنا « بارا بأبويه » يقضى سهراته دائماً فى المنزل ويستشيرهما فى كل ما يعن له ويستمد قوالب سلوكه منهما . انا نصعق اذا رأينا « الفطام » الجسدى يتأخر للثالثة والرابعة ولكننا نصفق اذا رأينا (الفطام) العقلى والخلقى يتأخر للرابعة والعشرين .!

ثم ماذا لو رزق أحدنا طفلا يحمل مرضا أو عاهة جسمية .. ضعفا فى البصر .. أو ساقا أقصر من الأخرى الى غير ذلك ؟ هل ننتظر منه أن يبارى غيره من الأطفال ويحقق ما يحققونه من نشاط وحركة .. ؟ ان هذا لعين العسف ، ولا اظن ان أحدنا اوتى سوء الإدراك لدرجة مقارنة الطفل بغيره من الاصحاء وتعييره بما

أصابه من سوء الحظ . ومع ذلك فقد ترزق طفلا سليما متناسق الأعضاء فاذا حان وقت إرساله للمدرسة اذا به يتأخر عن اخوانه . ويتملكك الألم والشعور بالعار فتوالى الدروس الخصوصية فى المنزل والمدرسة ، وتقارنه بغيره على مسمع من الزوار مشيراً الى عجزه وقصوره ، ولا يخطر ببالك مطلقا ان تلمس الناحية العقلية فتقيس مثلا نسبة ذكائه ، والتأخر الدراسى مرتبط الى حد كبير بتأخر الذكاء ، والأخير بالنسبة للحياة العقلية يقابل عاهة جسدية كالحول أو الكساح . انا نسارع لتغطية موقف الطفل الكسيح فنختار أصدقاءه ونحرم على من حوله مجرد الاشارة الى عاهته بينما نرسل طفلنا المتوسط الذكاء فى حمى دراسية شنيعة ليسابق من هو أكبر سنا وبالتالى أكبر فى العمر العقلى ، فاذا تردد او ترنح أنحينا عليه باللائمة ..!

بل ما ظنك بمن يصرخ فى وجه طفله اذا مرض ويطلب منه أن يكون دائما صحيحا معافى ؟ لسنا نظن أن هناك انسانا برح به سوء التفكير لدرجة ان يعتبر السعال أو الالتهاب الرئوى خطأ لا ينبغى ان يقع فيه الطفل . ان الامر على العكس فأغلب الظن ان الوالدين سرعان ما يقومان بعرضه على الطبيب ، كل هذا والولد محط للعناية والتلهف .. فالقلق على صحته على أشده .. والرقة والحنو يقدمان فى اسراف . قارن هذا بالطفل الصحيح الجسم الذى تظهر عليه اعراض مرض نفسى اذا صح هذا التعبير ، فيسبب اية مشكلة تربوية عادية .. « يكذب » وهو لا يعنى سوى ان يبالغ فيما فعل ليجتذب اليه الانتباه .. او « يسرق » وهو لا يعنى سوى ان يضيف الى ممتلكاته شيئا آخر وفكرة الملكية لم تثبت فى ذهنه الصغير بعد .. او يعبث بأعضائه الجنسية وهو سلوك لا يعدو اشتقاقا للذة ذاتية سيخلفها الطفل وراءه عندما تتسع ميوله وتتجه للخارج .. ، أقول قد يسبب الطفل مشكلة تربوية عادية فبالله قل لى لم تصرخ فى وجهه و « تعاقبه » ؟ وكيف تعتبر الطفل الأول مريضا وفى حاجه للعناية والاهتمام بينما الأخير «ولد وحش ومش متربى .زى ولاد الشوارع .؟ » أليست الحالة الأخيرة مرضا يستحق العطف ؟ .

ثم بالله قل لى لم تعتبر نفسك فى هذه الحالة الأخيرة الطبيب الوحيد للطفل ، فلا تعرضه كما فعلت فى الحالة الأولى على عيادة سيكولوجية لتضمن حسن الارشاد ؟ انا نتخذ هذا الموضوع مادة للسخرية ، بل إن بعضا منا لم يسمع عن العيادات السيكولوجية ، ومادام لنا أيد تمتد فتلطم الطفل ، وحنجرة تدوى فينكمش فزعا ، وافواها تعظ فتطيل الوعظ والارشاد .. فلنتصرف كما نفعل دائما كما توحيه اللحظة دون ما تدبر ، فالوالدان بالطبيعة اقدر الناس على علاج طفلهما بالذات ، بل واسوأ من هذا كله ان الواحد منا لا يفكر فى ان من الواجب ان يضيف الى معلوماته فى التربية ما دام قد نصب نفسه طبيبا لمشاكل طفله التربوية . وكم نسارع لدحض الآراء الحديثة مشيرين الى ان الجيل الجديد الذى هو نتاج للأفكار الحديثة جيل فاسد يسير من سيء الى اسوأ ، بينما التربية القديمة التى نشأنا عليها خلقت منا — على حد تعبيرنا — «ناس كويسين ، وزى ما طلعنا احنا يطلعوا ولادنا . شيطانى .. بس اياك هم يحصلوا يبقوا زينا والا زى ابهاتنا ! »

وفى سبيل تحطيم هذه الغلالة الرقيقة التى تخفى عن اعيننا اهمية الحياة النفسية والعقلية سنخصص هذه الصفحات القادمة ، فربما يفيدنا كثيراً ان نهتم بميول الطفل وما يجرى وراء الستار قدر اهتمامنا بالناحية الجسدية

وأخيراً .. الى حضرات أساتذة معهد التربية وعميده (سابقا) حضرة صاحب العزة اسماعيل بك القبانى مستشار وزارة المعارف الفنى .. الى استاذى الدكتور عبد العزيز القوصى الذى يموج الكتاب بآرائه ويعكس بعض ضواء عقليته الفذة .. الى حضرات الأطباء الذين نقحوا الجزء الطبى من الكتاب وشاءوا ان تظل اسماؤهم فى طى الكتمان .. الى كل أب وأم ساهم فى الاستفتاءات وتقديم المعلومات .. واخيرا الى ذلك الجندى المجهول .. الطفل .. الذى ينبعث نداؤه الرقيق بين جنبات هذا الكتاب .. يقدم المؤلف على البعد شكره العميق ويرجو للتربية كل توفيق فى ظل رعاية حضرة صاحب الجلالة مولانا الفاروق .

الفصل الأول

ما نفيده من دراسة الطفل فى نموه

أهمية مرحلة الطفولة

ماذا نعنى بالطفولة ؟ قد يرى البعض أنها تتمثل فى الطفل الرضيع وتنتهى بالفطام وتعلم المشى والكلام ، وقد يمد بعضنا ذراعه قليلا فيقول انها تستمر حتى ماقبل دخول المدرسة الابتدائية فالطفل هنا يكون منتظما فى روضة الأطفال ومادمنا نسميها هذا الاسم أفلا يعنى هذا أنها تضم الاطفال؟ ولكن لاأظن أنا سنقطع فى هذا الشوط أكثر من ذلك .

ومع هذا فانى لأرجو أن نتنازل لحظة عن هذه الأسماء التى اخترعناها كالطفل والصبى والغلام والشاب وهكذا ، لتحل محلها الاصطلاحات العلمية المستمدة من علمى النفس والتربية ، فهذان يعتبران أن كلمة « طفولة » تعنى كل ذلك الوقت الذى يظل فيه الفرد معتمدا على أبيه أو أمه أو من يحوله أيا كان . . الوقت الذى يقضيه وهو غير قادر على الوقوف على قدميه مستقلا بحاجاته دون مساعدة .

وهناك فى المجتمعات البدائية والقبائل المتوحشة ينتهى هذا الدور حوالى سن الثالثة أو الرابعة عشر ، حيث تعمل حفلة كبيرة يجتمع فيها فتيان القبيلة المراهقون، ويستلقون على ظهورهم فى دائرة واسعة ، ثم يقوم رجال القبيلة الأشداء بضربهم بالسياط على أجسادهم العارية ضربا موجعا لاهوادة فيه حتى تسيل دماؤهم مختلطة بالرمال اللافحة التى يرقدون عليها ، فمن

اجتاز هذا الامتحان القاسى دون أن يتململ أو يتأوه عد رجلا له كل الحقوق المدنية ، يمكنه أن يتزوج ويصيد . . ويبنى كوخا له ولزوجه وأطفاله . أما مجتمعنا المتمدين الذى نعيش فيه فتعمل التعقيدات الاقتصادية التى تكتنفه من كل جانب ، وسنو التعليم الطويلة لكى تطيل مدة الطفولة بهذا المعنى الجديد عند الذكر إلى سن العشرين أو حتى الى الخامسه والعشرين . وتشاء نفس هذه الاعتبارات الاجتماعية والاقتصادية مضافا اليها بعض المتاعب الاخلاقية التى تبدو بين آونة وأخرى ، أن تزيد أزمة الزواج عند الأنثى توترا وحدة ، فتظل الفتاة فى كنف أبيها وأمها ، وبالتالى فى مرحلة الطفولة بالمعنى الجديد ، حتى سن العشرين . . والخامسة والعشرين . . بل والثلاثين

من كل هذا تبدو أهمية الطفولة . ولا يظن القارىء أن طول مدتها عند أفراد أو كائنات يعنى ضعفا أو تراجعا . بل إن الأمر على العكس تماما . . هو يعنى تماسكا ورقيا . ويبدو هذا بوضوح لو ارتقينا سلم التطور عند المخلوقات ، فبدأنا بالزواحف وهى أحطها ثم ارتفعنا الى الثدييات واليها ينتمى الانسان أرقى الكائنات

فلنبدأ بالديدان — كدودة الحرير مثلا . أشك فى أن لها مدة طفولة بالمعنى الذى شرحناه منذ برهة وجيزة ، ونعنى الاعتماد على الأب والأم فى العناية والحماية . تبيض الفراشة الواحدة ماينوف على الأربعمائة بيضة يموت منها الكثير ويبقى البعض ليحفظ النوع . وتخرج الدودة وهى لاتعرف لها أبا أو أما ، كما أنها ليست فى حاجة لأيهما ، فهى مجهزة بكل ماتحتاجه حياتها الضيقة المحدودة . . ، تعرف كيف تأكل وتتخلص من فضلاتها ، وتخلع جلدها ، وتتطور بغرائزها الثابتة الجامدة من دودة لشرنقة لفراشة وهكذا . لنرق قليلا إلى الحمام . لابد أن هنا مدة طفولة أوضح ، وحماية ورعاية من الوالدين أكثر ، العش الدفىء . . والاعتناء بالبيض . . اطعام الصغار . . تعليمهم الطيران ، كل هذه مدة طفولة تحتاجها الحمامة الصغيرة لأنها ضعيفة ولكن سرعان ماينبت ريشها ويستطيل ، فتترك العش لتبدأ حياتها فى مكان آخر وقد نسيت أمها

هنا مدة طفولة ولكنها أقل من طفولة كائن أرقى كالحصان وهو من الحيوانات الثديية. فأنت ترى الحصان الصغير يرضع من أمه ويجرى ويتوثب حولها معتمدا عليها فترة واضحة ، ولكنها أقل من حيوانات أرقى كالقردة التى تتميز عن الكائنات التى سبقت الاشارة اليها بعطف وحنان وتدليل للصغار يفوق ما نراه فى الحصان أو الكلب ، حتى لقد لاحظ بعض الباحثين نوعا معينا من القردة تحمل الأم فيه صغيرها على ذراعها ستة أشهر كاملة فلا يفارق جسدها لحظة واحدة

نصل بعد هذا الى قمة السلم فنجد الانسان أرقى المخلوقات اذ يمتاز عن الجميع بمدة طفولة قد تصل كما ذكرت الى ما فوق العشرين ولا تقل عن الرابعة عشرة. والواقع انه لو ترك الطفل الآدمى وشأنه بعد الولادة لمات فأعضاؤه ضعيفة قاصرة عن تأدية ما يطلب منها من أعمال لاستمرار الحياة ، كالبحث عن الطعام مثلا . وإذن فكلما ارتقى الكائن فى سلم التطور كلما زاد ضعفه وعدم تماسك أجهزته وتكاملها ، وبالتالى كلما كان أحوج الى طفولة أطول يكون فيها معتمدا على والديه يتعلم أثناءها مهام حياته المقبلة ، فما ينتظر الطفل البشرى من المهام عندما يكبر يزيد بنسبة ساحقة على ما ينتظر الدودة ، أو الحمامة ، أو الحصان أو القرد من أعمال

وهكذا يستطيع الكتكوت الصغير بعد خروجه من البيضة مباشرة أن يقف على قدميه ويتوثب ناشراً أجنحته الأمر الذى لا يستطيعه الطفل الآدمى قبل اثنى عشر شهرا فى المتوسط . ثم إن هذا الكتكوت الصغير بعد أربع ساعات فقط يمكنه أن يتناول الحبة من الأرض فى دقة وإحكام بمنقاره بينما الطفل الآدمى فى سن أربع شهور اذا رأى بقعة على البساط قد تمتد يده فى اضطراب للامساك بها كما لو كانت جسما بارزا ، وإذا وضعت أمامه شيئا صغيرا لامعا تجده يحاول الامساك به بكلتى يديه ، بينما ما يحتاجه الأمر اصبعان أو ثلاث من اليد الواحدة . وذلك لأن الطفل لم يفصل اليد الى اصابع والأصابع

الى عقل ، وقد تمتد يده الى وراء ثم أمام الشيء فى محاولات وأخطاء واضحة قبل أن تعثر بالجسم اللامع.

وللمرة الثانية أرجو ألا يتبادر الى أذهاننا أن هذا ضعفا أو تراجعا . بالعكس ، لو كنا نولد بعيون تبصر بجلاء وأجهزة تعمل بثبات واحكام لما زدنا على أن نلتقط الطعام بأفواهنا من الأرض ، ولكن هذه المرونة التى تبدو على الأخص فى السبابة والابهام ، هذه المرونة التى تحتاج الى سنين وسنين حتى تنضج وتكتمل، هى السبب فى كل هذا الرقى اليدوى والمنشآت الهندسية لرائعة التى تميز عالم البشر المتحضر عن عالم الحيوانات

هلا افكرنا اذن فى ذلك الفخر الذى تضفيه علينا كلمة « الطفولة » وطول مدتها ، فهى دليل رقى الجنس البشرى وسموه .. هلا نظرنا الى الطفل وأحببناه لا لأنه طفلنا أو طفل لأخ أو أخت ، ولكن لأنه كغيره من الأطفال كنز البشرية وتراثها المجيد ، وهو تاج يكلل رؤوسنا جميعا بأكاليل المجد والفخار ..؟ أقوالها والأسف ملء قلبى ، إن معظمنا يرتكب ذلك الخطأ المشين ، فيعتبر الطفولة مرحلة حقيرة تبعث على الخجل، مرحلة نقص وجهل تعد لمراحل النضوج والكمال التالية ، ولانى نذكر الطفل عن طريق صدمات قاسية بأنه صغير وأن عليه أن ينتظر حتى يكبر ليعترف بوجوده ويسمح له بالكلام.

كثيرا ما تنشغل السيدة فى حديث مع زائراتها ، ثم يدخل الطفل كله شوق ولهفة « ماما ! ماما ! » ولكن ماما لديها ما هو أهم ، لديها حديثها مع الضيوف الذى يتناول « الجورجيت » وارتفاع أسعاره ، ولا شك ان « اليهود » هم السبب فى كل هذا. ويبدأ الطفل يجذب فستان والدته « ماما ! عارفه العصفورة ؟ ماما ! » كل هذا والسيدة مستمرة فى الحديث ، حتى اذا استمر الجذب التفتت اليه فى خشونة « ايه بس مالك ومال عفريتة ؟ مش قلت لك خمسين مرة لما اكون باكلم طنط . لما اكون باكلم حد كبير . ما تبقاش تفتح بقك ؟ هيه . عاوز ايه ؟ انطق قوام » ويفاجأ الطفل بهذا

الموشح اللطيف والوجه المربد ، ويقرر أن يقنع من الغنيمة بالاياب ، فيفر من الحجرة ليشاهد عصفورته وحيدا .

هل نستغرب بعد هذا إذا كان الطفل يردد لنفسه فى نبرات حانقة « يارب إمتى أكبر ؟ إمتى أكبر أبقى أد طنط ؟ » ويتكرر مثل هذا المرقف فى مائة مناسبة ومناسبة كل يوم .. « عاوز أدور الساعة الكبيرة » .. « عاوز استحمى لوحدى » .. « عاوز أكتب بالقلم بتاع بابا . . وغير هذا كثير وكلها تدل على روح طيبة سنرى بعد قليل كيف نستفيد منها ولكن جوابنا عليها للاسف لايعدو « لما تكبر تبقى أد بابا » . .

وهكذا تمر الطفولة بالنسبة للطفل فى خطوات ثقيلة متباطئة . . تمر الايام وهو يبتلعها فى صعوبة فكل مايتمناه هو أن يكبر حتى ينال الامتيازات التى يراها ممنوحة للكبار . ثم يكبر صاحبنا حقا واذا بمسئوليات العمل ومتاعبه تتوالى عليه من كل جانب ، وهكذا يضيع كل شىء ، بين ماض مؤلم وحاضر مؤلم . ويأتى المفكرون فيقولون لنا تعبيرات مثل هذه « يبدأ الواحد منا حياته بصرخة . . وينهيها بصرخة ، وبين هذه وتلك جهاد متصل . . وعرق متصبب .. ودمع غزير . » أو يقولون « إن عبير آلاف الزهور لايسر الا طرفة عين ، أما وخزة واحدة من أشواكها فتدوم زمنا طويلا .. » ونصفق نحن لهذه الحكمة المنبعثة من أفواههم فهى تصادف هوى فى نفوسنا وتصف حالتنا . ولكن إذا كانت الحياة صرخة فنحن هنا فى مصر نضيف اليها صرخات ، لأننا لانعرف كيف نبدأها كما يجب . . لأننا لانفهم الطفل ونقدره .

سيدتى دعينى أقول لك يامن تفضلين الكلام عن « الفساتين » وأسعار « الجورجيت » على الاستماع للطفل والاعتناء به ولو برهة وجيزة . . دعينى أؤكد لك أن هذه الحياة التى تحيينها وتهتمين بها كل هذا الاهتمام . هذا الكون الذى يمتد أمام ناظريك حاويا كل مايدهش ويخطف الابصار ، ماكان يمكن أن يصل الى صورته الحالية ووضعه الحالى الذى يروقك لو لم ينل « الطفل »

فى الماضى من العناية ما يفوق بمراحل عناية الطيور أو الحيوانات بصغارها . وإنك لتفيدين نفسك كثيرا ، وتفيدين الانسانية فائدة جليلة لو حادثت طفلك باللغة التى يفهمها .

إن من حق الطفل أن يعترف بوجوده ، فاذا لم نفعل فسيثبت لنا وجوده عن طريق خفى ملتو . . يقص المشمع ويفسد الجدران بقلمه الرصاص أو بقطعة فحم ، ويعاند كل رغائبنا ، وقد يضحى براحته هو أثناء هذا كله فيتحمل الضرب والألم فى سبيل لحظات الزهو التى يحسها اذ وهو مخلوق صغير غير معترف بوجوده عرف كيف يهز البيت كله ويثيره على أثر القائه شيئا نفيسا من البلكون . . أو افساده آنية جميلة . . أو كتابا يقرأ فيه أبوه . بل وأعرف أطفالا يكذبون ، يذهب الواحد منهم الى امه ويقول « طنط ليلى جت وقعدتها فى أودة الصالون » وتلبس السيدة وتستعد ، ثم تدخل فاذا الغرفة خالية واذا الحكاية كلها تلفيق . . ! ويضرب الطفل «علقة» ساخنة لا يفيق منها الا ليعد حيلة جديدة أكثر اثارة لهؤلاء الكبار وبالتالى اكثر اثباتا لوجوده .

ونشكو نحن من ان « اطفال اليومين دول شقاى وعفاريت » ولكننا ننسى أننا نحن الذين نجلب على نفسنا كل هذه المتاعب ، لأن علاقتنا بهم ليست علاقة تفاهم وتقدير بل علاقة احتقار واستنكار . فما أحرانا أن نوفر على انفسنا كل هذه المشاكل لو اعترفنا بوجود الطفل وقدرناه بشكل معتدل من اول الأمر . لاتجعلوا الطفل يحتقر نفسه ، ولاتقضوا على شخصيته . لا تضق صدوركم بالطفولة ، وطول مدتها ، وجهلها ، فكلها فى صالحنا . بل دعوا أطفالكم يشربون كؤوسهم فى هدوء حتى النهاية دون أن تصبوها فى جوفهم صبا

أهمية دراسة النمو

يعرض علماء الأجناس للقبائل البدائية منذ فجر الحياة ، ويحدثوننا عن

الطفل وكيف يختلف موقفه فى القبيلة حسب مدى ما تأخذ به من اساليب الحضارة ولكنهم على ثقة بوجه عام من ان الطفل كان يتبع فى نموه هدفا معينا هو ان يكون ذا نفع جليل لوالديه كلما اشتد ساعده ولهذا كان الطفل ينمو فينمو لديه الاعتقاد بأنه اذا ما اكتمل فعليه ان يمد والديه بالطعام واللباس والمأوى ، ويحرص على راحتهما اذا ألم بهما المرض أو أقعدتهما الشيخوخة ، ويحمل حياته رخيصة فى سبيل الدفاع عن شرف العائلة وممتلكاتها ، وينحنى فى خشوع ليقدم الذبائح التى تطلبها الآلهة ، وهكذا يكون باختصار عونا للعائلة .

وبدلا من ان يحاول القوم ان يتفهموا الطفل او يفسحوا له السبيل لينمو حسب طبيعته ومواهبه وميوله عملوا على ان يتكيف كل طفل حسب المستويات التى وضعتها القبيلة لما يجب ان يكون عليه الطفل . فاذا جاءت التربية لتلقى بنصيبها فى الميدان كانت عاجزة مبتورة ، تردد المسئوليات التى تنتظره وقد شارف البلوغ ، وتنير له فى كثير من التقاليد والخرافات بعض ظلمات العالم الجنسى الذى سيحل عليه ضيفا بعد اسابيع . ما حلم احد ان هناك حرية للنمو الفردى المستقل ، او ان هذا النمو يحمل صبغة معينة قد تحتم على البيئة أن تتكيف نحوه وتقابله من زاوية مخالفة لتلك التى تواجه بها طفلا آخر . بل ان الأمر على العكس .. فالطفل الذى كان يحجم ، عن عمد أو قصور ، عن ان يساير المستويات الاجتماعية للقبيلة كان يعد مصدرا للخزى والعار ، ولا يعدان يتخلص منه القوم سريعا ، فيوثقونه بعيدا على أكمة عالية وسط الآجام ، تتجاوب حولها صرخات الوحوش كلما ادلهم الظلام .

وهكذا تسلم الطفل اول « لعبة » تعرضها له الحياة فى صورة قوس وعدة سهام .. وخرج فى اول « نزهة » مع ابيه ليتعلم كيف يميز فى هدأة الليل حفيف الريح من دبيب الأفعى . وما اسرع ما تعلم الطفل حقاً ! تعلم ان يلتقط قطعة من العشب ليضعها على الجرح فيلتئم ، ويتناول اخرى ليعتصرها بين

يديه ويدهن بها طرف السهم المدبب ثم يرسله بعيدا.. بعيدا.. نحو تلك الشجيرات التى تهتز بينما الهواء ساكن وادع ففيها سم زعاف يقضى على الفريسة فى لحظات

وجاءت الحضارات القديمة ، حضارات روما وأثينا ، فلم تفسح للطفل موضعا لأكثر من قدم. وأصيب الرومان « بحمى » الامبراطورية فأرسلوا أطفالهم فى طراد عنيف ليحققوا مثلهم فى « المواطن الصالح » وانهالت خطب نبلائهم وموظفى حكوماتهم ، كما اعتصر فلاسفة اليونان أذهانهم ليعدوا الطفل للمسئوليات التى ستلقى على كاهله . وحتى البنت ، كأم للمواطنين فى المستقبل ، نالت من العسف ما ليس بالقليل ، وسارت فى برنامج ثابت محدد الأطراف ، فما ينبغى أن يترك مستقبل الجماعة رهنا للظروف والمقادير . . ! ثم جاءت اسبرطه لتضرب ضربتها فى عتو وجبروت ، فحتمت على الأم أن تغسل طفلها عند ولادته بالنبيذ ، ثم تلقيه عاريا على جبل عال خارج المدينة . وهناك بين الأنواء والأعاصير تتسلل الأم الى رضيعها بضع مرات فى اليوم لترضعه ، فاذا احتملت بنيته ثورة الطبيعة وحدتها طيلة الأسبوع الأول عد ابنا باراً لاسبرطه يمكنه أن ينال شرف الدفاع عن الوطن المقدس ، وان مات فلن يأسف أحد لموته ، فخير لاسبرطة الا يعيش بين أبنائها عضو ضعيف متخاذل

وجاءت المسيحية واكتنف الطفل ظلام لم يخرج منه إلا فى الجزء الاخير من العصور الوسطى . وهكذا جاء عصر النهضة ليكون أول مردد لنداء الطفل وحنينه للحياة الحقه . فتغير اتجاه الفلاسفة والمعلمين ، وبعد أن كانوا يعدون نوعا من التربية يتكيف فيه الطفل حسب المستوى المطلوب جعل الطفل نقطة لبدء فى التربية ، وبدأوا يدرسونه لتتكيف البيئة والتربية فى هذه المرة حسب نموه وميوله . وبالتدريج أخذ اتجاه المجتمع نحو الطفل يتحول ، وتخلص القوم بصعوبة من تلك الفكرة السخيفة القديمة القائلة بأن الطفل ما هو إلا رجل ولكنه صغير ، يملك من القدرات والميول ما يملكه الكبير بصورة مبسطة ، وهكذا يمكن أن نطبق عليه فى طريقة تعلمه وتصوره نفس القوانين التى تسرى على الكبير بصورة وئيدة بطيئة

استطعنا عن طريق دراسة النمو أن ننبذ هذه الفكرة جانبا . فلقد أصبح من الثابت الآن أن ادراك الطفل - بعكس الكبير - يتجه أولا للكليات ثم بعد هذا للجزئيات ، فهو يدرك « الكلب » أولا ككل يحوى صفات تظهر بالتدريج لتميز نوعا معينا من الكلاب بأنه « بلدى » أو « سلوقى » أو « أرمنتى » أو « بول دوج » وهكذا.. تماما كما تتحرك يده كلها للامساك بمكعب صغير ، وبالتدريج يخصص أصابعه للعمل فاذا كبر لم يستخدم لامساك نفس المكعب سوى اصبعين أو ثلاث . وهكذا عرفنا أن الطفل يدرك اسمه مكتوبا ككل قبل أن يفصله الى حروف . وكانت هذه الفكرة أساسا لتغيير كثير من نظم التعليم فى مدارسنا فذهبت ضحيتها مثلا الطريقة القديمة فى تعليم الطفل القراءة باعطائه الحروف الهجائية أولا . انا نعطى الآن كلمات وجملا وأوامر قبل أن نقدم للطفل الحروف الهجائية ، ولو أن آباءنا للأسف لا يزالون يعترضون طريق المدرسة فيبدأون تعليم أطفالهم بداية سيئة

بل لقد أثبتت دراسة النمو ان الطفل يختلف عن البالغ من الناحية الجسدية اختلافا بينا . ففضلا عن الغدة التى تنكمش وتضمحل اذا قارب الطفل مرحلة البلوغ والتى نسميها « غدة الطفولة » أو تلك التى تنشط وتظهر افرازاتها عند هذه المرحلة كالغدد التناسلية ، نجد أن المظهر الخارجى نفسه مختلف ، فنسبة أعضاء الطفل لأعضاء الرجل نسبة غريبة حقا قد تدهش حتى القارىء الحديث كما يبدو من الرسم المصاحب وهو من عملك . بوهلر اذ كبرنا ارتفاع الطفل ليساوى طول قامة الرجل فتبع هذا اختلاف حجم الأعضاء . ولسنا الآن بسبيل الافاضة فى هذه الفكرة التى كانت وليدة الماضى ثم حل محلها شعور بالطفل

كمخلوق فرد له تفكيره وله عالمه الذى يجب أن تتكيف التربية لتسايره فسنعرض لها بالتفصيل عند عرض نمو الطفل فى مختلف مراحله

وجاء كومينيوس فى القرن السابع عشر لينقل الى الأجيال القادمة نداء الطفل فى كتابين جليلى الاثر ، اولهما « مدرسة الطفولة » يتناول فيه تربية الطفل فى السنين الستة الأولى والثانى « العالم فى صور » ، وفيه مادة جذابة للطفل محلاة بالصور لتكون أسهل للفهم . وهكذا كان كومينيوس أول من أدرك عمليا أن الطفل يدرك الاشياء والاجسام المحسوسة قبل المجردة

وها نحن الآن نجنى ثمار هذه الفكره الحيوية ، فنغير نمط تدريسنا لنواجه هذه الحقيقة . وليت الآباء أيضا يفعلون هذا ليخففوا عن أبنائهم الكثير من المتاعب . كنا فى أول الأمر نحشو أذهان التلاميذ بالمعلومات الجافة المتتابعة ولكنا اليوم نرى أن من الأفيد أن يتعلم الطفل قراءة الكلمة مع النظر الى الصورة فهذا يثبتها فى الذهن . ثم ان الطفل يتعلم الحساب اليوم بطريقة محسوسة . وليس من النادر أن نجد فى مدارسنا الاولية البرواز الحسابى الذى يحمل أسلاكا أفقية يتخلل كلا منها عددا من (الخرز) يتزايد من خرزة واحدة فى السلك الاعلى الى عشرة فى السلك الاسفل . وهناك مكان يستقر فيه بعض الخرز اذا شاء الطفل استبعاده أو « طرحه » ثم اضافته أى « جمعه » . وهناك أيضا هدايا فروبل وأخص بالذكر منها الآن الهدية الثالثة حيث يتعلم الطفل قبل السادسة شيئا عن القسمة والضرب بطريق المكعبات التى ينقسم كل منها الى أربعة . وهناك فى أمريكا يعتبرون خروج الأطفال للحديقة وزيارة بيت البجع مثلا جزء من برنامج دروس الطبيعة ، كما يتبعون طريقة البيع والشراء فيقام مقصف فى فناء المدرسة يتبادل فيه الطلبة البيع ، وتتهيأ الظروف بطبيعة الحال ليستخدم الاطفال أثناء هذا العمليات الحسابية بطريقة محسوسة فتكون أقرب للفهم . فالولد يشترى علبة (حلوى) بمبلغ معين ، ثم يعدها ويقرر السعر بحيث اذا باع كل عدد بفئة معينة فان ربحه يصل الى كذا فى العلبة

ولئن كانت مدارسنا المصرية لا تزال تعانى من الجمود والتقاليد البالية ما يدفعها للتمسك بالطريقة القديمة من حشو لذهن الطفل بمعلومات عن طريق الكتب لا ترسب فى الذهن الا ريثما يفرغها الولد فى ورقة الامتحان ، الا انا بدأنا نلاحظ نزوعا الى تحقيق فكرة كومينيوس الى حد ما . فاطفالنا يتعلمون حقائق مبادىء العلوم عن طريق استنبات البقول والحبوب ، وجمع أنواع من الريش ، وتربية أو مراقبة الدواجن بالمدرسة . وهم فى الجغرافيا يصبون الاسمنت فى فناء المدرسة فى نماذج مجسمة لنهر النيل أو لمدينتهم وموقعها بالنسبة لما يجاورها ، أو يشكلون الصلصال على هيئة خرائط طبيعة بارزة فى متحف الجغرافيا فتقرب الى أذهانهم العالم الكبير الذى ظللنا نردد عنه الحقائق الجغرافية الجافة ونحن صغار فلم يلتصق منه باذهاننا الا النزر اليسير .

ومن هنا جاءت طريقة « المشروع » التى أخـــذت بها معظم المدارس الامريكية وبعض الاوروبية ، وانفردت بها حتى الان المدارس المصرية النموذجية . يتفق الأطفال على القيام بمشروع معين ، ليكن مثلا بناء حظيرة للدواجن . يحتاج الاطفال بالطبع الى مادة للبناء ، فيرشدهم المدرس الى « الورشة » المجاورة وهى ملحقة بالمدرسة . ويحصل الاطفال على قطع كثيرة من الخشب ناعمة ذات ابعاد واطوال متساوية فيفكرون فى المكان الذى يبنون فيه الحظيرة . وهنا تنشأ أفكار جميلة حقا ، فقد يرى أحد الأطفال أن من الافضل الاستفادة من ركن من الفناء حيث هناك فعلا حائطان وعليهم أن يبنوا حائطين ليكتمل البناء بدلا من اقامة الحظيرة فى وسط الفناء فتحتاج مجهودا اكبر . كما قد يرى طفل آخر ضرورة الاهتمام بان يكون المدخل مواجها للشمس . وهنا تنشأ اسئلة كثيرة جذابة يمكن المدرس أن يستفيد منها لاعطاء الطفل المعلومات التى نعطيها نحن فى مدارسنا بطريقة جافة . فالتلاميذ يسألون بشوق عن الاتجاهات ، فيعرفون الشرق والغرب والشمال والجنوب ، كما قد يسألون عن أسباب حركة الشمس — كما يظنون — من

ناحية فى السماء الى الناحية المقابلة . وقد يخرجون من هذا الى القمر ولم يتغير شكله أو السحب التى تعترض طريقه وأسباب تجمعها . . فكرة عن البخر والتكاثف . . والندى والمطر واين يكثر (وكل هذا داخل فى علم الجغرافيا) أو قد يتساءلون عن حرارة الشمس ومصدرها وهذا يوصلهم الى دراسة بسيطة لمسببات الحرارة . الاحتكاكات والتفاعلات الكيميائية والنار والكهرباء فالنار مثلا يمكن أن ندرس فكرة عن تاريخها ومنشئها . . الأقوام الذين استخدموها أولا . . ماذا كانوا يلبسون . . كيف تطور تاريخهم فخضعوا لغيرهم من الشعوب فانتشر استخدام النار . . أى الادوات استخدمت فى هذه الحروب . . من القواد المبرزون (يدخل هذا تحت علم التاريخ) . أو قد يصل بهم بحث الشمس الى فائدة حرارتها فى قتل الميكروبات ، وهذه فرصة لدراسة تاريخها . . وطريقة زرعها . . وبعض الأمراض التى تسببها وكيفية الوقاية منها . . والأمراض التى يتعرض لها معظم الاطفال فى سنهم كالحصبة والالتهابات الرئوية والسعال الديكى ، وبعض الامصال التى تعطى لمقاومتها (يدخل فى علم الصحة) . . أو قد يجمع بعض الاطفال معلومات عن باستور الفرنسى ويلقونها فى محاضرات تساعدهم على صقل اسلوبهم اللغوى والاطلاع على مؤلفات فى لغات مبسطة غير العربية ، وتصور قصة مثيرة جذابة تحض على النضال والكفاح فى سبيل غرض جليل . . قصة رجل يحقن نفسه بدا خطير ليلم عن خبرة بما ينتاب المريض من أعراض . .

فاذا عدنا بعد هذا الى المشروع الاصلى وبدأ الأطفال يضعون الأساس فمن الجائز أن تظهر أسئلة عن أنواع التربة ومدى صلابتها وصلاحيتها لاقامة مبان معينة أو إنبات محاصيل معينة ، ويتقدم المدرس هنا بنماذج للاراضى الجيرية والبركانية والرملية وغيرها وأسباب تكونها بهذا الشكل (علم طبقات الارض) . فاذا اقاموا البناء فلا بد أن تنشأ مصاعب كالتهوية ، ولا بد أن تفتح فى الجدران نوافذ صغيرة ، وفتح النافذة يحتاج الى قياس أطوال وارتفاعات ، فاذا اريد أن تتوسط النافذة الجدار فلا بد من قياس عرض

النافذة وليكن ٢٠ سم مثلا وطرحه من عرض الجدار وليكن ٤٠٠ سم مثلا ، وقسمة الناتج ٣٨٠ سم على اثنين فيكون ناتج القسمة ١٩٠ سم ، وبذا نقيس هذا العدد الاخير من الطرف الايمن ومثله من الطرف الايسر فالمسافة الباقية هى التى يجب أن تزال ليتوسط عرض النافذة الجدار (يدخل هذا تحت علم الحساب) .

فاذا انتهى العمل من الحظيرة فهناك وسائل عديدة لتجميلها وتزيينها . . هناك الطلاء والتلوين ، وفيه دراسة جميلة للألوان ومكوناتها الكيميائية ، والمواد التى تزيلها من الاجسام أو الاقمشة كالتربنتينا وغيرها ، وهناك ورق المشمع الملون ليلصق على الجدران من الخارج وفيه دراسة جمالية وصقل للذوق الفنى واختيار للالوان وتنسيقها فى زخارف جميلة . وهناك صور الدواجن بالرصاص أو فرشاة اللون ، هذا فضلا عما تثيره الدواجن التى تربى فى الداخل من هوايات جمع الريش وأسئلة عن البيض وفائدته بالنسبة للمواد اللازمة للجسم ، أو مدة فقسه ، وتمييزه للطيور من الحيوانات . . وأنواع الاولى ومميزات كل

وهكذا يثير مشروع مثل هذا مئات النقاط الجميلة التى تقود الاطفال من ميدان الى آخر برغبة فى الكشف والاستطلاع . وتلك هى المعرفة الصحيحة القائمة على المحسوس أولا لا المجرد ، ودافع الطفل للتعلم لا دفعنا نحن له ليتعلم

ولقد عنيت بالافاضة فى نقطة كالمشروع لادعم بذلك فائدة دراسة الطفل ونموه وميوله ، وهو ما سنخصص له قدرا من الصفحات القادمة ، فعلى ضوء هذه الدراسة نود لو تتغير طرائقنا فى التهذيب فى المنزل والمدرسة . وكم من آبائنا لا يدرك قيمة الدافع أو لا يقيم له كبير وزن . . لا يدرك مثلا أن الطفل وقد عاد من زيارة مسائية يشعر بالتعب وهو سائر فى طريق طويل قد خلا من المارة ، ولا يبعد أن يطلب من والده أن يحمله فاذا لم يفعل فقد يلجأ الى كل طريقة فى طوقه حتى لقد يضرب عن السير ويجلس على افريز الشارع . . أقول قد لا يدرك آباؤنا أن مثل هذا الطفل المتعب لو وجد لعبة

حبيبة كسلم التسلق أو جذع شجرة ملقى على الارض ، أو لو مثل مع والده لعبة القطار والعربات لتغير سلوكه كلية ودب فيه روح النشاط وانطلق يقفز ويجرى وهو الذى أضرب منذ لحظة عن المشى . قد لا يدرك الاب ان الطفل اذا طلب منه أن ينزل ليلقى خطابا فى صندوق البريد فقد يمتنع ، ولكنه لو دعى ليكتب فى الخطاب بضع كلمات لاخيه مثلا أو لقريب له يشرح فيه شيئا عن « نسناسه » أو عصفوره الجديد لسارع الطفل لالقاء الخطاب وهو يتلهف لوصول الرد ، فالخطاب خطابه الآن ، وأية قوة قد نالها وهو يرسل بصوته بعيدا . . بعيدا . . الى بلدة كالاسكندرية مثلا . . ! وبنفس الطريقة قد يطلب طفلك الطعام فاذا عرضت عليه أن يضع « الفوطه » على ملابسه أبى وامتنع ، فاذا أصررت أضرب عن تناول الطعام . ولكن هذا الطفل بالذات قد يخترع كل حجة لتناول الطعام حتى فى غير مواعيده لا لشىء إلا لانه يريد أن يضع على ملابسه « الفوطه » التى قصها هو أو ساهم فى قصها وتزيينها بشريط ملون « وغرز » واسعة غير منتظمة بطبيعة الحال ، أو « بخرز » براق فى الجوانب . هى مصدر للسرور لانها « فوطته » هو ، وأى دافع أقوى من هذا . . ؟

وهكذا فليقس القارىء عشرات المواقف التى تعرض فى « روتين » الحياة اليومية المنزلية ، ولعله يحسن صنعا لو تساءل فى كل مرة هل هناك دافع للعمل من وجهة نظر الطفل أو هو يؤديه وهو راغم ؟

ولقد يعترض البعض على نظرية ايجاد الدافع حيث يقدم الطفل على العمل وهو مشوق ، كما يعترض على طريقة « المشروع » التى سبق شرحها لخلوهما من الجد وبذل الجهد . أن الحياة مليئة بالكفاح والجلاد . . بالمآسى والدموع . . بالعقبات والعراقيل . فأى اعداد أعرج ذلك الذى تقوم به التربية إذ تدعو الطفل لكل ما فيه لذة وشوق بالنسبة له وتمنع عنه كل ما هو جاف ممل . . ! لئن كانت مناهجنا المدرسية لا تصادف هوى فى نفس الطفل ولا تحقق رغبته فى تعلم المحسوس قبل المجرد . ولئن كانت منازلنا تجبر الطفل على اتباع نظام معين فى الطعام أو النوم أو مقابلة الغرباء ، وتكفه فى بعض الأحوال عما يصادف لديه لذة كاللعب ونحن

نيام ، أو النزول للشارع بينما الخادمة مشغولة لا يمكنها أن تصحبه ، فشكراً للمنزل والمدرسة والف شكر ، وكفاهما فخراً أنهما يخرجان لنا شابا صلب العود تعلم كيف يكبح رغباته وعرف كيف يبيت وهو محروم من الاستمرار فى لعبة حبيبة فقد اتى وقت النوم ، هو مجهز للحيـــاة لا يجزع لنوائبها وخطوبها

وهى حجة تبدو ثابتة قوية ولكن تدحضها التجربة . قد يظن البعض أن الأطفال وهم يقومون « بمشروع » الحظيرة السابق عرضه يقضون وقتهم فى سرور ولهو وعبث ، ولكن الواقع غير هذا . هم يحسون نشوة تسرى فى عروقهم وعيونهم تلمع ببريق اللهفة والترقب ، ولكن ما أبعد هذا عن اللهو والسرور أو النعومة واللين ، وهى العوامل التى نخشاها . يكفى أن تنظر اليهم وهم يزاولون عملا يشعرون هم بالرغبة فى اكماله . رأيت طفلا فى المدرسة النموذجية لا تتعدى سنه العاشرة كان عليه أن يجمع المعلومات عن عصر محمد على باشا وملابس الجيش والشعب فعـــلى ضوئها سيمثلون مسرحية بعد أيام (وهذا اتجاه من اتجاهات مشروع كان يشغلهم أسبوعين من هذا التاريخ) ، رأيته يسهر الى ساعة متأخرة من الليل وأمامه كتب ضخمة ولو أنها سهلة يقرأ ويبحث فيها بمنتهى الدقة . ما تثاءب مرة أو توقف ليمسح العرق المتصبب فالرغبة والميل والتلهف كانا أقوى من أن يتملكه التعب . قارن هذا بالطفل الذى يجلس ليستذكر كتاب « تاريخ مصر فى العصور الحديثة » وقل لى ربك كم مرة يتأفف ويتضجر وكم مرة يترك كتابه لعذر مصطنع كتناول الطعام أو قضاء حاجة ، ثم . . هل حفظ درسه عن محمد على حقا ؟ بل وأكثر من هذا الى متى سيحفظه ؟ سله عنه بعد الامتحان بأسبوع ومن المؤكد أن هذا يضجره كل الضجر . ولكن صديقنا طفل النموذجية يشعر أن معلوماته جزء من كيانه لأنه اكتسبها بنفسه ثم تركزت عن طريق عرضها بشكل روائى محسوس ، فضلا عن أنها تثير هوى فى نفسه . رأيت صديقنا هذا يحرم نفسه كل ماتشتهى ليوفر من مصروفه مايكفى لدخول

دار الخيالة ليشهد عرض فيلم « غرام وانتقام » ثلاث مرات ليدقق فى ملابس جيش محمدعلى باشا . قل لى بعد هذا أيها القارىء الكريم هل تظن حقا أن طفلا مثل هذا سيشب لينا مدللا يجزع للنوائب فهو غريب عن الجهد والكفاح ؟

انظر الى أطفال « المشروع » وهم ينشرون الخشب أو يثبتونه بالمسامير ، تجد المناشير تنحرف عن طريقها ، أو المطارق تهوى فى غير مواضعها فتصيب أصابع الاطفال . رأيت واحدا منهم يصيب ابهامه بجرح عميق فلم يزد على أن صرخ صرخة خافتة صدرت دون أن يقصد ، ثم ذهب الى المرشد فى ثبات وطلب منه بعض « المركيروكروم » وبعد أن ربط الجرح عاد صديقنا الى عمله وفى عينه بريق الانتصار فقد كان على وشك أن ينتهى من عمل « البرواز » الذى ستوضع فيه الصورة .

هل هذا طفل مدلل أفسدته التربية الرخوة « الحديثة » ؟ ان الامر على العكس ، فالطفل الذى نخرجه الى الحياة بمناهجنا التى تدفعه للنوم بسخفها وملالتها حتى يزعجه زئير الوالد يدعوه للعمل . . الطفل الذى ندعوه للنوم وهو لم يتمتع بعد بلعبته الجميلة فقد دقت ساعة النوم « والاوامر مقدسة » . . هذا الطفل سيشب وهو يشعر دائما بالعجز والنقص والخيبة تحت ظل التربية القاتم ، بينما طفل مدارسنا الحديثة ومنازلنا الحديثة سيخرج الى الحياة باسم الثغر مليئا بالامل والاعتداد بالذات ، فهو يرى ثمار عمله واضحة ملموسة بارزة على جدران المدرسة أو فى حديقة المنزل .

ولا يتسع المقام هنا للافاضة فى الدفاع عن هذه الطريقة ، وانما هى نقطة عارضة برزت أثناء تأكيدنا أهمية دراسة ميول الطفل أثناء نموه فى مختلف الميادين . والمهم أن كومينيوس أعطانا أساسا حيويا أذ نادى بأهمية عرض الشىء بصورة محسوسة على الطفل . وكم من آبائنا يحاول أن يبث الصدق أو الأمانة أو العطف والاحسان أو الابتعاد عن الايذاء فى نفس الطفل ،

زيارة بيت البجع هى جزء من برنامج دروس الطبيعة (فكرة كومينيوس)

وكلها صفات مجردة فيظل يتحـــدث ويتحدث حتى يتصبب العرق من جبينه ، كل هذا والطفل يكذب ويسرق ويشد ذيل القطة أو شعر اخته . فلنوفر على انفسنا كل هذه المتاعب ، فالصفات الخلقية المجردة لا يمكن ان يفهمها الطفل قبل المراهقة ولكنه يستطيع أن يربطها بمواقف معينة . انا لا نزال نتعثر فى طريق طويل ، وخير لنا ان ننظر الى الامريكيين الذين قاربوا نهاية المطاف ، فهم يصحبون اطفالهم كل اسبوع لزيارة الملاجىء والمستشفيات ، وتأكيد ياسيدى القارىء ان موقفا واحدا يوزع فيه الطفل الحلوى أو الهدايا على الايتام والمساكين وهو يراك تفعل ، يحقق اكثر مما تحققه عشرات المواعظ أو العقوبات التى تقدمها للطفل وأنت جالس فى منزلك . جرب أن تدع طفلك يساعدك فى قيادة ضرير مسكين ليعبر الشارع المزدحم المليء بالمركبات ، أو حمل كلب صغير هرأ البرد عظامه الى المنزل حيث ينال الدفء والطعام ، أو رد الجريدة التى نسيها أحد ركاب الترام الى قسم الامانات ، وستجد أن موقفا مثل هذا مشفوعا بشرح بسيط مناسب لادراك الطفل هو أفعل فى النفس من عشرات العقوبات التى توقعها اذا كذب الطفل أو سرق أو أضر بأخته الصغيرة ، وهو أبقى اثرا من عشرات المواعظ التى تلقيها عن الصدق واحترام الملكية والرحمة فهى الفاظ مجردة لايدركها .

وجاء القرن الثامن عشر فافتتحه جون لوك محبذا الطرق الطبيعية فى تربية الطفل بدلا من اخضاعه كما كان الحال لنظم قاسية ، وتبلورت هذه الصيحة فى ترك الطفل للطبيعة تعلمه وترقيه فى كتاب « اميل » لجان جاك روسو فالطفل يتعلم من سقطاته الفعلية أكثر مما يتعلم من تحذيراتنا ، وفى اعقابه جاء بستالتزى وهربارت وفروبل . ولقد كان الاخير بحق مؤسس حركة رياض الاطفال ، واستطاع ان يركز مثله فى التربية فى كتابه « تربية الرجل » الذى أسسه على ما جمعه من ملاحظات دقيقة للاطفال الصغار فى المنزل والمدرسة

وظل النصف الأول من القرن التاسع عشر مجدبا فقـــيرا حتى جاء تاين بكتابه « نمو الرضيع » فكان بشيرا بنهضة مباركة تبعه اليها داروين، عرض لتاريخ حياة الطفل » ، ثم ولهلم برير « عقل الطفل» وقد لعب الدور الأول فى تنمية دراسة الطفل العلمية . كان برير طبيبا ، وقد أثبتت مقارناته لطفله بما كان يدرسه من السكتاكيت وصغار الأرانب والخنازير أن هناك اتفاقا بينها وبين الطفل الآدمى فى اسلوب النمو ، وخاصة فى اكتساب القدرة على الضبط العضلى . ولن أطيل الآن فى متابعة المرحل التى سار فيها البحث فى الطفل من دراسة تواريخ الحياة وأخصها ما قام به ستانلى هول ، الى المؤتمرات التى تألفت للاهتمام بالطفل وأولها الجمعية الأهلية لدراسة الطفل وقد نظمها هول وانتشرت الى المقاطعات الأمريكية ثم الى أوربا ، ثم النشرات والمجلات التى صدرت تباعا تحمل صوت الطفل الى كل قرية ومنزل ، فاشترك آلاف الآباء والأمهات فى الاستفتاءات ، ثم النوادى والجمعيات التى تأسست لتقيم ملاعب عامة للاطفال أو ملاجىء ، وتبع هذا تأليف محاكم للاحداث . وفى الوقت الذى نال الطفل فيه كل هذا الاهتمام لم يعدم الطفل الشاذ نصيرا ، اذ أقيمت العيادات الملحقة بالمدارس، أولاها فى بيفرلى فى مقاطعة ماساتشوتس لضعاف العقول سنه ١٨١١ ، وتبعها وبتمر فى بنسلفانيا إذ أسس العيادة السيكولوجية الملحقة بالجامعة واليها تقاطر الآباء والأمهات لعرض الأطفال الذين سببوا المشاكل فى المنزل أو المدرسة أو الحياة الاجتماعية حيث كانوا ينالون العون والارشاد

ويعتبر القرن العشرين « عصر الطفل » دون منازع وفيه ظهرت تيارات أربعة للدراسة . . الأول يختص بذلك التقدم الكبير فى طرق دراســة الطفل ، وبدلا من دراسة طفل واحد انتشرت الدراسة على أطفال كثيرين فى مجموعات ، أما طريقة تواريخ الحياة القديمة فقد أصبحت فقيرة الى جانب الأبحاث التجريبية التى بدأت على يد واطسون . . والثانى يدور حول تخصيص الدراسة للطفل ، وبدلا من دراسة الطفل فى مجموعه أصبحنا

تفيض فى دراسة نوع معين من النمو كالنمو الحركى أو الانفعالى أو اللغوى أو الاجتماعى وهكذا . . أما التيار الثالث فاتجه بالدراسة الى الاختبارات التى بدأت باختبارات الذكاء لبينيه وسيمون الفرنسيين إذ وضعا مقياسا مقننا لقياس الذكاء عند الطفل حتى يمكن وضعه بين أقرانه حتى لا يشعر بالتراجع أو التأخر فيزداد عنده الشعور بالنقص والغيرة . وقد راجع هذا المقياس وعدله جودارد وكولمان وتيرمان وبيركس وبينتنر وغيرهم من الامريكيين

وقد استخدمت نتائج الابحاث لوضع برامج مدرسية مناسبة . وبهذه المناسبة نذكر بكل اعجاب أن صاحب العزة اسماعيل القبانى بك قد أثبت بتطبيق هذه الاختبارات لقياس الذكاء والأعمار الدراسية أن برنامج التعليم الابتدائى عندنا قبل أن يخفف ويعدل الى الوضع الحالى كان يقتضى من الطفل المتوسط الذكاء خمس سنوات على الاقل ليستوعبه . كما استخدمت هذه المقاييس لوضع الاطفال فى فرق تناسب قدراتهم كل المناسبة ، وهى الطريقة التى تتبعها اليوم المدارس المصرية النموذجية اذ يقاس ذكاء الاطفال ثم يوضعون فى مجموعات ، فالمجموعة المتوسطة الذكاء من السنة الاولى تعطى برنامجا معينا مناسبا ، والمجموعة المتفوقة فى الذكاء من السنة الاولى يزداد برنامجها قليلا ويتنوع من حيث التمرينات الحسابية أو تطبيق اللغات أو النظريات المتفرعة فالطفل أقدر على استيعابها ، والمجموعة الضعيفة من السنة الاولى أيضا تعطى نظريات عامة من البرنامج مع شرح أكثر وأمثلة أخصب وازدياد للطرق المحسوسة فى التدريس . وهى طريقة أفضل جدا من أن نحشد الاطفال كلهم — كما نفعل فى مدارسنا — فى فرقة السنة الاولى مثلا اعتباطا ثم نعطيهم برنامجا واحدا . . فالمتوسط قد ينهيه أو لا ينهيه ، والذكى يتمه بسرعة وإما أن ينام أو ينصرف للعبث والمشاكسات . . والغبى لا يتمه فيشعر بالنقص والخيبة والفتور

فى فصولنا المدرسية يتكدس معظم الطلاب حول المتوسط فيشكل المدرس العمل وفق قدراتهم ، وتضيع فى هذا فئتان . . الاولى الطلبة الاذكياء والموهوبون ، والثانية الطلبة الاغبياء المتراجعون . أما عن النوع الاول فانك لتدخل أحد الفصول فتأخذ عيناك طالبين أو ثلاثا هم أمثلة لحركة دائمة .. هم « يفتلون » أزرار طرابيش جيرانهم . . ويلونون الصور التى فى كتبهم فيرسمون للاشخاص شوارب ولحى .. يقصون ويلصقون حتى فى كراساتهم المدرسية فيستحقون بذلك غضب مدرسيهم ورفاقهم ، وتتوالى العقوبات لشل سلوكهم « الاعتدائى المقيت » . ولو سألت عنهم مدرسهم لقال لك « هم كويسين مش بطالين بس لو يخلوا بالهم ! » ومع هذا فلو قست ذكاءهم فقد تجد لدى الواحد منهم نسبة قد تقرب مما يملكه عشرات من أعظم العلماء الذين يمجدهم العصر الحاضر

وبعد هذا تأتى مصرنا الجميلة . . مصرنا التى تشتبك اليوم فى صراع ذهنى تحتاج فيه لحشد كل قطرة من موارد أبنائها وأفهامهم . . فتطبق على نجومها الزاهرة وجواهرها البراقة نظاما تعليميا جامدا باليا لا يشغل وقتهم أو يستغل حيويتهم ، وبعد هذا نعتبرهم مشتتى الانتباه أو على أحسن الفروض « مش بطالين .. ! »

ولا تقتصر فائدة مقاييس الذكاء على وضع الأطفال فى فرق بل هى تعدهم إعدادا مهنيا ، فهناك ما يدل على أن اتجاه هذا الطفل حسابى أو ميكانيكى أو لغوى ، وهكذا بدلا من أن يجرب الطفل بعد أن يشب كليات الجامعة كما نفعل الآن فيدخل الواحد منا كلية الهندسة مثلا على غير رغبة أو استعداد منه فيقضى سنتين أو ثلاثا ثم يتركها للتجارة ليكتشف بعد مدة أنه غير قادر على الاستمرار فيها ، بدلا من أن نجرب الكليات أصبح الآن فى مكنتنا أن ندرب الطفل فى الطريق الصحيح من أول الأمر .

وأخيرا فقد جاء الاتجاه الرابع لأبحاث القرن العشرين ليدور حول الطفل المتراجع عقليا - وهو نتيجة لأبحاث بينيه - أو الشاذ اجتماعيا . وقد خفف

العمل المدرسى عن الطفل الأول على قدر ما تسمح به قدراته وحاجاته ، أما الثانى فقدوجد فى أحوال عديدة عاديا ولكن ظروف البيئة المنزلية أو المدرسية جعلت سلوكه ملتويا . وقد جاءت أولى هذه المحاولات فى سنة ١٩٢٨ عند ما أسس توم عيادة فى بوسطن للاطفال فى المرحلة التى تسبق دخولهم المدارس ، وبدلا من أن ننتظر حتى يصل السلوك الملتوى الى الذروة ويتمكن من الطفل يعالجه توم فيقضى عليه فى المهد . وتبعه فى هـــذا المضمار لويس تيرمان وليتاهو لينجورث .

واذا كنا قد أسهبنا فى تتبع حركات البحث ودراسة نمو الطفل حتى يومنا الحاضر فانا لنرجو أن نكون بذلك قد اجتذبنا نظر القارىء الى أهمية دراسة النمو التى سنتناولها الآن محاولين أن نضع جداول معينة يستطيع آباؤنا وأمهاتنا أن يقارنوا أطفالهم بها ، مبينين ما أمكن أفضل الطرق التى نكيف بها البيئة حتى نقود ذلك النمو الى ذروة الكمال ، وجاهدين أن نبسط بعض المواقف التى تنشأ فى المنزل أو المدرسة وكيف يمكن التغلب عليها على ضوء تتابع النمو .

والحق انا كثيرا ما نقابل مواقف محرجة حقا ، ولشد ما نود لو عرفنا هل هذا السلوك الذى يسلكه الطفل كالعض أو الغيرة أو الاعتداء ناتج من الخارج أو انه عارض من أعراض النمو يبدأ فى كل الأطفال الأصحاء من تلقاء نفسه وينتهى فى سن معينة اذا لم نقف فى سبيله فاذا كانت الحالة الأولى فيهمنا أن نعرف كيف نعالجه ، واذا كانت الثانية تذرعنا بالصبر والتسامح حتى تنتهى هذه المرحلة .

ماذا عن مسألة الكذب مثلا ؟ طفل ينكر عمل شىء أنت تعلم يقينا انه عمله ، فهل « تعاقبه » بقسوة ، أو تحدثه عن مضار الكذب ؟ ثم . . لنفترض انك لم تتحدث عن الموضوع اطلاقا فهل سيستمر فى الكذب ؟ أو طفل آخر أقل سنا يقص عليك أو على زملائه قصصا ملونة بلون خيالى عن أعمال غريبة قام بها أو عن ممتلكاته فى المنزل . هذا الطفل أيضا « يكذب » . . فهل هو

نفس نوع الكذب الأول ؟ وهل نعامله نفس المعاملة ؟ .

وبماذا نجيب عند ما نسمع أسئلة محرجة « منين بييجوا العيال الصغيرين؟» هل من الاصوب أن نتحاشى الاجابة ، أو نلقى بأكاذيب عن « البطن اللى بتتفتح وتتقفل تانى » أو ندلى بجواب بسيط وصريح على قدر الاستطاعة ؟ وهل يكفى هذا الجواب البسيط لارضاء الطفل وجعله يكف عن التفكير فى هذا الموضوع بعد ذلك ؟

قد يحدث أن يعض الطفل أحيانا فى سن الثالثة أو الرابعة زملاءه أو والدته إما كتعبير ساذج عن الحب والملاطفة ، أو فى سورة من الغضب . . ومعظم الامهات عندنا تقلقهن هذه الظاهرة التى قد تكون حجر عثرة فى لعبه مع الآخرين . . فما الذى يدعوه للعض ؟ وهل هو عمل شاذ نتيجة لخطأ فى البيئة علينا أن نصلحه ، أم هو مرحلة طبيعية من مراحل نموه ؟ .

أو قد نجد وليدنا الصغير يعبث بأعضائه الجنسية وهو فى فراشه ، أو وهو يجلس سارحا أثناء النهار ، فهل التأنيب أو التهديد « بحرق » العضو أو « قطعه » كفيلان بالاقلاع عن هذه العادة ؟ بل ان لنا أن نتساءل كيف نشأت ؟ هل هى دائما نتيجة إيحاء من الخارج : . من الخادمة أو من أحد زملائه فى اللعب أو قد تحدث من تلقاء نفسه دون أن يكون لها سبب خارجى ؟

وغير هذا عشرات الحالات التى يبدى فيها الطفل خوفا شديدا لا نستطيع لاول وهلة أن نميز مصدره ولكنه يجثم كالكابوس ثقيل يحيل حياة الطفل سلسلة من الفزع قد يؤثر على كيانه العصبى وللمرة المائة نتصرف ازاءه تصرفا أخرق . فبينما معظم أطفال الاجانب يرحبون بالحمام نجد أطفالنا يخافونه خوفا شديدا . . ، بل أكثر من هذا غسيل الرأس والوجه بالماء والصابون . . كم يسبب عند أطفالنا من الفزع والتشنجات حتى لقد يقىء الطفل ما سبق أن تناوله منذ برهة وجيزة . . ، أو قد يخاف الطفل من الظلام ، أومن الموت ، أو عند ما يطرق الباب طارق ، أو اذا أدير الراديو ، أو من حيوان معين . . بل وأعرف طفلا يخاف من رائحة المطاط خوفا شديدا فاذا البس « مريلة »

من هذه المـــادة صرخ وفزع. هل ننهر طفلنا حدة اذا أبدى هذا الخوف ، أو نسخر من اوهامه التى لا ترتكز على أساس ، أم نتركه للزمن لعله يسدل على هذا كله ستاراً من النسيان ؟

ولم نذهب بعيدا وراء ما يبدو بوضوح انه مشاكل معقدة وامامنا عشرات الحالات « البسيطة » ؟ طفل قد اكمل العام الأول مثلا يجد لذة واضحة فى القاء الملعقة أو الدميه التى يلعب بها مرة اثر اخرى على الأرض لتلتقطها امه أو مربيته وتعيدها اليه . وتتعب هذه الأخيرة قبل أن يتعب هو بكثير فتنهى هذه اللعبة قائلة « بس بقى مانبقاش ولد وحش » . هل هو « ولد وحش » حقا يحتاج الى اصلاح ، ام ان هذه عملية مفيدة من عمليات نموه الجسدى والعقلى ؟

والطفل فى سن الرابعة قد يترك ليلعب فى الحديقة فيتسلق السور الحديدى ممزقاً ثيابه معفرا وجهه وركبتيـــه ، أو يترك صنابير الماء مفتوحة فيغرق الاحواض هل نؤنبه لأنه فعل هذا على اساس ان هذه الأعمال تدل على عناد واستهتار بالنظافة والسلوك المهذب ، أو أن هذا دافع طبيعى للنمو نحو التوازن واكتساب المهارات والتمييز بين الأجسام . هذه الصفات التى لا يمكن ان تستقيم حياة الطفل عند ما يكبر بدونها ؟ وعلى العكس من هذا قد يكون طفلك ذاميل غريب للاحتفاظ بيديه وملابسه نظيفة بحيث اذا اعطى قطعة من الصلصال ليعمل منها نماذج لا يريد ان يمسك بها « عشان بتوسخ ايدى » ! هل انت ياسيدتى محقة فى سرورك بهذا واعتبارك له عنوانا على النمو الصحيح ؟

ولنا أن نتساءل كم مرة يحدث أن تجلس طفلتك وعمرها عشرون شهرا مثلا الى المائدة فتصر على ان تتناول طعامها بمفردها بالرغم من أنها لا تستطيع ذلك دون ان يتساقط معظمه على ملابسها . فاذا حاولت أو حاولت المربية أن تطعمها أو على الاقل أن تمسك بيدها أثناء تقريب الملعقة

بكت واصرت على عدم الأكل ؟ هل أنت محقة فى أن تصفى هذا التصرف بانه « عناد » ؟ وهل على الطفلة أن تطيع فى سهولة ونعومة ريثما نقوم نحن باطعامها ؟ ثم اننا نريد أن نعرف الشهر أو الأسبوع الذى يستطيع فيه الطفل العادى أن يأكل أو يخلع ملابسه بمفرده ، بل وأهم من هذا متى يسيطر الطفل على تلك الأعمال اليومية المتكررة كجهازه الاخراجى مثلا فلا يتبول فى فراشه أو ملابسه ، وهل يمكننا أن نعينه ؟ .

وقس على هذا عشرات ومئات الحالات . . حتى القصة التى تجلس لتقصها على طفلك للتسلية لا يجب أن تلقى اعتباطا ، فللقصص الخيالية سن معين وللدينية والخلقية موقف مخالف وهكذا . لو عرفت الأم ماذا تتوقع أن يؤديه طفلها فى سن معينة من أعمال . . متى يأكل بنفسه . . يستحم بمفرده . . يلبس حذاءه ويزرر سترته . . يلعب بالمكعبات أو الرمل أو « الميكانو » أو يلقى الكرة . . فانها تستطيع أن تتجنب أولا افساد الطفل بمعاملته كحديث السن قليل المدارك فتشعره بالنقص وتعوق تقدمه . . وثانيا افساده اذ تطالبه بتحقيق أكثر مما يستطيع وبذا تجعل منه طفلا قلقا سريعا للغضب أو الشعور بالخيبة .

وبعد فلقد يبدو من هذه المعايير التى سنخرج بها من دراسة النمو انا قد رزقنا بطفل موهوب فما أسعدنا اذن ، وما افيد أن ندرك هذه الحقيقة حتى لا « نجذبه الى الخلف » كما نفعل كثيرا فى منازلنا ، وكم من كواكب براقة تلألأت ثم انطفأت لأن المحيطين بالطفل ظنوا أن هذه العجلة فى التفكير نتيجة العصبية وعدم الاستقرار . وكم نمنع الطفل عن ان يسبق أقرانه فى التفكير فنتمنع عن الاجابة على اسئلته قائلين « لما تكبر تبقى تعرف » ، أو « كفاية اسئلة ما تبقاش لكاك . . ! » انا لا اقول ان الاسئلة فى اى وقت تدل على الذكاء ولكننا نستطيع ان ندرك ان كانت تدل او لا تدل حسب مقارنه طفلنا بالمعايير .

اما اذا رزقنا بطفل متراجع قليلا ففائدة المعايير لا تقل اثراً . قد يكون

التراجع مؤقتاً أو لسبب عارض فكلما أسرعنا لاكتشافه وعرضه على اخصائى كلما كان احتمال عودة الطفل إلى المستوى الطبيعى أكبر . وكم من آباء وأمهات تأكل قلوبهم الحسرة وتأنيب الضمير لأنهم لم يلجأوا للعلاج مبكرين! أما اذا اكتشفنا أن هذا الخمول يعود إلى ظروف لا يمكن تعديلها فيمكننا على الأقل أن لا نلقى على أطفالنا اعباء لا يطيقونها ثم نسخر منهم ظانين أنا بذلك نحفزهم للعمل مع أنا نشعرهم بالنقص والخيبة فيشبون وقد ملأهم التردد والخجل وتوقع تقدم الآخرين عليهم ، وهذا يزيد من أثر الثقل الذى ألقيته على كواهلهم الطبيعة .

طرق دراسة النمو : هناك طريقان للدراسة :

١ — قياس مجموعات كبيرة : قد نلجأ الى دراسة مجموعات كبيرة متفرقة من الأطفال فى مراحل مختلفة من العمر لاستخراج معايير للنمو فى كل عمر وقد استخدمت هذه الخطة بتوسع كبير لدراسة النمو الجسمانى كالطول والوزن ودراسة الذكاء (العامل العام) وهى طريقة سهلة نسبيا ولا تتطلب مدة طويلة لاستكمال الدراسة ، كما هو الحال لو أعدنا دراسة مجموعة واحدة سنة بعد سنة حتى نصل للنضوج .

ويبدو قصور هذه الطريقة فى عدم استطاعتنا استحضار مجموعات متشابهة تصلح معها المقارنة ، وبمعنى آخر عينات من السكان تمثل المجموع تمثيلا صحيحا من أعمار متفاوتة فلو سألنا أنفسنا هل الاطفال الذين ندرسهم الآن واخترناهم كنموذج لمجموعة الخمس سنوات على سبيل المثال تشبه تماما تلك التى انتخبناها لتمثيل الست سنوات بحيث أن المقاييس التى حصلنا عليها من اختبار هذه الأخيرة ستكون مشابهة لتلك التى سنحصل عليها لو طبقنا المقاييس على المجموعة السابقة بعد سنة ؟ وبتوضيح أكثر هل مجموعة الخمس سنوات ستظهر لو قيست سنة بعد سنة نفس النمو الجسمانى والعقلى واللغوى والحركى و . . و . . الذى

نجده فى عدد من المجموعات المختلفة فى اعمار مختلفة واتخـــذنا منها معايير لهذه الأعمار . . ؟ أقول لو تساءلنا هذه الاسئلة لما وجدنا جوابا شافيا فهى لم توضع موضع الاختبار العلمى الواسع المدى بحيث يرفع من قدر هذه الطريقة أو يرفضها ، وهكذا فان مدى نجاحها لايزال موضعا للنقد .

فاذا كان ولابد من استخدامها فيجب أن يراعى اختيار مجموعات ضخمة العدد جدا ومختارة اختيارا واسع المدى لكل عمر ، وعلى العموم فلا يمكن أن نقنع باقل من عدة آلاف من الاطفال لكل مجموعة ، ويجب ألا تختار العينة من طبقة واحدة أو قطر واحد ، بل من أمة أو جنس بأكمله

٢ — إعادة الاختبارات : هنا تتكرر المقاييس على نفس الافراد يوما بعد يوم ، أو شهرا بعد شهر ، أو سنة بعد سنة ، وهى طريقة أطول واكثر إجهادا من الطريقة المستعرضة السابقة . ولكن لاننا نقيس نمو نفس الافراد لا أفراد مختلفين فى كل مرحلة لنا أن نطمئن الى أنها تعطينا صورة أكثر صحة عن نمو الطفل العادى .

وقد استخدم تيرمان وغيره هذه الطريقة لقياس الذكاء وملاحظة التغيرات التى تطرأ على ذكاء الطفل من سنة لأخرى ، بل لقد استخدمها بشكل مبسط فى دراسته لالف ولد وبنت من الموهوبين والموهوبات(١) ، فتتبع النمو الجسمانى والعقلى والاجتماعى من الرياض حتى الجامعة ، وفى بعض الأحوال امتد بالدراسة بعد استقرار هؤلاء فى ميادين العمل .

وبنفس الطريقة استطاع جيزل فى عيادة ييل السيكولوجية أن يعيد اختبار ١٠٠ طفل من شهر الى شهر ، وخرج من هذا بمعايير للنمو والسلوك

---

(١) راجع Terman, L. M. et al. Genetic studies of genius. vol I: Mental and physical traits of a thousand gifted children.

فى أعمار مختلفة سنشير اليها تباعا فى هذا المؤلف ، وتبعته شيرلى (١)، فى السنة التالية بدراسة ٢٥ طفلا أسبوعيا طيلة سنتين جاهدة بذلك أن تتعرف مراحل النمو وما اذا كان لصفات معينة صفة الثبات والترقى ، وقد خرجت من مقارناتها بنتائجها مع بوهلر وبيرنسيد وجيزل وجونز بان الضبط الحركى عند الأطفال الصغار يسير حسب خطة معينه تتكون من خمس مراحل واضحة يبدأ فيها الضبط والاتساق فى العينين ثم منطقة الرأس والرقبة ثم الجذع واخيرا الاطراف حيث تأتى السيقان متأخره فتعين الطفل على الزحف والحبو والوقوف ثم المشى . وسنتناول هذا بشىء من التفصيل فى فصل عن النمو الحركى

أنواع التغيرات المصاحبة للنمو

يمكننا ان نقسم التغيرات أقساما أربعة :

١ — التغيرات فى الحجم : هذا النوع يبدو فى أضح صوره فى النمو الجسمانى ، ولو أن من الممكن ملاحظته فى النمو العقلى لو تابعنا تطبيق اختبارات الذكاء . ومن الواضح أن كل سنة تضيف الى الطفل تغيرات فى الطول ، والوزن ، ومحيط الصدر وهكذا ، كما تضيف الى الاعضاء والاجهزة الداخلية كالقلب ، والرئتين ، والمعدة ، ويبدو هذا النمو العقلى فى ازدياد محصول الطفل اللغوى ، والقدرة على التدليل أو المناقشة ، والتذكر ، والادراك ، والابتكار .

---

(١) راجع Shirley, M. M. The first two years vol- 1, p, 66

٢ — التغيرات فى نسب الاعضاء : ليس الطفل « مصغر رجل » كما كان يظن ، بل إن جسمه يحوى من النسب مايختلف تماما عن جسم البالغ ولقد سبق تعزيز هـــذه الحقيقة بالرسم . وهانحن نرفق هنا جدولا صغيرا . (١) يبين التغيرات التى تنتاب نسب الأعضاء أثناء سنى النمو :

العضو	نسبة التغير	العضو	نسبة التغير
ارتفاع الراس	يتضاعف	وزن القلب	يزداد ١٣ مثلا
ارتفاع القامة	يزداد ثلاثة امثال ونصف	وزن الرئتين	« ٢٠ «
طول الاطراف العليا	يزداد ٤ امثال	نسبة وزن العظم والشحم والجلد	لاتتغير
وزن المخ	يزداد ٤ امثال	نسبة وزن الجهاز العصبى	تتناقص الى الثمن
طول الاطراف السفلى	يزداد ٥ امثال	نسبة وزن العضلات	تتضاعف

وليست التغيرات فى النسب قاصرة على النواحى الجسمانية ، بل هى تبدو أيضا فى النمو العقلى . ولنأخذ على سبيل المثال التغيرات فى القدرة على التخيل والتغيرات فى الميول ، فالتخيل فى الطفولة المبكرة هو من القوة والحيوية بحيث يسيطر على قوى أخرى كثيرة وبالتدريج كلما اقترب الفرد

(١) راجع

Hollingworth, H. L- Mental growth and decline p- 10

من الاكتمال تراجع عنصر الوهم الى نوع منطق من التخيل مقيد الى حد كبير بقيود الحقيقة بحيث يصلح للتصميم والعمل الانشائى . أما الميول فينتابها التغير شأنها فى ذلك شأن التخيل . فالطفل فى أول أمره تتركز ميوله فى جسده، فهو يلعب بيديه وذراعيه، ويمص اصبعه ، ويرفع كل شىء الى فمه حتى الشهر الثامن ، ثم يخرج من هذه المرحلة قليلا الى الاهتمام بذاته ، فهو يلعب وحيدا ولا يشرك أحدا معه ولو فعل فانه يقوم بدور مسيطر فينال نصيب الأسد ولذا لا يستقيم اللعب إلا مع الكبار الذين يعطونه ما يريد فى الوقت الذى يطلبه ويتناولون منه ما يشاء هو أن يعطيهم ، ويستمر هذا حتى سن الثانية. وبالتدريج ينتقل هذا الاهتمام الى الأطفال الآخرين دون ما تفرقة بين الأولاد والبنات وهى مرحلة رياض الاطفال حتى اذا بدأ عهد المدرسة الابتدائية أصبح الطفل لا يطيق إلا المجموعة التى ينضم اليها وهى من نفس الجنس . وأخيرا تحل مرحلة البلوغ وتتركز الميول فى الجنس الآخر ، والملابس الانيقة ، والمجتمع الكبير بآدابه وعاداته وقوالب سلوكه .

وقد كانت هذه الفكرة القديمة.. أن الطفل مصغر رجل .. سببا فى متاعب كثيرة للطفل الى عهد قريب ، بل وربما الى وقتنا الحاضر. فلا تزال ملابس الطفل تفصل على نمط ملابس الكبار ، ولا زال المستوى الخلقى والأدبى يطبقان عليه فى كثير من العسف . فهو فى أول أمره إذ يعبث بأعضائه الجنسية — تماما كما يضع اصبعه فى فمه فهو استطلاع واشتقاق للذة حسية بريئة تتمركز فى الجسد ثم يتركها الطفل إذ تنتشر ميوله للخارج — نثور ونغضب لان هذا فى عرفنا نحن الكبار « عيب وقباحه . . » كما نشتط فى استعمال تعبيرات « مرسى » و« من فضلك » اشتطاطا يبعث فى الطفل الغضب من ناحيتهما ، ونحن نظن أنه اذا أهملهما كان — كالكبير — « قليل الذوق » ، كما نصر على تقييد حركته ولعبه فى مناسبات كثيرة كوجود الضيوف فهذا فى نظرنا التزام لجانب « الهدوء والوقار »

وكم من آبائنا يحشو ذهن الطفل بأفكار خلقية ودينية تناسب تفكير الكبير يدخلها الطفل من أذن ويخرجها من الاخرى فهى لا تعنى بالنسبة له أى

شيء . ومنذ عهد قصير سمعت حوارا عجيبا بين والد وطفله الذى رسب للمرة الثانية فى السنة الثانية الابتدائية ، فالوالد يحاول اقناع الطفل بالاستذكار فى الاجازة الصيفية لأنه إذا لم يجتز الامتحان فسوف لايكون فى استطاعته أكمال الدراسة وأحرى به أن يبحث عن صناعة يقضى فيها حياته ..! أفهم ان يدفع الطفل للاستذكار ونحن نلوح له بنزهة جميلة بعد يوم أو يومين ، أو بمشاهدة عرض فيلم يشتاق اليه — ولو أن المكافآت لايجب أن تكون سبيلنا الاوحد فى التربية كما سنبين بعد — أما أن ننتظر أن يدرك الطفل فائدة المدارس وما تمنحه من شهادات تضع الانسان فى مستوى اجتماعى أرقى من الصانع . . مع العلم بأنه يقدر الصانع اكثر من أى عمل آخر فميوله حتى هذه اللحظة بدوية تتجه اتجاها حسيا كما سبق أن ذكرنا . . أما أن ننتظر منه أن يدرك هذا فأمر شديد الغرابة .

مازال آباؤنا يقيسون الطفل بمقاييس الكبار ، ناسين مثلا أن قوة التخيل التى لدى الطفل ، وقد رأينا كيف أنها تنقص وتتحدد كلما اكتمل الفرد تدفع الطفل دون أن يقصد لما نسميه « الكذب » وما هو فى الحق سوى طغيان للخيال على الحقيقة ، والطفل لخبراته القليلة ومعلوماته البسيطة عن العالم وحقائقه ينتقل بين الميدانين فى طلاقة وهو لايكاد يفرق هذا عن ذاك . وقد سمعت يوما من طفلة صغيرة حكاية طويلة مسلية — ولو أنها غير محبوكة بطبيعة الحال — عن أنها كانت سائرة الى جانب والدتها فى الطريق ، وهناك فى شارع معين رأت عصفورا جميلا ملونا ظل يدور فى الفضاء ويقترب منها ثم أدلى لها بأحد جناحيه وكأنه يدعوها للتعلق به ففعلت . وظلت تصف رحلة جميلة فى السماء بين الشمس والقمر والنجوم ، ثم ذكرت طرفا عن الله وكيف يمتلىء حجره باللعب والدمى . ولما سألتها أين كانت والدتها فى هذه الآونة وهل لم تفتقدها أجابت بعد تفكير بسيط أنها كانت مشغولة بشراء حذاء لونه . . . وانطلقت تقص قصة أخرى بعيدة بعد سابقتها عن الحقيقة . .

كثيرا ما نسارع الى مجابهة طفلة مثل هذه بأنها كاذبة ، ولاعجب « هوه فيه حدطلع القمر والنجوم ؟ » أو « هوه ربنا بيلعب بالعرايس؟ » وهكذا ندفع الطفلة البريئة للتفكير فى معنى الكذب وهى لم تقصده اطلاقا .

من العسف أن نقيس الطفل بمقاييسنا نحن الكبار فنعتبر هذا كذبا يستحق العقوبة لمجرد بعده عن الحقيقة ، ولست بهذا أزعم أن كل بعد عن الحقيقة علينا أن نتسامح بشأنه ، فهناك أنواع من الكذب فى مرحلة متأخرة حين يتناقص عنصر الوهم والخيال ويحل محله نوع من الادراك للحقائق المادية لا يمكن أن تعتبر كذبا بريئا ، وهذا هو ما عنيت الاشارة اليه عند اثارة بعض الأسئلة منذ قليل . . فلقد تناولت فيها طفلا فى مرحلة متأخرة ينكر عمل شىء نحن نعلم يقينا أنه عمله وهو كذب من نوع معين . وآخر أحدث سنا يروى قصصا خيالية عن أعمال قام بها أو تمتلكات فى المنزل هو لا يمتلكها فعلا وهو سيطرة للوهم على الحقيقة .

وبنفس الطريقة قد يكون تلون حياة الطفل فى أول عهده باللون الخيالى وقلة ادراكه لعالم الحقيقة سببا فى أنواع من المخاوف تبدو لنا سخيفة لا أساس لها فادراكنا المنطقى مخالف لإدراكه . فالطفل فى الظلام يرى على الحائط الجانبى الذى يواجه النور خيال شخص يقف فى الغرفة المجاورة ولكنه لايدرك العلاقة . ويجزع الصغير لاعتقاده أن مخلوقا « يسير على الحائط » وهو مخلوق مفزع اذ ليس لأطواله ونسب جسمه ما يراه فى الكبار الذين حوله ، فارتفاعه يكاد يشغل ارتفاع الحائط . وسرعان ما يطغى الوهم على الحقيقة ويجتاز الطفل ميدانا لآخر فى سهولة فيعتقد اعتقاداً جازما بأن شيئا غريبا موجود فعلا فى الغرفة ، وليس من النادر أن يربطه « بالعفريت » اذا كانت الخادمة قد أخافته به يوما . ويهب الطفل صارخا فنسارع اليه ، فاذا علمنا أنه رأى شخصا يسير على الحائط أخذنا نسخر ونسفه رأيه ، وبدلا من أن نحاول علاج هذا الخوف بتمثيل منظر مثل هذا أمامه ومساعدته على التثبت من عبث ظنونه ، قد ننتهره ونعاقبه اذ يتكرر تأكيده لما رأى فأوهامه « مضحكة سخيفة لا أصل لها » ، ونحن فى قرارنا هذا

نقيسه بمقاييسنا نحن الكبار . . أما آن لنا أن نطلق هذه النظرية البالية القائلة بأن الطفل مصغر رجل ؟

٣ — اختفاء بعض الأعراض القديمة : أهم الأعراض الجسمانية التى تختفى بالتدريج كلما نما الطفل الغدة التيموسية ، وتسمى غالبا غدة الطفولة ، وموضعها فى الصدر ، والغدة الصنوبرية فى أسفل المخ ، والافعال المنعكسة الداروينية كانقباض أصابع الوليد الصغير على الجسم الذى تقربه منه ، وشعر الطفولة الذى يغطى الجبهة أو الجسم ، ومجموعة الأسنان الأولى . وهذا أثر من آثار الطبيعة فالأشياء التى فقدت نفعها تنكمش وتختفى . أما الاعراض العقلية فمنها ما يختفى كالمناغاة وطرائق الطفل الاولى فى محاولة الكلام ، ونزعات الطفولة للعمل قبل التفكير والحذر ، وقوة الحواس على الأخص حاستى الذوق والشم الواضحتين جدا فى الرضيع .

ولكن بعض هذه العادات والاتجاهات العقلية للاسف يتعطل اختفاؤه أو قد لايختفى مطلقا فيظل الكبير يحتفظ فى حياته بسلسلة من العادات أو الأعمال هى مما يميز الطفل وكان يجب أن تنتهى فى مرحلة مبكرة من النمو . فالحرص ووزن الامور قبل العمل هى من اتجاهات الكبار ولكن بعضا منا يفقدها . والميول الحسية التى رأيناها فى الطفل تتمركز فى الجسد ثم تتجه للخارج كلما اتسعت ميول الطفل حتى اذا كبر اتجهت الى هوايات وميول عملية نافعة فى المجتمع ، هذا الميول الجسدية قد يحتفظ بها الكثير من الكبار كما يحدث فى قضم الاظافر (يشبه مص الاصابع) والعادة السرية ، أو العناق والضم والتقبيل والالتصاق الجسدى كدليل الود والمحبة وما هى الا مظاهر من الطفولة واستمداد للذة من الجسد لا يزال موجودا يعطل تقدم الفرد . ولسوء الحظ نجد كثيرا من الآباء والأمهات يتشبثون بتثبيت العلاقة بينهم وبين أطفالهم فلا يتركونهم للاتصال بزملائهم فى مرحلة المدارس الابتدائية والثانوية أو بالنوادى والخروج للرحلات ، وهم لا يدرون أنهم بذلك يقفون حجر عثرة فى طريق تقدمهم للمجتمع الكبير وانتشار ميولهم للخارج واختفاء هذه العادات والاتجاهات

العقلية التى تربطهم بالسلطة المنزلية والتى لا يجب أن تعيش إلا فى الطفولة المبكرة.

٤ — اكتساب أعراض جديدة : بعضها يأتى عن طريق التعلم ولكن معظمها يتم كنتيجة لتكامل أو تفتح صفات منكمشة منذ الطفولة . ومن الاعراض الجسمية الأسنان الثابتة والمميزات الجنسية التى تبدو فى الشهور الاولى للبلوغ كتضخم الصوت وخشونة الجلد ونمو الشعر حول الاعضاء التناسلية وتحت الابطين وعلى الشفة العليا وظهور إفرازات الخصيتين عند الذكر ، تقابلها العادة الشهرية عند الأنثى وعمق الصوت ونمو الشعر عدا الشفة العليا والذقن وازدياد الشحم خصوصا على الأرداف

أما الاعراض الذهنية فأهمها ازدياد الاستطلاع وخاصة عن العالم الجنسى ، والدافع الجنسى ، والمعرفة ، والمستويات الخلقية ، والاعتقادات الدينية

ويهمنا أن نؤكد هنا أن النمو الجسدى والعقلى يتداخلان إلى حد كبير ، ولعل هذا هو ما عنيناه عندما عرضنا فى أول هذا المؤلف بعض الاخطاء التى نقع فيها إذ نحقق مطالب الطفل الجسدية ونتغاضى عن الميول والمطالب العقلية . فالتغيرات الفسيولوجية تصحبها تغيرات فى الميول والسلوك . ولو اتخذنا على سبيل المثال نمو الأسنان عند الطفل لوجدنا انها تحمل معها سلوكا واضحاً نحو السيطرة والاعتداء بمجرد تجربة هذا السلاح الجديد بعض حلمة الثدى دون ان يقصد وقد يستمر هذا السلوك بعض الوقت لشعور الطفل بأثره فى البيئة . ثم ان ازدياد الطول فجأة عند المراهقة يعطى الطفل شعوراً بالأهمية ويحركه للاعتداد بنفسه ومقاومة سلطة البالغين . وقبل أن يصل الطفل إلى المستوى الاجتماعى والاقتصادى اللذين يمكنانه من أن يقف على قدم المساواة مع غيره تأتى التغيرات الجسمانية المبكرة حول الثالثة عشرة والنصف فتسوق الطفل إلى الشعور بانه لم يعد مطالباً بالنظر باحترام إلى الكبار كما كان يفعل بالأمس ، بل هو يطالب كل الامتيازات التى تمنح للبالغين

وفى اثناء مرحلة المراهقة يتضخم الصوت فجأة وقد يتقطع فى الوسط مما يدعو الكبار لاتخاذ المراهق هدفاً لسخرية خفيفة مما يدعوه فى معظم الأحيان للتردد والخجل والانزواء بعيداً عن الاخرين ، خصوصاً وانه ما عاد يستطيع ان يشترك فى الحفلات والاجتماعات التى كان ينظمها زملاؤه فصوته لم يعد يصلح للغناء أو الإنشاد . هذا فضلا عن الصراع العقلى العنيف الذى تاتى به المراهقة إذ يطالبه الكبار بنفس الاحترام والخضوع بينما هو يرى أنه قد أصبح فى موقف مساو لهم ، ثم إذ تتدفق فى جسده حيوية جنسية هائلة وهو لا يستطيع إشباعها بالطريق المشروع فهو لا يستطيع أن يتزوج كما يفعل زميله المتوحش فى القبائل البدائية إذ لا يزال أمامه برنامج ثقافى طويل . وهنا يقف المجتمع المعقد والمدنية البراقة المثيرة للغريزة الجنسية شوكة فى جنبه تحيل سلوكه قلقاً غير مستقر بين نوبات غضب تعصف بكيانه ونوبات يأس واستسلام وتفكير فى الانتحار

وتنتاب المراهقة تغيرات عقلية وسلوكية من هذا النوع تقريبا تصحب التغيرات الجسدية ، فالعادة الشهرية فى أول أمرها إذا لم تكن الفتاة مجهزة لها بهدوء وقليلات منا من هن مجهزات حقاً ـ تسبب لها ذعراً وقلقاً شديدين ، والنمو المطرد فى الاطراف يفقدها كثيراً من التوازن والضبط الحركى فتبدو وهى سائرة أمام الضيوف « كالجمل » الصغير بأعضائه غير المتناسقة . يضاف الى هذا خشونة الجلد والتهاباته وظهور البثور الصغيرة وكثرة العرق ، وكلها ظواهر عضوية مصاحبة للمراهقة إذ تزداد نسبة الشحم ، وكلها تدفع الفتاة للخجل والارتباك فتنزع للوحدة والاعتزال « والسرحان » وأحلام اليقظة التى يتخللها التفكير فى التنسك والرهبنة

واذن فلننظر الى النمو كوحدة متكاملة ، ولنذكر أن النمو الجسدى تصحبه تغيرات عقلية ، انفعالية ، واجتماعية ، يبدو أثرها فى السلوك . ولنهتم بهذه الأخيرة كما نفعل بالنمو الجسمانى ، فمن العبث ان نتسامح مع نمو المراهق الجسدى ونهيء له السبيل بالطعام والنزهات والاصطياف ثم نتجاهل التغيرات العقلية والاجتماعية التى تصاحبه أو نكبتها

أسباب النمو : كما يحتاج النبات الى عاملين هامين ليصل الى ذروة نموه.. عامل طبيعى يتمثل فى تربة خصبة صالحة لنموه ، وعامل مكتسب هو الفلاح الذى يكد ويكدح ليوفر له أحسن الظروف الملائمة .. هكذا يتسبب نمو الطفل عن عاملين.. عامل كامن ، وآخر مكتسب تأتى به البيئة .

١ — النضوج : فى أعمار معينة خلال مراحل النمو تتفتح صفات ومميزات خاصة كانت موجودة فى الطفل فى صورة مغلفة ، فالاحبال الصوتية لا تتهيأ لترديد بعض المقاطع التى يسمعها الطفل قبل الربع الثالث من السنه الأولى ، والروح الاجتماعية لا تبدأ فى الظهور قبل الثانية أو الثالثة ، فالصغير يرى الأطفال الكبار يلعبون بشكل منظم Cooperative behaviour ويشكلون أدوار بعضهم البعض فى سلوك متتابع كتمثيل عائلة وزوار، ولكنه يقف موقف المتفرج onlooker beh , أو موقف من لا يهمه الأمر unoccupied beh ، بل قد ينتزع ما بأيدى بعض هؤلاء الأطفال من أدوات اللعب فى أنانية غريبة . ولكنه عامل النضوج لم يتفتح بعد ، ومن العبث أن تعلم الطفل أن يتعاون مع غيره فى هذه السن المبكرة

ومما يميز ظهور الصفة التى تتفتح عن طريق النضوج سرعة غريبة لا تقارن بتأثير عامل التمرن أو التعلم وهو العامل الثانى فى النمو ، فهذا الاخير يأتى بتحسن بطىء جدا

فالتغيرات التى تصحب المراهقة فى حالة الذكر .. ظهور الشعر على الوجه وخشونة الصوت وانخفاضه فى النبرة . . تحدث كلها فى بحر شهور قليلة وتبدو كما لو أن الانسان يستطيع أن يلمس تطورها من يوم لآخر. وبينما تحدث هذه التغيرات الفسيولوجية اذ بتغيرات الميول تسير فى موازاتها فى قفزات مفاجئة . فإنك لترى الصبى الذى كان طيلة المرحلة الابتدائية لا يطيق أن يلعب مع البنت أو يراها وهى تلعب مع زميلاتها اذ سرعان ما يفسد هو وزملاؤه هذه الالعاب ، هذا الصبى تراه قد انقلب فجأة فى مرحلة البلوغ متعطشا للاجتماع بالفتيات تعطشا يثير العجب

٢ — التعلم : يعتمد النمو جزئيا على التدرب ونشاط الطفل نفسه . فتكيف الأحبال الصوتية وعضلات النطق وأعصاب الاستقبال والارسال بحيث تسمح

بالكلام لا يكفى للوصول بالنمو اللغوى الى المتوسط ، بل ان المحصول اللغوى ليتأثر الى حد ليس بقليل بعامل البيئة ؛ فالطفل الذى شاء سوء حظه أن يوجد فى منزل ناعم مدلل .. وأبوين يسارعان لاجابة مطالبه حتى قبل أن يشير بيده .. ينضج جهازه الصوتى فى سن مقارب للولد المتوسط ، ولكنه يتراجع لغويا لأنه لا يتمرن على الكلام فهو لا يجد له حاجة ما دام كل شىء معدا فى متناول يده

والتعلم نوعان .. نوع ارتجالى يعتمد على تكرار الطفل للعمل من تلقاء نفسه بحيث ينتهى بمضى الوقت الى تحسن فى سلوكه .. ونوع منظم يعتمد على الاختيار والتوجيه ووضع هدف واضح ، والاخير هو الذى تقوم به منازلنا ومدارسنا الحديثة حيث تنتهز فرصة نضوج نوع معين من الصفات كالقدرات الحركية أو اللغوية أو الخلقية أو الموسيقية لتبدأ التدريب والتوجيه فى الطريق الصحيح ، كما نقوم به فى التجارب التى تهدف الى تدريب الذاكرة أو التصور أو الاحساس

ويخطىء من يظن أن مجال النضوج ينتهى بانتهاء الحمل وولادة الطفل ، أو ان التعلم كله مقصور على المدة التى تعقب الولادة ، فبعض التعلم يحدث والصغير بعد فى البطن ، كما ان بعض الصفات تتفتح أثناء مراحل النمو المتعاقبة . ويهمنا أن نشير الى تداخل العاملين الى حد بعيد ، فالنضوج هو المادة الخام التى يهذبها التعلم ، وبدونها يصبح هذا الاخير عبثا ، كما أن مدى صلاحيتها تقرر الى حد بعيد اثر التعلم وما سيقدر له من نجاح

دراسة أثر كل من العاملين

ا ــ طريقة العزل : تستخدم هذه الطريقة فى حالة الحيوانات على نطاق واسع ، اذ يحتفظ بالصغير فى معزل عن الابوين أو الكبار من الفصيلة بوجه عام انرى هل تتاثر صفات معينة للسلوك تميز هذه الفصيلة بعدم تمهيد الفرصة للاتصال بالغير والتعلم . فإذا أردنا أن نطبق هذه الطريقة على الانسان فانا نسير على ارض زلقة .. فالاباء يجزعون لتعريض اطفالهم لتجارب يصطنع فيها نظام صارخ كهذا يحتفظ فيه بالطفل وحيدا مدة قد تصل الى سنة أو أكثر حسب ما تقتضيه التجربة .

والمجتمع لا يبرر من الناحية الدينية على الاقل النتائج العلمية التى قد تصل اليها الابحاث ، وهل من العدل أن « نتلاعب » بالبيئة فنؤثر على فرصة الطفل لحياة مقبله ومدى ما يكتنفها من خصب وتقدم؟

ومع هذا فقد استطاع دنيس فى سنة ١٩٣٨ أن يستخدم هذه الطريقة فى دراسة طفلتين توأمتين منذ نهاية الشهر الاول حتى الرابع عشر وكان يهدف بذلك إلى معرفة تأثير نقص عامل التدرب على ثلاث من حركات الضبط العضلى . . الاقتراب من الجسم للامساك به ، والجلوس ، والوقوف .

وللتقليل من عامل التدرب على الاقتراب احتفظ المجرب بايدى الطفلتين تحت أغطية الفراش أو مفرش المائدة ، ولم تعط لهما لعب حتى قاربتا نهاية الشهر الحادى عشر . واتبعت نفس الطريقة لتقييد حركات الجلوس أو الوقوف بالاحتفاظ بالطفلتين مستلقيتين على الظهر فى فراشيهما .

إلى أى حد إذن يعمل عامل النضوج ؟ لقد قورنت نتائج هذه الدراسة بالمعايير التى جمعها دنيس عن الاطفال فى بيئات وظروف عادية ، والتى خرجت بها شيرلى من دراستها للاطفال الخمس والعشرين . ووجد أن التاخر فى حالة التوأمتين عن المتوسط قليل جدا يكاد يكون غير ملحوظ خلالى الاشهر التسعة الأولى . ولكن بعد هذا ظهرت آثار التقييد فى تراجع واضح سرعان ما عاد الى نصابه فى مدى قصير عندما تهيأت الفرصة للطفلتين للتمرن على أداء الحركات الثلاث .

وقد خرج دنيس من هذا بان الاقتراب والجلوس والوقوف لا تنمو أو تتحسن بدون توفير بعض الفرصة للتعلم ، واذن فهى لا ترجع الى النضوج اولا واخيرا . ولكن فى نفس الوقت اذا لاحظنا ان التدرب قد أتى بنتائج سريعة قدرنا ان النضوج هو الذى هيا الاساس للتعلم وجعل نجاحه بارزا ملموسا .

ب-طريقه التوائم المتشابهة. استعملها اولا جيزل وتومسون سنة ١٩٢٨ (١)، فقد اوقع الحظ فى طريقهما توأمتين شقراوتين توفيت امهما وهى ايطالية فاقتضى الامر نقلهما الى معهد لرعاية الاطفال وهما فى نهاية الشهر الاول

والمهم لن التشابه بينهما كان عجيبا فقد نتجتا من زيجوت واحد. ولم يكن من السهل تفرقة واحدة منهما عن الاخرى لا فى المظهر الخارجى ولا فى تصرفاتهما أو حياتهما العقليه. ويرى القارىء هنا صورة فوتوغرافية للطفلتين فى الاسبوع الثامن والثلاثين وهما تقتربان من بلية قطرها ٨ ملليمترا

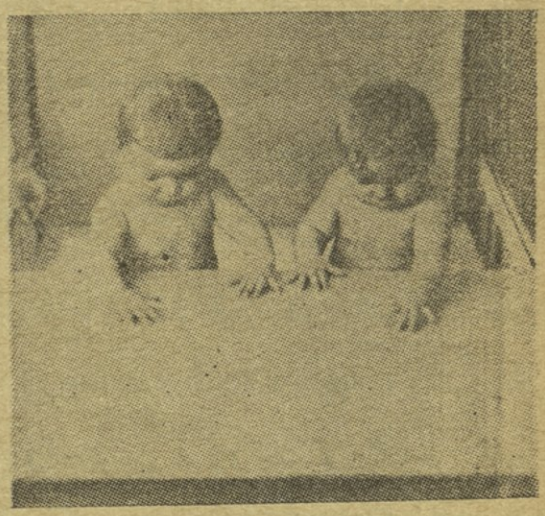

وتتابعت أبحاث العالمين وفى كل اسبوع تكتشف نواحى جديدة تتشابه فيها الطفلتان حتى اذا وصلتا الى سن تسعة اشهر خطر الى بال جيزل وتومسون أن يستخدماهما لدراسة أثر النضوج والتعلم، بتدريب احداهما فى ناحية معينة والاحتفاظ بالاخرى ساكنة، بحيث اذا قارنا بينهما بعد مدة معينة فكأنا نقارن الانسان بنفسه لو لم يتناوله عامل التدرب.

كان حسن التوفيق هنا رائعا حقا، فمهما حاول العلماء استحضار مجموعتين متشابهتين على أساس اختبارات الذكاء والقدرات اللغوية والميكانيكية الى غير ذلك فلا يمكن ان يتأكد وامن التشابه الى درجة اليقين ولا بد أن تتدخل

---

(١) راجع A. Gesell, H. Thompson. Learning and Maturation in Identical Infant Twins. monograph From Child Behaviour and Development. Kounin and Wright Chap 13

عوامل لتحويل مجرى النتائج اما فى حالة التوأمتين « ت » ، « ج » [1] فيمكننا ان نطمئن الى هذا التشابه الذى عززته الاختبارات المستمرة على الطول والوزن ومحيط الاعضاء والحساسية الجلدية ، بل ولقد حقنتا بامصال متشابهة فى فاعليتها وتعرضتا لامراض عديدة منها مرض شديد الوطاة كاد يقضى عليهما ومن عجب أنهما أظهرتا نفس الاعراض والاحتقانات مما يدل على أن التشابه عميق تمتد جذوره لتتناول الحياة الداخلية كلها .

وقد خصص للطفلة « ت » مدة طويلة للتدرب ، اذ استمرت ستة اسابيع يوميا منذ الاسبوع السادس والاربعين حتى الثانى والخمسين ، وفيها تمرنت على صعود السلم والتقاط المكعبات واستكشافها باليد أو تقريبها من الفم . وظلت « ج » ساكنة لا تتمرن طيلة هذه المدة ثم بدأت تتدرب على صعود السلم بعد انتهاء زميلتها أى منذ الاسبوع الثالث والخمسين مدة اسبوعين .

اما معالجة المكعب فقد تركت فيه الطفلة « ج » دون أى تدريب ، ولكن طريقة سلوك كل منهما عند نهاية المدة كانت متشابهة الى حد كبير ، كما اتضح من الاشرطة السنمائية التى أخذت ثم عرضت عرضا بطيئا فاتضح منها أن طريقة الجلوس وميل الجذع ومد الايدى ومدى تخصص عمل الابهام مقابلا للاصابع الاربعة كلها واحدة تقريبا . ولو شئنا التحديد لقلنا انه من بين ٦١٢ قسما من اقسام السلوك الملاحظ ، وجد أن ٥١٣ متشابهة تماما ، والباقى يبرز اختلافات لا يعتد بها .

وهكذا وجد جيزل وتومسون بعد المقارنه حقيقة مدهشة ، هى أن الطفلة ج بدأت تصعد السلم فى الاسبوع الثانى والخمسين دون مساعدة ، مع العلم بانها لم تتدرب مطلقا ، فضلا عن أن زميلتها قضت اسبوعين فى مبدأ تدربها وهى عاجزة عن الصعود بمفردها يضاف الى هذا أن الاولى وصلت فى اسبوع ونصف الى منتهى ما وصلت اليه زميلتها من نجاح .

---

(1) T. trained . C. control

وقد ذاع صيت هاتين التوأمتين فلجا ستراير الى بحث الجانب اللغوى مستفيدا منهما ، وكان هذا ابتداء من الاسبوع قرابع والثمانين أى وهما على عتبة اكتساب اللغة ، فهيأ للطفلة « ت » برنامجا للتدرب على الكلام من بدء الاسبوع الآنف الذكر الى نهاية الثانى والثمانين ، ولم تبدأ زميلتها « ج » الا فى الاسبوع التالى واستمرت أربعة أسابيع فقط

وقد وجد أن فرق النضوج فى مصلحة الطفلة « ج » كان له اثر واضح ، فلقد اتسع محصولها اللغوى بعد تدريب متأخر وزاد بمقدار ٧ كلمات عن زميلتها بعد مدة مساوية من التدريب .. ولو أن هذه الاخيرة كان نطقها أوضح ، وأغلب الظن أن هذا راجع الى حصولها على مدة أطول من التدرب على ترديد الكلمات .

وكان من نصيب هاتين التوأمتين أيضا أن تعملا مع هيلجارد لدراسة تاثير التدريب على الاختبارات العددية واسماء الاثاث والاجسام ، والاختبارات الحركية المعقدة كالقاء الحلقات على العصى والسير على عوارض رفيعة من الخشب . وقد تعطل تدريب الطفله « ج » ثلاثة اشهر فلم يبدأن هذا التأخر قد أثر على إنتاجها فى هذه النواحى ، بل ان قليلا من التدريب كان كافياً فى مرحلة متأخرة لتلحق بالاخرى وتتفوق عليها بعض التفوق الذى يتناسب وازدياد السن . فلما أعيدت التجارب بعد ثلاثة اشهر ثم ستة وجد أن الانتاج واحد .

وقد استطاعت السيدة ماك جرو سنة ١٩٣٥ أن تستعين بالتوأمين جيمى وجونى (١) لدراسة اثر التدريب على الضبط الحركى ، فوجدت أن جيمى الذى عزل فى فراشه أثناء تدرب زميله لم يتراجع فى حركات الحبو والزحف والجلوس والوقوف ، ولكن تاخر فى حركات القفز من عوارض خشبية والتزحلق ، وتنظيم وضع العلب أو الصناديق للوصول الى لعبة عالية ، والسباحة ، وركوب دراجة ذات عجلات ثلاث . وقد خرجت ماك جرو من هذا بان الوظائف التى تمس تراث

---

(١) نال جيمى وجونى من الاستعراضات ما ليس بالقليل ، وخاصة من نيومان على أساس أنهما لم ينشآ من بويضة واحدة .

الجنس كله ، أى النوع الأول phy logenetic ، لا اثر للتدرب فيها ، بعكس الحركات والوظائف الفردية ontogenetic

وعلى العموم فاذا كانت طريقة التوائم هذه تعطينا معلومات علمية صحيحة من حيث ضمان التشابه ، فهناك من العقبات العملية ما يبدى قصور هذه الطريقة إذ لا يمكن الاحتفاظ بأحد التوأمين ساكنا لا يتدرب اكثر من سنى الطفولة المبكرة ، وهنا تقف هذه الطريقة عاجزة عن أن تمتد بالدراسة إلى أكثر من حركات أو وظائف تميز الاطفال الصغار (١)

ج · طريقة المجموعات المتشابهة : هى تطبيق للطريقة السابقة على نطاق واسع ، استخدمها هيلجارد سنة ١٩٢٢ فى مجموعتين من أطفال مدارس الحضانة متشابهتين فى العمر الزمنى ، والعقلى ، والجنسى ، والقدرات المبدئية على الصعود والقص وتثبيت الازرار . وقد تدربت احدى المجموعات ١٢ اسبوعا واقتصرت الثانية على التدرب ٤ أيام تدربا واسع المدى فى الاربعة الايام الاخيرة من الاسبوع الثانى عشر . وقد وجد ان هذه المدة كافية للوصول بها الى مستوى الجماعة الاولى . وإذن فهناك عوامل أخرى غير التدرب المخصص لكل عملية ، هناك عامل النضوج والتمرين العام على وظائف مترابطة فهى تغطى فى فاعليتها على طول الزمن الاول

وبنفس الطريقة درس هيكس أثر التدريب المخصص على إصابة أهداف متحركة ، وتبعه جيرزلد على اطفال بين سن الثانية والحادية عشر متخذا القدرات الحركية والعقلية والموسيقية أساساً ، ومنها خرجنا بانه إذا كان هناك فرق فى مصلحة الاطفال الذين دربوا من أول الامر فهو فرق طفيف ومؤقت ·

---

(١) يقول جيزل وتومسون إنهما ظلا على اتصال بالتوأمتين للبحث والتجريب ١٤ سنة ، ولكنا نشك فى إمكانها الاحتفاظ باحداهما بعيدة عن الاتصال الاجتماعى أو غيره من ميادين التجريب طيلة هذه المدة . . !

د . الدراسة المتتابعة للمجموعات الكبيرة : لو أخذنا مجموعة كبيرة العدد من الأطفال من بيئات مختلفة ، خضعوا فيها لأنواع متعددة من التعلم يبرز فيها أثر ثقافة الوالدين أو غناهما فى أحد الاولاد والعكس فى آخر ، ثم اتضح من قياس هذه المجموعة على فترات متتابعة أن أسلوب الترقى فى السلوك الحركى او اللغوى أو الاجتماعى متشابه فى أساسه ، حتى لو اختلف قليلا فى التفاصيل ، فلنا أن نقول ان مثل هذه الأنواع من السلوك غير مكتسبة وانما هى نتيجة تفتح صفات مغلفة .

وقد سبق أن اشرنا الى دراسة شيرلى لخمسة وعشرين طفلا خلال السنتين الاوليين تتابعت فيهما الملاحظات والاختبارات ، وقد خرجت منها بان هناك مناحى معينة من السلوك تظهر فى نظام يكاد يكون محددا ومتشابها للكل ، حتى فى حالة الاطفال الاذكياء أو المتراجعين عقليا ، فهم وإن اختلفوا فى الزمن الا انهم يريدون أن يخطوا باقدامهم فى محاولات بادئة للمشى ومعتمدين على الكبار أو الاثاث قبل أن يسيطروا على حركات الوقوف بمفردهم فى وسط الغرفة ، كما أن صعود السلم يسبق القدرة على هبوطه .

نتائج الابحاث : واضح من العرض السريع للابحاث المشار اليها آنفاً أن مدى نجاح التعلم والتدريب يعتمد على النضوج ولعل هذا يرينا اننا فى حاجة لقائمة تتتابع عليها الاعمار التقريبية التى عندها نتوقع ظهور نواحى السلوك المتعددة ، وهكذا يمكننا أن نبدأ التدريب فى الوقت المناسب وبالتتابع الذى تسير فيه الوظائف .

فاذا اضفنا الى هذا ما خرجنا به من أن الوظائف المشتركة بالنسبة للجنس الآدمى كالزحف والحبو والجلوس والوقوف والمشى (تجربة ماك جرو) لا تتأثر بالتدريب المخصص لكل حركة ، بل ان قمعها والوقوف فى سبيلها لا يأتيان الا بتعطل طفيف لا يحس ، فاذا تهيأت الفرصة للطفل لتكرارها من تلقاء نفسه تحسن سلوكه وغطى النقص كله ، بينما فى حالة الوظائف الخاصة

لكل فرد كالقفز من ارتفاعات معينة ، والتزحلق ، والسباحة ، والتوازن ، نحن فى حاجة لتدريب منظم يأتى بأحسن نتائجه لو تكامل اتساق الحركات الاساسية ، اذا تذكرنا كل هذه الحقائق عرفنا مدى تداخل عاملى النضوج والتعلم ، ومدى أهميتهما من وجهة التربية .

نحن فى حاجة اذن لمعرفة العمر الذى عنده نبدأ التدريب ، وفى أى اتجاه نسير به . فاذا بدأ هذا الاخير والطفل لم يكتمل بعـــد فى هذه الناحية فهو مجهود ضائع من ناحيتنا ، فضلا عن أثر الاجهاد غير المثمر على الطفل . وكم من اطفالنا يصابون بالارق والعصبية والتشنج وتقلصات الوجه وارتعاش العضلات نتيجة لتلك الحمى الشنيعة التى نسوقهم فى تيارها فندفعهم لاتقان حركات الامساك بالفنجال أو الملعقة أو تقطيع الطعام بالشوكة والسكين .. أو ارتداء الملابس وتثبيت الازرار حتى الخلفية منها .. كل هذا واعصاب العين وعضلات الاصابع الدقيقة لم تنضج بعد لتعين الطفل على النجاح .. ، بل وكم منا يســـعى لدى هذا وذاك لكى يقبل طفله فى رياض الاطفال أو المرحلة الابتدائية قبل السن المعينة بشهور ، فهذا فى نظرة كسب كبير ..! وهكذا ندفع الطفل لتدريب معظمه ضائع فى حركات النطق والهجاء ، والكتابة الدقيقة على سطور رفيعة والاستذكار .

واذا كانت بوادر النجاح تدفع الواحد منا لمضاعفة العمل فان شبح الفشل قد ينتهى بسلوك من العناد والتحفز من جانب الصغير ، وكلها عناصر مقاومة للتعلم . فلنذكر انا فى حاجة لدراسة النمو ، فهو يرينا الى جانب ما نخرج به من الحقائق أن العضلات الكبيرة كالكتف والذراع تنضج قبل الاعضاء الدقيقة كالمعصم والاصابع ، فمن العبث أن تعطى طفلك قلما رفيعا وتدعوه لتقليد ما تكتب فوق سطور كراسة منتظمة قبل أن ينال الفرصة الكاملة للتخطيط بقطعة من الطباشير فوق سبورة أو لوح كبير ، ثم ينتقل عنه الى الطباشير الملون على كراسة « الباستل » ، ومن العبث أن تعلمى طفلتك الخياطة بالابرة والفتلة قبل أن تتهيأ لها الفرصة لنظم « خرز » واسع فى اشرطة ملونة تعملها اسورة أو عقدا .

الفصل الثانى

حقائق عن النمو

يبدأ الطفل حياته خلية مكروسكوبية دقيقة ، ثم اذا به يصل بعد ٢٨٠ يوما تقريبا الى مخلوق يزن ٨ أرطال وطوله ٢٠ بوصة على وجه التقريب . ومن المؤكد أن النمو هنا سريع جدا ، فإذا عرفنا أن الطفل ساعة الميلاد عبارة عن ثلاثة اعشار ما سيكون عليه فى الثامنة عشرة تقريباً فكأنه يقطع فى تسعة أشهر داخل البطن ثلث المسافة تقريبا الى مرحلة الاكتمال

هذه السرعة فى النمو تستمر خلال السنوات الثلاث الأولى إذا استثنينا الأسبوعين الأولين اللذين يعقبان الميلاد ، إذ تحدث حركة ركود ناتجة من صعوبة تعود الطفل وتكيفه للبيئة الجديدة . ويكفى أن يقارن الأب طفله فى نهاية هذه السنوات الثلاثة الأولى بحالته ساعة الميلاد .. ، انك لتكاد تراه وهو ينمو من أسبوع لأسبوع .. ! ويصاحب هذا نمو سريع فى الناحية العقلية .. ، هناك بناء لحصول لغوى .. واستخدام للتخيل الى أقصى حد .. وتكوين لميول جديدة تتصل بالعالم الخارجى .. وسلوك اجتماعى يغاير ذلك الذى كان يميز العابه حتى الثانية اذ كان يلعب وحيدا أو يهتم بما معه

وتتناقص سرعة النمو قليلا بين الثالثة والسادسة ، فإذا ما قارب الطفل هذه السن الاخيرة أبطأ نموه كثيراً طيلة المرحلة الابتـــدائية وهنا تنصرف حيوية الاطفال المختزنة الى صقل حركاتهم وعضلاتهم الدقيقة فتجد فناء المدرسة الابتدائية يموج بالصبيان وهم فى حركة دائمة .. يتبارون فى الجرى والتسلق والقفز .. ويتنافسون فى الاتزان فيقفزون على قدم واحدة ... يطيرون الطائرات من الورق أو يلعبون البلى .. ، حتى اذا بدا فجر المراهقة تتابع النمو فى حمى عجيبة طيلة سنوات ثلاث تقع تقريبا ما بين الثالثة عشرة والسادسة عشرة مع

سبق قليل فى حالة الإناث ، فيضيع الاتزان الحركى الذى تعب الصبى فى تركيزه فى المرحلة السابقة ، وتنصرف الحيوية كلها الى النمو السريع ، فترى غلمان المدرسة الثانوية فى سنيها الاولى يتحركون فى الفناء فى خمول وتكاسل .. تجدهم فرادى أو على أحسن الفروض أزواجاً ، فإن الواحد منهم ليخشى أن يتحدث لئلا يصدر صوته أجش مضطرب النبرة

وبعد هذا يبطىء النمو فى السنتين أو الثلاث التالية حيث يقترب الفرد من مستوى النضوج فيعود الفتى الى ميدان اللعب مرحاً نشيطاً .. والى المجتمع فيتماسك مع زملائه فى حبهة متينة .. ، هو يغرق فى الالعاب العنيفة كالملاكمة والمصارعة وحمل الاثقال والعاب القوى ففيها يجد منفذا لذلك الدافع الجنسى الذى يتخلل كيانه ، أو الالعاب الجمعية التى تخضع لشروط وقيود منها مكان اللعب وملابسه وقوانين اللعبة ففيها يجد فرصة للتجمع وبذل الجهد فى سبيل هدف مشترك

وسنحاول أن نسوق للقارىء هنا بضع حقائق تميز النمو على اساسها قد تبين عدة نقاط توجه طريق التربية :

أولها — أن النمو يتبع نمطاً معيناً : فكل مرحلة نتيجة لسابقتها ، وهى فى نفس الوقت مقدمة لما يأتى بعدها . وعلى العموم نجـــد أن الضبط الحركى والتحسن فى أجهزة الجسم يبـدآن أولا فى الرأس ثم يتقدمان الى الاجزاء الابعد فالابعد فالحساسية الجلدية مثلا تبـدأ فى الجزء الاعلى من الجسم على العموم قبل أن تظهر فى الاسفل . ويلاحظ هذا لو وخزت الطفل بعد ست ساعات من الولادة بدبوس فى صدغه ثم فى الارداف ، واخيرا فى السطح الجانبى للقدمين

ويلاحظ هذا التتابع فى الوظائف الحركية أيضا . فإذا استلقى الطفل على بطنه ففى امكانه أن يرفع رأسه بعضلات رقبته قبل ان يرفع صدره بذراعيه وعضلات الجذع ، أو قبل أن يجلس . كما يمكنه أن يتحكم فى عضلات الجذع

قبل الذراعين والساقين ، وعضلات هذين الاخيرين قبل اليدين والقدمين . وحتى الموهوبون وضعاف العقول يسيرون فى هذا النمط ولو فى سن مخالف للطفل المتوسط

ثانيا — يسير النمو من العام الى الخاص : يبدو هذا فى أول الامر فى تأثرات الطفل العضلية . فالطفل الحديث الولادة يلوح بذراعه كله فى حركات عشوائية قبل أن يحرك الساعد أو اليد ليتناول شيئا . وهو يرفس بساقيه قبل أن يحدث التناسق العضلى الذى يمكنه من الزحف أو الحبو أو المشى . والطفل يرى الاشياء الكبيرة قبل الصغيرة ، لان حركات عينيه لم تتسق بعد بحيث يمكنه أن يركزهما على الاجسام الدقيقة

وبنفس الطريقة يمكننا أن نلاحظ أن الطفل وهو يمد يده ليمسك بجسم معين وهو مستلق على الظهر فان الامر لا يقتصر على استعماله كلتى يديه بل هو يحرك ساقيه وجسمه كله فى مجهود عام ، فاذا تكاملت للطفل ستة اشهر استطاع أن يقتصر على استخدام اليدين ، وبعد هذا بثلاثة أشهر يمكنه ان يقنع بيد واحدة

وهو اذ يتعلم عملا جديدا كارتداء ملابسه ينشط جسمه كله فى حركات معظمها طائش ، وبالتدريج يقتصر النشاط على اليدين . ثم هو اذ يتكلم يصدر أصوات عامة قبل ان يخصصها الى مقاطع ، تماما كما يبنى الطفل محصوله اللغوى فيبدأ بتعلم كلمات عامة ، فهو يستعمل مثلا لفظة «لعبة» لجميع اللعب التى تعرض عليه قبل أن يفرق الدمية عن الحصان أو الشخشيخة وهكذا

وهو فى تكوينه للأفكار يميز أولا بين الاحياء والجماد ، ثم يميز من النوع الاول الآدميين والحيوانات ، وبعد هذا يتعرف أنواعا من الآدميين كالجنس الابيض والاسود والاحمر والاصفر .. وأخيرا فهو من كل منها يميز شعوبا وأمما معينة

وحتى فى السلوك الانفعالى يتأثر الطفل ازاء الاجسام الغريبة أو الاصوات الحادة بانفعال عام للخوف هو واحد فى كل الحالات يصحبه انقباض الاصابع وتوقف التنفس برهة وجيزة يتبعها تنفس سريع ، وإغماض العينين فى حركة مباغتة . وبعد مدة يبدأ خوفه فى التخصص وتبدو فيه أنواع مختلفة من السلوك حسب اختلاف المواقف ، فهو فى احداها ينزوى ويدفن رأسه فى حجر امه ، وفى اخرى يصرخ ، وفى ثالثة يهرب ؛ واذا كبر فقد يغمى عليه ازاء موقف مرعب ، وهكذا

ثالثا — النمو عملية مستمرة لا تنقطع : إذا كنا سنستخدم عند عرضنا للنمو أسماء لمراحل « كمرحلة العصابات » أو « الطفولة المبكرة » أو « المراهقة » فليس معنى هذا أن هناك أوقات محددة تتميز بنوع معين من النمو يختفى فى مرحلة أخرى ليفسح المجال لغيره

ولقد يظن البعض أن ظهور مجموعة الأسنان الاولى خلال السنين المبكرة من حياة الطفل يوحى بأنها قد نمت فجأة ، ولكن الواقع أن الاسنان تنمو فى الشهر الخامس عند الجنين فى البطن ، ولو انها لا تخترق اللثة إلا بعد مرور خمسة أشهر بعد الولادة . ثم ان الكلام لا يأتى بين يوم وليلة بل هو يتطور بالتدريج من الصرخات والأصوات المتنافرة التى يصدرها الطفل منذ أول عهده بالحياة . إن سرعة النمو تختلف من مرحلة لاخرى كما بينا فى أول هذا الفصل ولكن ليس هناك انقطاع

وقد تفيدنا هذه الحقيقة إذ نذكر آباءنا الذين يتهاونون فى معالجة بعض مسائل أو موضوعات يستوضحها الطفل على اساس أنه لم ينضج بعد ليفهمها . وكم من الآباء والأمهات عندنا لا يجيبون الطفل عند ما يسأل أسئلة جنسية مثل « أنا جيت أزاى » أو « ليه الديك واقف على الفرخة يا ماما ؟ » اعتقاداً منهم بأن العالم الجنسى مغلق بالنسبة للطفل ما دام لم يصل للبلوغ ..! . بل وكم من الآباء والأمهات يتورطون فى علاقات جنسيه فى غرف يشاركهم فيها

أطفالهم الصغار ، اعتقاداً منهم بأن النمو الجنسى لم يبدأ بعد

ربما كان من المفيد أن نؤكد لهذا العدد الكبير أن النمو الجنسى كغيره من مرافق النمو لا يظهر فجأة فى مرحلة المراهقة كشبح ينتصب من الظلام . . ، وتكفى ملاحظة بسيطة للطفل لتثبت انا أنه منذ السنة الأولى كثيرا ما يصحب التصاقه بامه أثناء الطعام واحتضانها أو احتضان ابيه له فى مناسبات متعددة انتصاب العضو التناسلى . وسواء أكان هذا تفكيراً جنسياً أو لم يكن فسرعان ما يتساءل الطفل عن العالم الجنسى تماماً كما يستطلع أى ميدان آخر .

رابعا : ثبات الفروق الفردية فى سرعة النمو : كانت الفكرة الشائعة الى عهدقريب أن الطفل الذى يبدأ حياته أقل من المتوسط فى الناحية الجسمانية أو الذى يبدو عند دخوله المدارس متراجعاً عقليا قد يلحق باخوانه فى مرحلة مقبلة ، فلقد تاتى المراهقة بتغيرات واستطالة سريعة تصل بالغلام الضئيل الجسم الى مستوى اشقائه أو زملائه العاديين

ولدينا من الأدلة العلمية فى الوقت الحاضر ما يجعلنا ندحض هذه الفكرة فاذا لم يكن تراجع الطفل الجسمانى أو العقلى نتيجة عامل عارض كخلل فى افراز الغدد ، أو نقص فى التغذية والظروف الصحية ، أو تسرب السموم الى الدم نتيجة لامراض اللوز أو الزوائد الانفيه ، فاغلب الظـن [1] انه سيحتفظ بسرعة نموه فاذا كان الصبى قبل المراهقة ناميا ونشيطاً فهناك احتمال كبير ان يخرج منها فتى طويل القامة بادى القوة والعكس صحيح

وقد اجرى بولدوين سنة ١٩٢٢ أبحاثه عل عدد من الاولاد والبنات بين السادسة والثانية عشر فوجد ان معامل الارتباط فى حالة الطول فى هذه

---

(١) قد يكون لدى القارىء أمثله مناقضه ، ونحن لا ننفى وقوع بعض الحالات الفردية ، فلقد يضم مستشفى الأمراض العقلية من كان فى حداثته فى طليعة زملائه

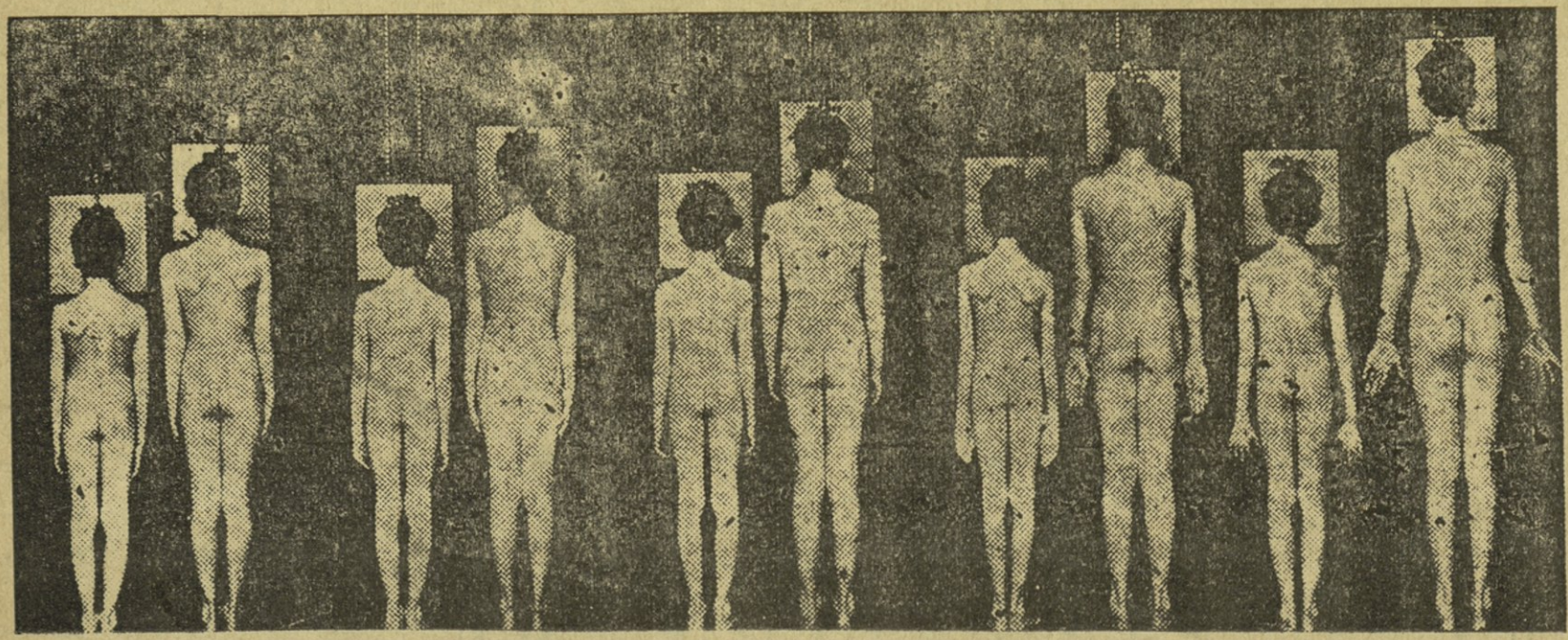

الصبي النامى قبل المراهقة يخرج منها بادى القوة ، والعكس صحيح

الاعمار يصل الى ٨٢٥ و. زائد وناقص ٣٦ للاولاد ٨٠٧ و. زائد وناقص ٢٧ . و. بالنسبة للبنات . وقد جاء تيرمان بعد هذا بأربع سنوات يبحثه القيم على الأطفال الموهوبين وتبعه جيزل فى هذا المضمار بعد سنتين فأثبتا بما لا يدع مجالاً للشك أن العلماء والمخترعين العباقرة كانوا طيلة الطفولة أعلى من المتوسط بكثير. وبنفس الطريقة وجدنا أن المعتوهين لم يلحقوا بزملائهم منذ كانوا صغاراً بل ان ماحدث على العكس من هذا هو أن مر السنين لم يزد تراجعهم العقلى إلا حدة وظهوراً ويرى القارىء فى الصفحة السابقة تطبيقاً لهذه الحقيقة عند الضئال قبل المراهقة والنامين

إن هذه الحقيقة تقوى من قبضتنا نحن المربين على الطفل الى حد كبير ..! فاذا كان للسنوات القليلة الاولى من حياة الطفل كل هذا الاثر على الحياة المقبلة كلها - الى جانب عامل الوراثة بطبيعة الحال - فأى دور ذلك الذى تلعبه التربية وهى تفسح له السبيل للحياة الحقة منذ اول عهده بها ، واية أهمية نعلقها على الابوين وهما يضطلعان بأسمى دور من ادوار حياة وليدهما الصغير فهما اللذان ينقلان اليه صفاتهما المتوارثة عند التلقيح ، ثم يرعيانه وهو بعد نقطة دقيقة فى عالم مضطرب حتى يخرج الى نور الحياة ..!

كم منا يعالج هذه المرحلة المبكرة بحرص واعتناء ..، هنيئا لمصرنا العزيزة ذلك الجيش الضخم من الشبان والفتيات الذين يكونون « الجيل الحديث » ويخرجون الى الحياة وقد امتلات أذهانهم بأفكار عصرية جلبتها المدينة عن ضرورة تحديد النسل ومواجهة الصعوبات الاقتصادية ، وهكذ لا يكاد الزوجان الشابان يستقران فى حياة منزلية حتى يوجها همها الى تجنب إنجاب الاطفال ، فاذا لاحت بوادر الحمل سارعا الى استشارة كبار الاطباء ، واخشى أن أقول عجائز العائلة « المجربين » وتتوالى الاقتراحات ومنها أشعة إكس والراديوم من ناحية ، والوصفات البلدية كالنبيذ الساخن من ناحية أخرى ، ولكن الجنين يستمر فى النمو مع كل هذا فتستقر السيدة للاعتناء به ولكن بعد فوات الوقت .. !

أن معلوماتنا العلمية عن تشوه الجنين الآدمى قليلة ، فلايمكن أن نخضع جنين الانسان لظروف وتغيرات كيميائية لنلاحظ النتائج كما نفعل فى حالة الحيوانات حيث يمكن بسهولة انتاج مخلوقات ذات رؤوس عديدة أو اعين متحورة باستخدام مؤثرات كيميائية ككلورور المغنسيوم أو الاشعة فوق البنفسجية أو تقليل الاوكسيجين وقد نقسم هذه التشوهات فى الانسان الى نوعين : داخلية intrinsic وخارجية ex'rin ic .. ، فالاولى ترجع للوراثة أو لخلل يصيب واحدة أو اكثر من الغدد . فالوراثة قد تسبب وجود اصابع إضافية فى اليدين أو القدمين ، بينما ارتباك افراز الغدد قد تكون نتيجته ضخامة الطفل وطول العظام لدرجة مروعة ، أو ضآله حجمه الى حد غير عادى ، وأسوأ الضرر هو ماتحدثه الغدتان الدرقية والنخامية .

أما الأسباب الخارجية فنتيجة اضطراب فى المشيمة لقلة الفيتامينات أو المواد المعدنية أو السموم فى دم الأم ، كما قد يسببه انقباض الرحم وتهيجه نتيجة محاولاتنا لقتل الجنين وهذا هو مانحن بصدده الآن.

ولكن اذا كانت معلوماتنا العلمية من هذه الناحية قليلة كما قلنا ، فنحن على ثقة من أن خطر حدوث التشوه الجسدى أو العقلى للجنين هو على أشده فى الاسابيع المبكرة حيث لايزال مرناً ليناً وهكذا تأتى محاولاتنا المبكرة للقضاء على الحمل فى هذا الوقت العصيب فتعمل عملها فى دقة واخلاص ..!

إن سجلات مستشفياتنا حافلة فى السنين الاخيره بما يصحب الولادة من مآس .. ، ولقد كثرت حالات الاجهاض والتشوهات بالرغم من ازدياد العناية الطبية ، والفضل فى ذلك راجع بحمد الله الى ماتجلبه المدينة ومجتمعنا الحديث من أفكار وتعقيدات اقتصادية ، فضلا عما تأخذ به فتياتنا اليوم من أحذية عالية واحزمة وكورسيهات .. مما يسىء الى الاجهزة التناسلية والحوض أيما اساءة .

ويظهر أثر كل هذا على الطفل .وكم من منازل نالت من الثقافة والمدنية القدر الوفير ترزق اليوم «بمخلوقات» متراجعة تراجعاً واضحا قد يكون دائما

للاسف نتيجة لضعف أو خلل فى الخلايا الذكرية أو البويضة كأثر من آثار الأمراض السرية ، أو المشروبات الكحولية ، أو إدمان التدخين . . أوقد يكون كما قلنا نتيجة محاولات لقتل الجنين أو تشوه أجهزه الأم . يستقر الزوجان بعد هذا للعناية بالطفل ، وقد تراودهما آمال عديدة عن امكان لحاقه بأشقائه أو زملائه ، ولكننا نود لو نؤكد لهم على ضوء الادلة العلمية وماوصل اليه تيرمان عن الموهوبين وميد عن ضعاف العقول أن الحالات الدائمة لن تزيد إلا حدة والهوة اتساعا بمرور الزمن .

خامسا ـ الاعضاء المختلفة لاتنمو بسرعة واحدة : هى نتيجة للفكرة التى سبق عرضها من ان الطفل ليس «مصغر رجل» . فبعض الاعضاء كالمخ يصل تقريبا الى الحجم الكامل من سن سنتين الى ثمانية ، ولو أنه يتغير بعد هذا فى التلافيف واللحاء ومكوناته الداخلية . بينما الاقدام والايدى والانف تصل الى اقصى نموها فى اوائل مرحلة المراهقة ، كما أن هذه المرحلة هى موعد النمو السريع للقلب والرئتين والجهاز الهضمى والاجزاء الظاهرة للجهاز التناسلى

واوضح من هذا القدرة على التخيل ، فهى تنمو بسرعة كبيرة فى الطفولة وتبدو كما لو أنها تصل للذروة فى الصبا ثم تعود الى التحدد والانكماش ، وحتى فى الذاكرة نجد ان الذاكرة للاجسام المحسوسة والحقائق تنمو اسرع من الذاكرة للاشياء المجردة والمادة النظرية ، أما الذكاء العام فيستمر فى النمو ليصل للذروة حول السادسة عشرة .

سادسا يمكن فى معظم الحالات التنبؤ بمستقبل الطفل : هذه الفكرة وليدة النقطة الرابعة ، فاذا كانت سرعة النمو ثابتة لكل طفل فإنا نستطيع فى سن مبكر ان نحدد بالتقريب المدى الذى سيصل اليه الطفل عند اكتمال نضوجه ولسنا فى حاجة للافاضة فى فائدة هذا فى وضع نوع معين من التربية للطفل ومساعدته للتدرب على نوع من العمل هو أصلح له من غيره كما يعتمد الغربيون كثيراً على هذه الحقيقة عند اختيارهم الأطفال للتبنى

وقد وجد جيزل أنه فى ٨٠ فى المائة من الحالات كان التقدير النهائى بعد الملاحظات والابحاث لنمو الطفل يتمشى مع الرأى الاول . ولم يشذ من بين ٢٢ حالة وضعها جيزل من أول الامر على انها حالات ضعف عقلى سوى واحدة وقد عزز هذه الحقيقة تيرمان حيث درس حالة عظماء الرجال والنساء الذين عاشوا منذ سنة ١٤٥٠ ، سنة ١٨٥٠ ، فوجد أنهم كانوا متفوقين كثيراً فى الطفولة

سابعا ـ معظم صفات ومظاهر النمو مترابطة : كان المظنون الى عهد قريب ان «التعويض» قانون يسرى على الاطفال فى نموهم ، فالطفل المتراجع فى ناحية كالنمو العقلى مثلا هناك احتمال كبير ان يعوض هذا بأن يكون ذا صحة جيدة أو قدرة ممتازة على الاشتراك الاجتماعى ، أو احدى القدرات الخاصة كالميكانيكية أو الفنية . ولكن الامر على العكس ، فضعاف العقول ينحون نحو ضآلة الحجم ، والمعتوهين أو المأفونون هم أضأل الناس جسداً . وبنفس الطريقة وجد ان الذكاء المرتفع يتمشى مع النضوج الجنسى المبكر ، ولو ان هناك عوامل مناخية وجنسية واقتصادية يجب ان ندخلها فى حسابنا

ثامناً ـ كل مرحلة نمو تتميز بصفات خاصة : اذا كان النمو عملية مستمرة كما أشرنا فان هناك صفات تبرز فى اعمار معينة لتغطى عليها غيرها فى اوقات أخرى فالنمو الجسمانى فى حالة الجنين ، والطفل فى سنيه المبكرة حتى الثالثة ، والمراهقة ، يلعب دوراً أهم بكثير مما يصاحبه من المميزات حتى ليلون عدة صفات عقلية

وبنفس الطريقة نجد الترقى الاجتماعى يميز الطفل من الثالثة حتى الثانية عشرة ، وعدم الضبط العضلى يميز المراهقة .. بينما مرحلة البلوغ تتميز بحب الظهور واصطناع الحركات الصارخة كالصفير والقهقهة والملابس ذات الالوان البراقة

تاسعاً ـ لكل مرحلة مظاهر سلوكية غير مستحبة ستنتهى بانتهائها : كثيراً مايحدث أن الآباء لجهلهم بمثل هذه المظاهر غير المستحبة التى يتوقع حدوثها فى سن معينة يألمون أشد الألم ويشعرون أن حياة الطفل ستتحطم

تماما فيحاولون ما فى وسعهم للتغلب عليها ، وهكذا يزداد تعقد السلوك وشذوذه . ومن أمثلة هذا « الكذب الخيالى » الذى أشرنا اليه فى حالة الطفلة التى تقص قصصاً خيالية ، أو الخوف من الظلام . . ، هذه مراحل تنتهى من تلقاء نفسها كلما قلت سيطرة الخيال على الطفل وكلما ازداد عرفانه بالحقيقة .

وكثيراً مانرى الطفل العادى من سن خمسة الى سبعة يغرق فى القذارة ، وكأنما يقول « لم أتعب وأهتم بالاستحمام أوغسيل يدى مادمت سأتسخ بسرعة؟ » وبينما يقلق هذا الاتجاه أمه قلقا كبيراً نجد ان الطفل من تلقاء نفسه يتأرجح الى نهاية الطرف الآخر فيصبح مهتما بمظهره الخارجى ، أنيقاً الى أبعد حدود الاناقة ، يختار لون ملابسه وربطة رقبته بمنتهى الدقة والعناية حتى لقد يتعطل عمله المدرسى فتقلق الأم ثانية لئلا يصبح « عايق زى البنات » . . ! ولكن ينبغى ألا تخشى شيئا ما دمنا لا نتدخل لقمع السلوك فى كل حالة ، فستستمر هذه المرحلة فى سنى المراهقة لتترك الفتى شاباً عادياً متزنا .

العوامل المؤثرة على النمو

لا يغربن عن بال القارىء ان هذه المعايير التى سنضعها فى الفصول القادمة ليست ثابتة محددة الأركان ، ويهمنا ان تحتفظ بمرونتها ، فلابد ان يتاح السبيل للنمو الفردى ، فضلا عن ان النمو يخضع لعدة مؤثرات قد تجعل طفلك يخالف قليلا ماسنعرضه ، وأول هذه المؤثرات :

الذكاء : فالطفل الذى يحظى بذكاء أعلى من المتوسط يتميز بنمو سريع بينما الطفل المتأخر فى الذكاء بطىء أيضا فى النمو وينطبق هذا ايضا على سن النضوج الجنسى ، فالموهوبون ينضجون عاماً او اثنين قبل المتوسط والمعتوهون قد لا ينضجون مطلقا . وقد درست عمليات المشى والكلام عند اطفال كثيرين وقارنها تيرمان بالمجموعة المنتخبة لاطفاله العباقرة فخرجنا من هذا بالرسم

البيانى الآتى ، حيث يعرض (١) متوسط وزن الاولاد عند الولادة بأرباع الارطال (٢) متوسط وزن البنات (٣) النسبة المئوية لمن رضع من الأم ثمانية أشهر فأكثر (٤) سن بدء المشى بأنصاف الاشهر (٥) سن بدء الكلام (٦) النسبة المئوية للاولاد فى سن ١٢ سنة ظهرت لديهم علامات البلوغ (٧) النسبة المئوية للبنات قبل سن ١٢ سنة ظهرت لديهم العادة الشهرية .

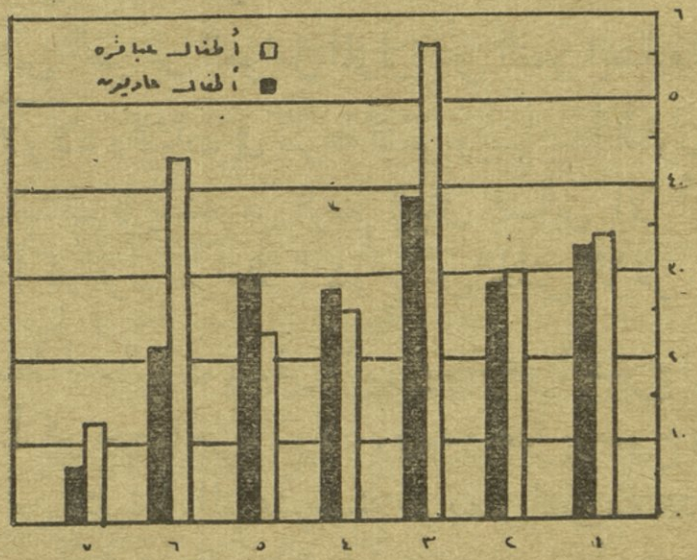

ثانيا : التغذية : لا نزاع فى أن هذه العامل ، وعلى الاخص فى السنين المبكرة من الحياة ، مهم كل الاهمية لتوفير نمو الطفل فى الطريق الصحيح . ولعل كمية الطعام المتناولة ليس لها من الاثر ما لمكوناته من المواد الغذائية وعلى الاخص الفيتامينات

وإن ماتراه من حالات تسوس الاسنان وتشوهها ، ولين العظام لدى الأطفال ، والامراض الجلدية ، وعشرات الاضطرابات المشابهة ، تعود مباشرة الى نظام التغذية الخاطىء أثناء الطفولة المبكرة أوفى الوقت الذى كان فيه الجنين فى البطن .

ويكفى ان نقارن أطفال الطبقات الغنية بزملائهم ممن نشأوا فى بيئات بسودها الفقر فيؤثر هذا على الطعام لتعزز بذلك أثر عامل التغذية فى النمو ، بل إن لنا أن نقول انها تؤثر ضمناً على الذكاء فنقص أنواع معينة من الفيتامينات

قد يسبب البله، ولنا فى ذلك الرسم البيانى الذى سقناه منذ قليل دليل على ارتباط الذكاء بمدة الرضاعة من الام إذ أن هناك نسبة مئوية عالية جدا بين العباقرة استمرت رضاعتهم ثمانية أشهر على الأقل، وفى هذا رد مفحم على سيداتنا المودرن، اللاتى يحرصن على ثديهن من التهدل فيفطمن الطفل بعد شهر من الولادة على الاكثر اعتماداً على امتلاء السوق بالمستحضرات الطبية التى تقارب لبن الأم الى حد كبير وتسد حاجة الطفل للغذاء الكامل !

ثالثا ـ الجنس : هو من العوامل المؤثرة على النمو ايضا. فهناك اختلافات جوهرية بين الاولاد والبنات فى سرعة النمو. وبينما يبدأ البنون حياتهم بحجم أكبر قليلا من البنات كما يتضح من الرسم البيانى السابق الا أن الاخيرات ينمون بسرعة أكبر قرب مرحلة النضوج عن الجنس الاخر .

وفى المتوسط نجد البنات يسبقن البنين بسنة نحو النضوج الجنسى ، وهن فى هذا الوقت أكبر حجما من الاولاد . ويبدو هذا بوضوح فى المرحلة التى تسبق البلوغ ، من عشرة الى اثنى عشرة سنة . وبنفس الطريقة نجد أن النمو العقلى كما نصل اليه عن طريق اختباراتنا العقلية يبرز بعض الاختلاف فى السرعة فى مصلحة الاناث ، فهن ينضجن عقليا ويصلن الى النهاية قبل الاولاد بقليل وانك لتجد البنت فى الرابعة عشرة أقدر على مجابهة الحياة ومسئولية الحياة الزوجية التى قد تتهيأ لها من الولد فى هذه السن

رابعا ـ الغدد الصماء : من المعلوم أن الكلسيوم هو المادة التى تفرزها الغدد فوق الدرقية الموجودة فى الحنجرة ، فاذا حدث خلل فى هذه الغدد تأثر نمو العظام ونتج عنه زيادة اجهاد العضلات .

ثم ان اليود الذى تفرزه الغدد الدرقية الموجودة أيضا فى الحنجرة قد يعطل النمو الجسمى والعقلى اذا اختل افرازه وكثيرا ما يكون خلل الغدد الدرقية هو السبب فى تلك السحنة المشوهة التى نراها فى الشخص الابله ، Cretinism

أما الغدة النخامية وتوجد بين سقف الحلق والمخ فيما يسمى «السرج التركى» وباللاتينية Sella turciea فتنقسم قسمين.. الامامى يؤثر على نمو العظام والغدد التناسلية والخلفى على الدورة الدموية وقد يتسبب عن اضطرابها المنغولية mongolism وهى نوع من التأخر العقلى يتميز بمظاهر على الوجه تشبه التتار أو سكان منغوليا، وعلى الأخص العيون المنحرفة.

فاذا نشطت الغدة التيموسية، وموضعها فى الصدر، أو الصنوبرية، فى أسفل المخ، نشاطا يفوق الحد المناسب نتج عن هذا تعطل النمو فيحتفظ الطفل بمميزات الطفولة ومظاهرها فى جسده وعقله مدة طويلة.

واذا قل افراز الغدد التناسلية تأخر ميعاد المراهقة، بينما نشاطها الزائد يسبب المراهقة المبكرة، وهى حالة شاذة يكون فيها الطفل ناضجا جنسيا حتى بين الثالثة والرابعة. وقد لاحظ جيزل أن هذه الحالة تنتج تأثيرا مشتتا للنمو كلية فيحدث ارتباك فى القدرات العقلية.

خامسا ـ الاصابات والامراض: نعنى بالاولى تلك التى يتعرض لها وعلى الاخص التى تصيب الرأس. اما الأمراض فاخطرها تلك التى تصيب الطفل فى سن مبكر وتترك أثرا جسديا أو عقليا، وعلى الأخص مرض التيفويد حيث نتعرض فى معظم الاحوال لخطر العجلة فى ارسال الطفل للمدرسة قبل أن يستعيد صحته تماما.

وهناك غير هذا التوكسينات التى تتجمع فى الدم نتيجة للامراض أو الادوية الكحولية أو «البنج»، والسميات الناشئة عن التهاب اللوز أو وجود زوائد أنفية. فاذا لم تكن هذه الحالات واضحة شديدة التوتر فان تأثيرها ينصب فى الغالب على النمو الجسمانى.

سادساً ـ المناخ والاجناس: اظهرت الفروق فى النمو بين الاجناس أن اطفال شعوب البحر الابيض المتوسط اسرع فى نموهم الجسمانى من اطفال شعوب أوروبا الشمالية. كما وجد أن اطفال قبائل النجرو والشعوب الهندية ابطأ نموا من الاجناس البيضاء والصفراء.

سابعا ـ موقف الطفل فى الاسرة : هذا العامل يتخذ تأثيره من ظروف البيئة أكثر من الظروف الطبيعية . وانا لنجد الطفل الثانى والثالث والرابع فى العائلة ينمون فى العادة أسرع من الطفل الأول لا لاختلاف ظاهر فى الناحية العقلية بل لأن الأطفال الاصغر يزداد لديهم احتمال تقليد اخوتهم واخواتهم الاكبر سنا والاتصال بهم فتزداد الفرصة للحركة والتجريب .

أما الطفل الأصغر فى العائلة ، وخاصة اذا كان يصغر آخر شقيق قبله بسنوات عديدة فينحو نحو البطء فى النمو لأن الاحتمال كبير فى أن يجد معاملة ممتازة فيها كثير من البذل من ناحية السلطة المنزلية ، وهكذا لا يجد فى البيئة الرخوة ما يدفعه لتمرين أو استخدام قدراته الفطرية

ويقال بشكل عام ان الطفل الوحيد فى العائلة ينمو فى الناحية العقلية أسرع من زملائه العديدين فى العائلات المتعددة الاطفال ، ولكنه ابطأ منهم فى النمو الحركى . ويبدو أن تفسير هذا هو أن سرعة النمو العقلى ترجع الى اتصال الطفل المستمر بالكبار مما يستثير قواه العقلية ، بينما التراجع فى النمو الحركى قد يرجع الى نقص فى الدافع للحركة ينتج من انه لا يحتاج لعمل شىء فهو يجد كل مطالبه معدة بواسطة أبويه .

الفصل الثالث

الطفل الحديث الولادة

تمتد هذه المرحلة علمياً الى ما يقرب من أسبوعين بعد الميلاد . وهى فترة تعادل وتوازن يمر أثناءها الوليد فى محنة شديدة اذ يخرج من بيئة هادئة ثابته نسبيا الى عالم صاخب ملىء بالمؤثرات المتنافرة ، فتقع على حواسه مختلف الالوان والاصوات والضغوط والتغيرات الحرارية ، فضلا عما يناسب أجهزته الداخلية من تكيف بمجرد انقطاع الحبل السرى ، اذ ينتقل الوليد من مخلوق طفيلى يعتمد تماما على الام فى الغذاء والتنفس والاخراج ، الى شخص مستقل يتناول الطعام فيهضمه ويمثله ، وتتردد رئتاه فى شهيق وزفير منتظمين بمجرد صرخة الميلاد ، ويعمل جهازه الاخراجى فيسبب له سرورا واضحاً يبدو فى الاسترخاء واللذة والمناغاة القانعة الراضية التى تصحب نزول الفضلات

وسنقدم لهذه الرحلة ببضع حقائق عن الجنين ربما يهم قراؤنا وقارئاتنا الالمام بها. يبدأ تكون الجنين منذ تلقيح البويضة الأنثية بواسطة الخلية الذكرية الى ساعة الميلاد ، وهى فترة تمتد الى ما ينوف عن تسعة أشهر ميلادية ، أو ٢٨٠ يوماً

وقد ظل الانسان قروناً عديدة يردد سؤالين هامين عن هذه الفترة :

الاول . . هل يمكن التنبؤ بما سيكون عليه الطفل عند ولادته .. ، أهو ذكر أو انثى ؟

والثانى ... هل يقدر الاب والام أن يتحكما فى الجنين ... فيجعلا منه ذكرا أو انثى ؟

وكم من الخزعبلات تدخلت لتملا أذهان العامة فى كل شعب بأفكار

مضحكة عن ماتين المشكلتين ..! فعند العامة من الالمان خرافة عجيبة تقول انك اذا بللت حبة من الشعير وأخرى من القمح فى بول السيدة الحامل ثم زرعتهما ففى الامكان التنبؤ بالجنين بملاحظة ايهما ينمو أولا . فالشعير علامة على البنت ، والقمح على أن المولود ذكر .

وقد تدخل العلم ليجيب عن السؤال الاول بعدة طرق أكثر دقة .. ، منها اولا قياس نبضات القلب .. فاذا كان النبض ١٢٥ أو أقل فى الدقيقة دل هذا على أن الجنين ذكر ، وان كان ١٤٤ أو أكثر حكمنا بأن المخلوق انثى

وهناك طريقة اخرى هى استخدام أشعة اكس . وهى تعتمد على معرفتنا لحقائق تختص بتصلب الغضاريف ، فهى فى البنت أسرع . ولكن كلتى الطريقتين لا تستطيع ان تقطع برأى أخير فى هذه المسألة المعقدة اذ أن الفروق الفردية بين مخلوق وآخر تقلل من رجاحة الحكم

أما السؤال الثانى فهو أعمق وابعد خطراً ، بل لنقل انه يطوى الاول بين جنباته فلو تحقق لتفرع منه الآخر فى يسر ونعومة. ومع هذا فإنا نستطيع ان نقطع فيه بتفسير علمى ، على الرغم من عشرات النظريات التى نشأت من قديم الزمن وحاولت أن تحله .. ، فبعضها يؤكد أن تلقيح البويضة بمجرد العادة الشهرية ينتهى بتكون الانثى .. والبعض الآخر يقول ان الطعام الذى تتناوله الحامل له كل الاثر فى نوع الجنين ، فإذا اكثرت السيدة من أكل السكر كان المولود أنثى .

وقد وجد هذا الرأى الاخير سندا قويا فى تقرير قدمه أحد الاطباء الالمان يؤكد فيه أن درجة الحموضة أو القلوية Ph. value للافرازات الموجودة بالمهبل قد تؤثر على الجنين. ومن المعلوم أن المهبل لدى المرأة يحتوى فى كل لحظة كمية من الافرازات تعلق بجوانبه ، ففى وقت ما قد تسود الدرجة القلوية هذه الافرازات فإذا حدث التلقيح نتج مولود ذكر ، أما الحموضة فيتسبب عنها تكون الانثى

الى هنا يتوقف التقرير ، فلم يشر الطبيب مثلا الى امكان التحكم فى درجة

حموضة أو قلوية هذه الافرازات ، ولكنه ينتهى باشارة توحى بأن انواعاً معينة من الطام قد تؤثر على هذه الدرجة . فليس من الغريب اذن أن نرى العامة كما قلنا يؤمنون بأن الاكثار من أكل السكر مثلا يؤدى الى انتاج جنس معين بل ولعل هذه النظرية الطبية تلقى ضوءاً على خرافة الاستحمام بالدم وهى واسعة الانتشار لدى العامة من المصريين ، ومن المعلوم ان الدم قلوى .

وهناك غير هذا من يزعم أن للشهر الذى يحدث فيه التلقيح أثر كبير . والعجيب أن هنا أيضا أساساً طبيا الى حد ما وهو « نظرية المبيضين » . فمن المعلوم أن المبيضين لدى المرأة يتبادلان افراز البويضة . ففى شهر معين ينشط أحد المبيضين ثم يستريح فى الشهر التالى ريثما يقوم الآخر بالعمل وهكذا . ولكن النظرية تؤكد بعد هذا أن أحد المبيضين ينتج جنساً معيناً والثانى مسئول عن الجنس الآخر . بمعنى انه اذا حدث التلقيح فى الوقت الذى ينشط فيه المبيض الايمن مثلا كان المولود ذكراً ، واذا جاء فى الشهر التالى كان أنثى .

كيف نعرف اذن ما اذا كان المبيض النشيط الآن مبيض الذكور لا الاناث حتى نضمن نتيجة التلقيح؟ بحساب الاشهر بالتبادل . لنأخذ حالة الطفل الاخير فى العائلة وليكن ذكراً . فى أى شهر ولد ؟ فى اواخر فبراير مثلا . علينا أن نحسب للخلف ٢٨٠ يوما فنجد أن التلقيح حدث فى شهر مايو . لنا أن نقول اذن انه فى هذا الشهر كان المبيض النشيط هو مبيض الذكور . وبعد هذا يسهل حساب الاشهر التى يعود فيها هذا المبيض للعمل حتى الوقت الحاضر .. فيمكن ترتيب شهر التلقيح على هذا الاساس . ونحن نسوق للقارىء هذه النظرية كاحدى وجهات النظر الى مشكلة التحكم فى النسل وسيجد انها اذا نجحت فى بعض الاحوال فلن يكون النجاح حليفها على الدوام .

ولقد عنينا بالافاضة فى بعض هذه النظريات لنقدم القراء للتفسير العلمى الصحيح والنظرية الوحيدة التى يمكنها أن تقف على قدميها . ونعنى بها نظرية الكروموسومات . والكروموسوم يطلق على كل من الوحدات المكروسكوبية

الدقيقة الموجودة فى خلايا الكائن . وقد دلت الابحاث على أن كل فصيلة من المخلوقات تتكاثر عن طريق التلقيح فيها أحد الجنسين يحوى كروموسوما واحداً مخالفاً لكل ما فى خليته أو فى خلية الجنس الآخر. وقد وجد أن الخلية الذكرية فى الانسان هى التى تحوى هذا الكروموسوم المخالف . وسنتناول هذا الأمر فى شىء من الايضاح .

إن البويضة كما يرى الى يسار الرسم المصاحب ، تحوى ٤٨ كروموسوماً كلها متشابهة تتجمع فى ٢٤ زوجاً ، وسنسمى كل وحدة منها س . أما الخلية

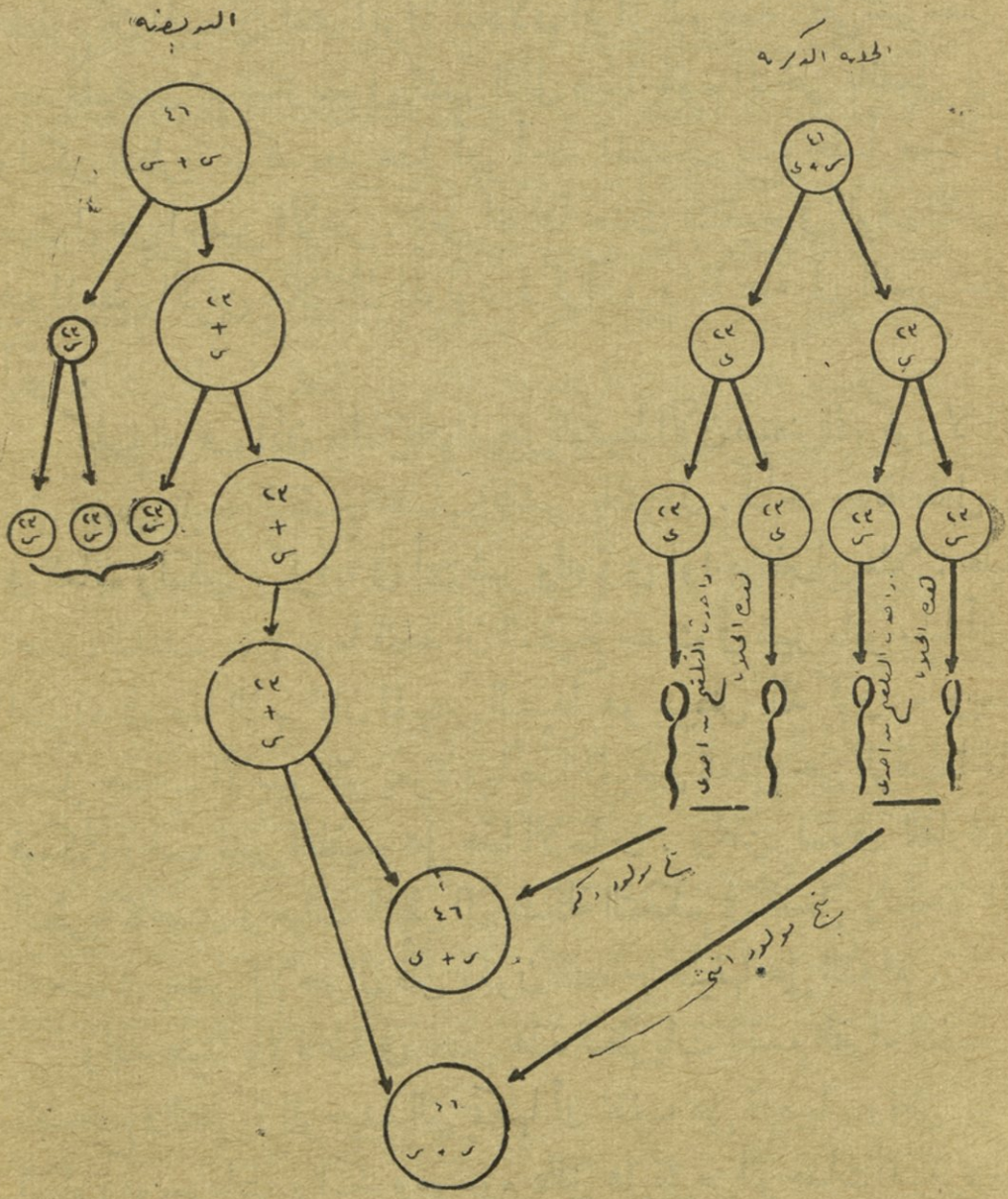

الذكرية ففيها هى الاخرى ٤٨ كروموسوما (٤٧ منها س ، وواحد أخير مخالف سنسميه ى) يتجمع ٢٣ منها فى ازواج ويبقى بعد هذا زوج أخير غير متناسق واحد منه س والآخر ى .

بعد هذا تنقسم البويضة مرتين وتنتهى الى واحدة ناضجة بها ٢٤ كروموسوم س ، وقد قسمناها لسهولة مقارنتها بالخلية الذكرية الى ٢٣ كروموسوم س + كروموسوم س . أما الخلية الذكرية فتنقسم فى المرة الاولى الى خليتين فينفصل كل كروموسوم عن زميله وبذا يصبح فى كل ٢٣ كروموسوم س ، أما الزوج الاخير غير المتناسق فينفصل واحد منه س الى إحدى الخليتين والآخر ى يستقر فى الخلية الأخرى . ويحدث الانقسام الثانى فتصل الخلايا الذكرية الى اربعة اثنتان منها كالبويضة تماما واثنتان مخالفتان فى كل منهما كروموسوم ى ، وواضح انهما تحملان الصفات الذكرية

هنا تقف البويضة لتلقح بواسطة واحدة من الخلايا المواجهة ، وتبعا لنتيجة هذا التلقيح يتحدد جنس المولود . فاذا سبقت احدى الخلايا الحاملة كروموسوم ى غيرها (الى يمين الرسم) كان المولود ذكرا ، واذا كتب السبق لاحداها الحاملة للكروموسومات س كان المولود أنثى .

أما لمن يكتب الفوز فى هذا السباق وهو بيت القصيد فصدفة محض . ومن المعلوم أن الحيوانات المنوية يحوى كل منها ذيلا شعريا تضرب به ذات اليمين وذات اليسار فتندفع خلال السائل المنوى داخل المهبل ثم الى الرحم واخيرا الى بوق فالوب حيث تنتظر البويضة الناضجة الفائز منها . وفى هذا الطريق الطويل تتدافع أعداد هائلة من الحيوانات المنوية ويتدخل عامل الصدفة الى حد كبير . هذا هو موقف العلم من مشكلة التحكم فى النسل حتى وقتنا الحاضر وهذه هى نهاية ما وصلنا اليه فى تفسير هذه المشكلة التى دوخت الانسان منذ فجر الحياة .. أو لنقل انها قرابة النهاية فلقد جاءت الايام الاخيرة ببحث يعتبر ضربة مفاجئة لو صحت لقلبت كثيرا من الاوضاع !

ذلك انه امكن كما يزعم طبيبان من علماء الالمان تحليل الحيوانات المنوية الى

عنصريها ، وباستخدام نظرية القوة الطاردة المركزية أمكن فصل الخلايا الحاملة للصفات الأنثية (كلها س) عن تلك التى تحوى الصفات الذكرية (بها كروموسوم ى) ، واعالة كل نوع منها منفصلا عن الآخر ، ثم تلقيح الانثى بنوع معين منها دون الآخر وبذا يمكن التحكم فى جنس المولود . . !

وبقدر ما فى هذه النظرية من البريق نسرقها للقارىء بمنتهى الحذر ، فليس نجاحها فى ستين أو سبعين فى المائة من الحالات يعتبر نجاحا ذا مغزى ، اذ أن الانسان بطبيعته يجزع لادخال عنصر الصناعة فى عملية تتصل باعمق جذور الحياة البشرية كلها ، فضلا عن أن النجاح لا يقتصر على انتاج جنس معين من الاطفال بل علينا أن نتأكد أن عنصر التحليل والصناعة لم يؤثر على الطفل كمخلوق له كيانه وشخصيته وهى نقطة ليس فى مكنتنا أن نقطع فيها برأى حاسم قبل مرور سنين عدة .

وسنتناول الآن العوامل التى قد تؤثر على نمو الجنين .. وأولها :

الطعام : اذ من الواضح أن هذا النمو سريع جدا خلال مدة الحمل ، من خلية مكروسكوبية دقيقة الى مخلوق قد يصل طوله الى ٢٠ بوصة . ثم إن هذا النمو يزداد جدا قرب نهاية الحمل أى منذ الشهر الخامس ، واذن فمن المهم جدا أن تختار الام طعامها لتحقق حاجات الجنين .

ومن المعلوم أن السيدة فى الحالة العادية تحتاج الى ٢١٦٠ سعرا حراريا فى اليوم ترتفع الى ما يقرب من ٣٠٠٠ أثناء الحمل ، وذلك تبعا لوجود الجنين . وليس المهم كمية الغذاء وانما الانواع التى يحتويها والتى سنقسمها الى :

١ — مواد غذائية ٢ — مواد معدنية ٣ — فيتامينات

١ — المواد الغذائية : يمكن أن نقول بوجه عام إن على السيدة الحامل أن تتجنب الاكثار من من الطعام فى كل وجه بل لتكثر من الوجبات وتخفف من الكمية فى كل مرة . أما التوابل والمواد الحريفة اللاذعة ، ومثلها المشروبات الكحولية والقهوة والشاى المركز ، فيجب تجنبها . واللبن من أنفع المواد الغذائية فى هذه الفترة ، ولعل لتراورباً يوميا كمية مناسبة . أما

اللحم فيجب أن يتناول مرة واحدة يومياً ، والكبد مرة أسبوعياً على الاقل والسمك البحرى لأنه غنى باليود .

بعد هذا يمكننا ان نقسم المواد الغذائيه حسب ترتيب أهميتها الى :

ا — مواد نشوية : يحتاجها الجنين لامداده بالقوة والحيوية . وتحتاج السيدة الحامل من النشويات الى مابين ٥٠ ، ٥٥ فى المائه من القيمة الحرارية التى يحتويها طعامها (حوالى ١٦٥٠ سعراً حرارياً) أى ماينتج من تعاطى مازنته ٥٣٢ جم تقريبا من النشويات (١) وأهم مصادرها الخبز (يحوى القمح والذرة ٧٣ فى المائة من وزنهما نشويات) والعسل الابيض ٨٠ فى المائة والمربات والفواكه ومن اغناها البلح ٧٥ فى المائة ثم العنب والبرتقال والارز والشعير ٧٩ فى المائة والمكرونة ٧٤ فى المائة والبطاطس ١٩ فى المائة والبطاطا ٢٠ فى المائة وبعض البقول كالفول والبسلة الجافة ٦٠ - ٦٢ فى المائة وأهم المصادر الحيوانية اللبن ٩ر٣ فى المائة والكبد ٤ فى المائة

ب — مواد دهنية : وهى مهمة لتكوين الانسجة الشحمية للجنين ، كما تمده بالوقود وتعطيه كمية احتياطية من الشحم . ويجب ان تكون مابين ٣٠ ، ٣٥ فى المائة من القيمة الحرارية لطعام الحامل ، أى حوالى ٩٠٠ سعراً حرارياً يومياً تنتج من تعاطى ١٠٠ جم على وجه التقريب . ويمكن الحصول عليها بسخاء من لحم الضأن الدسم ٧٦ - ٨٠ فى المائة والقشدة ٣٥ فى المائة والجبن الدوبل كريم ٣٢ فى المائة وهناك غير هذا البيض ١١ فى المائة واللبن ٩ ر٣ فى المائة . أما اذا لجأنا الى الأصل النباتى فانا نجدها فى الزيوت ١٠٠ فى المائة والبندق واللوز ٦٤ فى المائة والشكولاته ٥٣ فى المائة والزيتون ٥ر١٣ فى المائة

---

(١) من المعلوم طبيا أن كل ١ جم نشويات تعطى ١ر٣ سعراً ، ١ جم دهنيات تعطى ٣و٩ سعراً ، ١ جم بروتينات تعطى ١ر٤ سعرا

ولكننا نفضل الدهون الحيوانية لان النباتية تسبب بعض التغيرات فى الدم والبول

ج - بروتينات : وهى ضرورية لبناء وتعويض أنسجة الجنين ويجب أن تكون ١٥ فى المائة من القيمة الحرارية أى ٤٥٠ سعرا تهيئها للام ١٠٩ جم تقريباً ويجب ان يأتى ٦٠ فى المائة على الاقل منها من أصل حيوانى كاللحوم وخاصة الكبد والكلى ١٨ - ٢١ فى المائة ، والطيور ٢٢ فى المائة والسمك ١٨ فى المائة والبيض ١٢ فى المائة ، وهناك غير هذا اللبن والجبن بنسب قليلة ٣-٧ فى المائة ويأتى الباقى من المصادر النباتية كالبقول والحبوب كالبسلة والعدس والفاصوليا والفول ٢٠-٢٤ فى المائة

٢ - المواد المعدنية : أهمها الكلسيوم والمطلوب منه يومياحوالى ١ر٥ جم على الاقل . وتزداد الحاجة إليه كلما تقدم الحمل حيث يبدأ تصلب الغضاريف عند الجنين .ولو نقصت كميتهفقد يصاب الطفل باين العظام . وأهم مصادره الجبن ٩ جم (فى كل كيلو جرام) واللبن ١ر٢ جم والبيض ٦ر٠ جم والتين ٢ جم والعسل الاسود ١ر٨ جم

ويليه الفوسفور ، وتحتاج الحامل الى ٢ جم يوميا ، ويوجد فى البيض ٤ جم والجبن ٦ جم والبسلة والفول الجاف والعدس ٤ جم

ويأتى بعد هذا الحديد ، والكمية اللازمة منه ١٥ ملليجراما يومياً .ويمكن ان نحصل عليه من الكبد والكلى ١٢ ملليجرام (فى كل ١٠٠ جم) والعسل الاسود ٣ر٩ والبيض ٧ والفول والعدس والبسلة ٦- ١٠ ملليجراما والسبانخ ٤ر٥

وقد توخينا فى كل حالة ذكر القدر الذى يحويه كل صنف من الطعام من المواد اللازمة حتى يمكن القارىء ان يكون صورة تقريبية لجدول كامل لطعام السيدة الحامل .

٣ - فيتامينات : إذا كانت الفيتامينات كلها مهمة فانا لنشير بنوع خاص الى ضرورة توفر فيتامين E ، لمنع وفاة الجنين فى داخل الرحم خصوصا فى الاشهر الاولى حيث يحتمل ان يمتص الجسم البويضة الملحقة أو الجنين الصغير . كما

يجب أن تحصل الحامل أيضا على فيتامين K لأن نقصه قد يسبب نزيفا للام أو للجنين نفسه .

ويوجد الأول فى الحبوب ولاسيما القمح ثم فى الخس . ويوجد بكمية أقل فى الزبد واللبن واللحم وصفار البيض . أما الثانى فمن أهم مصادره الخضراوات (السلطات) والتنبيط والكرنب والسبانخ وقشر البرتقال .

أما التغذية عند الطفل فتبدأ بعد ١٢ ساعة من الولادة . وقد ثبت أن أحسن غذاء للطفل هو لبن الأم لاسيما أمه . ولكننا نعفى الأم من ارضاع طفلها فى واحده من هذه الحالات :

(١) إصابتها بمرض السكر (٢) السل (٣) هبوط فى القلب (٤) أمراض معدية (٥) اذا كانت الحلمات غير ظاهرة

واللبن فى اليومين الاولين خفيف يسميه العامة «السرسوب» Clostrum وهذا اجراء تهيئه الطبيعة الرحيمة لاعداد أمعاء الطفل لهضم اللبن نفسه وهو أعسر هضما .

ولنقص كمية الماء فى اللبن الخفيف يجب إعطاء قليل من الماء المحلى بالسكر بعد رضاعة « السرسوب » مباشرة

وفى اليوم الثالث يبدأ اللبن فى النزول ، وهنا يجب وضع الطفل للثدى كل ثلاث ساعات ابتداء من السادسة صباحا الى التاسعة مساء . أما فترة الليل فيعطى الطفل فيها كراوية أو يغسون بالملعقة لا البزازة لئلا يرفض ان يتعاطى الثدى فيما بعد وكمقدمة للفطام كما سنشير فى حينه .

وعلى الطفل أن يتبادل الرضاعة فى كلى الثديين فى كل وجبة بحيث يصيب من الثدى الايمن مثلا ١٠ دقائق ومثلها من الايسر . فاذا جاء موعد الوجبة التالية بعد ساعات ثلاث فليبدأ الطفل من الثدى الذى انتهى به . وغنى عن البيان أن نظام الرضاعة مهم جداً ، ولقد يتطلب الامر إيقاظ الطفل من نومه عند حلول موعد الوجبة ، ولكننا سرعان مانجد الطفل يألف هذه المواعيد فيستيقظ من تلقاء نفسه .

ومن المتبع بعد انتهاء الوجبة أن نرفع الطفل قليلا فى وضع الجلوس كى يتجشأ ، لأن وجود الهواء فى معدة الصغير قد يسبب بعض المغص.

غذاء الطفل فى السنة الاولى : يحتاج الطفل من الغذاء الى :

$\frac{1}{6}$ وزنه طيلة الشهور الثلاثة الاولى

$\frac{1}{7}$ وزنه حتى نهاية الشهور الستة الاولى

ثم $\frac{1}{8}$ وزنه فى النصف الاخير من السنة الاولى.

فاذا اكتملت للطفل شهور ثلاث فيجب ألا يعيش على اللبن وحده ، بل يمكن أن يعطى ملعقة شوربة من عصير البرتقال أو الليمون السكرى أو الطماطم كما يعطى مركبات تمنع خطر لين العظام خصوصا وقد بدأ الآن يمارس حركات الاستدارة ومحاولة الجلوس مع المساعدة . ومن أفضل المقويات هنا محلول فيتامين D فى زيت الزيتون ثلاث مرات يوميا مدة شهرين ، أو هاليفرول أو نادولا .

وتزداد حاجة الطفل لطعام أكثر صلابة بحلول الشهر السابع وهنا يعطى بدلا من أحدى الوجبات ٢٠٠ جم مهلبية تقدم بالملعقة وفى الشهرين التاليين يستعاض عن وجبة أخرى بشوربة خضار فهذه تساعد حركة الامعاء اذ تمد الجسم بمادة السليولوز .

فاذا انتهى الشهر التاسع احتاج الطفل للحديد ، وهو موجود فى اللوبيا والفاصوليا الخضراء والكوسة والجزر ، ولكن لنحذر من تقديم اشياء صلبة لمعدة الطفل ، بل يجب تصفية هذه الأطعمة وتقديمها له « مهموكة » . ولنعطها اولا بالسكر ثم نبدله بالملح .

والواقع أن الطفل فى هذه السن قد تكون له من الاسنان ما يساعده على بدء المضغ وافراز اللعاب ، وهنا يمكنه فى الشهر الحادى عشر أن يتناول نصف موزة بعد وجبة شوربة الخضار ، فكأنه فى هذا السن يتناول خمس وجبات ، ثلاث منها لبن الام ، وواحدة شوربة خضار ، والاخيرة مهلبية.

فاذا قاربت السنة الاولى الانتهاء اقتصر الأمر على وجبة واحدة من لبن الام والباقى من الخارج ، وهكذا يستطيع الطفل أن يتناول خضراوات مهموكة (بوريه) أو شوربة خضار ووجبتين مهلبية بين الواحدة والاخرى ٤ ساعات . كما يمكنه أن يتناول البيض مرتين أو ثلاثا فى الأسبوع ، مربوبا أو مسلوقا

وهكذا يتهيأ الطفل للفطام فى نهاية السنة الاولى فيمنع لبن الام بتاتا لأنه يخف بعد هذه الفترة وتنقص فيه كمية الغذاء ويتعرض الطفل لو استمرت الرضاعة للانيميا والضعف العام

وبالتدريج يستعاض عن اللبن والمهلبية بالاطعمة المهموكة علاوة على الخضروات السابق ذكرها كالفول المدمس والكبد ولحم الكتاكيت بعد فرمه . فاذ وصل الطفل للشهر الرابع عشر والخامس عشر أمكن اعطاؤه بطاطس أو مكرونة مسلوقتين

الحالة الصحية للام : تكلمنا عن غذاء الام أثناء عرضنا لغذاء الطفل، والواقع أن الطفل لكى ينمو نموا صحيا يحتاج من أمه لا كثر من الغذاء اثناء وجوده فى البطن .. يحتاج الى استعداد منتظم يتناول مرافق الحياه وهو ما نسميه علميا antenatal care ويقتضى العناية :

١ — بالثديين : اذ يجب الاهتمام بهما خصوصا عند السيدة البكر بسبب حساسية الحلمات وعدم تعودها على حركات الرضاعة . فاذا قارب الجنين سبعة اشهر يجب على الحامل أن تعدهما بالتدليك بفرشة ناعمة اولا ثم تزداد فى الخشونة مع استعمال (كولد كريم) أو لانولين ، وهو دهن مأخوذ من الخراف يمتص فى الجلد بسرعة

ب — الامعاء : فالامساك كثير الحدوث أثناء الحمل ، ولذا يجب تجنبه باستعمال خضراوات طازجة وكمية كافية من السوائل بين الوجبات وتدليك خفيف على البطن (فى اتجاه القولونات) ، وقد يكون من المفيد تناول كوب

من الماء دافىء فى الصباح . فاذا لم يكف هذا تستعمل المسهلات الخفيفة كالبارافين « والعرقسوس » . أما المسهلات القوية المفعول فيمتنع عنها بتاتا خصوصا السنامكى والملح الانجليزى

ج — الرياضة . وأحسنها المشى لمدة ساعتين فى الهواء الطلق والحدائق ولكن لا يجب أن تصل المسألة لدرجة الاجهاد ، كما أن الرياضة العنيفة كالرقص والتنس والقفز يجب تجنبها . فاذا لم يكن تحقيق هذا متيسرا يكتفى بالتدليك على البطن من الجزء الايمن لأعلى ، ثم بالعرض ناحية اليسار وأخيرا لأسفل

د — الاتصال الجنسى : يجب أن يمنع تماما أو يحد منه على قدر الاستطاعة ولا سيما فى الشهرين الاخيرين حيث يحتمل وصول الميكروبات الى الرحم واذا كان الطبيب يتردد فى الجس باصبعه بقفاز معقم ليتأكد من موضع الجنين فان من الخطر الكبير تعريض الجنين لما يصاحب العملية الجنسية من دخول مواد غريبة .

وبعد فهناك من الاحتياطات ما يجب توفره فضلا عما سبق ، فالنوم مثلا لا بد أن تصيب الام منه عشر ساعات على الاقل ، منها ساعتان وقت الظهيرة فى غرفة حسنة التهوية . ولتتجنب الاستحمام الماء الساخن والبارد لئلا يحدث انقباض فى الرحم . والملابس يجب ألا تكون ضيقة ، ويستعمل حزام البطن اذا كان هذا الاخير متدليا

ثانيا : الامراض : واهمها بدون شك الزهرى الذى يسبب فى أحواله كثيرة الاجهاض .. ووفاة الطفل اثناء الولادة . وضعف القوى العقلية .. والعمى والصمم . وليس من النادر أن تصل الى الجنين العدوى بالمرض قبل أو أثناء الولادة

ويلى هذا فى الاهمية السيلان وكثيرا ما يصيب عينى الجنين أثناء مروره خلال المهبل فيتسبب العمى . ولهذا نجد معظم الحكومات تسن قوانين

تنص على استخدام محلول مطهر يقطر فى عينى الوليد ، وهو يتكون عادة من نقطة من محلول نترات الفضة بنسبة واحد الى مائة

وهناك غير الامراض السرية الخالل فى افرازات الغدد عند الأم ، كالغدة الدرقية . وأثرها أوضح كلما بدأ الخالل والجنين صغير . وقد ينتج عنه توقف نمو العظام والغضاريف ماعدا عظم الجمجمة ، كما يبرز البطن ويتدلى ، ويخشخوشن الجلد ، ويغزر الشعر . أما القوى العقلية فتتراجع كثيرا عن المتوسط فاذا كانت الاصابة خطيرة أصيب الجنين بنوع من البله

تأتى بعد هذا الامراض الطويلة المدى التى تنخر فى جسم الأم كالسل والسكر وغيرهما . وهذه تؤثر على الجنين أثر قلة الغذاء أو عدم صلاحيته

أما السموم أو التوكسينات التى توجد فى دم الام والناتجة من عناصر الرصاص والفوسفور التى تجلبها صناعات أو هوايات قد تقوم بها الأم كالطلاء والفخار والطباعة ، والبكتريا التى تجلبها بعض الامراض ، فتؤثر تأثيرا ضارا على الجنين ، فسموم الرصاص تسبب على سبيل المثال الاجهاض . . أو تشوه الجنين . . أو اصابته بالصمم أو البكم .

واخيرا فما يؤثر على جنين الحيوان استعمال أشعة اكس أو الراديوم ، إذ أنهما يسببان تغيرات ضارة ، كما يؤثران على الاجيال القادمة . والواقع أن معلوماتنا عن جنين الانسان فى هذه الناحية قليلة جدا اللهم الا أن الحمل قد ينتهى باستخدام أشعة اكس

ثالثا : الكحول : وهو يكتسب فى كل يوم أهمية متزايدة نظرا لاعتبارات اجتماعية تصاحب المدنية الحديثة فضلا عن ان أثره لا ينتقل من الام فحسب بل ان الخلية الذكرية قد تضعف قبل أن تلقح البويضة نتيجة تعاطى الاب المشروبات الكحولية ، وهكذا قد تضع الام مولودا ضعيف القوى العقلية أو مصابا بعدم استقرار الجهاز العصبى .

وقد حاولت آرليت سنة ١٩١١ أن تجرب تأثير الكحول على الحيوانات فى تجربة طريفة اتخذت فيها الفيران أساسا فسقتها الكحول مع الطعام أو

الشراب ، واتبعت هذا مع الذكور والاناث مدداً تتراوح بين ستة عشر يوما وستة أشهر ، فوجدت تراجعا ملحوظا فى سرعة النمو بمقارنتها بالفيران السليمة . كما لاحظت ان هـذا التأثير يمتد الى الجيل الثالث والرابع للفيران المصابة ،هذا فضلاعن حدوث حالات عديدة للعقم المؤقت أو المستديم عند اناث الفيران حسب جرعة الكحول ، وتبع هذا ازدياد حالات وفاة الجنين أثناء ولادته أو عدم اكتماله .

ولم تجر مثل هذه التجارب على الانسان طبعاً ، ولكن من الواضح أنه مادام الجنين يستمد غذاءه من دم الأم فمن الواضح ان استمرار تسرب مواد كيمائية فى الدم يلقى عبئا على اجهزة الأم الفسيولوجية لتحاول أن تتكيف وينتقل هذا العبء طبعا الى اجهزة الجنين فإذا مازادت هذه المواد بحيث لم يعد فى مكنة الاجهزة تحقيق هذا التكيف ظهرت « علامات الخطر » كالعصبية والارق . . واختلال ضربات القلب، بل لقد لوحظ أن شرب الام كميات متوسطة من الكحول يظهر بعضه القليل فى افراز اللبن

يشبه الكحول فى اثره الضار الدخان من أى نوع ، فهو يحوى النيكوتين وهو مخدر قوى . فاذا تخلل الرئتين سبب اضطرابا فى ضغط الدم وأخل بالقلب وهكذا تقل مناعة الجسم العامة لامراض المعدية وخاصة فى الفم والحنجرة وقد وجد أنه فى الحيوانات كالبقر والقطط يقلل كمية افراز اللبن ، ولو أنا لانستطيع للآن أن نحدد بالدقة أثره على الام الآدمية أو الوليد

رابعا ـ ترتيب الطفل فى الاسرة : اذا كان المجتمع يضع قانون الارث الذى يعطى الطفل الاول فى الترتيب مميزات حمل اللقب وأخرى تختص بأملاك العائلة ، فلنا ان نتساءل هل للطفل الاول فرص أكبر ليكون أذكى ممن يتبعه من الاشقاء والشقيقات ؟ . وكان الطريق الواضح بالنسبة للابحاث فى هذه الحالة هو جمع اكبر عدد من قياسات الذكاء للاطفال الاول ومن أعقبهم ومقارنتها . ونستطيع ان نقول بناء على هذه الابحاث التى شملت ٢١٩ زوجا من الاطفال (الاول والثانى فى كل عائلة)فى حالة تجربة ويليس ، ثم ٥٩٢٨ زوجا

فى حالة شتيكل، إن قانون الارث الذى سبق عرضه لابد قد وضع ليحقق نواحى أخرى غير الذكاء ، فلقد اتضح أن الطفل الاول فى العادة أقل ذكاء من الثانى (٩٣٥٠ مقابل ١٤ر٩٩) بل وقد وجد شتيكل أن متوسط الذكاء يتزايد كلما انتقلنا من الطفل الاول الى الثانى حتى الثامن .

أما العبقرية ، وهى حالة خاصة لا تقارن بما قلناه فى الفقرة السابقة، فهى على العكس من هذا تكمن فى الطفل الاول فى معظم الاحياز، كما يبدو من دراسة رجال العلم العظام على يد كاتل .

خامسا . عمر الوالدين ساعة الحمل : ونحن هنا ايضا كما فى النقطة السابقة لا نستطيع أن نعتمد على دراسات علمية دقيقة . . ، وكل ما لدينا مجموعة ابحاث قام بها شتيكل وتيرمان لربط عمر الوالدين بنسبة ذكاء الطفل . ومنها نخرج بأن الوالدين الاكبر سنا يحظيان بأطفال أذكى من الوالدين الاصغر فى العمر . ولكن هذه النتيجة قد تعود الى المستوى الاجتماعى لا الى العمر .. فالطبقات الاجتماعية العالية — حيث نجد ذكاء الاطفال أعلى من المتوسط — تميل الى تأخير الزواج لان اعداد الرجل أو المرأة اعداداً صحيحا لاعمالهم المعقدة يستغرق مدة طويلة .

وقد وضع تيرمان نتيجة لبحث الاطفال المتفوقين متوسط العمر بالنسبة للآباء ٣٢ ½ سنة وللامهات ٢٩ سنة . ثم تناول اليس بعد هذا حالة الاطفال العباقرة ، فوجد أن ٢٩٩ من عظماء الناس كان سن آبائهم ساعة ولادتهم يقرب من متوسط ٣٦ سنة ، وللامهات ٣٠ سنة .

وخرج إليس من ذلك الى دراسة مدى اختلاف الوالدين فى السن وأثره على الطفل . واستنتج من هذه الدراسة أن متوسط الفرق بين عمر الاب والام كان ٧ سنوات تقريبا فى حالة الاطفال الذين شبوا موهوبين . . ، ورأى شتيكل أن الرقم أقل من هذا بقليل . ونحن وان كنا لا نستطيع أن نبسط الفكرة العامة بتحديد على قاطع نظراً لقلة المعلومات الا انه يمكننا أن نقول

ان الفرق الكبير بين سن الأب والام ليس فى مصلحة الطفل من حيث الذكاء .

سادسا . حالة الام الانفعالية اثناء الحمل : وهو عامل لعبت التقاليد والآراء الشخصية والخرافات فيه دورا ليس بقليل فاعطته لونا فيه كثير من الخيال . فاذا مرت مدة الحمل هادئة سعيدة بالنسبة للام عد هذا فى نظر الكثيرين علامة على أن الطفل سيكون مرحا بشوشاً طليقا من قيود الخوف أو الوحدة أو الانطواء . وعلى العكس من هذا اعتمدت هذه التقاليد على روايات عن أشكال من الفزع من القطط السوداء أو اللصوص أو اهتمام غير عادى بانواع معينة من الطعام كانت الأم تغرق فيها أثناء الحمل . . واتخذت هذه أسبابا لظهور علامات فى الجنين عند ولادته (الوحم) أو تشوهات فى الجسم أو وجود حالة مزاجية معينة عند الطفل كانت تلون نفسية الأم الحامل .

وكل ما نستطيع أن نقوله فى هذا الصدد ان معلوماتنا العلمية قليلة جداً . فاذا كانت الحالة الأنفعالية للام يمكن حقا أن تنتقل للجنين فلن يكون هذا الا بطريق تغيرات افرازات الغدد فى جسم الأم .

ولكن بالرغم من الأثر الكبير الذى تتركه التقاليد فى اذهان الكثيرين فانا نميل الى رفض هذه الأفكار القائلة بحدوث تشوهات أو علامات فى الجنين نتيجة للخوف أو القلق أو الرغبة فى مأكولات معينة أثناء الحمل ، اعتماداً على ما لدينا اليوم من معلومات طبية عن العلاقة بين جسم الجنين وجسم الأم .

فاذا كانت حالات القلق والخوف والحزن والاضطرابات العصبية والاغراق فى انواع خاصة من الطعام حالات عارضة للام أثناء مدة الحمل فقط وليست مستديمة قبل التلقيح .. أى اذا استبعدنا انتقال هذه الصفات الى الجنين فى البويضة الانثية بطريق الوراثة فانا نستبعد انتقالها كلية اعتماداً على حقائق ثلاثة : الأولى هى ما نعرفه نتيجة لدراسة الاجنة من أن التشوهات

تحدث عادة بعد مرور الشهرين الأولين من التلقيح عند ما يكون الجنين قد بدأ يتشكل واصبح احتمال تشوهه قليل . . فلم لا تحدث هذه التشوهات من أول لحظة مع وجود الحالة النفسية المضطربة للام . . ؟ لا بد أن هناك سببا آخر لتلك العلامات التى ترى على الجلد . والحقيقة الثانية هى ما نراه من حدوث نفس أنواع الشذوذ الجسدى والعلامات فى معظم الحيوانات . . ، وحيث أن جهازها العصبى منحط فلا توجد فى الأم أفكار أو حالات انفعالية يعتد بها . والحقيقة الاخيرة هى انه ليس هناك اتصال مباشر بين الأم والجنين وبالتالى لا يمكن أن يكون للحالة العقلية والانفعالية والعصبية تأثير مباشر على الجنين . . اللهم الا ما سبق ان قلناه من احتمال سريان بعض افرازات الغدد فى دم الأم . وحتى هنا لا نجزم بانتقال الأثر للجنين

سابعا ـ الشهر الذى تتم فيه الولادة : وقد لعبت فيه التقاليد دورا كبيرا هو الآخر . . فمن قائل ان العملية الجنسية يجب ألا تتم فى زمن «الحسومات» والا نتج مخلوق مشوه جسديا وعقلياً . . الى رجال الفلك والتنجيم الذين يؤكدون حقائق يرونها عن النجوم والكواكب والابراج التى تتمشى شهور السنة معها . . كما يتدخل الرأى الشخصى والتحيز الى حد كبير . . ، ونحن نترك للقارىء أن يقرر ما يشاء فى هذه الناحية بعد ان نعرض امامه حقيقه واحدة تختص بالذكاء ، وقد نتجت من دراسات بلونسكى وبينتنر (٢٥١٦٦ حالة لرجال عظام) وبيترسون (٢٥٠٠٠ حالة) ، وهى ان انسب الشهور فى السنة واقربها ارتباطا بالذكاء هى أواخر الربيع واوائل الصيف وعلى العموم فالنسبة فى النصف الاولى أعلى منها فى النصف الثانى من السنة .

الوليد الصغير : سبقت الاشارة الى صعوبة تكيف الطفل من البيئة التى تضمه فى البطن الى العالم الخارجى المضطرب الصاخب . وهكذا ينقص فى الوزن خلال بضعة الأيام الاولى ، فاذا قارب الاسبوع الاول الانتهاء اكتمل تكيف الطفل فيبدأ فى تعويض مانقصه فى الوزن ، وينتهى من هذا

فى العادة بانتهاء الاسبوع الثانى حين تلتئم السرة .

طرق الدراسة : قد يظن القارىء ان الاهتمام الذى يصحب انضمام مولود جديد الى الاسرة ، وهو اهتمام قد يصل ببعض المنازل الى ايقاف معظم الجهد والعناية على ذلك العضو الصغير ، قد اتاح للباحث النفسانى قدرا كبيرا من المعلومات يلقى من الضوء على حياة الطفل فى هذه المرحلة مالا يتهيأ لغيرها كلما كبر الطفل واستقل بحاجاته .

ولكن الامر على العكس للاسف .. فالاهتمام العاطفى يصل حقا الى الذروة . . ولكنه يتدخل لعرقلة سبيل الدراسة العلمية المنظمة . ومازال الآباء والاطباء يجزعون لتعريض الاطفال احديثى الولادة لتجارب تختص بالحواس خشية ان تؤثر الالوان البراقة والمتتابعة ، أو الاصوات الحادة العنيفة ، أو التغيرات الحرارية والضغوط والوخز ، على الطفل وهو بعد فى المهد .. ، كما أنهم لا يسمحون باجراء تجارب تدور حول الانفعالات على اعتبار أن التخويف ، أو منع الطفل من الحركة لاستثارة الغضب ، أو استثارة المناطق الجنسية أو الشبقية erogenous من جسمه ، قد تضر بالطفل .

وهكذا ظلت الدراسة حتى أواخر القرن الماضى قاصرة على ملاحظات عرضية قام بها كل باحث على طفله أو طفل لأحد أقاربه ، على نمط ماقام به برير « عقل الطفل » .. وكان محور الدراسة فى الغالب الحواس والافعال المنعكسة الشرطية . ولكن اعتماد هذه الابحاث على مذكرات الآباء والاقارب وتدخل عنصر التحيز الى حد كبير بحيث كان الباحث يرفع من قدر طفله واستعداداته وينسب إليه أكثر مما يملك فعلا ، كل هذا قلل من الدقة العلمية.

ثم جاء القرن العشرين بنزعة مفيدة حقاً .. تلك هى اعتماد معظم الامهات الغربيات ـ ولقد بدأنا نلحظ هذا فى مصر أخيرا ـ على المستشفيات فى الولادة .. ، كما كثرت ملاجىء الايتام واللقطاء والجمعيات الخيرية ، فتهيأ للباحث النفسانى مجال واسع لدراسة مجموعات كبيرة من الاطفال بدأت فى المانيا على أيدى كوسمول وجنزمر وكرونر . ثم جاءت أمريكا لتقوم بنصيبها سنة ١٩١٠ فدرس

بيترسون وريني ١٠٠٠ طفل حديث الولادة واهتما بالحواس . الى أن جاء واطسون رجل البحث والتجريب سنة ١٩٢٥ فعمل فى مستشفى جون هوبكنز لدراسة دوافع الطفل الصغير البادئة والنمو الانفعالى .

واخيرا وقد بدأت الاجهزة العلمية الحساسة تتدفق لنجدة الباحث وتوسيع أفقه خلال ربع القرن الأخير ، مما نسوق له مثالا وسط هذه السطور ، أمكن استمرار الدراسة طيلة الاربع والعشرين ساعة كل يوم وتسجيل النتائج من دقيقة لأخرى مع تغيير الظروف البيئية أو تثبيتها حسب المراد . وهكذا درس هتزر وبيلر وتيودور هارت ٦٩ طفلا طيلة شهر فى إحدى معاهد فينا وأعقبهم برات وأعوانه فى جامعة أوهايو سنة ١٩٣٠ فوضعوا الاطفال فى «غرف اختبارية» كتلك التى يراها القارىء هنا وهى مجهزة بضوء من الداخل ، كما أن جدرانها لا تسمح بايصال الاصوات الخارجية ، ويمكن تثبيت درجة الحرارة والرطوبة .

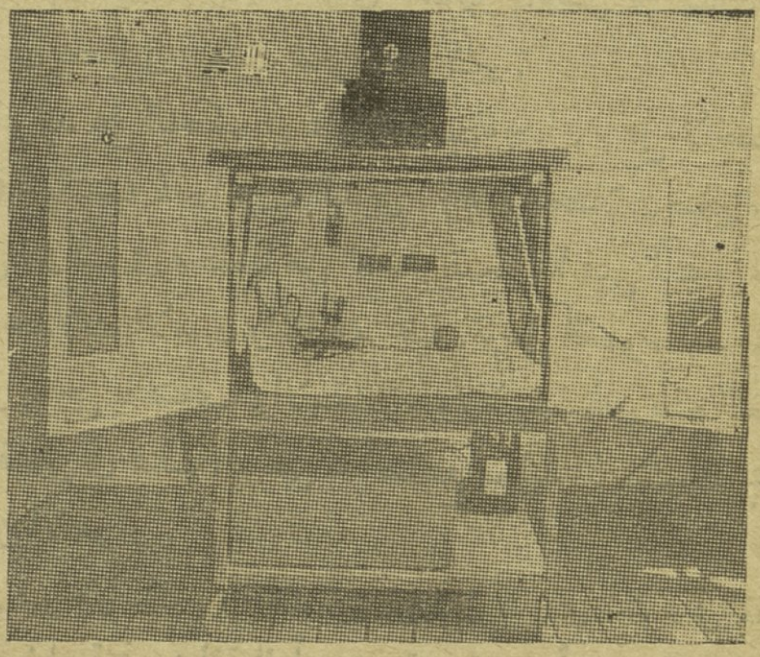

فضلا عن ان الارضية سريعة الحساسية تهتز لاقل حركة فتسجل المقاييس مدى الذبذبات على شريط من الورق يمر تحتها فى سرعة منتظمة . وقد كان لهذا الجهاز الفضل فى نجاح تجارب إروين على نشاط الطفل الحركى طيلة

الايام العشرة الاولى وسنعرض لهذه التجارب تفصيلا بعد ان نسوق للقارىء بعض نتائج الابحاث فى الناحية الجسمانية

متوسط الوزن عند الولادة ٧٫٥ رطلا ، ومتوسط الطول ١٩٫٥ بوصة ويتراوح بين ١٧ ، ٢١ بوصة . أما العينان فيبدآن فى شىء من الاتفاق بين الاطفال جميعا بلون رمادى يميل للزرقة ، ولكنه يتغير بالتدريج الى اللون المستديم ومع انهما كاملتى الحجم تقريبا بالنسبة الكبير الا أن حركتهما غير مستقرة ، وتدوران كما لو انهما لا تحملان أى معنى ، فضلا عن انهما غير مرتبطتين ، فبينما احداهما تتجه فى ناحية اذ بالاخرى قد تتجه ناحية مخالفة ولكنهما ترتبطان قرب نهاية الشهر الأول ، ولو ان الخوف قد يسبب اضطرابهما فتنطلقان من عقالهما حتى قرب نهاية السنة الاولى . ولا تنشط غدد الدموع حتى هذه اللحظة ، ولذا لا تصحب الصراخ أية دمعة . فاذا اتجهنا للرقبة وجدنا انها قصيرة ، والجلد الذى يغطيها يتقضن فى ثنيات عميقة ، فى حين أن الرأس يغطيه فى الغالب شعر ناعم كثير .

وقدرة الوليد على التحكم فى عضلاته بسيطة جدا ، وعلى الاخص عضلات الساقين والرقبة بالنسبة للذراعين واليدين . وهذه العضلات صغيرة لينة ، تماما كالعظام التى تتركب فى معظمها من الغضاريف ، ولذا فهى لينة مرنة . وبنفس الطريقة نجد عضلات الاست والمثانة مرتخية ، وعلى العموم نجد المظهر العام للطفل الصغير يوحى بالضعف والاستسلام ، ولا يشذ عن هذه النغمة سوى وتر واحد ينقبض فى عنف ، ونعنى به أصابع اليد اذ تتشبث بما يقترب منها فى شىء من الاصرار .

أما اللحم فهو متماسك ، والجلد لين ذو لون وردى تعلوه فى الغالب بثور خفيفة رفيعة وخاصة فى منطقة الرأس . وقد يحدث أن يتغطى الجسم بشعر ناعم أملس ، معظمه على الظهر ، ولكنه سرعان ما يختفى .

الوظائف الفسيولوجية : بمجرد نزول الطفل واستقلاله كمخلوق تبدأ العمليات الفسيولوجية الثلاثة كما قلنا .. التنفس والتغذية والاخراج .. فى ضوء

مخالف ، فصرخة الميلاد تحدث تمددا فى الرئتين فيبدأ التنفس الطبيعى . . واذا جاع الطفل او اذا مسسنا شفتيه تحدث حركات المص المنعكسة . وفى خلال بضع ساعات من الولادة يتخلص الطفل من الفضلات ، وهكذا لا يمر وقت طويل حتى تثبت هذه الوظائف الثلاثة .

والواقع أن معظم هذه الوظائف العديدة يختلف فى الطفل عنه فى الكبير فالدم يحوى عدداً أقل من الكرات الحمراء وعددا أكبر من البيضاء ، مما يجعل مناعة الوليد ضد الامراض فقيرة جدا . وتتراوح سرعة النبض ما بين ١٣٠ ، ١٣٥ فى الدقيقة ، ولكنها تتناقص الى ١١٨ بعد مرور عدة أيام مقابل ٧٠ للبالغ .. فالقلب فى أول الامر صغير بالنسبة للشرايين والاوردة ، ولذا يتحتم عليه أن ينقبض ويرتخى بسرعة أكبر ليحتفظ بضغط الدم مناسباً . كما أن سرعة التنفس تبلغ ضعف سرعتها عند البالغ ، فهى تتراوح بين ٤٠ ، ٤٥ فى الدقيقة . أما حرارة الجسم الطبيعية فهى أعلى ، وتتراوح بين ٩٨ر٢ ، ٩٩ درجه فهر نهيت .

النوم : تتراوح مدته بين ١٥ ، ٢٠ ساعه فى اليوم ، تقل الى ١٢ ساعه أو أو أقل قليلا فى سن سنة ، مقابل ٨ ساعات أو أقل عند البالغ .

ويظل الطفل مستيقظا عادة فى الساعتين الاولين من حياته ، وقد يكون هذا ناتجا عن العناية الطبيه التى توجه اليه . وبعد هذا ينام الطفل مددا تقطعها فترات قصيرة من الاستيقاظ تحدث كل ساعتين فى المتوسط . وترى شارلوت بيلر أن اطول مدة لاحظتها للنوم المتصل فى الايام الاولى كانت ٢٢٠ دقيقه تزداد كلما تقدم الطفل فى العمر حتى تصل فى نهاية الشهر الثانى الى خمس أو ست ساعات لا يقطعها شىء اذا كانت البيئه مناسبه . وعلى العموم تزداد فترات الاستيقاظ أثناء النهار وتقل ليلا

فاذا شعر الصغير بالجوع أو أى مصدر داخلى للقلق استيقظ . أما

المؤثرات الخارجية التى قد توقظه فتقتصر فى الغالب على اختلاف درجات الحرارة والاصوات العالية الحادة . والواقع أن الطفل الحديث الولادة اخف نوما ممن يكبره سنا ، فهو وان كان سريعا للنعاس الا انه سريع أيضا للاستيقاظ . ولعلنا لسنا فى حاجة لتذكير الآباء والأمهات بعد هذا بضرورة الاحتفاظ بالهدوء واستقرار الظروف الحرارية والضوئية فى بيئة الطفل فلها اثر واضح . فانصفاق الابواب فى عنف... وصراخ الاطفال قريبا من فراش الوليد .. وابواق السيارات الحادة وتتابع الأضواء وغير ذلك تؤثر كلها على الطفل ونفسيته بتكرار استثارتها لليقظة والخوف

ولو لاحظت اوضاع النوم عند طفلك لوجدت أنه فى اللحظة التى يسيطر عليه النوم يهتز جسمه ويتقلص بعض الشيء ، فاذا بدأ يستيقظ دفع رأسه للخلف ومد ذراعيه وجسده فاذا وضعته بحيث يستلقى على بطنه فانه يتخذ وضعا عشابها لذلك الذى كان فيه وهو فى الطن ، ويتغير هذا الوضع بالتدريج عند انتهاء الشهر الاول نتيجة لمرونة العضلات وازدياد التحكم فيها

وتزداد حركات الطفل اثناء النوم بتزايد العمر خلال الاسبوعين الاولين كما هو الحال فى فترات اليقظة . وكثيرا ما يحدث أن يبتسم أثناء النوم

الجهاز الصوتى : يبدأ عمله بصرخة الميلاد ، وقد كثرت التأويلات بشأنها فمن قائل انها صرخة الانين والاسى اذ يحس الطفل بالكارثة التى حلت به ساعة الولادة »... (رأى كانت) الى آخر يؤكد أنها «نتيجة احساس الطفل بخوف وهلع شديدين لنزوله الى بيئة جديدة تنظر اليه من عل فتملاه شعورا بالنقص »(آدلر) . ولكن الواقع أن تفسيرها فسيولوجى صرف ، فلها فائدتان .. امداد الدم بالاوكسجين اللازم . ومساعدة الرئتين على التمدد وهكذا يصبح التنفس ممكنا

وتختلف صرخة الميلاد فى ارتفاع النبرة وشدتها من طفل لآخر حسب سهولة الولادة أو عسرها ، وما يعقب ذلك من حالة الطفل الصحية . . فهى عميقة حادة فى الطفل الذى يندفع من الرحم فى سهولة .. بينما فى الأطفال

الضعاف المنهكين من تعب الام وعملها المستمر أثناء الحمل أو لنزولهم بعد ليلة ساهرة مريرة قاست فيها الام آلام الوضع ، تخرج الصرخة واهية قصيرة متقطعة. وقد لوحظ فى حالات الولادة السابقة لأوانها .. أو الاطفال الذين يعانون سوء التغذية والضعف العام .. ان الشهيق يصحبه أنين خافت

ويمكن أن يلاحظ الآباء اختلاف حدة الصراخ منذ اليوم الاول حسب نوع المؤثر . ففى حالة تضايق الطفل بوجه عام كما لو أحس البلل تخرج الصرخات متماثلة فى الحدة .. بينما فى حالة الالم نتيجة لاضطراب هضمى مثلا ترتفع الصرخة الواحدة فى الحدة عن بدايتها فإذا أحس الطفل الغضب لعائق وضع فى سبيل حركاته كثقل الاغطية أو الملابس استطالت الصرخة قليلا .. وتوقف التنفس برهة مما يدعو لاحمرار الوجه .. وتستمر الشهقات المتقطعة عاده بعد انتهاء نوبة الغضب بقليل .

والطفل وهو بعد فى اسبوعيه الاولين تحركه ظروف البيئة المباشرة والحالة الفسيولوجية للصراخ ، وهو فى هذا يختلف كثيرا عن البالغ أو حتى عن رفيقه الاكبر سناً ، وهناك أسباب ثلاث تدفع الوليد للصراخ .. الجوع . . والالم الناتج من المؤثرات المؤذية كحمله أو خلع ملابسه بعنف ، أو خلال عملية الختان أو الجروح والاحتقانات من أى نوع .. وأخيرا التعب أو قله مجال الحركه والتمرين .

ويندر أن تصدر الصرخات دون أن تصاحبها حركات الجسم العامة كالرفس ، ومد الذراعين والساقين ، وضم قبضتى اليدين وفتحهما فى عنف ، واداره الجذع والرأس من جنب لجنب . ويلاحظ فى الغضب أن الرفس أقوى منه فى أية حالة انفعالية اخرى ، والقدمين تندفعان سويا بدلا من واحدة فى أثر الاخرى .

ويرى إروين فى هذه الحركه العامة التى تصحب الصراخ عند الوليد أولى بوادر السلوك الاجتماعى حيث قد يصبح نشاط الطفل هذا علامة على أنه

يتطلب من الام العناية والاهتمام ، وإذن فهو مظهر من مظاهر اللغة .

وفى تجربة طريفة لبلانتون سنة ١٩١٧ حاولت أن تدرس أثر صراخ طفل على ست من زملائه يرقدون فى نفس الغرفة ، وتتراوح أعمارهم بين يوم واحد واربعة عشر يوما على أمل التأكد مما اذا كان الصغار عرضة للايحاء أو التقليد أو أنهم يتفاهمون مع بعضهم البعض بلغة لاندركها ، ولكن لم يظهر على الاطفال الستة تأثر واضح نتيجة للصراخ الذى يسمعونه ، وتكرر هذا عندما وضع طفلان احدهما يصرخ فى فراش واحد فلقد ظل الآخر ساكناً حتى وهو مستيقظ . واذن فليس هناك دليل على وجود اتصال اجتماعى بين الصغار فى هذا السن المبكر .

وهناك غير الصرخات ، بل وأهم منها الاصوات الاندفاعية . وهى تشبه الى حدما التنفس المسموع ونسميها أصوات « الكركرة » . وهى تحدث دون قصد من الطفل وانما تتسبب من مرور الهواء على الحنجرة أثناء انقباض الأحبال الصوتية . ويخطىء البعض إذ يقلل من شأنها لانخفاض نبرتها بالنسبة للصرخات التى تثير اهتماما أكبر ، ولكنا لو تتبعنا النمو اللغوى للطفل كما سنفعل فى فصل قادم لرأينا أن الصرخات يقل استعمالها بالتدريج كلما نما الطفل بينما تقوى الأصوات الاندفاعية وتتعدل فتصبح خلال النصف الأخير من السنة الاولى مصدرا هاما من مصادر اللغة والسرور بالنسبة للطفل وتحوى معظم الحروف والأصوات التى نستخدمها فى حديثنا ، وهنا نسميها « المناغاة » ، وهى فى الحق أساس اللغة .

ومن الأصوات الاندفاعية الأخيرة العطس والفواق (لزغطة) والتثاؤب ، والاولان من الأفعال المنعكسه . ويحدث العطس خلال الساعات القليلة الأولى من الحياة ، وفى بعض الأحيان قد يسبق صرخة الميلاد نفسها . والواقع أن الطفل الصحيح الجسم يعطس بضع مرات فى اليوم لينظف أنفه ن الموادالغريبة . ويحدث التثاؤب مبكرا أيضا .. وقد لوحظ بعد ثوان من الولادة بعكس الفواق الذى قد يتأخر حتى نهاية الاسبوع الاول .

النشاط الحركى : لو حاولنا أن نسجل بأنظارنا كل حركة يقوم بها الصغير لاستحال الامر فالحركات سريعة متعددة تنتاب الجسم كله أو بعض أعضائه فى تعاقب تخطئه العين . ولذا فكر جيلمر فى الاستعانة بالاشرطة السينمائية ثم جاء اروين ليستخدم الغرف الاختبارية التى سبق نشر مثال منها، وهى مأخوذة من برات ونلسون وسن ، فى تشريحه القيم (١) على أطفال أربعة طيلة الايام العشرة الاولى ، وفيه قسم الحركات الى عدد كبير نختصره لسهولة العرض الى حركات الرأس . . والجذع . . والذراعين . . والساقين . . ثم الاصوات

ومن حركات الرأس الحركة الجانبية الى اليمين واليسار ودفعه للخلف . . وفتح الفم وغلقه . . وزم الشفتين ولعقهما . . وفتح العينين واغماضهما . . والعبوس واخراج اللسان .

أما الجذع فيدور فى محاولات التقلب . . وينثنى ثم يمتد . . وحركات التنفس السريع . . والارتعاش . . والحركات العنيفة كما لو اجفل الطفل

ننتقل بعد هذا للذراعين ، والحركة هنا قد تتناول الذراع كله دائراً حول مفصل الكتف ناحية محور الجسم أو للخارج . . أو حول الكوع فى ثنى ومد . . والتلويح . . ثم حركات الايدى والاصابع التى تنقبض على مايلامس راحة اليد .

وبنفس الطريقة نجد حركات الساقين تتضمن الساق كلها دائرة حول الردف للداخل أو الخارج . . ثم ثنى الساق عند الركبة ومدها . . وأخير حركات الاقدام والاصابع التى تنتشر كمروحة عند استثارة باطن القدمين .

وتتضمن الاصوات الصراخ . . والسعال . . والتنهد والتنفس المسموع والعطس . . وأصوات الشفتين من فتح وغلق ومص . . والتثاؤب . . والحشرجة . . والفواق .

---

(١) The amount and nature of activities of newborn infants under constant external stimulating conditions during the first ten days of life , Genet. Psychol. Monogr 1930 , 8 No.1, Pp.92

هذه بعض الحركات التى يمكن أن يقوم بها الوليد حاولنا ان نبسط للقارىء ، ويهمنا أن نؤكد تداخلها الى حد كبير فاذا أجفل الطفل أو تنفس بسرعة ، نتيجة لخوف أو قلق ، صاحبت الجذع حركات الاطراف فضلا عن أن السعال مثلا ليس صوتا فحسب بل هو حركة أيضا .

ويحاول إروين أن يضع الحركات كلها تحت قسمين أساسيين :

ا ــ الحركات العامة

ب ــ الحركات المخصصة

وهو يعنى بالاولى تلك التى تتناول الجسم كله فى مجهود عام تشترك فيه الاطراف كما يشترك الرأس والجهاز الصوتى ، وهى مهوشه مضطربة مبالغ فيها فالعطس وان كان من النوع الثانى إلا أنه مصحوب عند الوليد بحركة أعضاء الجسم مجتمعة ، ولذا يفقد الطفل عند العطس من الحيوية مايزيد عن البالغ مرتين ونصفا إذا قارنا الطاقة المنصرفة رطلا برطل ، ولعل هذا أحد أسباب ازدياد مدة النوم عند الصغير عنها فى الكبير فالمجهود المنصرف أكبر نسبيا مما يسبب التعب .

أما القسم الثانى فيتميز بالانساق والانسجام ، ويبدو فيه عنصر الاقتصاد والتحكم ، إذ تتحدد الحركات فى داخل دائرة أضيق وتتناول عضواً أو مجموعة أعضاء متجاورة .

ويخطىء من يظن أن القسمين متضادان ، فالحركات العامة قد تتجمع من حركات متسقة تتمشى خلال أعضاء الجسم ، وهنا يرد إروين على جيلس ودنيس اللذين اعترضا على هذا التقسيم .

ا ــ الحركات العامة : تكون الجزء الاكبر من حركات الطفل

فالجهاز العصبى حتى هذه اللحظة ــ وعلى الاخص المناطق اللحائية ــ لايزال حديث التكون . ولقد أثبت مينكوسكى هذه الحقيقة بدراسته للاجنة فبعض الاحبال العصبية عند الوليد الصغير تظل غير ناضجة .. ، وهكذا لاتستطيع الرسالة العصبية القادمة من أحدى أعضاء الحس أن تنتقل بسهولة

خلال النخاع والجهاز العصبي الى عضو الحركة ، بل يحدث إشعاع يتناول قدراً أكبر من الأعضاء سرعان ماينتقل الى الجسم كله ، ولو أنه أوضح فى العضو الذى تعرض للمؤثر ، ويبدو هذا التسلسل بوضوح طريف فى اشرطة دلمان المتحركة.

ترددها بالنسبة للاعضاء : درس جيتوود وفيس دور كل عضو بالنسبة للحركات فى مجموعها وخرجا بان الجذع هو اكثر الاعضاء حركة ، يليه الساقان ثم الذرعان ، وبعدها الاصوات ، واخيراً الرأس .

ويتفق إروين معهما إذ يضع هذا الجدول

العمر بالاقدام	الرأس	الجزع	الذراعان	الساقان	الاصوات
١	٣	٢٠	٢٣	٤٤	١٥
٢	٤	٢٩	٢١	٣٩	١٦
٣	٣	٢١	٢٤	٣٦	١٤
٤	٥	٢٥	١٣	١٨	١٣
٥	٥	٢٢	٢٠	٢٧	١٣
٦	٤	٢٥	١٢	٢٠	١٢
٧	٣	٢١	١٤	١٧	١٣
٨	٥	٢٦	١٣	٢٤	١٧
٩	٥	٢٧	١٤	١٥	١٣
١٠	٤	١٨	١٤	٢٠	١٧
المتوسط	٤	٢٤	١٧	٢٦	١٤

فاذا نظرنا الى هذا الجدول وجدنا أنه يبدو فضلا عن الحقيقة السابقة أن حركات الرأس والجذع والجهاز الصـــوتى تتزايد، بعكس الذراعين والساقين اللذين تتناقص حركاتهما خلال الايام العشرة تناقصا ملحوظا، مما دعا إروين الى للقول ان السيطرة تنتقل من الاطراف الى محور الجسم الرئيسى، وهذا يتمشى مع ماذكرناه (ص ٤٥) من أن الضبط الحركى يبدأ بالرأس ثم الجذع وأخيراً ينتهى بالاطراف واعل كل هذا يقودنا الى القول بأن الطفل إذ يتقدم فى العمر يبدأ جهازه العصبى فى الثبات والاستقرار والتركز تحت قيادة المخ واللحاء.

وقد ركز ستيز واروين أبحاثهما بعد هذا على الذراعين والساقين فوجدا اختلافا محسوسا بين نسبة حركات الذراع الايمن والايسر فى مصلحة الاول والعكس فى حالة السيقان إذ تتحرك الساق اليسرى اكثر من اليمنى.

اثر الحالة الجسمانية: عمل اروين رسما بيانياً للحركات كما تتتابع خلال اربع وعشرين ساعة مع ثبات المؤثرات الخارجية فاتضح منه أن اكثر الحركات تقع بين الساعة العاشرة مساء والسادسة صباحا. فاذا تذكرنا أن أطفال اروين كانوا يرضعون ٦ مرات يوميا.. الواحدة مساء ثم الرابعة والسابعة والعاشرة ثم تنقطع الوجبات لتبدأ فى السادسة صباحا ثم العاشرة.، اذا تذكرنا هذا شاركنا إروين القول ان من أكبر مسببات الحركة العامة لدى الطفل اذا ثبتت الظروف الخارجية الجوع (١) اذ تكاد الحركات تضرب

---

(١) فى تجربة طريفة لدراسة أثر الجوع على نشاط الطفل جعل ريتشاردز الاطفال يبتلعون بالونات من المطاط الرقيق تنفخ اذ تستقر فى المعدة، ويتصل بكل منها جهاز حساس يسجل الذبذبات التى تتتابع عليها نتيجة لانقباضات المعدة على أثر الجوع. وقد خرج من هذه الدراسة بأن الجوع ليس هو السبب فى الحركة العامة بل ان كليهما نتيجة لحالة تمثيلية أو امتصاصية موجودة فى الخلايا أثناء الجوع وربما كان سببها قلة السكر فى الدم.

رقما قياسيا فى الانخفاض بعد السادسة صباحا بقليل أى بمجرد إعطاء الوجبة بعد أن كانت قد وصلت قبلها الى نهاية الارتفاع .

ولكن المسألة لاتقتصر على الجوع ، بل ان المؤثرات الداخلية لها أيضا حسابها كعمليات الاخراج وتصحبها نسبة كبيرة من الاصوات . . والاضطربات الهضمية . . والألم أو التعب الجسمانى . . والبلل . . ووقت اليقظة بوجه عام أكثر حركة من النوم (معدل $\frac{1}{2}$ ٥١ حركة فى الدقيقة مقابل $\frac{1}{2}$ ٨) .

وواضح من التجارب أن الحركات العامة تبدأ قليلة فى اليوم الاول ، وتتتابع فى ارتفاع خفيف مطرد حتى اليوم الرابع ، ثم ترتفع فجأة فتصل لنهايتها عند اليوم السابع ، ومن عجب أنها تخفت قليلا بعد هذا خلال اليومين التاليين وتحاول أن تستعيد مافقدته خلال اليوم العاشر مما حدا باروين الى القول ان استقلال الطفل عن الام واعتماده على جهازه الهضمى يصحبه ازدياد الحركات العامة ولكنا نعود فنؤكد أن هذا الازدياد يستمر الى حين ، تعود بعده هذه الحركات الى الانكماش لتفسح الميدان لزميلتها المخصصة بنمو المخ واللحاء .

أثر الظروف الخارجية : تمت التجارب السابقة مع ثبات المؤثرات الخارجية ، ولقد حاول فيس أن يدرس أثر هذه الاخيرة وخرج بان تغير الاضواء يؤثر على الطفل أكثر مما يؤثر الضوء نفسه ، ولو أن هذا الاخير مما يضايق الطفل إذا كان ضعيفا جدا أو شديد البريق . كذا تتمشى زيادة الحركة مع حدة الصوت وارتفاع النبرة أو طول مدة تردده .

ومما يعوق الحركة عند الصغير الملابس والأغطية ، فاذا أزيلت زادت الحركة وزاد الصراخ . ولكن لايبدو أن الطفل يتأثر بتغير الحرارة مابين ٧٤ ، ٨٨ درجه ، أو الرطوبة مابين ٢٢ ، ٩٠ فى المائة .

ب الحركات المخصصة : يرى اروين أنها لاتعدو ثلاثة : حركة المص المتسقة حيث تعمل الاعضاء المطلوبة فقط فى اقتصاد يتنافى مع الحركات العامة التى سبق ذكرها .. ووضع النوم الذى يميز الاطفال الصغار حيث يستدير الرأس فى هدوء ناحية اليمين أو اليسار ، ويمتد العضدان متقابلين من الكتف ، بينما ينتصب الساعدان عند زاوية قائمة فيوازيان جانبى الرأس وتنثنى الساقان قليلا عند الركبة . . أما الحركة الثالثة فهى حركة الساقين المنغمة المنتظمة واحدة فى أثر الأخرى كأنما الطفل يخطو خطوات توقيعية.

ولكننا نرى أن نمتد بالبحث الى أكثر من هذا فنقسم الحركات المخصصة الى قسمين : الافعال المنعكسة .. والردود العامة . والتفرقة هنا تعتمد على الدرجة لا النوع .

وقد تعددت دراسات الافعال المنعكسة مما ملأ جعبة الباحث بقدر كبير منها .. ولعل اسرعها للظهور ما هو ضرورى لاستمرار الحياة كتلك التى تختص بالجهاز الهضمى .. وضيق حدقة العين أو اتساعها لتحديد كمية الضوء الداخل للشبكية .. ، وهذه موجودة فى الجنين قبل الولادة بشهور . وهناك ما يبدأ بمجرد الولادة كضربات القلب .. والتنفس .. والعطس . أما الافعال المنعكسة الأخرى فتتأخر ساعات أو أياما بعد الولادة ، ومنها عناق مورو (ويحدث عند طرق ارضية فراش الوليد الصغير طرقة حادة فيلقى بذراعيه فى حركة دائرية تشبه العناق) .. وحركة بابينسكى (انتشار اصابع القدمين كالمروحة عند استثارة باطن القدمين) .. وتقبض اصابع اليد عند ملامسة جسم لراحتها .

أما الردود العامة فتضمن مناطق اكبر من الجسم ، ولكنها تشبه المنعكسة فى أنها موجودة عند الميلاد أو بعده بقليل ومنها ثبات العين على الضوء ، وتشاهد هذه الحركة خلال اليوم الأول ولو أن حركات العين التلقائية كفتحها واغماضها ودورانها فى محجريهما تحدث بقليل جدا من التوابط .. ،

وادرار الدمع ، وهو وان كان موجودا فى العين عند الولادة الا أن أول مظهر تترطب فيه العينان يبدو بين اليوم الثالث عشر والسادس عشر .. وهناك الحركات المصاحبة لتناول الطعام كالمص والبلع .. وحركات اللسان والصدغ والشفتين .. ثم مص الاصابع وقد لوحظ أحيانا بعد عشرين دقيقة من الولادة ، ثم التثاؤب ويمكن استثارته بلمس الشفتين أو الذقن .. والحركات المنغمة للفم وتحدث فى الغالب اثناء النوم اذ يفتح الطفل فمه ويغلقه فى حركات منتظمه .. وكثيرا ما يخرج لسانه ما يقرب من نصف بوصة .. ثم العبوس الخفيف .. ورفع الرأس وادارته خصوصا لو استلقى على بطنه .. ومحاولة التقلب بتلوى الجذع والرفس بالساقين ، ولو ان المحاولة لا تنجح فى نقل الطفل من الظهر للجنب .. . ، وأخيرا فأنت لو حاولت أن تجلس الطفل بعد أيام من الولادة لأظهر مقاومة قليلة لحركة السقوط المتوقعة للامام .. ولو أحاولت ايقافه حاملا اياه تحت الابطين لبدأت حركات القدمين كما لو كان يرقص ، ولو استلقى على بطنه وأعطى حاجزا يرفس برجليه ازاءه لتحرك على الفراش ما يقرب من بوصة

انفعالات الوليد : يبدو من تجارب واطسون أن للصغير انفعالات ثلاث : الخوف . والغضب . والحب .

ويمكن استثارة الخوف بسهولة باحداث صوت ثاقب حاد ، أو عند فقد السند ، كما لو تركت ذراعيك يهويان سريعا وأنت تحمل الطفل ، أو جذبت الوسادة التى ينام عليها بعنف . ويبدو الخوف واضحا فى حركات الطفل فهو يجفل ، ويتنفس بسرعة ، ويغمض عينيه فجأة ويقبض يديه

ويستثار الغضب لو عرقلت حركات الجسم منذ الولادة . فاذا امسكت انفه باصبعك ، أو رأسه بحيث تمنعه من تحريكه ، أوساقيه أو ذراعيه لاحظت تصلب الجسم ، ووقف التنفس لحظة ، والحركات الدفاعية العنيفة ، وينفتح الفم دون صدور صراخ مما ينتج عنه احمرار الوجه ثم زرقته قليلا وبعد هذا يصرخ الطفل احتجاجا .

أما عاطفة الحب فيمكن استثارتها بأن تؤرجح الطفل بلطف من جنب لجنب وتربت عليه ، وتمسح بيديك جلده بلطف .. ، وأسهل من هذا استثارة المناطق الجنسية فى الطفل كالحلمات والشفتين والاعضاء التناسلية وهنا نجد الطفل يبتسم ، ويصدر أصوات « كركرة » ، ويلوح بذراعيه وساقيه وكل هذ يدل على حالة انفعالية سارة.

وقد قبل تحليل واطسون بزضاء فى أول الامر .. ولكن بمجرد أن جاء شيرمان بعد هذا بسنوات اربع ليختبر مدى صحة هذا التحليل فجمع جانبا من أكفأ الملاحظين وأحدث مؤثرا معينا — كفقد السند — دون أن يروه ، ثم تركهم ليستنتجوا من سلوك الطفل نوع المؤثر فوجد تضاربا ملحوظا .. نقول بمجرد أن حدث هذا توالت الاعتراضات على ايدى تيلور وبرات واروين ثم هنت وكلارك ، حتى لقد ذهب بعضهم إلى القول إن سلوك الصغير لا يعدو أن يكون نشاطا عاما .

ولكننا نستطيع أن نقول بهدوء ان الصفة المميزة للتكوين الانفعالى للطفل الصغير جدا هى الكلية Wholeheartedness أو غياب كل ما يمكن أن يسمى تدرجا لرد الفعل ازاء تغير المؤثر فى الدرجة والحدة ، ومن هنا كانت حدة الانفعال الناتج وحدوثه بطريقة مبالغة تقف فى طريق ربطه بالمؤثر وخاصة اذا كان قصير المدى منخفضا فى الدرجة وعلى العموم فسرعان ما يخرج الصغير من هذه المرحلة « المائعة » خلال سنى الطفولة ليتحكم فى حياته العقلية تحت نظام ثابت متدرج .

حساسية الوليد : قد تكون الطريقة المثلى لدراسة الاحساس هى التأمل الباطنى ، ولكن لأننا نعالج الآن مرحلة سابقة لتعلم الكلام نعتمد فى تأويلنا للاحساس على الحركات التى تنشأ « عادة » من عضو الحس المتأثر .. واذا كانت الغرف الاختبارية التى سبقت الاشارة اليها تعين الباحث على تسجيل أدق حركات الطفل أثناء مرور هبة من الهواء العادى لتقارنها بحركاته ازاء أخرى بنفس الشدة من الهواء الحاوى لرائحة معينة كالخل والزيوت وغاز

الأمونيا (كتجربة لحاسة الشم) فلنذكر أن الباحث لا يجرؤ على استخدام مؤثر قوى لئلا يؤذى أعضاء الحس المرهفة .. ثم هو اذ يهدىء من المؤثر قد يتدخل احتمال أن تكون الحركة الناشئة حركة تلقائية لا ردا على المؤثر الخارجى المستخدم

فاذا بدأنا بحاسة الابصر وجدنا أن الشبكية عند الصغير أرق والمنطقة التى تحتلها أصغر منها فى حالة البالغ . ويتدرج الفعل المنعكس الذى يوسع أو يضيق حدقة العين حسب شدة الضوء فى التحسن حتى يتكامل بعد ثلاثين ساعة من الولادة ، كما تتتابع الحركات الدفاعية لدى اقتراب مؤثر من العين كادارة الرأس واسدال الجفون والصراخ

ويستطيع الطفل فى خلال عدة ساعات أن يتبع مؤقتا جسما متحركا ببطء ثم يعيد العينين أو احداهما الى الوضع الطبيعى ، كما تنمو القدرة خلال الايام العشرة الاولى كما يرى بيزلى على تحريك العينين فى كل اتجاه ، رأسى وأفقى ودائرى ، ولو أنه لا يزال أمامه بعض الوقت للتثبت من هذه الحركات تلقائيا

ونجد فى الغالب أن الضوء يسبب للطفل علامات قلق ومضايقة. كذا حاول الباحثون معرفة اثر اللون على الوليد بالدراسة التشريحية للعين من الداخل اذ تتأثر بالألوان ، وقد خالف سميث بما استخدمه من أجهزه دقيقة سنة ١٩٣٦ ما ذهب اليه برير فى القرن التاسع عشر وكانستريني سنة ١٩١٣ من أن الطفل لا يعدو التفرقة بين الضوء والظلام ، وقال إن الطفل بعد سبع أو تسعة أيام من الولادة يمكن أن يميز بعض الالوان من درجة واحدة ، ولعل اوضح الالوان بالنسبة له الازرق ويليه الاخضر ، ومن عجب أن الاحمر ياتى فى النهاية .. ، كما أن البنات يتاثرن بالالوان بشكل اوضح ، بحيث يبدو أن البنين لديهم عمى لونى جزئى ، وهم لا يرون الاحمر مطلقا

أما حساسية السمع فقد اختلف فى بدء ظهورها الباحثون ، فقد قال بعضهم انها واضحة بعد ١٠ دقائق من الولادة وقال آخرون ان الطفل يظل

أصم بضعة أيام بعد الوضع . والسبب فى هذا التناقض هو أن الاذن الوسطى تكون فى معظم الاحوال مسدودة بالسائل الذى كان يضم الطفل وهو جنين ولا يجف هذا السائل بسرعة . ولكن فى المتوسط نجد حاسة السمع تظهر بعد مرور اليومين الاولين . ويعزز هذه الحقيقة بريان فى تجاربة سنة ١٩٣٠ مستعملا جرسا يدويا يصدر ٥١٢ ذبذبة فى الثانية .

ويلاحظ أن الطفل يتأثر بأصوات الاشياء كالشخشيخة أو طرق طبق صينى بملعقة أو تمزيق الورق أكثر مما يتأثر بأصوات الانسان حتى لو كان هناك مناقشة عالية فى نفس الغرفة ، فتمييز صوت الانسان لايسيطر على غيره قبل الاسبوع الرابع .

وحاسة الذوق أقوى من السابقتين وأوضح ظهورا ، اذ وجد برات ونلسون وسن أن الاطفال يستجيبون فى نهاية اليوم الاول الى ٨٦ فى المائة من المؤثرات الذوقية التى استعمل منها السكر والملح والكينين والماء وحامض السيتريك فى صورة حركات ايجابية كالمص للحلو وأخرى سلبية للمر أو اللاذع كادارة الرأس من جانب لآخر ، ودفع الوجه لأعلا ، والصراخ ، ورفع الساقين والذراعين .

وتشبه هذه الحاسة الأخيرة وربما تفوقها حاسة الشم ، ويمكن ملاحظتها خلال الساعة الاولى من الولادة . فلو قربت من الطفل رائحة نفاذة كالبترول أو الخل أو النوشادر أو روح البرتقال أو لبن الام لاحظت فى المضايقة تقلصات فى الوجه والرفس والصراخ . . ، وحركات المص اذا كان مرتاحا . بل وقد لوحظ أن الروائح النفاذة تستثير هذه الحركات عند الطفل أثناء النوم ، كما يدير الوليد رأسه بعيدا عن الثدى اذا تشبع برائحة البترول .

وأخيرا فحساسية الجلد للمس والضغط والتغيرات الحرارية والالم موجودة ساعة الولادة أو بعدها بقليل فى كل عضو من الجسم ، ولو انها تختلف حسب شدتها ، فالاغشية المخاطية للشفتين أكثر حساسية من الجذع والارداف والساعد .

كذا يتأثر الطفل بالحرارة أو البرودة ، فقد لاحظت بلانتون ارتعاشا واضحا فى طفل فى مدى ١٥ دقيقة من الولادة ، ولم يتوقف الا عندما قرب الطفل من زجاجات الماء الساخن . والواقع أن الطفل يستجيب للبرودة أكثر مما يستجيب للحرارة . . ، كما يلاحظ رفضه للبن أو أى سائل اذا كان أبرد أو أسخن من الحرارة المعقولة .

وأضعف من هذا الاحساس بالالم خصوصا فى اليومين الاول والثانى من الولادة . وأكثر الاعضاء حساسية باطن القدمين ، والشفتين ، والجفون ، والجزء الداخلى من الانف ، وجلد الجبهة . وعلى العموم فالاستجابة للالم تظهر فى الجزء العلوى أسرع من السفلى ، فلقد أثبت شيرمان وفلورى ان الطفل بعد خمس ساعات من الولادة يستجيب اذا وخز مرات متعاقبة فى الصدغ بينما لا يتأثر مهما وخزته فى الساق . فاذا تكاملت للطفل ٤١ ساعة تكفى وخزة واحدة فى الوجه ليستجيب بينما لا يحدث هذا بالنسبة للساق قبل ٧٦ ساعة .

والواقع أن عملية الختان بدون بنج خلال الاسبوعين الاولين لا تؤلم الطفل بدرجة ملحوظة .

أما الحساسية العضوية للجوع أو العطش مثلا فمن الصعب أن نتأكد من وجودها فى هذا الوقت المبكر وان كانت تجربة ريتشاردز التى سبق ذكرها حيث ابتلع الاطفال البالونات تعطينا فكرة عن انقباضات المعدة وسببها الا انا لا نستطيع أن نجزم بما اذا كان صراخ الطفل وحركته العامة نتيجة شعور عام بالمضايقة أو أن هذه المضايقة تختص فقط بالجوع أو العطش ، وكل مانستطيع أن نقوله اعتمادا على التجربة الآنفة الذكر مضافا اليها أبحاث كارلسون وجينز برج سنة ١٩١٥ إن فترات الجوع تحدث كل ١٠ أو ١٥ دقيقة تنتهى كل منها بتقلص شديد للعضلات .

والآن وقد عرضنا صورة موجزة عن حواس الطفل الحديث الولادة أى شعور ذلك الذى يتملكه اذ ينزل الى ذلك العالم الغريب المليء بالمؤثرات؟

لقد ظل هذا السؤال يراود الانسان سنين عديدة واعتمد معظم الباحثين فيه على ناحية تصويرية شخصية، ولعل أكثر التعبيرات شيوعا ما قاله و. جيمس من أن « الطفل الصغير وقد ترامت اليه السهام من كل مكان .. العينين والاذنين والأنف والجلد فى لحظة واحدة .. يشعر بالعالم كخلية نحل كبيرة تدوى وتئز فى اضطراب يملك عليه مشاعره ».

ويرى شتيرن أن الطفل الصغير ولو أنه « مجموعة من الأفعال المنعكسة » الا أن لديه « أولى بوادر الشعور عند الولادة فى مزيج من عناصر الحس والانفعال ».

أما كوفكا فهو فى تعبيره فنان مرهف الحس فالوليد يجابه العالم من زاوية مخالفة لنا نحن الكبار .. « تماما كما تنساب ألحان نغم رائع فتسمو بواحدمنا الى سماء الخيال .. بينما لايرى فيها الآخر سوى صوات تتردد ، فقد خلت نفسه من معانى الجمال ».

الفصل الرابع

النمو الجسمانى

فى مؤلف كهذا يهتم بنفسية الطفل قد يبدو من الغريب أن نفرد مكانا للناحية الجسمية ولكن الخط الفاصل بين الجسم والعقل هو خط رقيق لايحتمل مجرد التحليل . ويكفى جانب من الخمر أو المخدرات من أى نوع التحيل أكثر الناس اتزانا وعقلا وهدوء أضحوكة أمام الجميع .

ومن الواضح أن الحالة الانفعالية للطفل بين ستة أشهر وسنتين ونصف يمكن أن نعيدها جزئيا إلى تأثير ظهور الاسنان ، فكل سنة يصحبها اضطراب جسمانى ولو بسيط ، مما يجعل الطفل معرضا للقلق العام وعدم الاستقرار . فضلا عن ظهور نزعات العض والاعتداء . كما أن اللعب فى كل عمر — وهو ظاهرة عقلية — يعتمد على مدى النمو الجسمانى للطفل اعتماده على الحالة العقلية . . فحجم الجسم ، وقوة العضلات ، وكمية الشحم المختزنة . تحدد إلى مدى بعيد القدر الذى يسمح للطفل بالاشتراك مع رفاقه فى اللعب . ويتبع هذا قوالب معينة من السلوك . . فهو إما متراجع خامل مستسلم للعزلة واليأس . . ، وإما منطلق مرح ميوله اجتماعية . . ، أو مسيطر متزعم يقود الآخرين فى لعبه . بل ان الذكاء ليعتمد مباشرة على حجم وتركيب المخ وهى اعتبارات جسمانية .

يضاف إلى هذا أن الحالة العقلية تتغير حسب موقف الطفل الجسمانى من المحيطين به . . ، فهو فى وقت ما خجول منزو فى حضرة البالغين ، وبعد ساعة واحدة متوثب يميل الى الاعتداء مع من هم أصغر منه حجما . ولقد سبق أن عرضنا للتغيرات الجسمية التى تجلبها المراهقة وأثرها على الغلام فى احجامه عن احترام والديه ؛ فهو يظن أنه يقف معهم على قدم المساواة ، كما أشرنا الى أثر الغدد المصابة فى القلق العام ، وخاصة افرازات الغدة الدرقية التى قد تتصل بالطفل الى مرحلة البله .

بل ان العاهات الجسمية كالصمم أو العمى أو ضعف القلب تمنع الطفل من الاشتراك فى النشاط الاجتماعى مع رفاقه فيتكون لديه سلوك متراجع فينزع للوحدة وتتلون نظرته للعالم بلون سوداوى متشائم . . فضلا عن اتجاه الاطفال الصحاح الاجسام نحو المريض فهم يتجنبونه . . أو يسخرون منه . أو يعطفون عليه . وكل موقف من هؤلاء يكيف كثيرا موقفه تجاه نفسه .

وبنفس الطريقة اذا تأخر حلول المراهقة ، خصوصا فى حالة البنين الذين يبدون صغارا بمقارنتهم بزملائهم فى نفس السن الذين نموا نموا سريعا يؤثر كثيراً على شعور الطفل بالنقص والعجز والغيرة مما يشكل سلوكه اما بالوحدة والخنوع واليأس ، أو التشرد والاجرام . ومما يجعلنا محقين فى القول إن « الطفل يسلك تبعا لعمره الجسمانى »

أما أثر العقل على الجسم فواضح فى التنويم المغناطيسى والايحاء . وقديما جىء بأحد المجرمين الخطرين كان محكوما عليه بالاعدام وأوثقت يداه خلف ظهره ، وقيل له إن الحكم سينفذ فيه ببطء إذ سيقطع أحد شرايينه فيسيل منه الدم حتى يموت . ورأى الرجل الجلاد وهو يعد المبضع كما رأى دلوا يوضع خلف ظهره لتتجمع فيه الدماء ، ثم أحس بالمبضع يعمل فى ذراعه وسرى شىء دافىء يتدفق من بين أصابعه الى الدلو . ومن عجب أنه مات بعد دقائق . . مع العلم بأن الجرح كان سطحيا بينما ركبت أنبوبة يتخللها ماء دافىء فوق ذراعه فظن المسكين أنها دماؤه . !

وليس بخاف ما يصاحب الانتباه — وهو عملية عقلية — من مظاهر جسمانية . فالمخرج فى دار الخيالة أو على خشبة المسرح قد يصل بالنظارة إلى موقف هو مفتاح القصة كلها ، فالمجرم صاحب الجرائم الغامضة يقترب الآن من خلف البطل فينعكس ظله على الجدار ؛ وهو ظل ضخم كئيب يلتف فى عباءة واسعة ثم يرتفع فى يده خنجر ليهوى به فى عتو وجبروت . . وهنا تجد السكون مخيما على النظارة ، فلا حس ولا حركة ؛ بل قد حبست نسبة كبيرة منهم أنفاسها ، وانفتحت عيونهم لا تطرف ، وأرهفوا آذانهم لالتقاط أكثر الاصوات خفوتا

بل وقد يحدث فى ملعب كرة القدم أن تتابع أعين النظارة أحد اللاعبين المبرزين وهو يتخلص من خصومه واحدا بعد الآخر حتى اذا انفرد بالمرمى وتهيأ للضربة الحاسمة تحركت ساقك دون وعى منك كأنما أنت تقذف بالكرة

ومنذ أن أجرى كانون تجربته الشهيرة على الجهاز الهضمى للقط فى الحالة العادية ثم وهو تحت تأثير الخوف .. فصور بالأشعة عملية الهضم وهى تتتابع بشكل عادى ، ثم أحضر كلبا شرسا بعث الخوف عند القط فلاحظ توقف الجهاز الهضمى كلية .. منذ أن حدث هذا وعرف ما للخوف — وهو انفعال نفسانى — من مصاحبات جسمانيه كتفرغ المثـــانة ، وإفراز الأدرنالين ، وهروب الدم من الرأس وتجمعه فى الاطراف . . لم يعد هناك شك فى أثر العقل على الجسم .

وما من شك فى أن الخوف يتدخل فى جميع الامراض الجسمانية ولو بدرجات متفاوتة ، وقد يكون الهدوء ورباطة الجأش نقطتى التحول فى المرض فيصارعه الشخص حتى ينجو منه ، بينما فرصة زميله المضطرب الثائر الاعصاب السوداوى المزاج ، ضئيلة جدا للحياة . ولقد يحتاج الأمر فى حالات النزيف الشديد مثلا حقن المصاب بمخدر خفيف لان استمرار يقظته واضطرابه يزيدان النزيف حدة واندفاعا ، ويستنفدان ما تبقى له من حيوية متضائلة .

ولعل مرضا كالسعال الديكى يهيء لنا مثالا من أبرز الامثله ، فالحالة المزاجية تلعب فيه دورا هاماً . فاذا أصيب طفلان فى منزل واحد بالمرض - أى اذا افترضنا جدلا أن كمية العدوى متقاربة - فان الطفل ذا المزاج الهادىء المستقر ينتابه فى اليوم الواحد عدد من النوبات أقل بكثير من زميله العصبى المهتاج . . كما انها تستغرق فى الطفل الأول وقتا أقل . . ومن هنا تراه يسبق الآخر نحو الشفاء .

وحتى العامة يربطون الحزن الشديد — وهى حالة نفسية — بعدد من الامراض كالسكر ، وانسداد الشريان ، والشلل « النقطة » وأقرب من هذا كله اتصال الخوف الشديد بالاغماء وهبوط القلب أو توقفه . وقد طالعتنا الانباء أخيرا بسقوط طائرة هولندية على مدرسة ، وكانت أم الطيار تراقب ابنها فى اعجاب وهو يحلق فماتت عندما رأته يهوى وتتحطم طائرته

ليس من الغريب اذن أن نفرد هنا فصلا عن النمو الجسمانى ، وليتذكر الآباء أن الامراض الجسمية قد تؤثر على الحالة النفسية كما تتأثر بها. ولقد يكون من الاوفق أن يهتموا بالناحيتين فى علاج ظاهرة جسمانية . ولقد تجد بعض مشاهير الاطباء يرفضون العلاج النفسى على أساس أنه ترهات ولكنك لو رافقتهم لوجدتهم نفسانيين مهرة بالفطرة ودون قصد منهم

موجات النمو : لا يسير النمو بسرعة واحدة بل تعترضه فترات مد وجزر . ولقد سبق أن بينا ص ٤٤ و ٤٥ أن الجنين عند اكتمال نموه يقطع ثلث المسافة الى النضوج ، ثم يتناقص نموه فى الاسبوع الاول ليستعيد مافقده عند نهاية الثانى . وبعد هذا يسرع فى النمو خلال السنوات الثلاثة الاولى ويبطىء قليلا حتى السادسة ثم يزداد البطء الى بدء المراهقة وهنا ينطلق فى سرعة كبيرة طيلة البلوغ حتى يصل لنهاية النضوج .

كما بينا اختلاف سرعة نمو كل عضو عن الآخر ، وعلى العموم فقانون النمو يضع للجزء الاعلى من الجسم الاسبقية فى النمو والنضوج عن الجزء الاسفل

ولا يقتصر الامر على تموجات النمو بشكل عام ، بل ان كل سنة تتخللها فترات من التموج والانحسار ، فلقد وجد أن أصلح الشهور للنمو فى الطول هى من ابريل لمنتصف أغسطس ، بينما الزيادة فى الوزن تقع ما بين شهر يوليو لمنتصف ديسمبر .

الطول : يبدأ الطفل بمتوسط ١٩ - ٢٠ بوصة ، وينمو سريعا فى السنتين الاوليين ، فهو فى نهاية الشهر الرابع يصل الى ٢٢ أو ٢٣ بوصة ، وفى نهاية

الثامن ٢٥ - ٢٧ بوصة ، فاذا ما تكامل عمره سنة أصبح ٢٧ - ٢٩ بوصة . ويستمر هذا النمو خلال السنة الثانية فيصبح فى نهايتها ٣٢ - ٣٣ بوصة ويقل الطول بعد هذا بين الثالثة والسادسة بمعدل ٣ ونصف بوصة سنويا فيصبح فى نهاية هذه المرحلة ضعف طوله عند الولادة ، أى ٤٠ بوصة . ويزداد البطء أيضا فى النمو حتى ما قبل المراهقة ، بمعدل ٢ ونصف بوصة فى السنة فيصبح الغلام ٥٥ بوصة فى سن الثانية عشرة .

فاذا حلت المراهقه . ما بين ١١ و ١٥ فى البنت و ١٢ و ١٦ فى الولد نلاحظ سرعة كبيرة فى الطول تعقبها فترة ركود وبطء حتى الثامنة عشرة أو العشرين حين يكتمل الفرد . ففى سن الرابعة عشرة يصل متوسط طول المراهق ٦٠ر٣ بوصة ، وفى السادسة عشرة ٦٥ بوصة . ثم يكتمل نمو الشـــاب ببوصتين اضافيتين عند سن الثامنة عشرة أو العشرين ، أما متوسط طول الفتاة النهائى فهو ٦٤ بوصة .

فاذا قارنا طفلا وطفلة منذ الولادة وجدنا أن الولد أطول من البنت حتى الحادية عشرة ، وهنا يتزايد طول البنت ليلحق بها الولد عند الخامسة عشرة ، ثم يخلفها وراءه بعد هذا الى غير عودة . وهناك كما بينا علاقة وثيقة بين الطول قبل المراهقة وبعدها .

وهناك عدد من العوامل يؤثر فى هذه المقاييس بطبيعة الحال ، منها عوامل الوراثة .. والشعب الذى ينتمى اليه الفرد . فشعوب أوروبا الشمالية أطول فى المتوسط من جنوبها أو من زنوج أواسط افريقيا .. وهناك أيضا الطبقة الاجتماعية والاقتصادية فأطفال مدارس الاشراف واللوردات فى انجلترا أطول من مدارس الطبقات المتوسطة . فضلا عن أثر الطعام والتغذية خصوصا فى السنوات المبكرة من الحياة . بل وترى هولينجورث أن الطول يتأثر بالذكاء .. ، وهى بهذا تعزز تجربة تيرمان المشار اليها فى مناسبة سابقه ، فالاطفال الأذكى هم فى الغالب أطول .

الوزن : يزن الطفل ساعة الولادة ٦-٨ أرطال . ويقل الوزن عادة فى الاسبوع الاول ثم يعوض الطفل هذا النقص قرب نهاية الاسبوع الثانى ويتزايد الوزن حتى يصل للضعف فى نهاية الشهر الرابع ، أى ١٤ رطلا ، ويتراوح بين ١٦ ، ١٩ فى الشهر الثامن . فاذا اكتملت السنة الاولى فانه يزن ٢١ رطلا على الاقل .

وتأتى بعد هذا السنة الثانية والثالثة بمتوسط زيادة ٣ - ٥ أرطال سنوياً واذن فالطفل العادى فى سن سنتين يزن ٢٥ رطلا ، وفى سن الثالثة ٢٩- ٣٠ رطلا فاذا قارنا الاطفال الذين يتغذون صناعياً بغيرهم وجدناهم أقل وزناً خلال الشهور الثمانية الاولى .

وفى نهاية السنة السادسة يجب أن يصل الطفل الى خمس أمثال وزنه عند الولادة أى ٣٥ - ٤٠ رطلا . فاذا أوشك الفرد على المراهقة زادت نسبة الوزن زيادة كبيرة ، ففى البنت تبدأ هذه الزيادة حول العاشرة وتصل الى ذروتها فى سن الثانية عشرة فيصل متوسط الزيادة الى ١٤ رطلا سنويا . أما الولد فتتأخر لديه هذه المرحلة لتبدأ حول الثانية عشرة وتصل الى ذروتها فى الرابعة عشرة بمعدل ١٥ رطلا سنويا . ويصل وزن الفتى فى الرابعة عشرة ٩٥ر٤ رطلا وفى السادسة عشرة ١١٦ر٧ ويغلب أن تأتى الزيادة فى الوزن خلال السنين الاخيرة للبلوغ من ازدياد النمو العضلى .

والبنون فى الغالب أثقل من البنات فى كل المراحل ماعدا الفترة الواقعة بين الحادية عشرة والرابعة عشرة . وترى هولينجورث هنا ايضا أن الذكاء الاعلى من المتوسط يصحبه ثقل فى الوزن نتيجة لازدياد الطول ونمو الجسم بشكل عام .

فاذا خرجنا من دراسة الجسم كله الى أعضاء مخصصة فاننا نلاحظ أن هذه الاعضاء لاتنمو كلها بنسبة واحدة ، فبعضها يتضاعف ، والآخر يكبر أربع أمثال وهكذا . ولكن لايصل الفرد الى سن السابعة عشرة أو بعدها بقليل حتى تكون أعضاء الجسم المختلفة قد وصلت الى النضوج :

الرأس : ونسبة نموه أقل من غيره ، فالطفل يولد ورأسه حوالى ٢٢ فى المائة من طول جسمه ، أى مايزيدقليلا عن ٤ بوصات وهى نسبة لو استمرت لكان ارتفاع رأس الانسان منا ١٥ بوصة فكأنه غول مخيف ، بينما هو فى الواقع ٨ بوصات .

يتضاعف اذن حجم الرأس ، ولكن هذه الزيادة لاتتناول الاجزاء العليا منه بقدر السفلى كالانف والعارضين والشفتين والفك . فمحيط الرأس من أعلا فى سن السادسة يصل الى ٩٠ فى المائة من الحجم الطبيعى .. أما ملامح الوجه فهى فى أول أمرها صغيرة جدا . ويرى القارىء رسماً توضيحياً من عمل كول يبين هذه الحقيقة بمقارنة رأس طفلة فى السادسة وفتاة فى السابعة عشرة فى وضع جانبى

ملامح الوجه : واذن فالرأس ينمو ببطء بينما يسارع الوجه للنمو بعد نمو الاسنان وتبديلها بالاسنان الدائمة ، وتحدث الحالة الاخيرة فى فجر المراهقة فتتفلطح الجبهة ، وتمتلىء الشفتان ، ويصبح الوجه بيضاوياً بدلا من وجه الطفولة الغض المستدير .

ولعل الأنف هو أبعد الأعضاء عن الاحتفاظ بالتناسب مع الوجه . فهو فى السنوات الأولى صغير ومفلطح على الوجه ، ثم ينتصب بالتدريج كلما تصلبت الغضاريف وبكبر حجمه ويتحدد فى الشكل . وهو يصل فى العادة الى الحجم الطبيعى مبكرا فى سن ١٣ أو ١٤ ويغزر الشعر بداخله خصوصا عند البنين ، فيصبح شكل المراهق عجيبا حقا .. اذ أن التناسب ليس محفوظا فى هذا السن المبكر . والكثير من المراهقين يصاب بقلق كبير اذ يظن أن وجهه سيحتفظ بهذا الطابع الغريب الذى يبرز فيه الانف ، أو يظن أن نمو الأنف سيستمر باستمرار استطالة الجسم أو بنسبة نمو بقية الوجه .

أ الجذع : نظرا لكبر الرأس وصغر حجم الساقين عند الولادة يصعب ن يحتفظ الطفل بالاتزان المطلوب ، ويزداد هذا الاتزان تمكنا كلما طال الجذع وتصلب .. ، ويحدث هذا بسرعة فى السنين الأولى فيتضاعف طوله ومحيطه حتى السادسه عنه عند الولادة ، وتقل هذه النسبة الى ٥٠ فى المائة حتى المراهقة .

ويتفلطح البطن بعد السادسة بعد أن كان مقوسا ومتداليا .. ويزداد عرض الكتفين مما ينتهى باتخاذ جسم الطفل شكلا مثلثا يخالف كثيرا جسم الطفل الصغير .

وعند المراهقة يطول الصدر ويزداد عمق القفص الصدرى ، ويصل الى اقصى نموه ما بين ١٢ ، ١٤ فى البنات ، ثم ١٤ ، ١٧ فى البنين وفى هذه المرحلة تبرز الاختلافات بين الجنسين بشكل حاد فيكتسى صدر الشاب القوى بالعضلات بينما يبرز الثديان عند الأنثى كما يتغير شكل عظام الحوض فيزداد القوس اتساعا بحلول المراهقة مما يضيف الى حجم الأرداف فضلا عن اكتنازها بطبقة من الشحم .

الأطراف : يولد الطفل بساقين قصيرتين ويدين وقدمين صغيرتين ، بعكس الذراعين فهما طويلان نسبيا .

ويرى الطبيعيون أن هذا التتابع ليس مجرد مصادفة ، بل انه ليتمشى مع

حاجات الطفل فى مراحل النمو . فالطفل الحديث الولادة لا يستطيع أن يهضم من الأطعمة سوى اللبن أو بعض السوائل .. كما أن حاستى البصر والسمع لا تزالان بعيدتين عن النضوج فلا يمكن أن تعيناه على اداء مطالبه بنفسه ، بل هو يعتمد تماما على ذراعى أمه للحماية والدفء ، وعلى صدرها للغذاء . واذن فهو لا يحتاج لأكثر من ذراعين يتعلق بهما وفم يمتص الطعام السائل .. وهو ما زودته به الطبيعة فى سخاء . أما الساقان فهو فى غير حاجة لهما — بعكس الكتكوت الذى يسعى بنفسه للغذاء بمجرد الفقس ومن هنا يحظى بساقين طويلتين — ولذا تبدآن قصيرتين وتظلان مثنيتين بعض الوقت فى وضع يشبه كثيرا ذلك الذى يميزهما فى البطن .

وتتمشى مع المظهر الخارجى اختلافات أخرى فى الناحية الفسيولوجية فالعظام فى أول أمرها لينة . ثم يأتى امتداد الساقين التدريجى لا مع استمرار تصلب العظام فحسب وبذا يمكنهما أن تحتملا ثقل الجسم ، بل أيضا مع نمو حواس البصر والسمع واللمس التى يحتاجها الصغير فى هـــذا الوقت اذ يستكشف العالم الصغير الذى يحيط به . ومع كسب القوة العضلية والاتزان الضروريان للوقوف والخطو قرب نهاية السنة الأولى .

ومن عجب أن معدة الطفل تتمشى هى الأخرى مع هذه المطالب إذ تزداد قدرتها على هضم الأطعمة المتماسكة (البوريه) فتمده بمصدر حيوى من مصادر النشاط يحتاجه للحركات الطليقة التى بدأ الان يمارسها .

ومهما كان الامر فان الذراعين ينموان حقا خلال السنتين الاولين أسرع من الساقين (من ٦٠ — ٧٥ فى المائة مقابل ٤٠ فى المئة فى الاخيرة) .. ، ولكن السرعة تتحد بعد هذا حتى الثامنة فيزداد كل بمقدار نصف طوله عند الثانية .. وينقلب الموقف بعد هذا فيبطىء نمو الذراعين جدا فى الطول حتى يتكاملا عند السادسة عشرة أو الثامنة عشر وينحصر نموهما فى الشكل ، اذ يختلفان عن شكلهما الاسطوانى فى سن الثامنة فيكتنزان بالعضلات وتبدو الفروق الجنسية بين الولد والبنت فى الذراعين خلال البلوغ بازدياد القوة

العضلية عند الذكر .

أما الساقان فيستمران فى النمو بعد الثامنة بشكل ملحوظ فيصلان عند المراهقة الى أربع أضعاف طولهما عند الولادة ، ثم الى خمسة أضعاف هذا الطول عند النضوج .

أما اليدان والقدمان فتبدآن كما أشرنا صغيرتين . ولا يمكن أن تكونا ذات فائدة للطفل قرب نهاية السنة الاولى الا اذا زادتا فى الحجم والقوة ، وهذا هو ما يحدث فى السنتين الاوليين اذ يتنابهما نمو سريع يبطىء حتى فجر المراهقة وهنا ينطلقان من عقالهما كما فعل الانف فيصلان فى مدى قصير - حوالى الرابعة عشرة — الى حجمهما الطبيعى ، وهذه السرعة الكبيرة فى النمو أخيرا تسبب قلقا كبيرا للمراهق والمراهقة كما رأينا فى حالة الانف .. ، فالكثير من البنات يلبسن أحذية ضيقة جدا على أمل منع القدمين من ازدياد النمو ، وهذا هو السبب فى أمراض القدمين وتشوههما فى الكبر . أما اليدان فهما مصدر اضطراب وخجل كبيرين للفتى ، وكثيرا ما يحاول أن يضعهما خلف ظهره أو فى جيب بنطلونه ليخفيهما .

الاسنان : للطفل مجموعتان منهما : الاسنان المؤقتة .. والاسنان المستديمة

فالمجموعة الاولى تتكون من ٢٠ سنا ، بينما الثانية ٣٢ . وتمتاز الاخيرة بكبر حجمها ومتانتها وصلابتها .

ونمو الاسنان مستمر داخل الفك من الشهر الخامس للجنين حتى ظهور أضراس العقل بين العام الواحد والعشرين والخامس والعشرين من العمر ويصحب ظهور الاسنان المؤقته ألم وتعب عامان يسببان فقد الشهية والقلق والعصبية وسرعة التهيج .. بينما ظهور الاسنان الدائمة لا يحدث أى ألم .

ويظهر السن الاول فى الشهر الثالث فى الاطفال المبكرين ، كما قد يتاخر ظهوره حتى السادس عشر فى الضعاف ، ولكن

السن المتوسط هو الشهر السادس الى الثامن . ويمكننا أن نرفق بهذ جدولا (١) للتوضيح :

الفك الاسفل		الفك الاعلى	
نوع السن	العمر بالاشهر	نوع السن	العمر بالاشهر
القواطع الوسطى	٦ - ٨	القواطع الوسطى	٨ - ١٢
« الجانبية	١٠ - ١٤	« الجانبية	٨ - ١٢
الانياب	١٨ - ٢٢	الانياب	كالفك الاسفل تماما
الضرس الاول	١٢ - ١٦	الضرس الاول	
الضرس الثانى	٢٤ - ٣٢	الضرس الثانى	

وفى العادة نلاحظ أن الأسنان فى الفك الأسفل تشق طريقها قبل زميلاتها فى الفك الأعلى ، ويتوقف الزمن على صحة الطفل ، وتغذيته ، والحالة الاجتماعية ، والشعب الذى ينتمى اليه . كما وجد أن البنات يسبقن البنين قليلا

وتبدأ الأسنان الدائمة فى التكون داخل اللثة بعد ظهور الاسنان المؤقته ما عدا اضراس العقل الأربعة ونجد فى المتوسط أن الطفل فى سن ٦ سنوات له سن واحد أو اثنان دائمان ... وفى سن ٨ سنوات ١٠ أو ١١ سنا ... وفى سن ١٠ سنوات ١٤ أو ١٦ ... وفى الثانية عشرة ٢٧ أو ٢٨ .. وتبقى بعد هذا اضراس العقل وهى أربعة . وتظهر فيما بين الثامنة عشرة والخامسة والعشرين وفيما يلى جدول مقارب لاحد الفكين ، والآخر يشبهه تماما .

---

j. Anderson and F. Goodenough. Your child year by year. Parents' Magazine 1930

نوع السن	العمر بالسنوات	نوع السن	العمر بالسنوات
القواطع الوسطى	٧ — ٨	الثانى (شعبتين)	٩ - ١٢
القواطع الجانبية	٧ — ٨	الاول (٣شعب)	٦
الأنياب	١٢ -- ١٤	الثانى (٣ شعب)	١٢ - ١٥
الضرس الاول (ذو شعبتين)	٩ — ١٢	ضرس العقل	١٧ - ٢٥

العضلات . ترجع الزيادة فى الوزن فى مراحل النمو الى نمو نوعين من الانسجة : الشحمية ..والعضلية . وتسيطر الأولى على الميدان حتى الثانية عشرة ثم تنزوى لتفسح الطريق للثانية خلال سنى المراهقة والبلوغ . وتبدو هذه الحقيقة من مقارنة نسبة وزن العضلات الى وزن الجسم، فهى ٢٣ر٤ فى المائة عند الولادة ، ثم ٢٧ر٢ فى المائة فى الثامنة ، وفى الخامسة عشرة ٤٢ر٦ ثم فى السادسة عشرة ٤٤ر٢

والواقع أن النمو العضلى بعد المراهقة هو احدى المميزات الجنسية المشتقة. وهنا يزداد محيط الساعد ، والعضد ، و«سمانة» الساق والارداف ، كما يكتنز الظهر والكتفان بالعضلات . ويكفى للتدليل على مدى ثقل العضلات أن نشير الى أنها تتكون عند الولادة من ٧٢ فى المائة ماء ، ٢٨ فى المائة مادة صلبة ، فاذا بها تصبح عند النضوج ٦٦ فى المائة ماء ، ٣٤ فى المائة من المادة الصلبة . ولقد أثبتت الاختبارات أن القوة العضلية خلال البلوغ تتزايد زيادة هائلة ، وخاصة قبضة اليد .

ولكن هذه السرعة الكبيرة فى نمو العضلات تسبب عدم الاتزان والضبط المعروفين فى حركات المراهق . اذ تطول العضلات بأسرع مما تطول العظام . وتستمر هذه الفترة عدة سنوات ريثما يحدث التوازن المطلوب، وتصحبها مرحلة اضطراب وسرعة انفعال وخجل ، يخفيها المراهق بحركات لا إرادية كالعبث بربطة عنقه أو أزرار سترته . فاذا عادت له القدرة على

الضبط العضلى هدأ وزالت هذه العصبيه .

الجهاز العصبى : ينمو بسرعة قبل الولاده فيزداد عدد وحجم الخلايا العصبية ، ثم يحتفظ بهذه السرعة خلال السنوات الثلاثة أو الاربعة الاولى حيث ينصرف النمو الى الخلايا غير الناضجة ساعة الولادة . ويبطىء النمو بعد هذا كثيرا .

المخ : يزن ساعة الولادة ٣٥٠ جم مقابل ١٢٦٠ - ١٤٠٠ جم عند البالغ واذن فهو يصل الى ربع وزنه عند الولاده ، ثم نصف وزنه بعد ٩ أشهر ثم ثلاثة أرباعه فى نهاية السنة الثانية . وأربع أخماسه فى سن ٤ سنوات . ويبطىء النمو بعد هذا نسبيا حتى يصل الى ٩٠ فى المائة من وزنه الطبيعى عند السادسة

ولكن من الخطأ أن نقتصر على تسجيل النمو فى الحجم ، فاذا كان ضئيلا جدا فى المراهقه والبلوغ الا أن التغيرات الداخليه فى الخلايا اللحائيه والتلافيف وبناء الماده السنجابيه تفوق كثيرا فى أهميتها ما سبقها من النمو .

الجهاز التنفسى : محيط الصدر عند الولادة أصغر من الرأس مما يدل على صغر الرئتين ، ويزداد محيط الصدر حتى يلحق بالرأس عند سن سنتين ، ثم يسبقه كثيرا فتصل النسبه فى الخامسة عشرة الى ٣ : ٢ ، وعند النضوج ٥ : ٣

ويبدأ نمو الرئتين بشكل واضح بمجرد حلول المراهقة يصبحه ازدياد محسوس فى طول النفس مما يجعل مسابقات الجرى الطويل المدى ممكنة وناجحه قرب نهايه المرحله الثانويه .

الدوره الدموية : القلب عند الولاده أعلى فى الصدر منه فى البالغ وأكثر ميلا للوضع الافقى . كما انه أثقل وأكبر بالنسبة لوزن الجسم منـــه فى أى وقت آخر .

وفى مرحلة الطفولة نجده صغيرا بالنسبة لاتساع الشرايين والاورده ، مما يحتم عليه أن ينقبض ويرتخى ١٢٠ - ١٤٠ مره فى الدقيقة .. ومما يسبب انخفاض ضغط الدم فى هذه المرحله .

ولكن النسبة تنقلب فى المراهقة ، وتزداد الاوعية الدموية فى الطول والاتساع زيادة بسيطة.. كما تصبح جدرانها اكثر متانة وصلابة، وهكذا تصبح النسبة بين اتساع القلب والاوردة ١:٥ ، أى أن القلب يدفع الدم خلال فتحة تصل الى $\frac{1}{5}$ اتساعه، ومن هذا يرى القارىء الخطر الذى يتعرض له الانسان من ارتفاع ضغط الدم أثناء هذه التغيرات فى جهاز الدورة الدموية. ومن المؤسف ان المراهق فى هذه الفترة ينغمس فى تمرينات رياضية عنيفة مما يسبب لعدد كبير من الفتيان الصغار الاغماء ، والدوار ، والصداع ، وإجهاد القلب ، وتضخمه وامراض صماماته .

الجهاز الهضمى : تهمنا منه المعدة وهى فى اول أمرها أنبوبية الشكل، تتقاطع مع الجسم ، وترتفع قدرتها البسيطة على قبول الطعام من أوقية واحدة عند الولاده الى اوقيتين ونصف بعد اسبوعين ، ثم ثلاث أوقيات فى نهاية الشهر الاول . والواقع أن وضعها الافقى يجعلها تتفرغ بسرعة ، وخاصة لو نام الطفل على جنبه الايمن . . وتستمر هذه الصفه طيلة سنى الطفولة ، وبعد هذا يتغير شكلها الى شكل الحقيبة كما تشاهد فى الكبار وتقل سرعة تفرغها .

ثم تأتى مرحلة المراهقة فتصحب معها سرعة كبيرة فى النمو الجسمانى يضاف إليه النشاط العضلى الكبير مما يتطلب كمية هائله من الطعام ليتوافر للجسم الوقود اللازم للنمو وتعويض الانسجة ، وهذا هو السبب فيما نشاهده من شعور المراهق الدائم بالجوع فى كل ساعة من ساعات النهار ، والواقع أن الفتى بين الثالثة عشرة والسادسة عشرة يستنفد ٥٠٠٠ سعرا حراريا فى اليوم وهو يعوض هذا كله بالطعام يقبل عليه فى نهم ، وهو يميل على الاخص للحلوى ولكنه مع هذا يظل نحيفا ، فالطعام يستنفد ليتحول الى طاقة ضرورية لمتابعة النمو والالعاب العنيفة ، فاذا لوحظ أن الغلام فى المراهقة قد اكتنز جسمه وترهل فأغلب الظن أن هناك خللا طرأ على إحدى الغدد .

الجهاز التناسلى : ينشط فى مرحلة البلوغ ، وهى كلمة عامة تتضمن فى الحقيقة مرحلتين ، احداهما المراهقة، وباللاتينية puhertas ومعناها ينجب .

أى انها مرحلة انتقال من الحياة اللاجنسية الى الحياة الجنسية حيث يصبح الفرد قادراً على مزاولة الوظائف الجنسية .. والثانية البلوغ adolescence وهى أطول كثيراً وتمتد حتى يكتمل النضوج الجنسى .

وتتميز المراهقة بظهور تغيرات جسمانية واضحة تصحبها حالة انفعالية متوترة يشوبها القلق والشك ، والثورة والخوف. ويختلف موعد بدئها اختلافا بينا .. ولكنه يتراوح بين ١٣ ، ١٧ بمتوسط ١٣ ر٥ للبنات ، ١٤ ر٥ للبنين وهناك عوامل تتدخل فى هذه الاعمار نخص بالذكر منها الذكاء (تجارب لوتز سنة ١٩٢٤ وتيرمان سنة ١٩٠٥) ثم المستوى الاجتماعى والاقتصادى ، فضلا عن ان الطفل النامى فى صغره أسرع من رفيقه الضئيل الى النضوج الجنسى .

وتمتد مرحلة الانتقال هذه ما بين نصف سنة وسنة كاملة للبنين ، أما البنات فقد يحتجن الى مدة أقل لينتقلن الى الحياة الجنسية

ولعل اولى المظاهر التى تميز البلوغ سرعة غريبة فى الطول والوزن فى مدة قصيرة بحيث تقصر الملابس . وعلى العموم تختلف الأدلة باختلاف الجنس فعند الذكر ينمو الشعر الخشن حول الاعضاء التناسلية .. وتحت الابطين .. وفوق الشفة العليا .. وأخف منه على العارضين . . وتنخفض نبرة الصوت فيصبح أجش تتخلله فترات يفقد فيها المراهق قدرته على ضبط النبرة فيتقطع ويجب ان تكون هذه المميزات موجودة فى الغلام ما بين ١٤ ر٥ ، ١٥ سنة

ويمكن تحديدها فى البنت بشكل أدق لظهور أولى أعراض العادة الشهرية . ويحدث هذا فى المتوسط ما بين ١٣ سنة وستة أشهر الى ١٣ سنة تسعة أشهر ، يضاف الى هذا تضخم الثديين وظهور كميات من الشحم تحت الجلد وخاصة حول الردفين واخيرا ظهور الشعر تحت الابطين .

وتحدث التغيرات الفسيولوجية نتيجة لنشاط الغدد الجنسية التى كانت فى حالة خمول أو التى كان يعوقها حتى هذه اللحظة الغدة التيموسية فى الصدر والصنوبرية فى أسفل المخ. وتعمل الغدة النخامية لاستثارة الغدد الجنسية وهذه بدورها تفرز هرمونات فى الدم فيسرع النمو فى الجسم كله

والواقع أن أهم التغيرات الجسمانية فى المراهقة تنحصر فى :

ا ـ نمو الاعضاء التناسلية . ب . المميزات الجنسية المشتقة.

ا ـ تنمو الاعضاء ببطء كبير فى الطفولة، فضلا عن انها بعيدة عن النضوج من ناحية عملها، فاذا حلت المراهقة سارعت فى النمو والنضوج، كما أن الاختلافات بين الذكر والانثى تزداد وضوحا وحدة ، فهى فى البنت تتمثل فى ازدياد حجم الاجزاء الخارجية الظاهرة ، والمبيضين ، والرحم ، ونضوج الافرازات التى تكون البويضة الأنثية ، وبظهور العادة الشهرية تدخل البنت فى مرحلة المراهقة.

أما فى الذكر فيصحب بدء المراهقة نمو سريع فى الاعضاء الجنسية الظاهرة ، كما تنشط الخصيتان ويصبح فى مكنتهما إفراز الحيوانات المنوية ويحدث بين فترات متتابعه ان تفرزا بعض السائل المنوى اثناء النوم فاذا لم يحذر الولد من هذه التغيرات المتوقعه فقد تصدمه كحالات مخيفه يتكون على اثرها شعور بالخجل وميل للمداراه والانزواء وتكتسب تصرفاته نوعا من السرية

ب ـ يضاف الى كل هذا بعض التغيرات المتعلقة بالغدد التناسلية بطريق غير مباشر ، وأهمها فى الذكر نمو الشعر كما بينا ، وخشونة الجلد ، وازدياد القوة العضلية ، وتغير نبرة الصوت ، أما فى البنت فيختلف شعر الوجه فى خفته ونعومته فوق الشفة العليا والذقن . وظهور الشحم على الجسم ، ونمو الثديين ، وخشونة الجلد ، وكبر الحوض .

ولعل أهم الظواهر هنا تغير الصوت ، وحالة الجلد . فالأحبال الصوتية للولد يتضاعف طولها فى هذه المرحلة ثم فى البلوغ فينخفض الصوت وتتراخى شدته ، فاذا أضفنا الى هذا ازدياد حجم الحلق وبروز تفاحة آدم عن العنق نتيجة لنمو الجهاز الصوتى وجدنا أن الصوت يخرج عن ارادة المراهق فى أحوال كثيرة فاذا به يندفع دون سابق انذار مبحوحا أو أجش . أما فى البنت فالتغيرات الصوتية غير واضحة وضوحها فى الولد . بل ان صوت الفتاة على العكس يصبح غنيا ممتلئا يضيف كثيرا لفتنتها .

ويمتد هذا التغير فى الصوت الى ما يقرب من سنتين ، تتخللهما مواقف محرجة كثيره تنتج من أن المراهق لا يمكنه أن يضمن الصوت الذى سيصدر عنه عندما يتحدث ، ولذا يقلل من الكلام ما أمكن . فهو فى المدرسة يفضل أن يتظاهر بأنه لا يحفظ المحفوظات على أن يكون سخرية بين اخوانه . . ويتبع هذا بطبيعة الحال شعور من الخجل والميل للاعتزال ، وتزداد أحلام اليقظة .

ويكاد ينافس ظاهرة الصوت فى أهميتها من الناحية النفسية والسلوكية خشونة الجلد فى بدء المراهقة نتيجه لاتساع المسام . فاذا أضفنا الى هذا التغيرات فى افرازات الغدد . . وازدياد الشحم والمواد الدهنية . . ورغبة المراهق فى اشباع نهمه المستمر بمأكولات معظمها حريف لاذع ، وما يتبع هذا من اضطرابات الهضم ، فان هذا يبرر الالتهابات الجلدية التى تنشأ . . والثبور . . والنمش . و « الحسنات » أو الرؤوس السوداء . وهذه الاضطرابات الجلدية تسبب للفتى والفتاة عذابا شديدا . وكثيرا ما تلجأ المراهقة الى كل وسيلة للتجميل تقع فى متناول يدها لتتخلص من هذه الحالة التى هى لحسن الحظ مؤقتة . كما أن العرق الغزير مشكلة لا تقل عن هذه أهمية ، فيسارع الشباب لشراء أنواع كثيرة من الصابون والعطور للتغلب على رائحة العرق .

ولا بد للقارىء قد ألم بالنتائج النفسية التى تصحب هذه التغيرات الفسيولوجية فقد حاولنا أن نشير اليها فى كل مناسبة . فهذا النمو السريع والنضوج الجسمانى يزيدان اعتقاد الفتى بأهميته فيتوقع بين يوم وليلة امتيازات يراها للكبار ، فهو يود لو تحرر من هذا الخضوع المقيت للبالغين . . يدخل ويخرج ويسهر فى الخارج دون تدخل الآخرين . . يتألم من ارتداء البنطلون « الشورت » وكل مايشعره بحياته الماضية . . كما يميل للتدخين والمشروبات الكحولية كوسيلة لاثبات رجولته .

ويصحب العادة الشهرية الاولى قلق شديد لدى البنت قد يصل الى ذعر

حاد ما لم يكن السبيل ممهدا من قبل لتقبل هذه التغيرات . ويحدث هذا القلق أيضا للمراهق لدى نزول السائل المنوى أثناء النوم . ولعل أخوف ما يخافه الفتى الصغير لخبرته القليلة أنه اذا تكررت هذه الافرازات فسيشب غير متكامل الرجولة .

ولا يقتصر القلق على هذه المواقف فحسب ، بل ان عدم الاتزان الذى يشعر به المراهق نتيجة لضعف الضبط المحركى يشعره بالخجل وسط الآخرين. فقدمه ترتطم بالمناضد وتكاد تقلب ما عليها من أكواب ، بل وقد يعثر فى قدمه الاخرى فيثير كثيراً من التعليقات . يضاف إلى كل هـذا كبر حجم اليدين والقدمين والانف وقد انطلقت من عقالها فى فترة وجيزة .. وظهور البثور على الوجه ..واضطراب نغمة الصوت .. وأخيرا نمو الشارب وهو فى العادة هدف لسخرية خفيفه من جانب الكبار ..مما يضيف الى حالة القلق والاضطراب الموجودة لديه فعلا

وليس من النادر أن تظهر هنا تغيرات مزاجيه قد تدوم وقد تختفى خصوصا فى حالة الشبان والفتيات العصبيين ومن أمثلة هذه التغيرات نوع من اليأس اذ يصبح الفرد سوداوى المزاج. قلقا. يعتقد أن العالم كله ضده. وكثيرا ما يقوده هذا إلى تهديدات بالهرب من المنزل أو الانتحار . ولكن قليلا منها يتحقق بحمد الله . كما يلاحظ عند الفتيات شعور بالعزلة والوحدة وميل الى «الرهبنه» والمعيشة فى الاديره والتنسك . ولا يصح بطبيعة الحال أن ينقاد الآباء لهذه النزوات مهما كان لها من مبررات فهذه كلها حالات عارضه تنتهى فى البنت بظهور العاده الشهريه فتعود الى الحياه الاجتماعيه .

والآن وقد عرضنا أسلوب النمو الجسمانى وبعض حقائق فى هذه العجالة نود لو نؤكد للوالدين وكل من يتناول الطفل فى سنى النمو خطورة الامراض التى تصيب الطفل .. لا لأنها تعطل النمو الجسمانى فحسب . . بل لانها تقف فى سبيل تكون الشخصية المتسقة السليمة فتشوبها شوائب مكدره وهو ما سيظل

كابوساً ينغص حياة الفرد الى نهايتها . ليس المرض فى العادة هو المسئول عن اضطراب الشخصية وانما مايصاحب المرض من عطف وحنان بالغين فيتعطل استقلال الطفل وشعوره بالمسئولية . فاذا طال المرض فلن يقتصر الامر على « فساد » الطفل لهذه المعاملة المتمايزة..واتخاذه المرض على الدوام سلاحا يلجأ اليه للابتعاد عن كل مايتطلب كفاحاأو بذلا لجهد . . بل انه سيجد من الصعب أن يعود الى رفاقه القدماء الذين خالطهم ولاعبهم فقد تعلموا كثيرا من المقتضيات الاجتماعية خلال هذه الحقبة التى قضاها فى الفراش ، وهكذا يرونه غريبا عنهم فلا يقبلونه فى ألعابهم . . وسرعان ماينقلب المسكين الى ركن غرفته وحيدا يأكل الحقد على المجتمع قلبه

وبنفس الطريقة . . اذا لم نستطع أن نعامل مرحلة كالمراهقة والبلوغ بحكمة وحذر ، فندرك مايخالطها من حدة وثورة وتهيج ولذا نعالج بعض هذه النوبات فى تسامح وهدوء . . اذا لم نمهد للفتى الصغير سبيل تكوين ميول اجتماعية ورياضيه مفيدة تخرج به الى الخارج فى رحلات ومباريات وحفلات يخالط فيها من الرفاق من نراه قدوة صالحة . . اذا لم نهيئه للعالم الجنسى فى هدوء وماسينتاب جسده من تغيرات ونفسيته من ميول .. اذا لم نواجه رغبته الحادة للقراءة أثناء مرحلة الاعتزال التى تسبق المراهقة بكتب ترضى حنينه لتلمس البطل والمثل العليا، خصوصا وهو هنا تتعمق نظرته الفلسفية الى الدين والتقاليد فتهدم الكون كله لتعيد بناءه من جديد . . أقول اذا لم نستطع أن نفعل هذا وغيره مما سنعرضه تفصيلا فى فصل عن « النمو الجنسى » فلا يجب أن ندهش إذا تغلغلت جذور الاضطراب فى حياة أطفالنا كلها . وكم منهم يترك التعليم فى منتصف الطريق لايثنيه عن هذا توسل أو وعيد . . بل وكم منهم ينقلب ملحدا لايأبه لأديان واوضاع بعد أن كان يغرق فى التدين والبر والنقاء . . !

ولقد يرى القارىء المفكر اذا خلا لنفسه قليلا أن معظم هذه الحركات الثورية التى تصم جبين مصرنا العزيزة بوصمات قاتمة .. الحركات التى يرفع علمها فتيان مدارسنا الثانوية فيتخذون من الجبال مستودعات للقنابل وهم فى ميعة الصبا ونضرة العمر .. الحركات التى تطيح برؤوس رجالاتنا كما أطاحت بالتعليم فى فيض من الاضرابات والمظاهرات .. أقول قد يرى القارىء فى كل هذا غير ما تطالعنا به القضايا والصحف من أسباب سياسية ووطنية وانما هى موجة عاتية دافقة تزخر فى قلوب غلماننا فتحيلهم كتلة من السخط والتحدى والعناد .. وهى شعلة تؤججها مدنيتنا الحديثة ، من أشرطة سينمائية براقة منمقة تضفى على حياتهم الواقعة بالمقارنة لونا قاتما كئيباً .. وقصص وصور مبتذلة تثير الدوافع الجنسية فى لهيب مكتسح فما أحوجنا الى تفهم الحياة النفسية الى جانب أسس الصحة الجسمانية حتى تكون منازلنا مهدئة للقلق لا باعثة عليه .. !

الفصل الخامس

النمو الحركى

من المعلوم أن عددا كبيرا من عضلات الجسم منظم فى أزواج . فاذا انقبضت واحدة تراخت تلك المقابله لها . واذن فالضبط الحركى يعتمد على مدى توافق واتزان هاتين الحركتين المتقابلتين لكل عضلة . فاذا انقبضت عضلتا العضد فى الذراع تصلب العضو ، واذا ارتختا سويا نتج عن ذلك تهدل العضو وعدم الحركة .

ويقضى الطفل السنوات الخمسة الاولى فى صقل المهـــارات الحركية الاساسية التى ستفيده فى حياته .. كتناول الطعام بنفسه وارتداء ملابسه والمشى والجرى وهكذا . وتأتى بعد هذا مجموعة حركات معقدة كالكتابة والعزف على البيان والتزحلق والسباحة الى غير ذلك . وكلما سارع الطفل لاكتساب هذه المهارات الحركية كان هذا أفضل ، فالطفل أكثر مرونة من الكبير فضلا عن أن رغبته فى التعلم تدفعه للتمرن مدة طويلة على نوع معين من العمل حتى يصير له طائعا ، بينما البالغ قد يسارع الى نفسه القلق و نفاد الصبر اذا لم يتعلم فى زمن وجيز ، أو قد تحول بعض الاعتبارات الاجتماعية دون محاولته البدء فى عمل كركوب الدراجة مثلا فهو يخجل مما قد يثيره هذا فى نفوس من حوله وهى اعتبارات غريبة عن نفس الصغير .

طرق الدراسة : بدأ تسجيل الملاحظات اليومية بطريقة غير دقيقة على أيدى الباحثين فيما نسميه طريقة « تواريخ الحياة » موجهـــة الى أفراد أو مجموعات من أبنائهم أو أقاربهم الصغار . ولكن وجد فى معظم الاحوال انها ملاحظات مبالغ فيها كما لا تتميز بالتحديد العلمى القاطع .

ثم بدأت المعلومات تتوالى عن طريق مقاييس الذكاء والقدرات العقلية

التى تعتمد فى السنوات الاولى على قياس الضبط الحركى . وتبع هذا الطرق التجريبية لدراسة مجموعات كبيرة فى ظروف متغيرة حسب قصد المختبر وعززتها الاشرطة السينمائية والاجهزة الحساسة .

وقد اتجهت الدراسة الاخيرة ناحيتين : معيارية تهدف الى تحديد العمر المتوسط الذى تتم فيه مختلف مظاهر النمو الحركى للاطفال .. وتحليلية تهتم بمميزات هذا النمو وما يتتابع على كل حركة على حدة حتى تنضج . ومن أئمة الدراسة الاولى جيزل وشيرلى، وهناك من يجمع بين الطريقتين أمثال بيرنسيد وإيمز .

أسلوب الضبط الحركى : سبق القول ان الضبط الحركى يبدأ بالرأس ثم الجزء العلوى من الجذع والذراعين واليدين .. ثم ينتقل بعد ذلك الى الاجزاء السفلى فينتهى الى الساقين والقدمين . بل ان الطفل فى البطن يبدأ تكون رأسه قبل أن تبرز الساقان الى الوجود . ولا يسرى هذا فقط على الجسم كله بل أيضا على كل عضو على حدة ، فالذراع مثلا يبدأ الضبط فيه بالعضد ثم الساعد وأخيرا اليدين والاصابع اذ يتأخر الضبط الحركى كلما ابتعدنا عن الرأس والمحور الرئيسى للجسم .

ولعل طريقة حمل الطفل تهيء لنا دليلا واضحا . فالطفل عند الولادة أو بعدها بقليل يلقى برأسه على كتف أو صدر الشخص الذى يحمله . فاذا أبعدته قليلا عن الجسم تدلى رأسه لاسفل . ولكن لا يمضى سوى وقت قصير حتى تتهيأ للطفل السيطرة على عضلات الرأس والرقبة فلا يحتاج الا لاسناده عند مؤخر العنق .. وبعدهذا عند الكتفين .. وأخيرا عند الابطين ..

وقد ذهبت شيرلى الى القول بوجود مراحل خمسة تنتهى بوقوف الطفل ومشيه دون مساعدة : فالاولى تبدأ فى الاسبوع الثالث وتنتهى فى منتصف التاسع عشر وفيها يتمكن الطفل بمعونة الام تحت الاضلاع السفلى من أن يجلس مع ضبط كامل للرأس والرقبة .. وتستمر الثانية حتى الاسبوع التاسع

والعشرين فيتمكن الطفل من الجلوس متزنا قرابة ؟ دقيقة والوقـــوف اذ تسنده الام عند الجنبين . وفى الثالثة يزحف الطفل على الفراش أماما وخلفا ثم تاتى المرحله الرابعة منذ منتصف الاسبوع الثامن والثلاثين فيمشى الطفل اذا اقتدناه بيده قبل أن يتعلم الوقوف وحده باتزان وهو مايحدث فى المرحلة الاخيرة التى تبدأ بالاسبوع السادس والخمسين .

وعلى أى حال فان سرعة الترقى الحركى لا تتأتى من طريقة نضوج الجهاز العصبى والعظام والعضلات وتغير نسب أعضاء الجسم فحسب ، بل يجب أن ندخل فى حسابنا أيضا الفرص التى تعرض للطفل لتعلم كيفية استعمال كل مجموعة من العضلات مترابطة ليصل بها الى نتيجة مثمرة ، ويفيدنا فى هـذا معرفة العمر الذى ينتظر أن يصل اليه الطفل العادى ليقوم بعمل معـــين . وسنسير فى الصفحات القادمة حسب قانون الضبط الحركى فنعرض لما ينتاب الاعضاء من مرونة وتوافق بادئين بالرأس ثم الجذع يليهما الذراعان واليدان وأخيرا الساقان :

الرأس : ان ضبط العضلات التى تدخل فى حركات العينين والابتسام والضحك ورفع الرأس يرتقى بسرعة كبيرة لو راعينا مدى تعقد السلوك الذى يتضمنه كل موقف من المواقف السابقة .. فتوافقات العينين التى تبدأ فقيرة جدا فى الساعات الاولى من حياة الطفل تتحسن بسرعة كبيرة فلا ينتهى الشهر الرابع حتى يكون الطفل قادرا على اتيان أصعب الحركات الثلاثة للعين ونعنى بها الحركة الافقية والرأسية والدائرية . وقد وجدت جونز أن الحركة الاولى قد توجد فى سن ٣٣ يوما ولا ينبغى ان تتأخر عن ٩٠ والثانية بين ٥١ و ١١٠ والثالثة ٥١ و ١٣٠

أما حركة اغماض العينين وهى فعل منعكس فيجهز الطفل بها منذ الولادة ويمكن احداثها بلمس الوجه قريبا من العينين أو مس « الرموش » بخفة .. أو ركن العين .. أو تمرير تيار هوائى خفيف عليهما . وتصبح هذه الحركة ارادية

بعد قليل يقوم بها الطفل كلما أحس شيئا يقترب من عينيه . ويبدأ حدوثها في اليوم السادس والاربعين ولايجب أن تتأخر عن اليوم المائة والرابع والعشرين

ننتقل بعد هذا للابتسام وهو في اول امره ايضا فعل منعكس لا دخل للارادة فيه . ويمكن استثارته باستخدام مؤثر لمسي او حركي على جوانب الفم ويبدو قرب نهاية الاسبوع الاول . أما الابتسام الارادي او « الاجتماعي » حيث يبتسم الطفل ردا على ابتسامة شخص آخر او صوت يحدثه فتضع له جونزحدا ادنى ٢٩ يوما ولكن يوجد في الاطفال كلهم في نهاية الشهر الثالث فلا يجب ان يتأخر عن هذا .

اما عضلات العنق والرقبة التي تمكن الطفل من رفع الرأس فتقوى بسرعة بحيث لا ينتهي الشهر الاول حتى يستطيع الطفل ان يحتفظ بالرأس افقيا في مستوى الجسم لو حملته في وضع افقي ممسكا اياه تحت الصدر والبطن . وفي سن شهرين يمكنه ان يعلو برأسه عن مستوى الخط الافقي بحيث يعمل معه زاوية ٣٠ . فاذا اجلست الطفل على حجرك مع اسناده قليلا من الجذع فهو يستطيع في الغالب ان يرفع رأسه منتصبا دون مساعدة في سن أربع شهور فاذا تأخر عن سن ستة أشهر عد الطفل متراجعا

الجذع : أهم حركاته في أول الامر « التقلب » وهو ليس موجودا ساعة الولادة ولكن الطفل بعد مضي شهرين يمكنه أن يتقلب من الجنب الى الظهر وفي سن ٤ أشهر من الظهر الى الجنب وفي سن ٦ يعمل دورة كاملة من النوم على البطن الى الجنب الى الظهر ثم الى الجنب الآخر وأخيرا يعود للوضع الاصلي . وليس من الضروري أن يتم الطفل كل هذا كحركة واحدة متصلة بل يمكن أن تتخللها فترات راحة .

وتبدأ حركة التقلب عادة بدوران الرأس ، يتبعها الكتفان ثم الارداف ، وبعدها يركل الطفل الوسادة بقدمه فيدور .

الجلوس : اذا عنينا بالجلوس أن ينقلب الطفل من وضع الرقاد الى

الجلوس وحيداً ودون مساعدة فهذا يتأخر عن مجرد إجلاس الطفل ثم تركه ليسند نفسه ، فالحركة الأولى تتضمن ضبط ونمو عضلات الظهر الثقيلة . فاذا تدرجنا مع الطفل فى مراحل توازنه نحو الجلوس وحيدا وجدنا أنه فى سن ثلاثة شهور ونصف يمكننه أن يطيعنا فى ثنى نصفه الأعلى فى وضع الجلوس اذا امسكنا به وأسندناه. وهنا نجد الرأس منتصبا تماما خلال الاسبوع الاخير من الشهر الرابـــع فلا يحتاج الطفل الى معونة الا تحت الاضلاع السفلى . وفى النصف الأخير من الشهر الخامس يمكن الأم أن تخفف من إمساك طفلها كثيرا . وبعد اثنى عشر يوما نجده يبذل جهدا للجلوس فلا يكاد ينتهى الشهر السادس حتى تمد الام له ذراعيها أو ترفع نصفه الاعلى على الوسادة قليلا فيجذب نفسه الى وضع الجلوس . وهو هنا يمكنه أن يجلس وحده ثلاثين ثانية أو أكثر فاذا وصل الى سبع أشهر ونصف فلا يخشى عليه شيئا فى جلوسه فقد توافقت حركاته تماما .

ولكن كل هذا لا يزال مقدمة للجلوس وحده وهى عملية تنقسم الى ثلاثة اقسام كما يرى فى الرسم

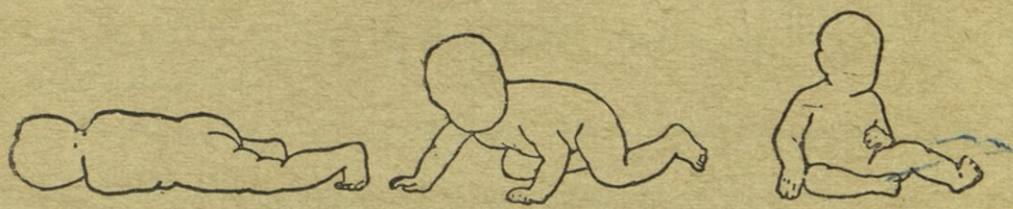

فالطفل يدور بجسمه من وضع الاستلقاء ويثبت أصابع إحدى قدميه فى الارض بينما يرفع جسمه بذراعيه الى وضع الحبو على أربع واخيرا يدفع جسمه ليستقر جالسا . وهو يستطيع أن يقوم بالحركتين الاوليين حركة الاستدارة والاعتماد على اليدين فى رفع الجزء الاعلى فى سن سبعة أشهر .. ؛ ولكن الحركة الاخيرة ليست من السهولة بحيث تتبعها بسرعة

وتتغير طريقة الجلوس بازدياد العمر بطبيعة الحال فتختصر منها بعض الحركات بحلول السنة الثانية والثالثة اذ يكف الطفل عن ادارة محور الجسم كله بل يترك أحد الردفين ملاصقا للفراش أو الارض ويجلس متحاملا بذراعه على هذا الجانب. فاذا وصل الى الرابعة والخامسة أصبح فى امكانه القيام بحركة الجلوس المصقولة للكبير اذ ينثنى النصف الاعلى فى اتزان تسنده الذراعان على الجانبين.

الذراعان واليدان: يتحرك الذراعان منذ الولادة حركات عشوائية عديدة ثم تتحدد هذه الحركات بالتدريج. وهى تحدث أيضا أثناء النوم كما تنقبض الأصابع وترتخى دون ما سبب ظاهر. ولكن أكثر الحركات شيوعا هى تلك التى يتجه بها الطفل عشوائيا نحو الفم، تبعا للوضع الذى كان عليه فى البطن. ويحدث عاجلا أو آجلا أن يلمس الطفل باصابعه شفتيه فيستمد لذة حسية تدعو لتكرار الحركة فاذا كانت البيئة ملتوية واتخذت اجراءات خاطئة فلا يبعد أن تتكون لدى الطفل عادة مص الاصابع أو الابهام. ولأهمية هذه المسألة وشيوعها وقلق معظم الآباء والأمهات لحدوثها سأخرج قليلا عن منطق العرض لأتناولها ببعض العلاج:

مص الاصابع: الحق أن هذه المشكلة يصاحبها من القلق ما لا تستحق فى أول أمرها، ولعل هذا هو ما يجعلها تضخم فتحقق ظنون المتشائمين..! ولعل أسوأ الضرر الذى نحدثه ما دمنا نضع لهذه الحركة فى مجتمعنا الغريب مستويات ضارة مخزيه أن يلجأ الطفل الذى تكرر منعه وعقابه وتهديده الى مدارتها أو التستر عليها سواء بتخبئة يده باليد الاخرى أو بالانزواء بعيدا عن العيون وبذا يحفر هذا لديه سلوكا بعيدا عن الصراحة والمواجهة قد يمتد الى ميادين أخرى فيصبغها بصبغة ملتوية.

وقبل أن نسمح لانفسنا بان نشقى الطفل فى محاولاتنا لمنعه من مص أصابعه علينا أن نتأكد من مضارها اذا وجدت ثم من مضار الطرق التى نتبعها

لقمعها . ومن الطبيعى أن الطفل اذا كان يمص إصبعه بعنف طيلة الوقت أو ينام وإبهامه يضغط سقف حلقه طول الليل فقد يتهب الابهام أو ينكمش فى الحجم ، أو قد يتاثر شكل الفم أو سقف الحلق ولكن مثل هذه الحالات نادر حدوثه جدا ولا يمكن أن نربط هذا الاضرار بطفل يمص ابهامه كعملية يقوم بها الرضيع فى الشهر الاول كما اشرنا كجزء من اكتساب المهاره والضبط الحركى للذراع واليد والاصبع أو كاستطلاع لاعضاء جسمه كما لا يمكن أن نخشى وقوع هذا الاضرار لطفل أكبر قليلا يمص إصبعه بين حين وآخر وخاصة عندما يسلى نفسه قبل النوم أو بعد الاستيقاظ مباشرة اذ يكون وحيدا . فاذا حدثت هذه الاضرار الشنعة لطفل ما فاغلب الظن أن الطفل لم تتحقق لديه الفرصة لاشباع حاجاته من الرضاعة بطريقة صحيحة أو أن هناك خطأ ما فى جو التغذية أو الفطام بوجه عام

أما اذا كان الطفل يمص اصبعه قبل النوم مباشرة ، أو حتى لمدة قصيرة عندما يستيقظ ، فليس هناك احتمال أن تنتهى هذه الظاهرة بضرر جسمانى سواء للاصبع أو للفم . اننا نتجو جميعا نحو الشعور بالقلق ازاءها اكثر مما يجب لان معظم الاطفال الذين ينالون من ظروف التغذية والنوم مايشبعهم سرعان مايتركونها بمجرد أن تتسع دائرة ميولهم العامة الى الالعاب والرفاق ويكفون عن استمداد اللذة الحسية من الجسد .

فاذا لاحظنا حدوث هذه الظاهرة فى الايام الاولى للولادة فمن الممكن منع رسوبها كعادة بوضع ذراعى الطفل فى لفائفه بطريقة تجعل من الصعب أن يرفع يده الى فمه الا اذا كان مصرا . ولكن علينا أن نتذكر أن الطفل اذا كان مصرا حقا .. بمعنى انه اذا كانت هذه الرغبة لهذا النوع من الاشباع ملحة . . فالشعور بالغضب المستمر الذى نستثيره فى الطفل بربط ذراعيه سيكون أكثر ضررا من العملية نفسها . ولعل هذا هو مايغفله أولئك القائلون بمنع هذه العادة ولو بالطرق العنيفة . هم ينسون أن الطفل ليس

آلة تتحرك حسب ارادتنا . انا نستطيع أن نمنع الطفل من أن يضع ابهامه فى فمه ولكن هذا قد يحدث فى أحوال كثيرة على حساب مجهود عصبى مستمر ونوبات من الغضب المكبوت تمتد حتى تلون حياته العقلية بأكملها .

فاذا أردنا أن نعالج الطفل حول منتصف السنة الاولى فلا بد أن نتأكد أنه ينال حاجته تماماً من الثدى أو الزجاجة (البزازة)، وانه ليس محروماً من تلك الرغبة المشروعة فى اللعب بالثدى الذى يوفر له اللذة قبل أن ينام . فاذا كان الطفل أكبر سناً فمن المفيد جداً ان يعطى بديلا لهذه اللذة فى صورة قطعة صغيرة من الحلوى النظيفة عن طريق الغلى مثلا تعطى له وهو فى الفراش فهذا سيساعده فى أن يستغنى عن الابهام .

فاذا تم هذا فعلينا أن نوجه اهتمامنا الى « فطام » الطفل من هذا الميل للابهام فى أوقات اليقظة لا طرق المنع السلبية كالعقوبات والتخويف والتعيير وتلويث الاصابع بالمواد اللاذعة بل بالاكثار من صحبته فى اللعب وتوجيه ميوله لنا وللخارج. فطفل كهذا الذى نحن بصدده يجب ألا يترك وحيدا فى سريره وهو مستيقظ نفس المدة التى يقضيها طفل آخر لا يجد ميله فى ابهامه. يمكننا أن نتحدث اليه مددا أطول اذا كان صغيرا ، ونساهم فى ذلك السرور الذى يحسه اذ يشاهد الشجر أو المنازل أو المركبات العابرة او وهو يناغى ويدفع قدميه فى حجر حامله أو يلتقط شيئاً من على الوسادة ، فاذا كبر قليلا فعلينا أن نستمر فى تشجيع هذه الميول بحيث تشغل كلتى يديه فى عمل مسل مفيد كتركيب القوالب أو نظم « الخرز » الواسع الكبير فى أشرطة ملونة أو مساعدة والدته فى الاعمال المنزلية البسيطة كمناولتها بعض الاثاث الخفيف أو ادارة يدماكينة الحياكة ، وكلها تشعر الطفل وبالزهو واعتماد الآخرين عليه فيقبل عليها طائعاً مسروراً . ويبقى بعد هذا تسهيل أمر النوم حتى لا يظل الطفل فى فراشه مستيقظاً مدة وذلك بالاكثار من الرياضة واللعب ومعالجة اللوز وزوائد الانف إن وجدت اذ هى تسبب الارق.

الى هنا نجد مشكلة « مص الاصابع » بسيطة غير معقدة ، وبعض الاطفال

لايمارسها سوى فترة قصيرة جدا أو ربما لا يمارسها على الاطلاق ولكنها قد تظهر فجأة قرب نهاية السنة الاولى أو فى الطفولة المبكرة . وهناموطن الخطر حقا . فهى لا تعنى هنا اكتسابا لمهارة حركية بادخال الاصبع فى الفم دون خطأ فقد فات ميعاد هذه المهارات وأضحى الذراع والاصبع مترا طين تماما. كما انها لا تعنى استمداداً للذة جسدية بسيطة قبل النوم أو بعده مباشرة والا لقام بها الطفل قبل الآن ، ولكن ظهورها هكذا فجأة والطفل كبير يعنى قلقا انفعاليا عاما ويتضمن سلوكا انسحابيا ضارا وهذا هو ما نحب أن نوجه اليه نظر آبائنا بكل حذر .

فالطفل اذا شعر بالخوف والقلق وضاع عنصر الامن والاستقرار من حياته نتيجة لاهتزاز مستوى المعيشة وفقدان الحب والعطف فأمامه أحد طريقين .. اماطريق معتدإجرامى انتقامى يتمثل فى الغضب والتخريب والسرقة والكذب .. واماطريق استسلامى انسحابى متراجع ويتمثل فى الوحدة والتجهم والكآبة ومص الاصابع والعادة السرية والاغراق فى الخيال .فمص الاصابع اذن قد يكون أحد أسبابه أن تغيض من حياة الطفل عناصر الحب والثقة بالنفس .

ومن السهل جدا أن تهتز حياة الطفل الانفعالية كلها لدى حدوث عملية كالفطام مثلا تعاملها سيداتنا المصريات للاسف بمنتهى عدم الاكتراث ناسيات انها تتغلغل فى جذور الحياة العقلية كلها للطفل .

فالرضاعة فى أول الامر بالنسبة للطفل لا تعنى مجرد اشباع الجوع ،فالطفل ليس مجرد جهاز هضمى كما يظن البعض ، ولكنه مخلوق حى له احساساته وله عواطفه . وهذه الاحساسات السارة أو المؤلمة تتصل بالجسد اتصالا وثيقا فى المراحل الأولى ، فالرضاعة اذن بما تهيئه للطفل من التصاق بصدر الأم وهجوع بين ذراعيها الرقيقين وتلاعب بالثدى بعد أن يطفىء جوعه الشديد هى عملية حية عميقة المعنى . ويبدو هذا من انتصاب العضو التناسلى للطفل الصغير اثناء

الرضاعة . واذن فالرضاعة تشبع أحاسيس أخرى غير الجوع فالطفل لا يأكل بفمه فحسب بل « يحب » أيضا بفمه .

وهو فى هذه المرحلة المبكرة لا يستطيع أن يرى فى الام شيئا سوى انها « صدر وذراعان » . فميوله لم تخرج عن الجسد بعد بحيث يكتشف فيها صوتا جميلا يهدئه اذا بكى أو يقص له قصة . فاذا منعت الثدى عن الطفل فى هذه المرحلة فانت لم تمنعه الطعام - فالطعام سيأتيه عن طريق البزازة أو الفنجال والملعقة - ولكنك منعته « الحب » والحنان وكل عاطفة سامية رفيعة كان يحسها فالاكل بالبزازة عملية جافة باردة .

فاذا جاء الفطام فى هذه المرحلة المبكرة أصبح صدمة انفعالية عنيفة تتهاوى معها حياة الطفل العقلية كلها . وهنيئا لمصرنا العزيزة هذا الجيش المتزايد من الجيل النسائى الجديد .. سيدات يحرصن على ثديهن من التهدل والارتخاء فيفطمن أطفالهن بعد شهرين أو ثلاث من الولادة . وهنيئا لنا هذا الجيش الضخم من الخادمات اللاتى تلجأ اليهن ربات بيوتنا فى كل صغيرة وكبيرة تختص بالطفل . ولعل من « الصغائر » اطعام الطفل عن طريق « البزازة » فأية خادمة تقصر عن أن تقوم بهذا ؟ وماذا يريد الطفل أكثر من أن يملأ معدته بطعام صرفنا فى شرائه وتحضيره وتنقيته وتصفيته من المال والوقت الشىء الكثير ؟ !

عملية الطعام بهذا الشكل الاخير عملية باردة مقيتة مملة . فلا ينبغى أن نستغرب بعد هذا اذا استولى على الطفل اليأس والوجوم وضاعت ثقته بنفسه تماما ، وهو لا يجد مرجعا بعد هذا الا جسده يشتق منه اللذه فيمص ابهامه أو يعبث بأعضائه الجنسية ، وكلما أمعنا فى انتهاره وتهديده وعقابه كلما ازداد لديه الشعور بالأسى وقسوة البيئة والحياة ، والاحساس بنقصه وتراجعه ، فاحتفر السلوك الانسحابى طريقا أعمق وكأنا ندور بحمقنا فى حلقة مفرغة ..! فاذا تتبعت طفلا مثل هذا عند نضوجه وجدته رجلا ضعيف الشخصية الى حد يبعث على الاسى . هو كتوم لا يستطيع أن يصادق أحدا أو يبوح بشىء

لمخلوق فهو لا يتصور أن العالم يمكن أن يحوى عنصرا واحدا نبيلا كالصداقة أو الامانة أو الحنان فلقد نضبت بيئته من كل هذا وهو صغير . وكما لجأ الى مص أصابعه وهو صغير ليستمد من جسده بعض ما يعوضه مرارة الحقيقة والعالم الخارجى نجده وهو كبير يغرق فى التدخين أو العادة السرية بل والخمر أيضا .. عله بذلك ينسى همومه وأشجانه . . هو يرهب المجالس والمجتمعات ويشعر بالضيق والحرج كلما وجد نفسه فى أحدها أو وجه اليه أحدهم تعليقا طريفا على ملأ من الآخرين ، اذ هو يعتبر الابتسامة أو التلطف سخرية لاذعة فهو لم يعتد فى حياته الانفعالية وهو رضيع صغير سوى الضغط والحرمان

متى تقلع سيداتنا عن اعتبار عملية كالفطام وغيره شيئا عارضا مؤقتا يتصرفن فيه حسب وحى اللحظة أو هوى الساعة ..؟ وبنفس الطريقة قد يستثير السلوك الانسحابى كمص الاصابع اهتزاز الامن لدى الطفل لا فى عملية الفطام فحسب بل فى مراحل الطفولة المبكرة عن طريق العقوبات القاسية وأساليب التخويف والارهاب أو المنع والكبت .. ، وقد حبانا الله بملايين الآباء فى مصرنا الجميلة يصرخون ويلطمون كأنما هم فى حومة قتال لمجرد أن الطفل ظل ينقر بملعقة على لوح من الصفيح فأقلق راحتهم .. بينما هو الحقيقة يستكشف العالم المادى المحيط به عن طريق اللعب فهو قد جرب تأثير الملعقة على الخشب والبلاط فما بال هذه المادة الجديدة تصدر هذا الصوت الحاد الغريب . وبمعنى آخر هو يضيف الى معلوماته .

علينا أن نصلح البيئة اذا أردنا أن نعالج مشكلة « مص الأصابع » فى هذه الحالة . فلتكن علاقتنا بالطفل علاقة مربين ومرشدين .. علاقة تفاهم وتقدير .. لا منع وحرمان وتحقير . ولا ينبغى أن تخلو حياة الطفل من الحنان والحب . ولنحاول منذ أول عهد الطفل بالحياة أن نضيف الى ثقته بنفسه ويتم هذا عن طريق عدم تكليفه باداء ما لا يستطيع أو ما يوقفه موقف الاحراج . وكثير من الآباء « يصدرون » الطفل اذا صح هذا التعبير لمواقف

لا يريدون أن يتدخلوا هم فيها الا عند النهاية جسأمنهم للنبض أو ضنا بكرامتهم كما لو أرسلوا الطفل الى صاحب المنزل المشاكس ليطلب ايصالا عن مبلغ لا يريد أن يتسلمه أو يكفه عن عمل معين يقصد به اثارة السكان .. كما ينبغى أن نختار أصدقاءه فلا نقحمه بين من هم أقوى منه جسدا وعقلا .. وأخيرا علينا أن ندفعه لالعاب محسوسة كناء أشكال من القوالب أو الابراج أو تلوين أو تزيين لعبة يملكها .. وهكذا يحس انه قد عمل شيئا محسوسا واضحا يشير اليه فى فخر .

أما الفطام فيجب أن يتدرج ، ويتعلم الطفل منذ الاسابيع الاولى أن يشرب جرعات الماء من الملعقة أو الفنجال ، وبذا تصبح هذه العمليه جزء من الانتباه المصحوب بالحب موجها اليه ، والاحساسات التى تستثيرها لذيذة سارة ، ويجب أن يأتى التغير من الثدى للبزازة ثم الملعقة تدريجيا بحيث يتهيأ للطفل الوقت الكافى ليعتاده ، واحسن وقت للفطام هو الربع الاخير من السنة الاولى ، اذ يكون الطفل قد تلذذ بذلك الاشباع المعقول لرغباته نحو الثدى ، واصبح نموه العقلى والاجتماعى الآن يسمحان له بأن يفهم علامات أخرى لعطف أمه ، وهكذا يرى أن هذا العطف لم يقل بالرغم من ان الثدى قد اختفى

توافق حركات العينين واليدين : الآن وقد انتهينا من عرض هذه المشكلة نعود الى الضبط الحركى وحركات اليدين والأصابع . ولقد يظن القارىء أن الطفل يولد مجهزا بهذه القدرة على الامساك بالشىء منذ أول عهده بالحياة ، فأصابعه تتقبض فى عنف على إصبع البالغ أو أى جسم رفيع . ولكن مثل هذه الحركة فعل منعكس يزول بعد مدة . وتبقى بعد هذا مسألة الاقتراب من شىء والامساك به قصداً أو التقاطه ، وهذه لا يمكن أن تتم الا اذا اعتبر الطفل الابهام وحدة منفصلة عن الاصابع الأربعة الأخرى فيضعه فى اتجاه معاكس وبذا يتحقق القبض . ويحدث هذا بين الشهر الثالث والرابع ، أما فى التقاط الاشياء فلا يظهر قبل الشهرين الثامن والتاسع .

ويحتاج الطفل لكى يمسك بشىء معلق أو ملقى أمامه الى توافق بين حركات العين واليد بحيث توجه الاولى حركات الثانية. وقد وجد واطسون فى ابحاثه أن الطفل حتى اليوم المائة والثانى والعشرين يقض ببسطه واضطراب وبيده كلها دون تخصيص الابهام، وفى سن ١٧١ يوما تتوافق الحركات بعض الشىء ويبدأ الطفل تفضيل اليد اليمنى.

أما تقريب الجسم من الفم فيبدأ فى الشهر الرابع، ولا بد أن يقوم به الطفل المتوسط فى سن ستة أشهر. وهانحن نسوق للقارىء بكل دقة تجارب هالفرسون [1] حيث حلل بعرضه للاشرطة السينمائية المراحل التى يسير فيها الاقتراب من الجسم ثم الامساك به والتقاطه مع تسجيل العمر فى كل حالة:

الاقتراب: لوحظ فى التجارب التى أجريت أن الاطفال بعد الاسبوع السادس عشر يعملون محاولات لامساك المكعب الموضوع على المنضدة على بعد ست بوصات ونصف ولكن القليل منهم من يفلح فى هذا قبل الاسبوع الرابع والعشرين. ويمكننا أن نميز فى حركة الاقتراب مراحل ثلاث:

ا - الحركة الجانبية، حيث تندفع اليد للخارج جانبا ثم للداخل نحو الخط الاوسط للمنضدة حيث يوضع المكعب دون أن تقترب منه.

ب — الحركة الدائرية، حيث تتحرك اليد للجانب ثم للامام عائدة نحو المكعب وهكذا تمثل فى طريقها قوسا.

ج — واخيرا الاقتراب المباشر، حيث تمتد اليد الى الهدف فى أقصر

---

(١) Halverson H. M. An experimental study of prehension in infants by means of systematic cinema records: Genet. Psych. Monog: 10, 107 – 286

الطرق وهى حركة الاطفال الكبار .

وأكثر هذه الحركات شيوعا الدائرية ويبدو من الجدول المصاحب أنها هى السائدة فى الأطفال الأقل من ست وثلاثين اسبوعا ، وتترك المجال للحركة المباشرة قرب نهاية السنة الاولى .

نوع الحركة	العمر بالاسابيع						
	١٦	٢٠	٢٤	٢٨	٣٢	٣٦	٤٠	٥٢
الحركة الجانبية	١٣	١٣	٣	١	٠	١	٠	٠
« الدائرية	١١	١٧	٢٢	١٨	٢٢	١٢	١٠	٧
« المباشرة	١	٥	٣	٨	٢	١٥	١٥	١٩

والواقع أن لهذه الحركات ارتباطا مباشرا بنضوج العضلات ومرونة المفاصل ، فقبل الاسبوع الثامن والعشرين يتحرك الذراع كله بتصلب من موضع اتصاله بالكتف ، ولكن بعد هذا يبدأ الكتف كله فى الدوران كما يعمل مفصل الكوع فى بعض الخشونة بحيث اذا القى الطفل بذراعه جانبا أمكن لليد اثناء العودة أن تندفع للامام فتصبح الحركة دائرية ونحن هنا نرى الطفل يتعدى المكعب ثم يجذبه بسبابته ناحيته قبل أن يقبض عليه .

فاذا زادت هذه الحركات نعومة صاحبتها حركة الجذع ابتداء من الأسبوع الرابع والعشرين وهى حركة تصل الى ذروتها عند السادس والثلاثين فتمكن الطفل من أن يميل للامام ويستدير بجذعه ليعطى اليد مجالا أوسع وأقصر فتتجه الى المكعب مباشرة وتنتهى بذلك الحركة الدائرية .

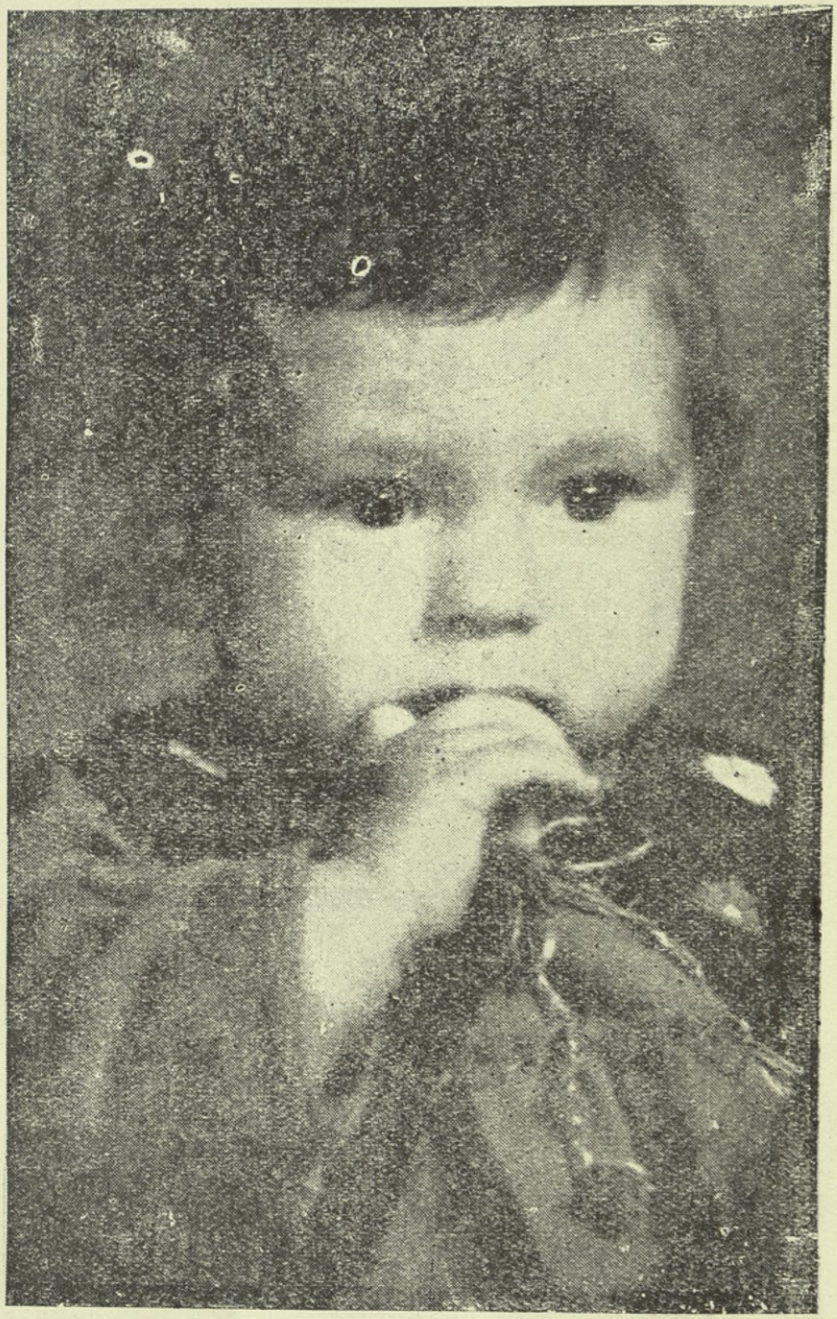

قبل ان نشقى الطفل فى محاولاتنا لمنعه من
مص أصابعه . . . ص ١٢٠

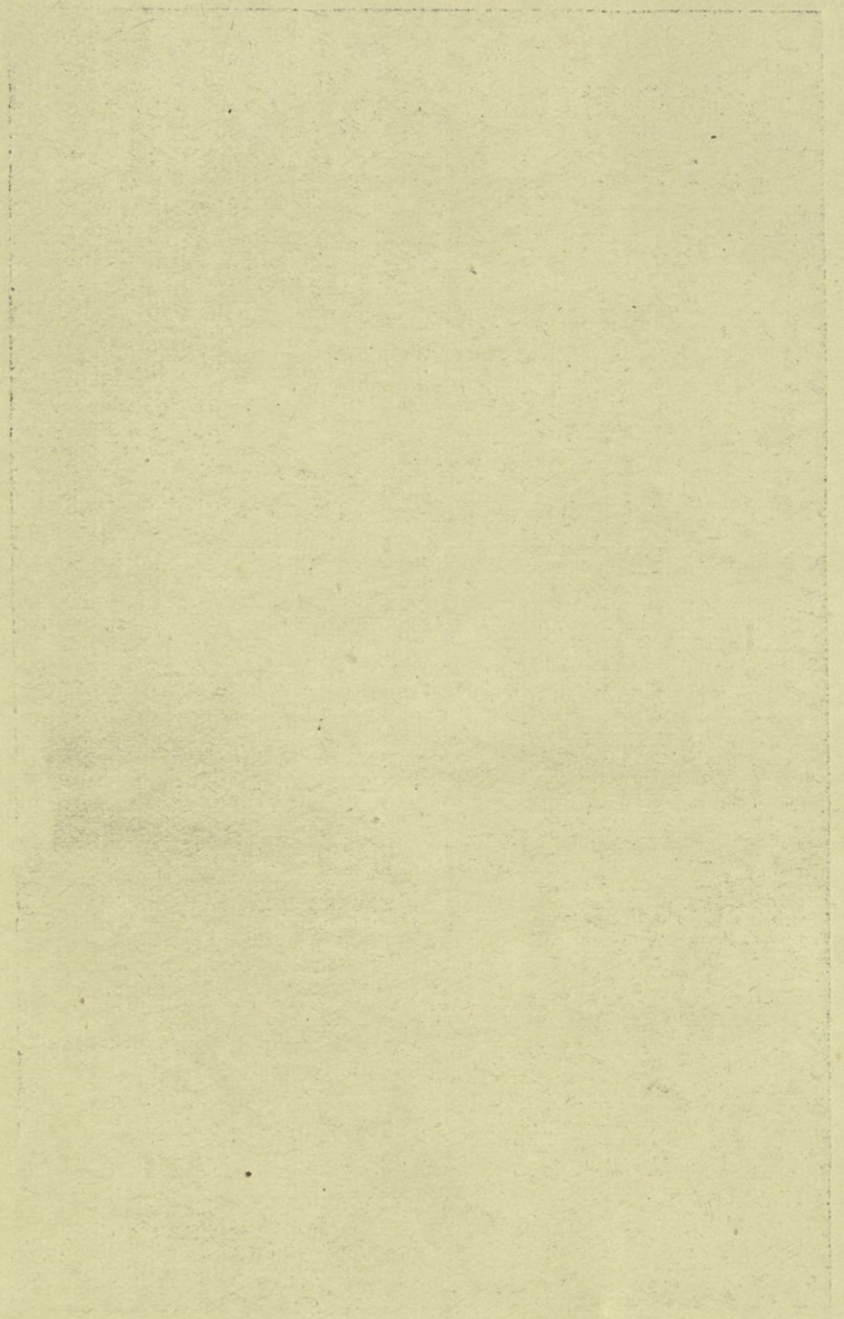

فاذا اخذنا منظرا جانبيا ليد الطفل أثناء الحركة وجدنا أيضا اشكالا ثلاث الانزلاق sliding والانقضاض looping واخيرا الانسياب planing ففى الحركة الاولى تنزلق اليد ملاصقة لسطح المائدة ثم تأتى الحركة الثانية اذ ترتفع اليد عاليا ، أماما أوجانبا ، ثم تهبط بحدة متخذه شكل قوس وأخيرا تأتى الحركة الأخيرة المصقولة اذ تتحرك اليد المبسوطة محلقة على ارتفاع قليل نحو الهدف . وفيما يلى يرى القارىء جدولا يحدد مدى شيوع كل من هذه الحركات مع بيان العمر :

نوع الحركة	العمر بالاسابيع						
	١٦	٢٠	٢٤	٢٨	٣٢	٣٦	٤٠	٥٢
الانزلاق	٩	١٣	١٥	١٢	١١	١	٣	٠
الانقضاض	٠	٣	٨	٩	١٩	٠	٠	٠
الانسياب	٠	١	٩	٩	١٠	٢٨	٣٢	٣٤

. وواضح أن المظهرين الاولين يتمشيان مع الحركتين الجانبية والدائرية بينما حركة الانسياب تصحب الاقتراب المباشر ، وهى موجودة فى جميع الأطفال منذ الأسبوع الثانى والخمسين . ولسنا نعنى بذلك التحديد أن كل حركة تحدث على حده بل قد تكون الحركة الواحدة مزيجا من الانزلاق والانقضاض ، كما لو هبطت يد الطفل قبل المكعب اذ قد يعقب هذا حركة انزلاقية براحة اليد على سطح المائدة يتبعها انقضاض آخر وهكذا .

ولا يبدو من الجذع والرسغ فائدة واضحة قبل الأسبوع السادس والعشرين ، وهنا يتقدمان بسرعة حتى الأسبوع الأربعين . وتقتصر حركة الجذع اولا على الميل للامام فيساعد الطفل على الاقتراب من الجسم ، ولكنه بعد مدة يمكنه أن يدور على محوره مما يبيح لأحد الكتفين الدوران كاملا بحيث يسبق الآخر . فاذا وصل الطفل الى الأسبوع الثانى والخمسين وصلت حركات الجذع الى حدها الاقصى من المرونة و الضبط

أما عن الرسغ ، فقد دلت الابحاث على أن الساعد واليد عند الطفل الصغير يتحركان فى خط مستقيم . فاذا مد الطفل يده للاقتراب من جسم ما فان اليد تمتد ثم تنخفض بحيث تلاصق معظم راحتها المكعب ، وتقتصر حركة الرسغ على الحركة الباطنية أى للاسفل نحو المكعب volar flexion . فاذا انتهى النصف الاول من السنة الأولى استطاع الرسغ أن يتحرك جانبا نحو الإصبع الاصغر من اليد ulnar f exion بحيث أن الخط الواصل بين الكوع والرسغ والذى كان يمر بالاصبع الاوسط ، يمر الآن بين السبابة والابهام ، وهذا التغير فى وضع الرسغ . . هذا التغير الذى يتمشى مع وضع الابهام وحده مقابلا للاصابع ، ينقل السبابة والابهام الى وضع ممتاز لايتهيأ لغيرهما فيكتفى الطفل بهما لالتقاط المكعب

القبض : اتضح من العرض البطىء للاشرطة السينمائية أن هناك عشرة أنواع من القبض تتتابع حسب نمو الطفل حتى يصل الى اوضع الاخير الذى يمتاز به البالغ .ولسهولة العرض سنختصرها الى ثلاثة فى الوقت الحاضر :

ا — استقرار راحة اليد على المكعب ب — وضع الابهام جانبا مع التصاق راحة اليد حـ — القبض باطراف الاصابع .

فى الحركة الاولى تتقبض الاصابع بشدة على المكعب وتضغطه الى مؤخر راحة اليد مع الاحتفاظ بالابهام موازيا للاصابع الاربعة الاخرى . وتكاد اليد هنا تخفى المكعب تماما بحيث يصبح استكشاف الجسم أو معالجته

وتحريكه محدودا جداً لأن الطفل لا يراه .

وفى الحركة الثانية ينتقل المكعب الى جانب اليد (نحو الابهام) ، ويبدأ هذا الاخير فى القيام بعمل مخصص . وفى المرحلة الاخيرة يصل الابهام فى وضعه الى الكمال فيسمح للطفل بأن يزن المكعب بين اطراف الاصابع والابهام . وهنا نرى معظم سطوح المكعب ظاهرة فيمكن الطفل ان يتابع مايريده من حركات كوضع الجسم داخل شىء أو خارجه أو فى فمه أو قد يتحسسه بيده الاخرى وهكذا .

والحركة الاولى تسيطر على الباقية حتى الاسبوع الرابع والعشرين ثم تفسح السبيل للثانية بين الثامن والعشرين والثانى والثلاثين ، وهنا تبدأ الثالثة فى الظهور لتسيطر ابتداء من الاسبوع السادس والثلاثين

وهانحن نرفق بهذه النتائج رسما تخطيطيا يبين المراحل التى تسير فيها عملية القبض ، ويبدو فى اعلاه المكعب حيث يقبض الطفل براحة اليد فى الاسبوع العشرين والرابع والعشرين ، ثم يأتى الشكل الثالث ليبين تخصص عمل الابهام فى الاسبوع الثانى والثلاثين ، أما الاشكال الاخيرة ٣٦ ، ٤٨ ، ٥٦ ، فتبين القبض المصقول باطراف الاصابع ، وهنا يتمكن الرسغ من اضافة حركة

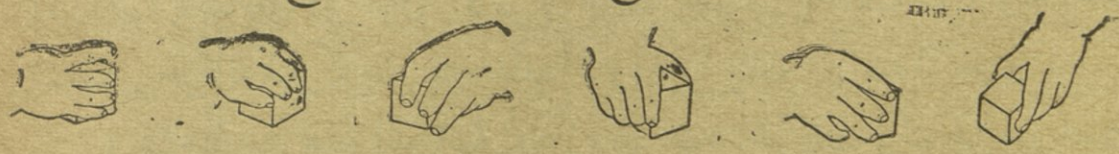

٥٦ ٤٨ ٣٦ ٣٢ ٢٤ ٢٠

٥٦ ٥٢ ٤٤ ٤٠ ٣٢ ٢٨

٦٠ ٥٢ ٤٤ ٣٢ ٢٨ ٢٤

أخرى فترتفع اليد الى أعلى نحو ظاهرها distal flexion

ويلاحظ أن سرعة التحسن فى القبض على الاجسام المعروضة تختلف باختلاف احجامها واشكالها . فالفنجال هـــو دائما مشكلة بالنسبة للطفل ، والاطفال جميعا فى كل الأعمار يستخدمون عادة كل الاصابع فى الامساك به. ومن الطريف أن نلاحظ أن الكرة والبلية الصغيرة أكثر الاجسام تعقيدا فالبلية تحتاج الى تكيف دقيق للاصابع ولا يمكن أن يصل أى طفل الى هذا قبل الاسبوع الثامن والعشرين ، ويبدأ الطفل فى محاولاته الاولى بدفع راحة يده منبسطة فوق الجسم الصغير وتتقبض الاصابع محاولة الامساك به ولكنه فى الغالب ينزلق من بينها فيعيد الطفل الكرة حتى يثبت الجسم بين اطراف الاصابع وأعلى راحة اليد وبالتدريج تخصص الاصابع حتى يكتفى الطفل بالابهام والسبابة .

استكشاف الجسم ومعالجته : يختلف الاطفال كثيرا فى طرق تحريكهم

للاجسام الصغيرة بعد التقاطها ، ولكنهم يتفقون فى خطة الترقى لهذه الحركات فاذا اخذنا تجارب هالفرسون فى هذه الناحية خرجنا بأن الطفل يتحسس المكعب بأصابعه فى اول الامر .. ثم هو يضرب به المائدة ، وبعد هذا تتحسن حركاته فيتركه من يده عامداً ، واخيرا ينقله الى يده الاخرى .

ويلاحظ من هذه الدراسة أن ازدياد عدد الحركات وتنوعها من حيث النشاط الاستكشافى يصحب التحسن فى الادراك ومرونة الاعضاء ، ففى الاسبوع الثامن والعشرين حيث يبدأ الاستكشاف الصحيح تبدأ ايضا حركة الرسغ الجانبية فيبرز الابهام والسبابة والوسطى فى مقابلة الجسم ، كما تبدأ حركة دوران عظمتى العضد فيدير الطفل المكعب فى يده ليتفحصه . وكلما نمت حساسية الاصابع وقارب الطفل حركة القبض الثالثة باطرافها تكيف ضغط قبضة الطفل على الجسم حسب وزنه وشكله وأبعاده الخارجية ، وإنا لنرى هذا النجاح يتمشى مع نضوج أعصاب البصر وتقدير المسافات والابعاد والحجوم ، وهكذا يمكن الطفل أن يترك المكعب على المائدة من يده عامدا

بدلا من أن يسقطه فى مرحلة مبكرة إذ تنفرج الاصابع فجأة .

تناول الطعام : متى يستطيع الطفل أن يتحكم فى يده ورسغه ليأكل بنفسه ؟ لقد تعددت الابحاث فى هذا الميدان حتى نستطيع الآن أن نروى غليل القارىء الى حدما . فالطفل فى نهاية الشهر الثامن يستطيع أن يمسك « بالبزازة » اذا وضعت فى فمه ورضع . وفى الشهر التاسع يمكنه أن يدخلها ويخرجها من فمه متى أراد . فاذا ما اكتملت له سنة امكنه أن يشرب من فنجال ويأكل بملعقة ، ولو أنه لا يستطيع أن يستعملهما بنفسه بنجاح بطبيعة الحال . وتأتى السنة الثانية فيحاول الطفل جاهدا أن يأكل وحده . ويحدث كثيرا أن يتساقط بعضه على ملابسه فى أول الأمر ، كما يستعمل كلتى يديه للامساك بالفنجال والشرب . ولكن بالتدريج والتمرين تتحسن حركاته فيتخلى عن احدى اليدين .

فاذا انتهت السنة الثانية تعلم الطفل أن يستخدم الشوكة أيضا بالاضافة للملعقة ، ولكنه غير قادر على تقطيع طعامه واعداده للاكل . وبالتدريج خلال السنة الثالثة يمكنه أن ينشر المربى أو الزبد على الخبز وبعد هذا يحاول أن يقطع اللحم بالسكين ، ولكنها محاولات فاشلة فى معظمها لأن حركة القطع معقدة جدا ولا تتم قبل الخامسة . ويلاحظ أنه فى كل هذه الحركات لتعلم الأكل منفردا يجب أن يركز الطفل اهتمامه كله فى العمل الذى أمامه اذا اردنا أن نصل الى نتائج مثمرة ، أما أن يتخلل عملية الطعام الكثير من التوتر وابداء الملاحظات والضحك وبعض السخرية فكلها تعطل ضبط الحركات . ويضع جيزل هذا المقياس (١) الخاص باستخدام الفنجال والملعقة نسوقه للقارىء لعله يجد فيه بعض الفائدة :

Gesell ,A. , The first five years of life. New york, Harper. 1940 p, 242

استعمال الفنجال دون مساعدة :

١٥ شهراً - يمسك الطفل الفنجال بأصابعه متباعدة ، لا من الاذن . يحدث كثيراً أن يميل الفنجال لمرونة الرسغ فيسقط معظم مايحتويه . رقابة مستمرة

١٨ شهراً - يرفع الفنجال الى الفم ويشرب جيداً . يعيد الفنجال الفارغ الى امه فاذا لم تسرع لأخذه فكثيراً مايسقط منه .

٢١ شهراً - يعالج الفنجال جيداً .. الرفع ، والشرب ، والاعادة الى المائدة .

٢٤ شهراً - يمسك كوبا صغيراً بيد واحدة ويشرب .

٣٦ شهراً - يصب الماء أو اللبن من اناء صغير فى الفنجال بكثير من الدقة .

استعمال الملعقة دون مساعدة :

١٥ شهراً - يمسك بالملعقة ويدفعها فى الصحفة . ولكنه لا يملأها الا بقدر قليل ، ثم هو اذ يقرب الملعقة من فمه ففى الغالب يقلبها قبل دخولها الفم

١٨ شهراً - يملأ الملعقه جيداً . ولكنه لايزال يجد صعوبة فى ايصال الطعام لفمه ، وكثيراً مايقلب الملعقة على جانبها فى الفم .

٢٤ شهراً - يضع الملعقة فى الفم دون ميل ولا يقلبها بل يرفعها قليلا من طرفها الذى يمسك به . لايسقط منه الا القليل .

٣٦ شهراً - يستطيع أن يمسك الملعقة مسكا صحيحاً ، أى بالأصابع من أسفل بحيث يكون باطن اليد المنقبضة لأعلا .

ارتداء الملابس : يقرب من تناول الطعام كثيرا فى الاهمية . وخلع الملابس يسبق ارتداءها سهولته ، فمن السهل أن يخلع الطفل جوربه وحذاءه من أن يلبسهما . ويقع الوقت المفضل لنمو الضبط الحركى نحو الارتداء والخلع ما بين سنة ونصف وثلاث سنين ونصف . ويختلف مدى الصعوبة حسب الملابس ، فالجوارب أسهل فى ارتدائها من الأحذية ، وارتداء الرداء أسهل من تثبيته بالازرار ، وفك الازرار أسهل من تثبيتها .

وقد وجد أن الطفل من سن سنتين شغوف بمحاولة فك الازرار وربطها ، وهو يستطيع أن يزرر سترته اذا كانت الازرار فى الامام أو الجنب ابتداء من سن سنتين وخلال السنة الثالثة ، ويتحكم فى الحركة تماما فى الخامسة . ويلاحظ أنه أثناء تعلم الطفل تثبيت أو فك الازرار يجب أن يرى الزر أو العروة أو الخية ، فاذا كان الزر عاليا عند العنق أو على الكتف أو فى الظهر بحيث لا يراه فهو لا يستطيع أن يثبته ، ولكن معظم الاطفال اذا استعانوا بمرآة يمكنهم أن يفعلوا هذا خلال السنة الرابعة . فاذا وصل الطفل فى النمو الى حد تأدية هذه الحركات أو توماتيكيا دون أن ينظر للزر فيمكنه أن يستغنى عن المرآة ، حوالى سن السادسة .

تفضيل احدى اليدين : لا يبدو خلال الشهور المبكرة من الحياة أن الطفل يفضل اليد اليمنى أو اليسرى . وتبدأ أول مظاهر هذا التخصص قرب منتصف السنة الأولى لتتحدد وتثبت فى الشهر التاسع .

وقد تعددت الآراء فى تفسير سبب هذا التفضيل ، فمن قائل انها مسألة فطرية تولد مع الطفل ، الى مؤكد انها نتيجة للمران والاعتبارات الاجتماعية كما يرى واطسون، فالطفل منذ صغره اذا مد يده اليسرى للمصافحة نهيناه ودعوناه لبسط الأخرى . والرأى الأول هو الشائع ، وهو يؤكد أن تدخلنا نحن الكبار لتحويل مجرى الحركة الفطرى تنتج عنه متاعب عصبية ، تبدو على الأخص فى اللثغة والتهتهة وأخطاء النطق .

وهناك من يرى أن الجزء الايسر من المخ نفسه (أمام وفوق المخيخ) يعمل تشريحيا بشكل أدق وأوفق من الايمن ولذا يحدد تفضيل الناحية اليمنى عند معظمنا . وهناك أيضا من يتخذ وضع الجنين فى البطن دليلا على تأكيد أهمية اليد اليمنى وعلو قدرها .

وبعد فلقد يكون تفضيل جانب على الآخر اجراء لا ارادياً نقوم به فى مناسبات عديدة لتسهيل العمل ، كما لو أرهفت احدى أذنيك لسماع صوت

منخفض ، أو نظرت بركن عينك عند التفكير ، كما أنك لو وقفت على احدى قدميك لارتفعت هامتك عما لو استخدمتهما سويا .

وقد درس ولمان قدرة الطفل على القاء أو التقاط الكرات وخرج بهذه المقاييس (١) للاعمار فى حالة كرة محيطها ٩ ونصف بوصة وأخرى ١٦ ونصف بوصة .

نوع الحركة	محيط ٩ ١/٢ بوصة	محيط ١٦ ١/٢ بوصة
القاء الكرة الى بعد ٤ - ٥ أقدام	٣٠ شهرا	٣٠ شهرا
القاء الكرة الى بعد ٨ - ٩ أقدام	٤٤ »	٥٣ »
القاء الكرة الى بعد ١٢-١٣ قدما	٥٧ »	٧٢ »
التقاطها ، الذراعان ممدودان ، نجاح قليل	٣٧ »	٣٤ »
« بنجاح الكوعان بلاصقان الجسم	٥٥ »	٥١ »

الساقان والقدمان : يظن الكثيرون أن الطفل يتعلم المشى بسرعة أو يصل اليه بشكل فجائى ، ولكن الحقيقة أن المشى تتغلغل جذوره حتى وقت الميلاد أو ربما والطفل جنين ، حيث لوحظت حركات الرفس والدفع من الساقين بطريقة منغمة أى بالتبديل . وهكذا يستغرق الطفل مدة ربما تتسق عضلات السيقان والجذع ، وبعد هذا يكتسب الطفل الاتزان .

وتبدأ حركات الزحف خلال الشهور الاربعة الاولى . فاذا استلقى الطفل على بطنه أو على ظهره فهو يرفس وينفض جسمه ازاء حرف الفراش فيتحرك بضع بوصات فى نهاية الاسبوعين الاولين . فاذا رفعته تحت الابطين فى

(١) ببعض التصرف Wellman B. Motor achievement of preschool children. Childhood Ed., 1937, 31, 311 — 319.

وضع رأسى بحيث تلمس ساقاه الارض فهو يقفز ويطفر ، وفى مرحلة متأخرة يثبت قدميه فى الارض بقوة ويخطو .

ولكن أولى المحاولات فى سبيل الحركة المنظمة هى التدحرج ، اذ يستعين الطفل بحركات ساقيه وذراعيه - ولو انها حركات خشنة جدا غير مصقولة — ويعقب هذا فى العاده نوع من الحركة فى وضع الجلوس اذ يستخدم الطفل احدى رجليه ليدفع بها جسمه بينما الاخرى مثنية تحته لحفظ التوازن ، كما يستخدم الذراعين واليدين لمساعدة حركات الساق للدفع . وهذا النوع من الحركة يتجه فى الغالب للخلف لا للامام . ويبدأ بشكل بسيط جدا فى الشهر الرابع اذ يبدأ الطفل فى ثنى جسمه بالمساعدة فى وضع الجلوس ويصل الى ذروته فى الشهر السادس فيشيع فى معظم الاطفال .

وتأتى المرحلة التالية وهى مرحلة الزحف وفيها تجد الجسم مستلقيا على الأرض والبطن متصل بها ولكن الرأس والكتفين مرفوعان على الكوعين ويندفع الجسم بحركات الجذب من الذراعين والدفع من الساقين . والطفل هنا يشبه السباح بعض الشىء ، وخاصة فى حركات القدمين اللتين تقتربان من الجسم ثم تندفعان للخلف فجأة كالضفدع . وتشيع هذه الحركة بين الشهر السابع والتاسع .

فاذا وصل الطفل الى سن تسعة أشهر فيمكنه أن يحبو ولو أن بعض الاطفال المبكرين يختصرون كل هذه المراحل . وفى الحبو يرتفع الجذع موازيا للارض وتتحرك الايدى والارجل حركات متعارضة فى أول الامر ولكن بالتمرين يكتمل التوافق ويحرك الطفل عضوا واحداً فى كل مره . فاذا وصلت قوة الطفل حدا كافيا رفع ركبتيه عن الارض وتصلب ساقاه ومشى على أربع كالحيوانات ، ويتم هذا ما بين الشهر العاشر وأوائل الثانى عشر

الوقوف : ليس من الضرورى أن يسير الطفل فى المراحل السابقة حتى يقف . بل ان وقوف الطفل مستندا الى شىء أو بمعونة آخرين يتداخل فى

المراحل السابقة ، تماما كما رأينا الجلوس بمساعدة الام يحدث مبكرا . وهكذا يستطيع الطفل أن يقف معتمداً على قطعة من الاثاث لمدة دقيقة فى سن عشرة أشهر . أما ان يتشبث بشىء ليجتذب نفسه الى وضع الوقوف فعمل صعب فى الحقيقة لان الارجل كثيرا ما تنزلق تحت ثقل الطفل ، ولكنه يتحقق فى الطفل المتوسط قرب نهاية الشهر الحادى عشر ، ومع هذا فلا يزال أمامه شهر على الاقل ليكتسب القدرة على الوقوف بدون أى مساعدة .

ويحمل الوقوف طابعا خاصا بالنسبة للاطفال فى أول الامر ، فالارجل متباعدة ليحفظ الطفل توازنه ، والاصابع الكبيرة متجهة للخارج ، والرأس والجزء الاعلى من الجسم مائلان للامام .. فاذا سقط فهو فى الغالب يسقط للخلف

المشى : اذا اكتسب الطفل بعض الثقه فى قدرته على الوقوف متمسكا أو متشبثا بأحد فأغلب الظن انه يبدأ يخطو الخطوة الاولى بكل حذر ، وهو يفعل هذا قبل أن يكتسب القدرة على الوقوف وحده ، أى فى سن عشرة أشهر ونصف .

ويسير كثير من الباحثين على سنة مضاعفة العمر الذى عنده يجلس الطفل بمفرده للتنبؤ بالسن الذى يتخلى فيه الطفل عن كل مساعدة ليسير وحده .. أو يضربون سن الحبو فى ١ ½ . وهو يقع فى المتوسط حول الشهر الرابع عشر ؛ فلا يصل الطفل الى منتصف السنة الثانية حتى يسير وقد اتزنت حركاته كالكبير .

وفى حاله تعلم المشى نجد الرأس مرفوعا بتصلب ليرى الطفل فى أى اتجاه يسير ، كما يبدو الجسم متخشبا والحركة مقصوره على الساقين فقط والقدمين بينما الذراعان ممدودان للجانبين كأنما الطفل أحد اللاعبين الذين يسيرون على الحبل . وتتجه القدمان للخارج وتتحرك الساقان مشدودتين حركات منغمة واحدة فى أثر الاخرى ولا ينظر الطفل إلى مواضع قدميه ، وهذا يؤدى به كثيرا للسقوط ، فضلا عن انه يرفع ساقه فى كل خطوه عن الارض

أكثر مما يجب ولذا يفقد توازنه .

أوضاع القدمين : تتابعت الدراسات التفصيلية فى هذه الناحية معززة بالأجهزة والصور المتحركة على أيدى بير نسيد وشيرلى وماك جرو وايمز .

وقد جاء فيرودت باحذية بها ثقوب دقيقة من أسفل يسيل منها الحبر كلما ضغط الطفل قدمه فتترك آثارا . وجعل بير نسيد أطفاله يسيرون على قماش من الموسلين المشبع بالحبر ثم ينتقلون منه الى شرائط من الورق. كما دهنت شيرلى اقدام أطفالها بزيت الزيتون ، وبعد أن ساروا على ورق أبيض ألقت عليه مسحوقا أسود مما يتجمع على زجاجة المصباح فظهرت مواضع الأقدام بوضوح . أما ماك جرو فسجلت صورا متحركة لأرجل الأطفال من تحت الزجاج الذى يسيرون عليه .

وقد وجد أن الطفل فى مرحلة مبكرة — قبل الشهر السادس — يحاول أن يخطو إذا حملناه فى وضع رأسى ، وهنا تقصر الخطوة ، حوالى ٥ سم بين الاصبعين الكبيرين ، ويضغط الطفل قدمه بعنف على الارض معتمداً على الامشاط والاصابع فقط. فاذا بدأ الطفل المشى معتمداً على الاثاث أو ممسكا بيدى شخص كبير اتسعت الخطوة كثيراً وانفرجت الارجل للخارج وضغط الطفل قدمه كلها على الارض . وهو هنا لا يحرك قدما إلا إذا استوثق من ثبات الاخرى .

وبالتدريج تتحسن الخطوات وتقل الزاوية بين القدمين حتى تصبحا متوازيتين تقريبا ، وهنا يسير الطفل وحده فيضع كعبه على الارض ثم ينتقل الضغط بسرعة للمشط فى الوقت الذى يستقر فيه الكعب الاخر كما هو الحال عند الشخص منا .

ويرى القارىء هنا جدولا يتضمن بعض المعايير من وضع بيلى (١) تتناول الحركات المشتقة من المشى والتوازن مع بيان العمر بالاشهر.

---

(١) Bayley N, The devel. of motor abilities during the first 3 years Monogr. Soc. Res. Child Devel, p 3

وتحدث تغـــيرات كثيرة فى طريقة المشى بطبيعة الحال ، وقد تمر عدة سنين قبل أن يكون الطفل مشية خاصة يتميز بها ، فضلا عن أن ثقل الجسم . . وحالة الحذاء من جهة الضيق أو الاتساع . . وخوف الطفل من أن يخطو خطوات واسعة لئلا يسقط كما حدث فى مناسبات سابقة . . كل هذا يجعله يخالف كثيرا زميلا آخر فى نفس السن كما أن له أثرا كبيرا فى تكوين طابع خاص للمشى .

نوع الحركة	العمر
يمشى جانبا	١٦ر٥
يمشى للخلف	١٦ر٩
يقف على القدم اليمنى بمعونة	٢٠
« « « اليسرى «	٢٠
يصعد السلم مع المساعدة	٢٠ر٣
يهبط السلم « «	٢٠ر٥
يصعد وحده دون تغيير للقدم	٢٤ر٣
يهبط وحده دون تغيير للقدم	٢٤ر٥
يقف على القدم اليسرى وحده	٢٩ر٢
« « « اليمنى وحده	٢٩ر٣
يسير على اطراف أصابعه	٣٠ر١
يسير على خط مرسوم	٣١ر٣
يصعد السلم مغيرا القدم	٣٥ر٥
يقفز من ارتفاع ٣٠ سم	٣٧ر١
يقفز طوليا مسافة ١٠ - ٣٥ سم	٣٧ر٢
« « « ٦٠ - ٨٥ سم	٤٨ر٤

وهانحن نلخص للقارىء ماسبق عرضه للنمو الحركى فى كل ميدان على حدة فى هذه المعايير التى يضعها جيزل وبيلى

نهاية الشهر الاول : ١ — يرفع رأسه بين حين وآخر اذا أسند الى الكتف

٢ — يقوم ببعض حركات الدفع بقدميه اذا استلقى على بطنه فى الفراش وقد يزحف مايقرب من بوصة

٣ - اذا حملته فى هذا الوضع يمكنه أن يرفع ذقنه فتصل الرأس

الى مستوى أفقى

٤ — يدير رأسه جانبا وهو مستلق على البطن .

نهاية الشهر الثالث : ١ — يرفع يده أو يحمل جسما الى فمه قصداً لاعن طريق الصدفة

٢ — تتوافق اعصاب العينين فيتحدان فى الحركة لمتابعة جسم لامع يتحرك أفقياً ورأسياً

٣ — يجتذب انتباهه مايوضع الى جانب العين فيستدير ليلتفت إليه

٤ — يغمض عينيه بصورة ارادية اذا تهددهما شىء .

نهاية الشهر الرابع : ١ — ينقلب بسهولة من الظهر للجنب .

٢ — يرفع نصفه الاعلى بواسطة الذراعين ويزحف بوصات

٣ — يجلس بمعونة الكبار تحت الاضلاع السفلى ويرفع رأسه بثبات

٤ — يبدأ عمل الابهام فى التخصص فيقابل الاصابع الاخرى جزئيا ليمكن الطفل من الامساك بشىء

٥ — يحمل الخاتم الى فمه

٦ — يلعب بالشخشيخة

نهاية الشهر السادس : ١ — يجلس دقيقة أو اثنتين دون معونة اذا مال فى وضع مناسب

٢ — يحتفظ مدة بسيطة بمكعبين ؛ واحد فى كل يد .

٣ — يمارس الحركة فى وضع الجلوس للخلف فى الغالب بمساعدة الذراعين وساق واحدة

٤ — يبدو فى محاولته الامساك بالشىء تفضيل اليد اليمنى

٥ — يرفع الفنجال من الاذن

نهاية الشهر الثامن : ١ — يتكيف وضع الابهام تماما فى مقابل الاصابع فيتحقق التقاط جسم صغير ، وهذا أصعب من مجرد الامساك

٢ — يزحف معتمداً بنصفه الاعلى على الكوعين ودفع الساقين للخلف

٣ — يحتفظ بتوازنه تماما فى الجلوس وقد يستمد اللذة من التأرجح جانبا أو من الامام للخلف

نهاية الشهر الثانى عشر : ١ — يحتفظ بتوازنه فى الوقوف ٥ ثوان أو اكثر

٢ — يمشى بمساعدة بسيطة من شخص بالغ

٣ — يخفض جسمه من وضع الوقوف الى الجلوس ببطء ولا يترك ثقله يسقط على مؤخره .

٤ — يمسك القلم مسكا صحيحاً ليعمل شرطاً على الورق

٥ — يقلد حركات هز الشخشيخه ، وخفض الرأس ، وهزها ، وحركات الشفاه .

نهاية الشهر الثامن عشر : ١ — يشرب جيدا من الكوب وحده

٢ — يأكل بالملعقة أو الشوكة مع بعض الارتباك خصوصا فى تفريغ الملعقة فى الفم

٣ — يصعد احدى درجات السلم أو على كرسى صغير

٤ — يلقى الكرة فى الصندوق

٥ — يحرك القلم على الورق من تلقاء نفسه وبشدة

نهاية السنتين : ١ — يقلد حركات بسيطة كرفع الذراعين أو التصفيق

٢ — يمسك الكوب بيد واحدة ويشرب ويستخدم الملعقة استخداما جيدا

٣ — يقلد رسم الدائرة

٤ — يصعد السلم ويهبط وهو يرفع رجله أو يخفضها ثم يضم زميلتها اليها على نفس الدرجة

نهاية السنين ونصف ١ — يصعد السلم ويهبط وحده مغيرا القدم ويقف على قدم واحدة

٢ — يكوم سبع أو ثمانى قطع خشبية محتفظا بتوازنها

٣ — يقلد رسم خط أفقى أو رأسى ببعض الدقة

والآن وقد استكمل الطفل أساس الجهاز الحركى فانه يقضى ما بقى من الطفولة يضيف الى قواه وسهولة أداء الاعمال وصقل عضلاته ومرونتها ، خصوصا والميدان أمامه فسيح فى التزحلق وركوب الدراجة والسباحة وألعاب الكرة . حتى اذا قارب المراهقة بدأت فترة اضطراب فى الحركات اذ تنمو العضلات فى غير تناسب مع العظام ، ولكن هذا الدور ينتهى حوالى السادسة عشرة .

ولقد عنينا بالاسهاب فى وضع المعايير ، ونود أن نؤكد للقارىء اننا نعتبرها مرنة الى حد ما وليست قوالب ثابتة جامده ، ولكن لا يجب أن يغرب عن البال أهمية الاحتفاظ بالمستوى المتوسط فى معظم الميادين فتأخر النمو الحركى خطير جدا ، لا لأنه يمنع الطفل من الوصول الى مرحلة الاستقلال فى العمل عندما يأتى الوقت الذى يجب فيه أن يستقل فحسب ، ولكن لأن أثره الحيوى يمتد الى أغوار الحياة النفسية ، فهو يعطل نمو الطفل الاجتماعى . فالطفل لا يستطيع ان يقف على قدم المساواة وسط زملائه بين الثانية والثالثة اذ يراهم يجرون ويلعبون .. يتسلقون ويهبطون .. يأكلون ما يعرض عليهم .. ويرتدون أو يخلعون ملابسهم دون حاجة لمساعدة الكبار . وهكذا يقحم الشعور الكريه بالنقص نفسه فى حياة الطفل فيحيلها سوداء قاتمة ، فهو فى وجود رفاقه الصغار أو الضيوف الغرباء خجل متردد ، وهو فى وحدته حقود تأكل الغيرة قلبه ، وهو مع أمه كثير « الزن » والصراخ ، وهو يعتكف وحيدا لا يجد من التسلية الا ما يعرضه هو بنفسه . فهو يهز جسده متأرجحا أو يهمهم لنفسه ، ثم هو يمص أصابعه وهو صغير ويقضم أظافره

فى مرحلة متأخرة ، ويغرق فى العادة السرية فى المراهقة . ثم هو يستسلم لشعور التراجع وتخطى الآخرين له فيشب - كما نرى الكثيرين ممن حولنا - قليل الكلام مستسلما لليأس والأفكار السوداء ، سريعا لنفض يده من أى عمل يتطلب مجهودا ، وتكون نتيجة تغلب الآخرين عليه كما هو المتوقع أن يتأكد لديه اعتقاده السابق وديدنه فى الحياة من أن كل شىء « قسمه ونصيب » . . وأنك مهما تعبت وعملت فلن تنال الا ما قسم الله لك ، واذن فلم العناء وفيم التعب ؟ آه لو ابتسم له الحظ يوما . . !

ولكنه يعلم أنه لن يفعل فهو مدبر على طول الخط ، فهو منذ أن نشأ يتابعه كظله فيحرمه حتى اللعب كأى طفل خلقه الله . . ! وبعد فهذا المجتمع المقيت لا يقدر ولا يستحق أن يتعب من أجله الانسان . وهذه الدنيا لا توسع صدرها للرجل المخلص المجد بل تمجد كل من يمسح الجوخ ويذل من كرامته أمام الرؤساء ! . .

ولكنه قد يسلك طريقا مخالفا لهذا على خط مستقيم . هو يرى رفاقه يلعبون ويأكلون . . يقفزون ويتسابقون . . ويدفعون بعضهم بعضا وهو عاجز عن مجاراتهم . وهناك فى وحدته يرى العالم كله يضحك فى جذل وهو صامت كئيب ، فتتهيأ كل نقطة فى دمائه للنضال ضد هؤلاء المحيطين به ، وهو يرى النجاح كل النجاح فى أن ينال منهم فى أدق المواضع حساسية ، فهو يقرص أخته الصغيرة أو يعضها وهى نائمة فى غفلة من الآخرين ، فاذا هبت الطفلة من نومها جازعة وسارعنا اليها توارى فى مكان قريب ، يرقب بابتسامة شيطانية ماكرة الاهتمام والقلق اللذين نبديهما فهما عنوان نجاحه . واذا ضبطناه قريبا منها راح يقسم بأغلظ الايمان أنه لم يمسسها بسوء . ثم هو يقص « ناموسيات » الفراش وأغطية المقاعد ، ويخفى ما نعتز به فى سلال المهملات . وعلى قدر الانفعال والاضطراب اللذين نحسهما لضياع شىء أو افساده . . على قدر ما نضربه وننهره ونعنفه . . يزداد سروره فهذا دليل نجاحه فى اختيار الشىء الذى ينال من المجتمع ويثبت وجوده الذى لا يعترف به رفاقه الصغار ومن حوله

لتراجعه وهكذا يشب هذا الطفل - كالكثير ممن نراهم فى حياتنا وعلاقاتنا - رجلا مخادعا مفتريا يسعى للايقاع بزملائه ويسر لوشى بهم وحاك حولهم حبائله . هو صموت لا يبوح بما يعتمل فى أعماقه لمخلوق ، يتمنى لو « قفش » لاحد خطأ أو وجد فى أحد مرؤوسيه ما يمكنه باستغلاله أن يجازيه . فاذا تحدثت اليه فى أمر سفه رأيك .. واذا ما قصصت قصة سارع لنقدها فى سخرية لاذعة. هو فشار ومبالغ من الدرجة الاولى . فهو لم ينل التقدير من المحيطين به وهو صغير نتيجة لضعفه وتراجعه الحركى فليسع اذن لهذا التقدير عن طريق نسج الاكاذيب حول نفسه .

فاذا كان التاريخ يحدثنا عن طغيان قوم مشوهى الاجسام أو مرضى بأمراض أضعفت نموهم وحركاتهم ولونت طفولتهم بلون كئيب فلا يستغربن القارىء مثل هذه الاحداث، فلقد استطاع تيمورلنك الاعرج أن يقود شرذمة من التتار من وسط آسيا فيصل الى قلب أوروبا على رأس جيش يزيد عن المليون عدا .. تاركا خلفه بطاحا ووديانا خضبتها الدماء، كان يذبح أطفال القرية ونساءها وشيوخها على مرأى من شبانها ورجالها الاشداء فلا يملك هؤلاء وقد أفقرت الدنيا من أعز من يحبون وامتلات نفوسهم بالحقد والرغبة فى الانتقام الا أن ينضموا الى جيش تيمورلنك ليذيقوا غيرهم جرعة من الدواء المرير . وخاض تيمورلنك بجواده بحرا من دماء اعدائه فما كان وهو الاعرج الذى هزأ رفاقه به وهو صغير لقلة نشاطه لينتشى الا لمرأى الجثث والاشلاء ..!

فلنحذر يا سيدى القارىء أن يكون طفلنا متراجعا شاعرا بالنقص أو القلق نتيجة خمول عضلى او حركى . لنحذر ان تمر الطفولة وطفلنا لا يستطيع ان يجارى الرفاق فى جريهم ولعبهم والقائهم للكرة . ولا يداخلنك اليأس فمعظم التراجع عرض ظاهرى فحسب وكلما سارعت لاكتشافه وعلاجه علاجا صحيحا ازداد احتمال عودة الطفل الى الموقف الطبيعى .

وصحيح أن مستوى ذكاء الطفل كما رأينا فى تجربة تيرمان السابق عرضها وحجم الطفل المتناهى فى القلة أو الكبر . . والامراض المبكرة كالدفتيريا والالتهابات الرئوية ولين العظام . . أو العمليات الجراحية الخطيرة خلال السنتين الاوليين . . تعطل نمو الطفل وهى عناصر لا نملك لها دفعا ، ولكن من الانصاف أن نقر بأنا ندفع الطفل بأيدينا الى كثير من الامراض والتشوهات. وكم من سيداتنا عند شعورهن باعراض الحمل غير المرغوب فيه يرتكبن حماقات عديدة للقضاء على الجنين ، فاذا لم تفلح المحاولات واستقررن للعناية به كان قد تشوه وسبق السيف العزل . ! وما أشقى الطفل الذى يمتلىء منزله بالحفلات والاتيكيت والخروج للزيارات فتتوالى على جسد الطفل أوان من الملابس الضاغطة التى تعوق تمرين عضلاته . . والاحذيه الصلبة التى تؤثر اسوأ الاثر على عضلات الساقين وتعطل عملية المشى ، وما أسعد طفل الفلاح الذى لا يعرف من المدنية حتى النزر اليسير ، فهو يجرى حافيا وعلى جسمه أخف الملابس ، معرضا جسده لأشعة الشمس الدافئة والهواء المنعش الطليق . !

والواقع أن المدنية من أعدى أعداء الطفل حقا اذا كنا نعنى بها هذه الارض الناعمة الملساء التى ينزلق عليها كلما أراد الوقوف أو تنزلق عليها أية قطعة من الاثاث يود لو يتشبث بها ليقف أو يمشى . . أو اذا كنا نعنى بها الجدران الملونة والاركان المزينة بالتماثيل النادرة أو « دولاب الفضيات » اللامع البراق أو قطع البنور التى تغطى المائدة والمكتب . فلا يكاد الطفل يمسك بالكرة حتى نسارع لتحذيره من اللعب بها ، أو يحاول أن يفتح الصنبور ليغسل وجهه أو يديه حتى نقوم نحن عنه بالعمل لئلا تصيب يده « الرف » الزجاجى البديع الذى يمتد فوقه حاويا العطور وأدوات التجميل .

بل وحتى لو تهيأت له البيئة الصالحة لصقل عضلاته وتمرينها فان نزعتنا للتدليل والملاطفة وتجنيبه أبسط الجهود واستمرار ملاحظته والوقوف الى جانبه فى منازلنا الناعمة المدللة . . وتقابلها النزعة لدفع الطفل للعمل دفعاً مع

قلة فى الصبر وعدم تسامح مع الخطا والمحاولات فى منازلنا الرهيبة القاسية.. كثيرا ما يعطلان تقدم الطفل الحركى .

ثم انا ننسى كثيرا قوانين النمو الحركى ، فندفع الطفل للعمل المعقد المخصص قبل تمرين العضلات الكبيرة للاعمال العامة . فعلينا أن نهيء للطفل فرصا كثيرة لتحريك القلم على الورق بحرية ودون أى تقييد قبل أن يقوم بأى حركة معقدة يتضمنها الرسم أو الكتابة

وكم من سيداتنا يحاولن - بحسن نية كما سبق أن ذكرنا - أن يدفعن البنت الصغيرة فى حمى غريبة لتتعلم أولى مبادىء الحياكة بينما هى لم تعرض لها الفرصة لنظم الخرز أو الازرار فى خيوط . فاذا حاولنا أن نتعجل الطفل لاداء عمل قبل أن تتهيأ عضلاته وجهازه العصبى له ، كأن نتعجل المشى أو صعود السلم والطفل ليس واثقا من السير على الارض المنبسطة .. أو القفز . الى الحمام وهو لم يتقن السباحة بعد .. فنحن فى كل هذا نستثير لدى الطفل الخوف ، وهذا يعطل أى محاولة قادمه نحو تنمية المهارة

ونظرا لارتباط النمو الحركى ارتباطا وثيقا باللعب سأعرض لهذا الموضوع الاخير فى الفصل التالى لنطبق فيه ما سبق عرضه من نظريات.

الفصل السادس

اللعب

منذ الأزل والطبيعة أعدى أعداء الكائن الحى .. وهى فى نفس الوقت أخلص أنصاره .. ! فهى وإن هيأت للديدان الحقيرة أن تبيض الواحدة منها مئات البيض فتفسح المجال لصغارها للعيش والتكاثر بينما تلد انثى الانسان أرقى الكائنات وليدا واحدا فى الغالب فى كل مرة ، اذا بها تأخذ باليسار ما تمنح باليمين فتحرم الديدان والحشرات عناية الأم وحنانها فيموت من المئات مئات مثلها تحت تأثير غضب الطبيعة نفسها ولا يبقى الا القليل .. بينما توفر الطبيعة لصغير الانسان أما رؤوما حانية يعززها ذكاء الجنس البشرى وقدرته على مقاومة الطبيعة نفسها بثوراتها الحانقة وامراضها الوبيلة .. فيمر الوليد خلال طفولة طويلة يكتسب له ولرفاقه فى معظم الأحوال النجاة بعدها والعيش.

ثم تاتى الطبيعة فتسخر للمرة الثالثة فتهيىء لأحقر الكائنات أسلحة الهجوم والدفاع. والحركة والاختفاء .. والطعام والاخراج .. ، بينما تلقى إلى الحياة بطفل الانسان ارقى الكائنات اعزل من كل سلاح .. صارخا يرجو الحماية والاطعام .. ! وأى عطف واخلاص أكثر من أن تحبو الطبيعة دودة حقيرة كدودة البلهارسيا بقدرة على « تمييز » أنواع من القواقع يتناثر الملايين منها على شاطىء النيل والترع والبرك فتخترق جسد نوع منها لتعيش فى داخله ، حتى اذا تكاملت دورتها كمنت فى التربة الرطبة فى انتظار الانسان الذى يسير حافيا فتخترق جلده لتسير مع الدم ، وهنا تميز أعضاء الانسان فتمر بها دون اهتمام حتى تصل الى الامعاء فتتشبث بها الى أن يأتيها الطعام ممثلا جاهزا دون تعب أو مشقة ..! بينما يقضى طفل الانسان اثنى عشرة سنة على الاقل قبل أن يميز بالطريقة الطبيعية فى المدارس

من القواقع وأجهزة الجسم ما تقدم عليه الدودة دون اعمال للفكر .

ولكن الطبيعة هنا ليست جائرة بالانسان كما يظن البعض . فسلوك الدودة أو غيرها من الحشرات الدنيئة ليس « تمييزا » أو ذكاء خارقا عجيبا وما هو الا بضع غرائز ثابتة جامدة كالقوالب تملى على الكائن الدنيء أن يتصرف فى كل زمان ومكان نفس التصرف الذى يقوم به ملايين غيره من نفس النوع . ولقد عاشت الدودة ملايين السنين فلم تضف الى ذكاء الفصيلة درهما واحداً . أما الانسان فقد شاءت به الطبيعة وسط سخريتها الظاهرة خيرا .. فهو مرن ضعيف ، لايملك من الغرائز أو قوالب السلوك سوى القليل ولذا يمكنه أن ينثنى ويتحور ويتحكم فى سلوكه فيتبدل من فرد لآخر . ، وهكذا يقضى طفولته الطويلة يلعب فيمرن ويصقل أدق عضلاته وأعصابه وأناملة لأن العمل الذى ينتظر كل عضو مهما صغر عمل عظيم معقد - فأنامل اليد تكتب روائع الادب فتثير مكامن الشعور ، وتنقل الى لوحة الرسم آيات الفن العلوى ، تحرك زرا فتثز طائرة الى السماء ، أو يرتفع مصعد الى الطابق الستين ، أو تمرق سيارة الى هدف منشود . وهكذا كان الطفل الآدمى فى ضعفه واستسلامه أخطر على الطبيعة من ملايين الكائنات التى تبدأ حياتها فى زهو واعتداد ..! هو يستطيع أن يسخر عناصرها لخدمته ، فطائراته تتكىء على الهواء .. وغواصاته تقلق سكون الاعماق .. وقطاراته تخترق الجبال . ولكن لا تكاد احدى كواكب الطبيعة تلوح بذيلها قريبا من أرضه .. لا تكاد تظهر بقع « صغيرة » على الشمس .. لا يكاد المطر ينهمر مدرارا أفيرسل الانهار تعج وتصخب فوق أرضه الوداعة كما حدث فى مصرنا أخيرا .. حتى تصطك ركبتاه فزعا ، فستظل يد الطبيعه هى الطولى ، وكوارثها كابوس ثقيل يجثم على صدره .

أسلوب اللعب : يسير اللعب فى نمط معين لا يختلف كثيرا من طفل لآخر فهو فى أول أمره لعب حر طليق يعتمد أساسيا على الحركات العشوائية

واستثارة اللذة من أعضاء الجسم ، فالطفل بعد صغير تتركز ميوله فى الجسد. وبالتدريج كلما نمت مداركه تعقد اللعب وظهر من عناصره اللعب الايهامى حيث يتقمص الطفل شخصيات معينة أو يتحدث الى الدمى . . ثم اللعب الانشائى حيث يعمل الطفل كعكا من الطين أو الصلصال ، ويبنى جبالا أو انفاقا من الرمل . ويعتمد الطفل فى كل هذا على اللعب toys كالقوالب والخرز والخامات كالطلاء والرمل . فاذا انتهى عصر اللعب حوالى السادسة أو السابعة جاءت مرحلة المدارس الابتدائية حيث ينفسح المجال لالعاب الجرى والحركة والمنافسة العضلية . ثم تأتى الالعاب الجمعية التى تخضع شيئا فشيئا لاحكام وقواعد وتتطلب كثيرا من الصبر وكبح الدوافع ، فلا تأتى المراهقة الا ويصبح اللعب حاويا لكثير من عناصر الجد والصرامة.

ولقد درس بارتن [1] مدى الاشتراك الاجتماعى فى ميدان اللعب متخذا أطفالا تتراوح أعمارهم بين ٢ ونصف و ٥ سنوات فى مدرسة الحضانة الملحقة بمعهد رعاية الطفل بجامعة مينسوتا — وقد خصص للدراسة الفترة الصباحية الواقعة بين ٩ ونصف و ١٠ ونصف محاولا أن يبعد احتمال تغير سلوك الطفل فى أوقات مختلفة من هذه الساعة بملاحظة كل طفل دقيقة واحدة كل يوم على أن تختار هذه الدقيقة فى أوقات متغايرة ، وهى ما نسميها طريقة العينات القصيرة المتكررة .

وخرج بارتن من هذه الدراسة بوجود ٦ درجات للاشتراك الاجتماعى يسير فيها اللعب . فانك لترى طفلا يبدو وكأنه لا يلعب مطلقا . هو يقف فى وسط الغرفة يجذب منديلا مربوطا حول عنقه ويهز رأسه هنا وهناك . فاذا سألته أى اللعب يريد هز رأسه ، واذا قربت منه لعبة لم ينظر اليها . والطفل هنا يشغل نفسه بالنظر الى أى شىء يحدث فى اللحظة الحاضرة ، فاذا لم يجد

---

[1] Parten, M, B, : 1932, Social participation among preschool children. J. abnorm. (soc.) Psych. 27,243—269

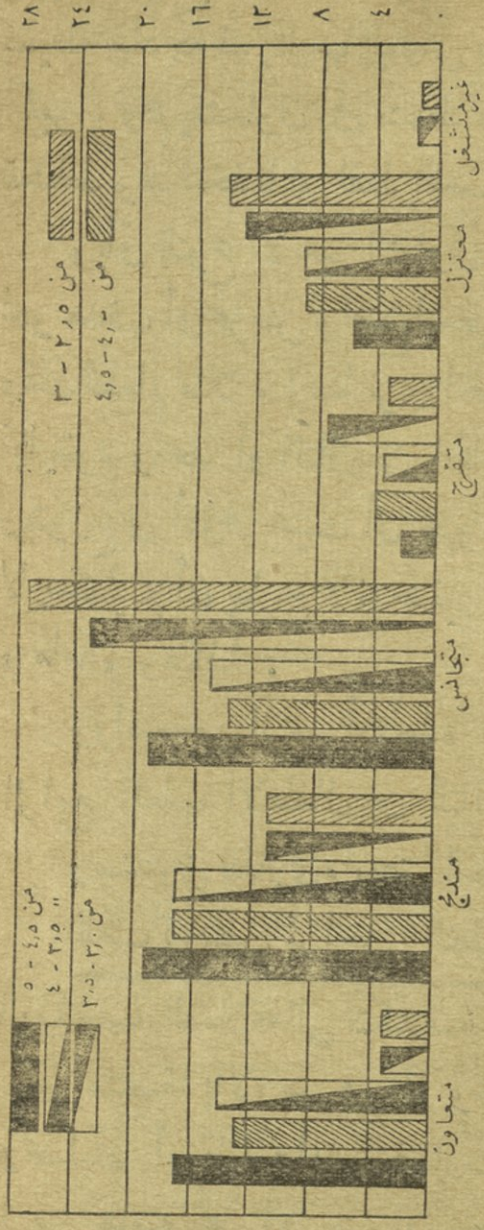

انشغل بجسده. وهذا النوع الاول هو ما سميناه هنا غير منشغل unoccupied كما يرى فى الرسم .

أو قد نجد طفلا يلعب وحده مستقلا عن رفاقه ومستخدما لعبا مختلفة عما يستخدمونه . وهو لا يبذل أية محاولة للتحدث أو الاقتراب من الاخرين فاهتمامه منصب على نشاطه هو دون نظر الى ما يفعلونه . ونسمى هذا النوع معتزلا Solitary

وهناك غير هذا من يقضى معظم الوقت يرقب الاخرين يلعبون . وهو يحدثهم أحيانا ويسألهم أسئلة أو يقدم اقتراحات ولكنه لا يدخل فى مجال اللعب فعليا . وهو هنا يختلف عن الاول الذى ينتبه مؤقتا لما يحدث فى اللحظة الحاضرة ليتركه لغيره ونسمى هذا النوع الثالث متفرجا onlooker

او قد يلعب الطفل مستقلا ولكن وسط الاخرين ، والفرق بينه وبين الثانى أنه يستخدم لعبا تشبه تلك التى يلعب بها زملاؤه ، ولكنه يستخدمها بالطريقة التى تروقه هو غير محاول أن يؤثر على نشاط القريبين منه . واذن هو يلعب الى جانب الرفاق لا معهم ، ونسميه متجانسا parallel

أما النوع الخامس فهو بداءة للعب مع الرفاق . فهناك استعارة واعارة

للعب ، كما يتبع الصغار بعضهم بعضا بالقطارات والعربات . وهى محاولات بسيطة ساذجة قد يتابعها البعض ويحجم عنها الآخرون دون تدخل أواهتمام كبير . وهم ينشغلون فى نشاط متشابه ولكن دون تقسيم للعمل أو تنظيم للنشاط وقد اتخذنا له لفظ اللعب الجمعى associative

ويأتى النوع الاخير التعاونى cooperative ليمثل اللعب المنظم المتجه نحو هدف أو غرض واضح لتحقيق شىء مادى أو تمثيل موقف معين كالعائلة وقت الطعام مثلا . وهنا نرى احساسا واضحا من الانتماء للجماعة أو عدمه. كما يقوم واحد أو اثنان من الجماعة بتقييد وتنظيم النشاط ، فينقسم العمل ويتوزع فى أدوار بحيث أن مجهود فرد ما يعززه مجهود آخر ، فهذا الطفل لا يستطيع أن يطبخ لأنه صغير بينما هذه الزميلة هى التى توزع الطعام لأنها « ماما » وهكذا .

وواضح من الرسم أن هذه الانواع تتابع تبعا للعمر كما يسود النوع الرابع ألعاب الاطفال بين الثالثة والخامسة .

وسنسوق للقارىء بعض النظريات التى تحاول أن تفسر ماهية اللعب:

اللعب تلخيص لمراحل التطور : أطاحت الطبيعة بالكثير من الزواحف العملاقة التى تتكشف عنها الحفائر اليوم ، وبقى الاصغر حجما يسعى ملتصقا بالارض فى ذلة وخضوع . ثم رفعت بعض الكائنات جسمها وتصلبت أرجلها وأيديها فسارت تدب على أربع . وأخيرا جاء الانسان فرفع هامته عن الارض فى زهو وخيلاء !

عرض انصار نظرية التطور لهذه الفكرة فافاضوا فى العرض ؛ ولكنهم اعتصروا أذهانهم فى أى الكائنات هى الحلقة التى تربط الحيوان والانسان ولم يطل بهم التفكير حتى وجدوا ضالتهم المنشودة فى شخص الطفل الصغير - فهو فى حياته يلخص أدوار حياة المخلوقات . ان تقبض يد الوليد الصغير على اصبعك عند تقريبه منه هو بقية عهد غابر سحيق عندما كان الصغير يتشبث بأمه أو بغصن شجرة وهو نائم لئلا يسقط . وما أشبه حركات

الزحف التى تبدأ منذ الشهر الرابع بحالة الزواحف وهى فى احط مراحل التطور. ثم يحبو الطفل فيلخص مرحلة اكثر رقيا هى مرحلة الحيوانات ذوات الاربع ، واخيرا هو فى اللعب والجرى والقفز يصل بنا الى مرحلة الصيد والقنص التى مر فيها الانسان

فالطفل وهو يختبىء من زميله فى لعبة « الاستغماية » .. أو يتتبع آثار العدو، فى حركة الكشافة .. ويقيم خيمته الصغيرة .. ويجتمع هو وزملاؤه ينشدون حول النار .. انما يعكس بعض حياة الانسان أيام أن كان يهيم فوق الارض المعشوشبة عاريا الا ما يكسو جسمه من الشعر وورق الشجر الرقيق .. تتلقفه الرياح والانواء والاعاصير ، وتتخطفه الضوارى والضباع الكاسرة فيختفى منها فى كهف غائر فى الصخور .. أو يتتبع آثارها فى حذر واحتراس . ثم بدأ يتجمع فى قبائل يضمها بعض النظام والتعاون ، فبنوا أكواخهم واجتمعوا حول النار ليعبدوها أو يشووا عليها ما صادوه من حيوان أو انسان معاد .

ولكن اذا كان أنصار نظرية التطور قد أفلحوا فى تقريب بعض سلوك اللعب من الانسان القديم فليس اللعب كله فى الطفولة لعبا « بالنيابة » أو اختفاء من الزملاء . ان الوليد الصغير ما دام مرتاحا ليس هناك ما يزعجه من المؤثرات الداخلية أو الخارجية يلعب بجسمه .. يلعب بيديه ورجليه فى حركات عشوائية .. يلعب بابهامه فيمصه .. يلعب بأعضائه الجنسية أو ثدى أمه .. بل هو يبدو كما لو كان يلعب بالجهاز الصوتى فيصدر أصوات غريبة يشتق منها سرورا ولذة . فهل لهذا اتصال بالانسان القديم ؟ ثم ماذا عن اللعب المصقول .. كرة القدم والتنس وتنس الطاولة والهوكى والبولو والسباحة وآلاف غيرها ؟ ان النظرية التلخيصية تقصر عن أن تفسر كل هذا فلنتحول الى غيرها علنا نشفى غليلنا .

اللعب موضح للعالم المادى: ينزل الطفل الى عالمنا هذا .. عالم غريب

كل الغرابة .. وبالتدريج وعن طريق اللعب يبدأ تفهم ما يحيط به . هو

يلعب بيديه ورجليه ويحركها يمينا ويسارا . ويتصادف أن تصطدم يده بحاجز الفراش الخشبي أو المعدني فيتألم .. وبعد مدة يعيد الكرة فيتكرر الالم ، وهو في الرضاعة .. بعد أن يطفىء جوعه الشديد .. نجده يلعب بالثدي فيتركه من فمه ليربت عليه بيده ثم يعود الى الرضاعة من جديد. وهكذا يدرك بالمقارنة أن هناك فرقا بين جسم يؤلم كحاجز الفراش اصلابته .. وآخر لين كثدي أمه . وهكذا يصنف ما يرى تحت قسمين أساسيين: أجسام مقاومة وأخرى مطيعة . وهذا هو السبب في أن مادة كالرمل تجذب اهتمام الطفل وتستغرق من وقت لعبه مدة طويلة سواء على شاطىء البحر أو في حديقة المنزل خصوصا اذا رآها للمرة الاولى ، فهو مادة صلبة اذا تناولنا كل ذرة منه ولكنه في مجموعه قليل المقاومة يمكن أن يتخلله الطفل بيديه بكل سهولة . بل وهذا هو السر في ذلك السحر العجيب الذي يسيطر به الماء على ذهن الطفل الصغير بعد الثانية فاذا به يفتح الصنابير ليغرق أحواض الحديقة ومطبخ المنزل ، وهو في استغراقه الشديد واستطلاعه لهذه المادة الغريبة قد تبتل ملابسه ونخشى نحن أن يصاب بالبرد فنمنعه فيصرخ . ليس هذا عبثا أو استهتاراً وانما هو العالم المادي المحيط بالطفل . . يستكشفه عن طريق اللعب

وهكذا يستطلع الطفل ما حوله . فهو سريع لوضع كل شيء في فمه في السنة الاولى .. فهو يختبر مذاقه ومتانته تحت فكيه . . فاذا زادت قوته قليلا ضرب به الارض ليسمع رنينه أو جذب أجزاءه حتى يرى ما بداخله. وهو يفعل هذا بكل ما يقع في متناول يده في المنزل .. يفتح الادراج وينثر ما فيها من الاوراق والاقلام والخيوط والاقمشة والزجاجات والاكواب .. فكل واحد من هؤلاء ثروة خصيبة تضيف الى معلوماته فيشعر ازاء كل نجاح باستقرار وهدوء وأمن وسيطرة

في سبيل تحقيق هذا الهدف يقوم الأطفال دون أن يقصدوا بمعظم الأعمال التي نسميها شقاوة « وعفرته » وتحيل حياتهم تبعا لذلك — وحياتنا

أيضا فى أحوال كثيرة - سلسلة من المتاعب والآلام .فالطفل يغرم باللعب بالكبريت لا لشىء الا لمرأى النار فهى سر مستغلق . وهو يذهب الى الحمام فيرى (الطشت) مسندا الى الحائط ولا يعجبه هذا الوضع ، فلم لا يقلبه على وجهه فهو هنا أكثر تناسقا وانسجاما . ثم يتناول ملعقة ويظل يطرق بها على السطح الرقيق فى ايقاعات منتظمة ، كل هذا والوالد المسكين يتقلب على فراشه ساعة القيلولة فى اعياء .. يضع رأسه تحت الوسادة وكأنما تقع الطرقات عليها لا على الوعاء .! معظم ألعاب الطفل فى سنى الطفولة المبكرة تتجه الى الاستزاده من المعرفة.ولا تتجه الى التخريب أو الاعمال الشريرة ما دامت البيئة لا تدفع الطفل لهذا باساءة العلاقة بينها وبينه . ولعلنا نلفت بذلك نظر القارىء الى ضرورة اختيار مادة اللعب ومكانه بحيث ينال الطفل أقصى مايمكن من المتعة بأقل ما يمكن من الافساد أو التعرض لحرية الكبار

اللعب موضح للعالم الاجتماعى : يلعب الطفل بالجهاز الصوتى ، فهو منذ الشهر الأول « يناغى » ويقبض عضلات الحنجرة أو يضم شفتيه فتتذبذبان اثناء اندفاع الهواء ، وهو يسلى نفسه بهذه الأصوات المتنافرة العجيبة بدليل أنها تزداد كلما تركناه وحيداً ، خصوصاً منذ الشهر السادس الى نهاية السنة الاولى .

وهو هنا يبدأ يخرج حروفاً ومقاطع فيكرر مقطعا مثل « تاتاتاتاتا » طول النهار ،وسنرى عند بحث تكون الكلام فى الفصل التالى أن المناغاة هى أساس الكلام ، فمقطع مثل هذا يكون صورة صوتية سمعية فى الذهن يسهل استثارتها اذا سمع الطفل كلمة مقاربة مثل « فوطة » من شخص كبير ، فاذا ارتبط هذا بوجود الجسم القماش نفسه فان هذا لاخير فى غير وجود الكبير يصبح وحده قادراً على استثارة المقطع نفسه « تا » ليعنى به الطفل «الفوطة». واذن فاللعب وسيلة للكلام وبالتالى موضح لأهم دعامات العالم الاجتماعى .

ويكبر الطفل قليلا فيغرم بالتمثيل وهو ما نسميه « لعب الايهام » ويبدأ منذ الشهر الثامن ويصل الى ذروته قرب الخامسة والسادسة . وهو هنا يمثل فى لعبه مايدور فى المنزل ، فهو فى مرة « الأب » وهؤلاء الرفاق « أبناؤه » ، أو هذه حفلة وهذه « الاطباق » ، « والفناجيل » « والطعام » فى صورة ورق ملون ملفوف قدطهته الأم فى علبة من الكرتون لابد أنها كانت تستخدم يوماً لحفظ الاحذية ولكنها اليوم « قدر » مافى ذلك شك . كما يمثل الأطفال دور الشرطى . . والطبيب . . والبائع . . ، أو دور احدى الشخصيات الخرافية مثل « الشاطر حسن » أو « سندريللا » فاذا تقمص الطفل أحد هذه الأدوار فهم العلاقات الاجتماعية التى تربط الاب بأبنائه أو العكس ، أو البائع بزبائنه . . أو الطبيب نحو مرضاه . . أو « المسحراتى » وهو يدور بطبلته الرقيقة يوقظ أهل الحى . . ، كل هذا يوضح للطفل نظام التعامل والواجبات الاجتماعية التى تربط المجتمع الكبير .

وتبرز هذه الروح الاجتماعية فى أوضح صورها فى لعب الفتيان فى سن الثانية عشرة وأكثر حيث تسود الالعاب الجمعية التى تضم عددا من الفتيان وتخضع لنظام معين . فالصبى كعضو فى فريق الكرة يحافظ على موعد اللعب بكل دقة مهما بعدت المسافة وصادفه من المصاعب . فهو لن يترك زملاءه ينتظرونه أو يلعبون ناقصين . . هو يطيع رئيس الفريق كما يطيع الحكم حتى لو كان يعلم أن ما أصدره من أحكام خطأ . . هو يحيى خصومه قبل اللعب وبعده بكل تقدير واحترام . . ، بل انظر ياسيدى القارىء الى الروح التى تسود ملعب كرة القدم . الطفل قريب من المرمى والكرة معه ، ولكنه فى وضع غير ملائم كل الملاءمة ، بينما هناك زميل له يقف فى مكان هادىء نسبياً وهنا يضحى الصبى الاول بمكانته كفرد فى سبيل مصلحة الفريق فلا يقذف الكرة الى المرمى مع أن فى مكانه ان يفعل هذا . . بل هو يمرر الكرة لزميله ليقذفها هذا من زاويته الملائمة فتسكن فى الهدف . وتثور الأكف بالهتاف والتصفيق للطفل الاخير وينسى الاول كل النسيان . ولكنه يتقبل

كل هذا بهدوء فحسبه أنه بذل واجبه وليكن جنديا مجهولا مادام الفريق الذى يلعب لأجله قد انتصر . .

انا نشكو ونتذمر لأن وزاراتنا الجديدة تلغى ما بدأته الوزارات القديمة . . لأن معظم أصحاب المناصب فى هذا البلد أنانيون محبون لانفسهم يحبون أن يكون التصفيق لهم هم والفضل راجع اليهم وحدهم . هات أيها القارى اصبعك وتحسس موضع الداء . ان هؤلاء الملايين من الشعب المصرى الذين يعانون من الانانية السخيفة والاثرة وحب النفس وكره الخير للآخرين كان يمكن أن يكونوا أحسن من هذا . . كان يمكن أن يتعلموا روح التضحية والتعاون فى سبيل اسعاد المجموع لو كانوا وهم صغار أعضاء فى فريق رياضى . . لو كانوا قد سمعوا التصفيق والهتاف للزملاء لا لهم وتقبلوا هذا بهدوء وبغبطة لانهم يضعون مصلحة الفريق فوق كل اعتبار شخصى . ما أحوجنا لان نقدم أطفالنا للحياة الاجتماعية الحقة عن طريق اللعب . . !

لننظر الى الروح التى تسود الملعب . . روح المسئولية التى تملى على حارس المرمى أن يلقى بنفسه تحت الاقدام ليخلص بالكرة ولو اصيب أثناء هذا ، فهو قد تسلم المرمى وتقع عليه مسئولية ابعاد الكرة عنه . أين الشعور بالمسئولية فى علاقاتنا نحن الكبار ؟ وكم من زوج يسهر الليل مع رفقائه فى عبث ومجون ويعود ثملا فارغ الجيب ليجد شريكته غارقة فى دموعها وتنهداتها . . فيعاجلها بالشتائم والسباب لانها « وش نكد وعياط . . ! »

بل دعونا نصارح بعضنا بعضاً . كم مرة أحوجتك الظروف لان تقصد مكتباً فى مصلحة أو وزارة أو شركة لتسأل عن طلب قدمته أو شيئاً من هذا القبيل فاذا بحضرة الكاتب ينظر اليك بتأفف ونفاد صبر ، ثم يحدثك من طرف أنفه كأنما هو مدير المصلحة على الاقل محيلا اياك على كاتب ثان ، وهذا يحيلك على ثالث وهكذا تتنقل كقطعة الشطرنج ، وكلهم يفضلون عنك سيدة « بملايه لف » تفوح منها رائحة العطر الرخيص ، أو تبدو أسنانها الذهبية خلال ابتسامتها العريضة . . ، وهذه هى روح المسئولية فى مجتمعنا الكبير . . !

لا يمكن أن «يغش» الفتى الرياضى فى الملعب فيعرقل خصمه من الخلف أو يلعب لعبة غير نظيفة «فول»، لانه يعلم أن الحكم سيعاقب الفريق «بضربة جزاء». بل ان الامر على العكس تماما.. هو يتعاون مع زملائه فى سبيل الهدف المشترك .. ويتقبل الهزيمة بهدوء وابتسام . بل انظر الى الروح الحلوة التى تدفع الفتى الصغير ليصافح واحدا من أفراد الفريق الاخر بعد اللعب ويقول «كان يمكن أن تنتصروا لانكم تلعبون أحسن منا .. ولكن هارد لك».

واذن فالطفل يفهم المجتمع وعلاقاته .. ويستعد بروح طيبة لمجتمع أحسن عن طريق اللعب .

اللعب اعداد للحياة المقبلة : هذه النظرية مشتقة من النظريتين السابقتين بطبيعة الحال ، ولكنها تضيف اليهما قليلا . وهى من وضع كارل جروس الالمانى ، وتجد أساسها فى تنوع الالعاب واختلافها من كائن لآخر . كما تستفيد من طول مدة الطفولة تبعا لرقى الكائن فى سلم التطور . فما دامت طفولة الانسان أطول من غيرها فلا بد أن هذا يرجع لتعقد وكثرة المطالب التى تلقيها عليه حياته عندما يكبر وينضج . فالطفولة هى وقت اللعب ، واللعب لا بد يتجه لاعداد وتمرين الكائن على ما ينتظره من المهام عند ما يكبر

انظر الى الكباش الصغيره وهو تتوثب وتتناطح تشعر أن هذا هو نفس ما يطلب منها من أعمال جدية عندما تكبر وتحرس القطيع ، وانظر الى الجراء (صغار الكلاب) وهى تلعب مع بعضها فتنبح فى أصواتها الخافتة وتعض بعضها بعضا ولكن فى دعابة .. تقفز وتسقط فوق بعضها البعض ، وهنا لا تتمالك أن تحس انها تتمرن على أداء ما ينتظرها من مهام الحراسة والصيد . وانظر الى القط الصغير وهو يلعب بالدوبارة أو الحبل ، فيجذبه من طرفه وينقض عليه . ثم يتراجع فى خفة مقوسا ظهره وناشبا مخالبه ليقفز القفزة الاخيرة . انك هنا أيضا تحس احساسا أكيدا أن الحبل سيصبح فى القريب فأرا يتلاعب به القط الكبير قبل أن ينشب مخالبه فى عنقه .

وأوضح من كل هذا الطفل الآدمى . من النادر جدا أن تجد طفلا ذكرا

بعد السادسة يلعب بعروسة ، ويخلع لها ملابسها ليضع لها أخرى جديدة . ولكنك تجد الطفلة تفعل هذا بمنتهى الشوق والسرور . بينما الطفل الصغير يمسك عصا ويضع رجلا فى ناحية والاخرى فى الناحية المقابلة ويجرى ممثلا الفارس على حصانه ، يندر أن تجد الطفل الذكر يمثل الام أو مجلس الزائرات وما يدور فيه من حديث . هو يترك هذا لاخته الصغيرة تستغرق فيه وتتفنن كما تشاء ، بينما يمثل هو دور الاب والشرطى والبائع والنجار

وهكذا يكبر الطفل فتبدو فى العابه حركات أعنف .. الجرى والتسلق والقفز والدفع .. وكلها تقوى عضلاته وتزيد مرونة جسمه وتنقى دمه ، وبالتالى تساعده على أداء ما يتطلبه مستقبله وهو كبير من أعمال

هل نحن فى حاجة اذن لان نشيد بأهمية اللعب وقد رأينا كيف يعين الطفل على تفهم العالم المادى والاجتماعى ويعده لحياته المستقبله الى غير ذلك من النظريات كصرف النشـــاط الزائد ؟ . اذا كان طفلك يا سيـــدتى هادئا بطبيعته لا يلعب أو « يتعفرت » كما يفعل الاخرون فلا تعرضيه بزهو وخيلاء أمام زائراتك قائلة « اسم الله عليه . . زى الملاك . . »! اعرضيه من باب أولى على الطبيب فهناك احتمال كبير أن يجد فى جسده غدة أو غدتين لا تعملان عملها . لان الطفل اذا كان خاملا لا يلعب فمعنى هذا انه يستعد استعدادا فقيرا ناقصا للحياة المقبلة .

أما اذا كان الطفل يحب أن يلعب ثم نمنعه نحن أو نتضرر منه .. وهو ما يحدث فى منازلنا المصرية فى آلاف المناسبات فكاننا اذ نقول له « لا تلعب » نقول له ضمنا « لا تتقدم .. لا تفهم .. لا تنجح .. لا ترتق .. لا تستفد مما حبتك به الطبيعة من مرونة بل كن دائما فى ذيل القائمة كالحشرة الحقيرة » هذه بالضبط مرادفات كلمتى « لا تلعب » .

هل فكرنا من قبل فى هذه الحقيقة ؟ أم نرتكب جميعا ذلك الخطأ المشين . فنعتبر اللعب مرادفا « للدوشة » والصراخ والجلبة . لتمزيق الملابس

للتعرض لضربة الشمس فى الشارع .. بل وأسوأ من هذا نعتبره مرادفا للرسوب فى الامتحان ، وما دام الطفل لا يحل مسائل الحساب أو يستذكر قواعد اللغة العربية فهو يضيع وقته فى الفاضى .؟

اذا كنا قد فكرنا فى اهمية اللعب فلنتساءل « أى مكان أعددناه ليلعب طفلنا فيه ؟ » هل يلعب فى حجرة الصالون حيث الطقم «المدهب» الثمين والبساط الأملس السميك الذى نسير نحن عليه بحذر .. أو يلعب فى فى حجرة المائدة بين دولاب الفضية البراق .. والتمثال الموضوع على حامل قصير .. والمشجب المليء بالمراريا .. ؟ حتى أبوابنا المفروض أنها للحراسة أصبحت من الزجاج المحبب .. وحيطاننا امتلات بالصور الفنية الرائعة وكاننا قد تسلمنا رسالة الفن السماوية من رفائيل العظيم أو من ميكل أنجلو .. !

هل يلعب الطفل فى الشارع حيث نسير نحن بحرص لئلا تصدمنا المركبات العابرة .. أم يلعب فى متنزهاتنا المنعدمة .. واذا وجدت فهى بعيدة تحتاج لاعتماد خاص من الميزانية لسد مصاريف الانتقال ؟ ان بين يدى تقرير لوزارة الشئون الاجتماعية يبدو منه بكل أسف أن النية لاقامة متنزهات موجودة ولكن التجارب التى عملت أثبتت أن من يقضى وقته ويستفيد من الحدائق العامة طائفتان : الطبقة الفقيرة المتسولة التى لا تجد مأوى .. والطبقة الاوربية . أما سواد الشعب المصرى فلا يفكرون فى الذهاب الى المتنزهات اللهم الا يوم شم النسيم .. !وتتحدث مع سيداتنا فى هذا الموضوع فيقلن لك ان الافرنج يأكلون دائما « واشف » لا تستغرق منهم وقتا فى اعدادها ثم يأخذونها معهم للخارج فى سندوتشات وانهم لو اضطروا لطهى مايطهيه المصرى فى منزله لما انفسح من وقتهم ربع ساعة للنزهة

بل ان هناك ماهو أسوأ من هذا . فى المدرسة قد يتوفر المكان والزملاء ونوع اللعب المفيد فماذا يحدث ؟ يحدث اننا نحن الآباء والأمهات نمنع أطفالنا من اللعب فهل رأينا جمودا أكثر من هذا ؟ فى ذهنى حادثة معينة لمستها بيدى وفى وسع أى مدرس أن يلمس مثلها عشرات .ن.. طفل فى التاسعة من

يندر أن تجد الطفل الذكر يلعب « بعروسه » ... هو يترك هذا لاخته
الصغيرة تستغرق وتتفنن كما تشاء ...

عمره فى احدى مدارسنا الابتدائية . نظمت مدرسته جمعية للاشبال والكشافة وأحب صاحبنا الدخول فيها وهو شيء طبيعي جدا ، فماذا حدث؟ ثار الوالد والوالدة ضد فكرة الكشافة على أساس أن الولد يغيب ساعة أو ساعتين بعد انتهاء الدراسة فى بعض الايام . ماذا؟ أليس لنا بيوت؟ وعلى أساس أنه يضيع وقته «فى الفاضى» .. الوقت الذى يقضيه أطفال الجيران بين مسائل الحساب وكتب مبادىء العلوم .

قلت ان الطفل أحب أن ينتظم فى الكشافة ومن الطبيعي أن يحب هذا أى طفل . ان المدرسة لا تلهو بأطفالنا أو تقرر الاشياء عبثاً ، فبدأ جماعة الأشبال أو الكشافة فى المدارس الابتدائية لم تخترعه المدرسة لتحتجز أطفالنا ساعة أو ساعتين بعد الدراسة ، أو لكى تحمل الوالدين نفقات البذلة والحزام والشارة ، ولكنه مبدأ يتمشى مباشرة مع ما يقوله علم النفس والتربية . فعلم النفس يقسم حياة الفرد الى مراحل هى مراحل النمو يتميز كل منها بنوع خاص من اللعب . فالمرحلة من السادسة أو الخامسة الى الثانية عشرة وهى التى نحن بصددها الآن بالنسبة لطفل المدارس الابتدائية تتميز بنوعين من اللعب .. لعب الايهام ثم ألعاب التوازن والجرى والتسلق والقفز .

فالطفل كما سبق أن شرحنا يحب أن يمثل ويتوهم أنه نفس الشخص الذى يمثله ، فهو يربط زميله بحبل ويمثلان عربجى وحصان ، أو قطارا بعرباته ، أو قد يمثل الاطفال حيا باكمله فى ليلة من ليالى رمضان الدافئة . فيستلقون ويغمضون أعينهم متظاهرين بالنوم ، ويقوم أحدهم بدور «المسحراتى» فيقرع على طبلة صغيرة أو على ظهر «صفيحة» ... أثناء من خياله لكى يوقظ فلان بك «والحاج» فلان وغيرهم ممن يسكنون سحورهم قبل أن ينطلق مدفع الرفع .! . أو قد يحدث على ألسنة الحيوانات ويلبس هو نفسه شخصية أحد الطيور اثناء الوصف وهكذا .

ولعل من الواضح اننا فى حركة الاشبال والكشافة نرضى فى الطفل هذا الميل للعب الايهام . فتقسيم الفرقة الى أسود وأشبال وذئاب.. والحركات التى يعملونها باصابعهم ممثلين الاذان ..والقفزات التى يؤدونها على سيقانهم وركبهم مثنية.. والصرخات الحادة التى تتخلل أناشيدهم ممثلة صرخات الذئاب.. كل هذه ترضى ميلهم الطبيعى فى هذه السن وتسبب لهم سرورا عظيما .

ثم يستمر علم النفس فى بيان أن هذه المرحلة تمتاز بتجمع الصبيان فى مجموعات تنضم لبعضها وتنحو نحو الثورة الى حد ما ضد السلطة.. سلطة الوالدين فى المنزل وسلطة المدرسين فى المدرسة ، ولهذا نسميها علميا مرحلة العصابات . والخطأ كل الخطأ فى أن نقاوم الطبيعة فنجبر الاطفال على حبنا واحترامنا والخضوع لنا .. ونفرق بينهم وبين بعضهم بمنع أطفالنا عن الخروج للاتصال بزملائهم على أساس أن هذه المجموعات ستكون خطرا على قوانيننا نحن الكبار فى المنزل أو المدرسة . هذه طبيعتهم فى هذه السن ، ومن المبادىء التربوية المعروفة ألا نحارب الطبيعة ولكن نهيىء الجو الملائم الذى يمكننا من أن نستفيد من الرغبات والدوافع التى تظهر فى سن معينة لخير الطفل ورقى المجتمع .

هنا تأتى الكشافة لتهيىء هذا الجو الملائم أحسن تهيئة . قلنا ان الاطفال بطبيعتهم يميلون للتمثيل أو لعب الايهام ، كما يميلون لتكوين مجموعات قائمة بذاتها بعيدة عن تدخل السلطة المنزلية أو المدرسية . . . حسنا.. ان الملابس الخاصة التى يلبسها أطفال الفريق .. شارة الحيوان الذى ينتمى اليه الكشاف أو الشبل .. التقاليد التى يتواضعون على احترامها والاخذ بها ..طريقة تحية الكشاف الصغير لرئيسه بامساك الاصبع الصغير بابهام اليد.. كل هذا يرضى ميلهم للتجمع والانضمام تحت راية واحدة ، راية تختلف عن الفصل الذى يحتويهم فى المدرسة أو السقف الذى يظلهم فى المنزل.. كما يرضى ميلهم للتخفى والغموض الذى يريدونه .

وأكثر من هذا اللغة السرية التى يستعلمونها ، طريقة « مورس » فى الارسال والاستقبال .. الألف نقطة شرطة والياء نقطتان وهكذا .. طريقة التفاهم بالرايات أو المرايا التى تعكس اشعة الشمس . كل هـــذه تبعث فى الأطفال نشوة غريبة ، وتشعرهم أنهم نالوا حقا ما يبغون..هذه الثورة الخفية على السلطة ، كونهم يستطيعون أن يحتفظوا بأسرارهم وتقاليدهم ، ويوصلوا رسالاتهم بطريقة غير تلك التى يتفاهم بها الكبار فى المنزل أو المدرسة

هذه ثورة حقا ولكنها ثورة هادئة مفيدة ، وهنا يبدو فضل حركة الكشف . انا لم نقاوم طبيعة الاطفال بل تركناهم يكونون مجموعاتهم وبذا ضمنا ألا يحدث انفجار داخلى لا نراه نحن تترتب عليه أخطار هائلة .

ولكننا فى نفس الوقت ، ومن وراء الستار ، نحرك الخيوط كلها . . ننظم تقاليدهم ونكيف مايدور فى اجتماعاتهم ، ونقودهم نحن عن طريق ضم الرئيس الى جانبنا . وهكذا تصبح مجموعة الكشافة . . التى كان يمكن أن تكون عصابة مثيرة مقلقة . . نعمة لا نقمة ، فالأولاد مستعدون أن يضحوا فى سبيل تقاليدهم ، ولكنها تقاليد وضعناها نحن ، وتوخينا فيها الخير والشفقة ومساعدة الضعيف . وهكذا تجد الصبى منهم فى سن الثامنة والتاسعة يعرف أهمية الشرف ومسئولية القسم . تجده فى حفلة قبوله عضوا فى جماعة الكشافة يقف بملابسه الرسمية أمام العلم الخافق فى وسط الدائرة ، ويرفع يده فى ثبات وينطق بالقسم .. ، أقسم بشرفى أن أقوم بما يجب على نحو الله .. والوطن .. والملك .. ، وأن أعمل بقانون الكشافة .

ويأتى بعد هذا قانون الكشافة فيعدد الطفل نقطا عشر يعلن استعداده أمام رفاقه الصغار لان يقوم بها ويسير بمقتضاها مهما قاسى فى سبيل ذلك من الشدائد . ومن عجب أنك لو نصحت الطفل أن يقوم بواحدة من هذه النقط كالطاعة أو مساعدة أخيه الصغير لأدار لك ظهره وأبدى امتعاضه . ونكمل زميله الكشاف عند ما يقول :

« الكشاف صادق وشرفه موثوق به.. »

« الكشاف صديق لكل انسان . . وأخ لكل كشاف آخر ، مهما اختلفت جنسيته .. »

« الكشاف مطيع لما يصدر اليه من أوامر .. سواء أكانت صادرة من رئيسه أو معلم فرقته أو زميله الكشاف »

« الكشاف باش ، يقابل الشدائد بصدر رحب ويسر لها.. »

عندما يقول الطفل هذا هو يقصد حقا ما يقول .. وهو مستعد للتفانى فى اداء كل هذه الواجبات وغيرها لانها تبدو له فى ثوب من اللعب والتمثيل.. تبدو كما لو كانت قوانين فرضتها الجماعة الجديدة من زملائه الصغار الذين يود لو ينضم اليهم ليتمتع بامتيازاتهم . أما الحقيقة فهى أن هذه القوانين وضعناها نحن .. ولكننا لم نقدمها عن طريق النصح والارشاد المنزلى أو المدرسى فالطفل يكره دائما فى هذه المرحلة أن يساير البيت أو المدرسة .. وانما قدمناها بطريق اللعب. وهكذا يتشرب أفراد مجموعة الكشافة بمزاج واحد وآراء واحدة وطابع واحد . وهكذا يحسون أن للمجموعة اسما قد كونوه هم وأن من الشرف أن ينتسبوا اليه ولا يلوثوه .

وبعد كل هذا يأتى طفلنا ويبدى رغبته فى الانضمام للكشافة فنقول — « لا . الكشافة دى لعب . ! » سبحان الله .. !ولما لا تكون لعبا وقد رأينا ضرورة اللعب وكيف نستفيد منه ؟ . وبعد هذا ندهش ونتهم ابناءنا بالشيطنة، وعدم الطاعة اذ نراه قد تسلل من البيت دون أن يخطرنا ، وانضم الى أطفال الجيران ، وبدأوا يضربون مجموعة أخرى من أطفال الشارع المجاور بالطوب، أو ينظمون حملات لنهب الحديقة المجاورة وتسلق الحواجز وشجر المانجو. ويأتى طفلنا بعد هذا ممزق الثياب دامى الوجه من أثر العراك ، والأسوأ من كل هذا أننا نرتكب نفس الخطأ للمرة المائة فنقسم بأغلظ الايمان انا لن نسمح للطفل بالخروج للاتصال بهؤلاء الاولاد «المتشردين» ثانية ظانين أن

هذا علاج، والحقيقة انه بمثابة وضع البترول على النار. فأنت تدفع الطفل دون أن يشعر للتفكير فى حيل للخروج من المنزل مستعملا فى ذلك الدس والخديعة. وأعرف طفلا حبسره فى غرفة ففعل ما رآه فى فيلم سينمائى، ربط «الملايات» فى بعضها وثبت طرفها فى مزلاج النافذة وتدلى بالطرف الثانى الى الشارع. ولحسن الحظ كانت العقد متينة والعائلة تسكن فى الدور الثانى أى على ارتفاع ثمانية أمتار.

ماذا.. هل نخلق من أطفالنا لصوصا ونشالين بارعين؟ قد يقول القارىء ان هذه حالة شاذة وأنا معه فى هذا. ولكن الدافع الذى دفع هذا الولد للتدلى بطريق النافذة هو نفسه ما يدفع طفلك للتسلل من المنزل عن طريق للباب دون أن يخطرك. واذن فالمبدأ موجود.. وطريقة التنفيذ هى وحدها التى تختلف. هذه هى مرحلة العصابات فى صورتها السيئة اذا كنا لا نفهمها ونحاول كما يحدث فى بيوتنا المصرية أن نقمعها.

اللعب «صمام الامن»: معظم الآلات الضخمة التى تعمل بواسطة البخار

أو الوقود أو الكهرباء تحوى فى تركيبها ما نسميه صمام الامن بحيث اذا زادت الشحنة التى تسير هذه الآلة عما يحتمله هيكلها خرجت هذه الشحنة الزائدة الى الخارج بدلا من تجمعها فى داخل الآلة اذ قد يتسبب عن ذلك انفجارها.

وهكذا فى حالة الطفل.. له رغبات كثيرة وحاجات متعددة يتمنى لو يشبعها. ولكن عالم الحقيقة الذى يحيط به، والاشخاص الذين يتصرفون فى شأنه، يسببون له صدمات كثيرة. الطفل يريد شيئا ولا يجده فماذا يفعل؟ أعطته الطبيعة الرحيمة منفذا يهرع اليه كلما شعر بقسوة ومرارة عالم الحقيقة وبعده عن مطالبه. فالطفل «الوحيد» الذى لم يرزق أبواه أطفالا غيره يريد زملاء فى سنه وتفكيره وقوته فلا يجد. هذه مشكلة فماذا يفعل؟ يحلها عن طريق اللعب. تجده يأتى بزجاجات فارغة ويوقفها أمامه. ويظل يحدثها

ويتفاهم معها فى مشروعاته ، وينتقل بينها كأنما هو يخالط زملاء له فى اللعب . وبين حين وآخر قد يرهف أذنيه كأنما يسمع ما يرد به أحد هؤلاء الزملاء ثم يعلق على هذا الرد . هذه طريقة للهروب من المشكلة .. عن طريق اللعب

والطفل الذى يعامل معاملة قاسية خشنة فى المنزل ، ولا يسمح له بابداء رغباته أو اظهار أى سلطة ولو بسيطة ، يحل مشاكله هو الآخر عن طريق اللعب . يأتى بعلب فارغة مثلا وينسقها أمامه ، ويضع يده فى وسطه ويمثل دور الاب . وهنا يحدث أحد أمرين . إما أن يتكلف العبوس والسيطرة ليتمتع بهذه السلطة التى لا ينالها فى عالم الحقيقة ، فيلطم هذه العلبة بيده فتتدحرج الى طرف الغرفة ، ثم يركل الاخرى بقدمه فتتمزق أو صالها وتتطاير .. أو قد تحدث الحالة الاخرى فاذا به كله رقة وحنان ، وكأنما يمثل الاب كما يتمناه أو كأنما يتمتع بخلق حالة لا يراها تحدث أمامه بين أب وأولاده . هو يسيل رقة وعطفا .. يربت على هذه القطعة ، ويتناول تلك بين يديه ويقبلها ، ويعطيها قطعة ورق على اعتبار انها حلوى ، وهكذا يظل يستعطف الجميع . واذن فالطفل يفر من مشاكله عن طريق اللعب .

أو قد ترى الطفل يمسك « لفة » من القماش ، ويكورها على هيئة طفل رضيع ويظل يضربها ويسبها فى نبرات حانقة مهتاجة « يا صغيرة .. يا شخاخة .. يا اللى لسه بترضعى .. مدرسة ايه اللى تروحيها ؟ » ولو راقبته لادركت أن هذه اللفة التى يضربها تمثل أخته الصغيرة التى ولدت حديثا وانتزعت منه كثيرا من المميزات التى كان يتمتع بها قبل أن تولد . انتزعت منه حنان الام وعطفها ، وانتزعت مكانه على حجرها . وانكشف لها صدر الام بعد أن تغطى له طيلة هذه المدة الاخيرة . بل وانتزعت مكانه بجانب أمه على الفراش فقد أصبح هو الآن ينام وحيدا فى سرير صغير . وهكذا يجد الطفل نفسه محاطا بمشاكل كثيرة ومتاعب متعددة أصابته منذ ولدت أخته . وما دام لا يمكنه أن ينتقم منها بشكل مباشر فهم يمنعونه من الاقتراب منها فلينتقم فى ذلك الميدان الذى

يستطيع أن يتزعمه ويفعل فيه ما يشاء .. ميدان اللعب .

ويقص استاذى فى علم النفس قصة عن زيارته لعائلة لديها طفل صغير فى سن الرابعة . أخذ الاستاذ يتبسط مع الطفل فى الحديث ، ثم أتى بقطعة ورق كبيرة وجعلا يرسمان فى فرح وابتهاج . وسرعان ما لاحظ الاستاذ أن الطفل يرسم الرجال والاولاد رسما جميلا نسبيا بينما يشوه فى رسم النساء ويتفنن فى تقبيح وجوههن وأجسادهن بشكل واضح . وبالتدريج . وبعد أسئلة بارعة القاها كأنما بغير اهتمام ، اتضح له أن الام فى منتهى القسوة على الطفل وأنها قد قضت على شخصيته تماما . يسأل الاستاذ «اسمك ايه؟» فتجيب الام بسرعة «اسمه عزت . . مش ترد يا واد ؟ » ثم يدير الاستاذ الحديث ناحية اخرى بعدها يسأل الطفل «والصورة المعلقة دى صورة مين ؟ » وسرعان ما ترد الأم على الفور « هوه وأخته . . ديهده . . مش تتكلم يا واد ؟ » وهكذا تتتابع الاسئلة والردود من هذا النوع بما لا يدع للطفل مجالا للحديث أو لاثبات وجوده .

وتبسط الاستاذ فى الحديث ، وبدأ يقص قصة عن الحيوانات أخذ الطفل يتابعها فى شغف شديد : « أسد كبير وضخم . . وقوى . . ماشى فى الغابة وماحدش قادر يقف قدامه . كل ما يقابل حصان ياكله ، وكل ما يلقى كلب يعضه . يتخانق مع الجمل ويوقعه فى الميه . . وحتى الفيل هرب منه» . وهنا لا بد قد ادرك القارىء أن الطفل قد تقمص شخصية الأسد وبدأ يتابع حركاته بشوق واهتمام وكانها حركاته هو . واستمرت القصة « ولما يلاقى قرد ياكله » ، وهنا صرخ الولد فى حماسة «ولما يلاقى قردة كمان ياكلها . . ! »

هذا هو التعبير الذى استطاع به الطفل أن يفرج عما فى نفسه ازاء ما يعتمل فى داخله من حنق ازاء أمه . كلمة مثل هذه تستطيع أن تكشف لك خبيئة الطفل ، ولكنها لا تأتى من نفسها . لا بد أن تتبسط مع الطفل . . لا بد

أن «تفرد» نفسك أمامه، كأن تقص عليه قصصا .. وبالاختصار تضعه فى مجال اللعب ، وبذا تتملكه روح اللعب فيحاول أن يحقق فيه ما لا تمكنه الحياة وعالم الحقيقة القاسى من أن يتمتع به .. هلا فكرنا فى اللعب كمفتاح ذهبى جميل يرينا مشاكل الطفل التى تنغص عليه عيشه والتى خلقناها نحن دون أن نشعر ؟ أو أن ما يحدث هو أن تسأل الأم احدى الزائرات « فين اسم الله عليه بهاء ؟ » فتقول هذه بصوت المرتاح « أهو بيلعب » وكأنما هى مسرورة لأنه مغرق فى اللعب ولا يضايقها .. !

طفلك ايها القارىء وهو فى حالة ارتخاء وهدوء اثناء اللعب ، يكفى صندوق ملىء الى ثلاثة ارباعه بالرمل يرسم فيه ما يشاء ، أو بعض قطع من الصلصال يكورها فى يديه تبعا للاشكال التى فى ذهنه .. يكفى هذا أو ذاك لترى الطفل فى ضوء جديد قد لا يكون خطر على بالك مطلقا

مادة اللعب : بودى لو تركت القارىء لنفسه عدة لحظات يفكر ولو

بشكل سطحى فى مدى عدم الاهتمام الذى يصحب شراءه لعبه لاطفاله. يذهب اواحد منا للبائع : « هيه يا أخينا عندك إيه ؟ » ويعرض البائع بضاعته.. شىء بزمبلك وشىء من القش وثالث من الجلد .. لعبة تصفر .. وأخرى تهز ذيلها وهكذا. سأترك الاعتبارات المادية جانبا فهذا موضوع شائك وبعد هذا دعنا نتساءل ألا يحدث أحيا أن تفضل ما يروقك أنت ويبعث فيك الضحك ؟ هذه بطة تضع جناحيها فى وسطها فاذا ادير الزمبلك انطلقت تهتز وتتمايل .. وذاك حمار جحا يرقص ذيله وراكبه فى حركات لطيفه. و.. و.. بينما لا يستشار الطفل أثناء هذا بل يفرض عليه رأى الكبار ، وتأتى باللعبة الى الطفل فى المنزل .. اللعبة التى انفقت فيها نصف ريال بل خمسين قرشا وربما جنيها ، فلا تبقى معه يوما أو يومين حتى يكسرها أو يملها . أو قد تحفظها أنت فى دولاب بعد مرور اليومين .. لأنك تجد أن من الخطأ أن تتركها معه لئلا يفسدها وهى ثمينة بهذا القدر. وتبقى اللعبة الجميلة محفوظة حتى يأتى ضيوف فتعرض عليهم لتثير ضحك الكبار .. !

ولا ننسى ونحن نأتى بها أن ننحى باللائمة على الطفل « العفريت اللى وش فساد وما بخليش حاجه عدلة .. ! »

تصور ياسيدى . لم يحدث فى يوم من الايام أن غيرنا « الاسطوانة » وانحينا على انفسنا نحن الكبار باللائمة لاننا لم نات باللعبة المناسبة للطفل . نجد من الاسهل علينا أن نقول انا لم نأت بالطفل المناسب للعبة .. ! سبحان الله .. ، كأنما ميزان الطفل وأساس تقديرنا له اللعبة التى اشتريناها نحن بعشرات الفروش .. ! لقد أشرنا الى اهمية اللعب لتنمية مدارك الطفل وتهذيب دوافعه فهل لديك قائمة بأحسن انواع اللعب فى كل مرحلة من مراحل النمو لاستغلال مواهب الطفل ومداركه فى هذه اللحظة والوصول بها الى الكمال ؟ أو على أسوأ الفروض هل لديك قائمة بأردأ أنواع اللعب فى كل مرحلة حتى لا تشتريها لطفلك وهو ما نفعله مرارا ومرارا عديدة ونحن نظن أننا نتعب فى سبيل الطفل ونؤدى واجباتنا نحوه مع أن الحقيقة أنا نسىء اليه أيما اساءة ؟ .

ولكن ليرتح ضميرك فانا جميعا معرضون للخطأ . حتى رياض الاطفال .. مؤسسات يشرف عليها رجال التربية ، ويقوم بالتدريس فيها أناس متخصصون تسلمها أطفالنا فماذا يحدث ؟ يعلمونهم كيف يخيطون شنطاً ومفارش وغير هذا من اشغال الابرة والفتلة . . ! لنذكر أن هذا يحدث لأطفال فى سن الرابعة . . وهم يظنون أن هذا تسلية جميلة . ويغرهم سرور الاطفال بمنتجاتهم ومعروضاتهم ، وما يأتون به لآبائهم من الحقائب المبطنة بالاصفر والاحمر . وهم لو تدبروا قليلا لعرفوا أن الطفل فى هذه السن من الخطر الجسيم أن تسلمه شيئا دقيقا كشغل الابرة يتطلب غرزاً الى جانب بعضها بنظام ، وتركيزا لأعصاب اليد والعين فى شىء قريب . وكلنا يعلم أن نسبة كبيرة من الأطفال حتى سن السادسة لديهم طول نظر يولدون به ويتحسن بمضى المدة . وهكذا تخرج رياضنا أطفالا عصبيين . . يغمزون بعيونهم . . ويصابون

بالأرق فى الليل . . ويعانون قصر البصر بعد عشرة أو اثنى عشرة سنة . . !

ما يحتاجه الطفل فى السنتين الاوليين : الطفل حتى نهاية السنة الاولى لايحتاج الى أجسام كثيرة ليلعب بها ، ولاعجب فاعضاء جسده وعلى الأخص الفم تهيىء له ميداناً فسيحاً . وليس من النادر أن يقضى وقتاً طويلا فى المناغاة والدمدمة وترديد مقاطع مثل « لا لالالا » ، أو قد يصدر نغمات وأصوات مختلفة ويكرر أى كلمات يعرفها اذا كان يعرف فى هذه السن « ماما » ، « دن دن » وهكذا . وهو يشتق سرورا كبيرا من التلويح بذراعيه والرفس بقدميه ومحاولة المشى اذا كان لم يمش فعلا فيعتمد على قطعة من الاثاث يجذب نفسه الى مستواها واقفاً أو يدفعها أمامه . والطفل المتوسط شغوف فى هذا الوقت بالتمرن على المشى ممسكا باصبع أو رداء شخص كبير .

ومن الواضح أن الأم أو المربية لانشغالها بأمور المنزل لاتستطيع أن ترافق طفلها طول الوقت . ولكنها تودلو تهيىء له كل التمرين المستطاع والسرور الذى يحسه الطفل ازاء الحركة أو الحبو ، فكيف اذن توفق بين هذا وبين الاحتياط لئلا يقترب الطفل من مكواة ساخنة . . أو باب يغلقه الريح . . أو يتناول شيئاً من الارض ليضعه فى فمه ؟ . لعل أكبر مساعد للأم فى هذه الحالة مايمكن أن نسميه «السور المتنقل» وهو معروف لمعظم سيداتنا. هو عبارة عن سور مستطيل الشكل ثلاثة أمتار فى مترين به قضبان خشبية ناعمة وملونة ، ارتفاعه حوالى ثلث المتر . وهو خفيف الحمل يمكن نقله وتطبيقه ثم « فرده » فى مكان آخر . ويمكن وضع الطفل داخل هذا السور فى الشرفة أو الحديقة فى شمس الشتاء الدافئة ، مع الاحتفاظ بسجاد لين فى ارضيته

وهكذا يمكن الطفل أن يتشبث بأحد الجوانب ويقف ضاحكا فى نشوة وانتصار . ثم يجلس ثانية تاركا جسمه يسقط على الارض بصوت مسموع فيزداد ضحكه . . ولذا يكرر هذه العملية مرارا . وهذا المران للذراعين مفيد جدا للطفل فى اللحظة الحاضرة وفى المستقبل ايضا ، اذ يرفع

ثقل جسمه على عظام ساقيه التى لاتزال فى دور التصلب . وكثيراً ماينظر الطفل خلال فرجات السور الملون وهو جالس ويمد اصبعه ليلمس صديقه الكلب أو ليمسح فروة « بوسى » الناعمة اذ تقوس ظهرها لتمسحه أزاء السور . ويمكن أن تجلسه الأم على كرسيه الصغير ليغير الموقف . مع وضع لعبه الى جانبه على البساط .

ويمكن ربط بعض الشرائط البراقة الى اعلا أحد أركان السور حيث يتلاعب بها النسيم ، كما تعتبر الشخشيخة الكبيرة حتى هذا الوقت مجلبة للسرور ، مضافا اليها جرس يدوى ، ولو أن هذا الاخير يستحسن استعماله والطفل فى الحديقة حتى لايتعارض هذا مع أعصاب الكبار وأوقات راحتهم . ويمكن الاستعاضة عن الجرس بصبية من الصفيح وملعقة ليقرع بها . ويمكن مشاهدة مدى السرور الذى يشتقه الطفل من هذه اللعبة الأخيرة واضحا فهى تملأه شعورا باليسطرة .

ويسر الطفل بعد هذا بالعلب ، كتلك التى تستعمل للاحذية وتصنع من الكرتون ، او علبة من الصفيح الملون من النوع الذى يوضع فيه البسكويت ولها غطاء يمكن وضعه ثم نزعه بسهوله ، أو صندوق كبير من الخشب يمكنه ان يضع لعبه فيه . وفى كل الاحوال السابقة ينبغى ان يراعى الا تحوى الصناديق او العلب اى نتوءات او «خرفشة» او حروف او اركان حادة فى الصفيح .. ويمكن القارىء اذا اهتم ان يجد علبا مستديرة من الصفيح خالية من هذه العيوب . والواقع ان العلب والصناديق من كل نوع هى ثروة الطفل فى هذه المرحلة وخصوصا منذ منتصف السنة الثانية ، اذ ان مجرد عملية الفتح والغلق برفع الغطاء ورده ، ووضع اللعب فى الداخل ثم اخراجها واحدة واحدة تستغرق كل اهتمامه .

ثم ان الطفل شغوف بعد هذا بالحصول على اشياء يضعها فى الصناديق ثم يلقيها للخارج ثانيه . ومن المفيد جدا ان نقدم اليه بعض القوالب الخشبية من احجام مختلفة بحيث لا يقل اصغرها عن بوصتين لطول الضلع ، هذا

فضلا عن عدد من الحصى الملون أو الصدف الكبير الذى لا ينكسر بسهولة. وينبغى أن يراعى فى كل حالة ألا تكون احدى هذه القطع من الصغر بحيث يمكن وضعها فى الفم أو ابتلاعها . فاذا اعطيناه الى جانب كل هذا عصا ناعمة قصيرة ليدخلها ويخرجها من بين فرجات السور فقد اضفنا اليه لذة لا ينضب معينها.

فاذا قاربت السنة الثانية نهايتها فلعل اصلح اللعب دون منازع « الرمل » وهو اما من النوع الفضى النظيف أو رمل البحر الاصفر الناعم . وهو يستمر كتسلية محببة سنين مقبلة . فاذا وضع هذا الرمل فى صندوق فان الطفل يسر اذ يأخذ حفنة منه تسيل بين أصابعه ، أو يحركه بالعصا أو ينقله بالملعقة ليملا علبة أو اناء من الصفيح ثم يفرغه ثانية . وكل هذه الحركات تساعد أصابعه وذراعيه على أن تكون أكثر مهارة ومرونة ، فضلا عن السرور الذى تخلفه فى نفسه

يضاف الى هذا كرة ملونة من المطاط أو دمية من المطاط ايضا تصدر صوتا اذا ضغط عليها أو ضرب بها السور وهناك لعبة اخرى يبدأ الاهتمام بها فى هذه المرحلة المتأخرة من العام الثانى وهى مجموعة من الحلقات الخشبية يمكن اسقاطها أو تلقيمها على عصا مثبتة فى الرمل أو على قاعدة خشبية مستديرة . وتعود العلب لجذب اهتمامه هنا ايضا ، وهو يسر جدا لو زودناه بمجموعة منها من احجام مختلفة يدخل واحدة صغيرة فى اخرى كبيرة وهكذا . ويهمنا ان نؤكد ضرورة خلو هذه اللعب اللينة من الشعر فمن الطبيعى ان الطفل سيضعها فى فمه . كما لا يحتاج الامر الى شراء الاصناف المرتفعة الاثمان فحتى هذه المرحلة لا يستطيع الطفل ان يفاضل بن عروسة أو ارنب او قط مصنوع فى المنزل من قماش الفانلة اللين ومحشو بقطع القماش وبين نموذج متقن قريب من الحقيقة يعرضه صاحب الحانوت .

وينبغى ألا يغرب عن أذهاننا لعب الحمام .. كدمية او بط أو سمكة منفوخة من المطاط ، ويراعى بطبيعة الحال الا تكون الوانها من النوع الذى

يبهت فمن المؤكد أن الطفل سيمصها اثناء لعبه فى الماء . ولكن الامر لا يقتصر دائما على التمتع باستعمالها فى الحمام ، ففى ايام الصيف الحارة ليس هناك لعبة ادعى لإمتاع الطفل من طشت كبير من الزنك او دلو واسع يوضع فيه الماء ثم يلقى الطفل لعبه فى الماء ويسر للرشاش المتطاير او تموجات ودوائر الماء. او قد يدفع هذه اللعب لتسبح فى الماء أو ينقله بدلو صغير الى وعاء آخر وربما كان من المستحسن ان يرتدى الطفل اثناء هذا ملابس داخلية ومريلة من الكاوتشوك اذ كثيرا ما يحـــدث ان يجلس فى المكان الذى تناثر فيه بعض الماء .

واخيرا هناك لعبة المكعبات للتسلق ، وهى تهيىء له قدرا كبيرا من المران الحركى قد لا يتوفر فى غيرها . فاذا اختيرت بحيث يسهل حملها مع تدرجها فى الحجم فيمكن ان ننظم ثلاثا منها فى شبه سلم ، وكم يسر الطفل اذ يتسلق عليها ثم يقفز عائدا على كل منها او من الجانب اذا استطاع ، وعلى أى حال فليراع الا تعطى كل هذه الالعاب مرة واحدة . فالحصى والعلبة مناسبان جدا فى أول العام الثانى ، ثم يستعاض عنها بأخريين من الالعاب الاخرى حتى لا يمل الطفل من تكرر صنف واحد .

اللعب المفضلة حتى السادســـة : نود ان نفرق هنا بين اللعب toys وهى ما تنال اهتمام الطفل حتى دخول المدارس الابتدائية ، وبين الألعاب الفردية او الجمعية Games and sports التى ينغمس الطفل فيها بعد السابعة

ولقد رأينا كيف يستخدم الطفل اللعب فى أول الامر للاستفادة والكشف فهو يهزها ويجذب اطرافها ويمصها ويقضمها وهكذا يستكشف ماهيتها وطريقة عملها . فاذا كبر الطفل استخدم اللعب فى تقليد ما يراه عند الكبار وفى لعب الايهام . وقد افاض الباحثون فى ترتيب انواع اللعب التى يفضلها الطفل منذ الثالثة . ورأى بريد جز أن الطفل من الثالثة الى الرابعة يفضل لوحات خشبية بها ثقوب اسطوانية توضع فيها اسطوانات مختلفة القطر

ومساوية للثقوب ، كما يفضل الالواح الخشبية لاعمال البناء ، ثم قطع خشبية ملونة تلوينا براقا ممكن تكوين أزواج منها كل زوج يخالف الآخر فى الحجم ويرصها الطفل فى صفوف قوام كل صف زوج . ويلى هذا فى ترتيب الاختيار المكعبات الخشبيـــة للتصميم والتركيب ثم التخطيط بالطباشير على السبورة .

ويبدأ الاهتمام بالمكعبات بعد ارابعة ، وهنا يسمى الطفل ما يركبه من الأجسام ، وهى فى الغالب مأخوذة من بيئة الطفل ، ولعل أكثرها شيوعا المنزل وحظائر الدواجن . ويلى هذا اللعب بالرمل والارجوحة المستندة على سن من الوسط يجلس على كل طرف طفل فترتفع بواحدة مرة وتنخفض به أخرى ، بينما نجد الدمى والحيوانات والسبورات الخشبية هى أقل اللعب اثارة للاهتمام

وعلى العموم فاننا نستطيع أن نقسم اللعب فى المرحلة ما بين الثـــالثة والسادسة الى اقسام أربعة رئيسية ، ولو أن هذه الأقسام بطبيعتها متداخلة :

ا ـ اللعب التى تساعد على النمو الجسمانى : والكثير من الأشيـــاء العادية فى المنزل أو الحديقة ندخل تحت هذ النوع ، اذ يمكن استعماله للجذب والقفز اذا لم يتعارض هذا مع رغبتنا نحن الكبار فاذا اردنا أن نتدخل لمنع الطفل من استخدام القاعد والأوانى والوسائد فيجب ان نهيء له ما يحقق غرضه . ومن المفيد هنا أن نزود الطفل بصندوق قديم ثقيل يوضع فى الحديقة . ثم يؤتى بلوح طويل متحرك من الخشب يوضع طرفه على سطح الصندوق ويميل الطرف الثانى منحدرا الى الارض وبهذه الطريقة يتسلق الطفل اللوح ويقفز من الجانب الآخر أو ينزلق على اللوح الأملس . ولعلنا لسنا فى حاجة الى تكرار القول بضرورة خلو الخشب من السنون أو المسامير . وهناك غير هذا سلم صغير من النوع الذى يستخدمه العمال للصعود ، ولكن يراعى قرب العوارض الخشبية ، ويستحسن أن يثبت فى أول الأمر ثم يستعاض عنه بعد هذا بآخر خفيف بحيث يمـــكن أن يحمله

الأطفال.

وقد يحتاج الصغار فى لعبهم الى عربة يد خشبية خفيفة ينقلون فيها اخشابهم وقوالبهم . وللتمرن على الانزلاق يمكن أن نثبت لوحا بموازاة الأرض على علو قليل لكى يسير عليه الاطفال .

وتعتبر الارجوحة أحب الالعاب للطفل فهى تحقق رغبته فى الحركة الى آخر حد . ويمكن أن نعمل منها نوعا ثنائيا بعمدة قصيرة يرتكز على سن من الوسط كما سبق القول فاذا جهزت هذه اللعبة الاخيرة بخطافات من أسفل تعلق فيها أوزان فيمكن ان يتعلم الاطفال الاكبر سنا أن يزنوا بعضهم بعضا

فاذا كبر الاطفال قليلا حوالى الخامسة كان أحسن ما نقدمه لهم صندوق التسلق وهو عبارة عن عوارض خشبية ناعمة بعضها رأسى والآخر أفقى فيتسلقها الاطفال ثم يتعلقون منها . ويجب أن يكون قطر القضيب مناسبا لايدى الاطفال الصغيرة والبرواز كله ثابتا تماما وهكذا يصلح هذا « الصندوق » للعب عدد من الاطفال بمنتهى اللذة أوقات طويلة . فهم يتسلقون صعودا أو هبوطا ، مادين اذرعهم ورافعين ثقل اجسامهم عن سيقانهم وهى حركة مفيدة جدا وقد يتعلقون رأسا على عقب الى غير ذلك من الحركات . ومن المفيد أيضا وجود جذع شجرة ضخم ملقى على الارض ، يستعاض عنه فى مرحلة متأخرة بتسلق الشجر نفسه . كما يحسن اعطاء الاطفال كرات ليلقوها أو يضربوها بارجلهم أو بالمضارب ، وفى سن السادسة يعطون حبالا ليقفزوا بها وهم يجرون

ب ـ اللعب التى تساعد على تركيب الأشياء : منها خامات كالصلصال والجبس ثم أشياء تعد وتصنع خصيصاً لنفع الطفل ، وهذه أسهل استعمالا فى المرحلة مابين السنة الثانية والرابعة .. كالقوالب والبلى المثقوب وهكذا . فاذا تناولنا النوع الاخير وجدنا أن مثل هذه القوالب الخشبية من مختلف الأحجام والأشكال تصلح جدا لعمل أكوام . وبعد قليل تستخدم فى البناء . وبالطبع يمكن أن يفكر الوالدان فى أشكال متعددة تصنع من كتل الخشب كالمنشور

الثلاثى أو المحروط أو الاسطوانة أو المكعب . كما يمكن تسهيل العمل بالنسبة للطفل بان تزود هذه الأجسام بثقوب من الوسط يمكن أن يولج فيها الطفل

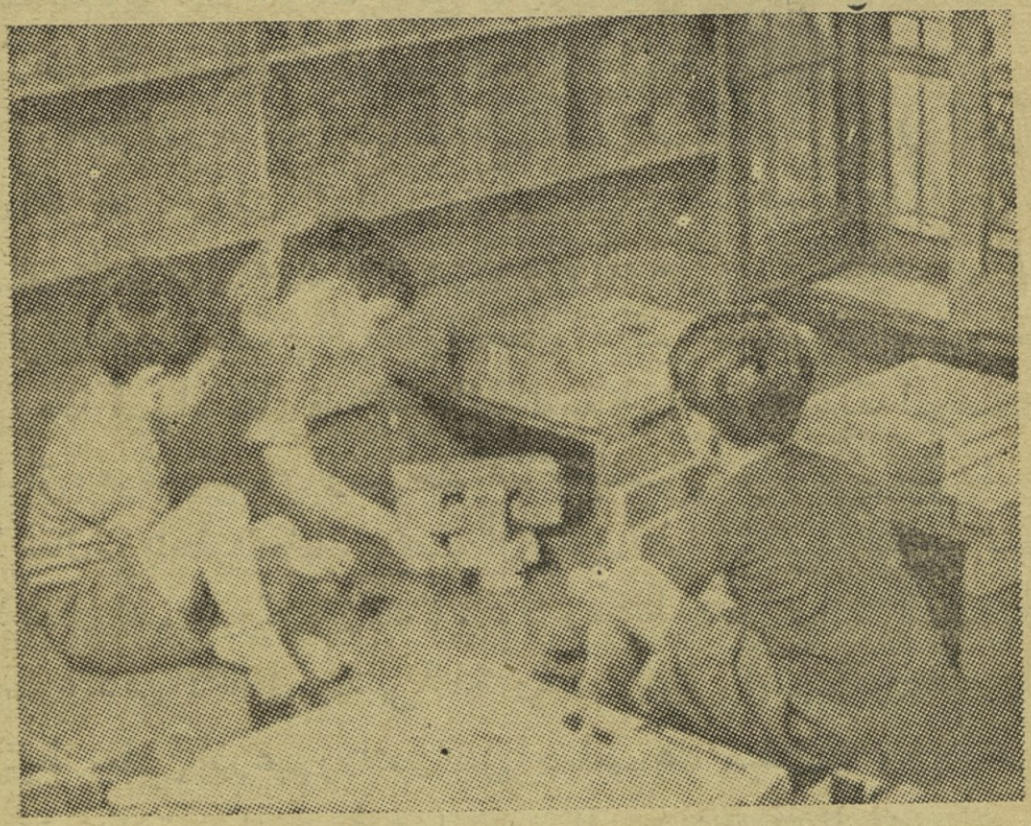

« أوتادا » مناسبة فى القطر لتثبيت هذه الاجسام لتيسير عمليه البناء . وهكذا سرعان ما نجد الاطفال فى مرحلة مناسبة يبنون « منازل » صغيرة لهم يمكنهم ان يجلسوا فيها ويزينوها بما يمكن أن يزودوا به من « خرز » كبير خشبى ملون (قطره بوصة أو أكثر) ينظمونه الى جوار بعضه البعض بأن يتحلله سلك أو « دوبارة » ويستحسن قرب نهاية هذه المرحلة الاستعاضة عن هذا « الخرز » الكبير بأحجام أصغر - وقد يصنع من الزجاج وينظمه الطفل فى خيط ملون أرفع قليلا من الدوبارة باستعمال مخراز يراعى ألا يكون سنه رفيعاً . أما « الميكانو » المكون من القطع ذات الثقوب تركب فيها المسامير و"صواميل فان كانت فائدته لاتقدر للأطفال الكبار الا انه لايجوز استعماله قبل السابعة فهو يحتاج الى دقة وتركيز لا ننصح بتشجيع الطفل على ممارستهما .

أما الخامات فأجودها بلا نزاع الصلصال ، حيث أنه يحتفظ بطراوته طيلة الوقت ، فاذ اعطينا الاطفال حتى فى مرحلة مبكرة كالسنة الثالثة قطعا منه فسرعان ما يشكلونه فى أصابعهم ويسرون بتسمية الاشكال المرتجلة أسماء قد تناسبها أو تقرب منها . وبعد مدة بجدهم يبدأون صنع أشكال للديدان أو الثعابين وحيوانات أخرى . ثم فى مرحلة تالية يعملون الفناجيل والأطباق فهى تفيدهم فى « لعب الايهام » حيث يمثلون زيارات ووجبات وما أشبه — ويخرجون من هذا كلما اتسع أفقهم الى صنع المنازل والمزارع والقوارب والعربات . وقد يدهش القارىء لو رأى ما يمكن أن يقوم به أطفاله فى سن الخامسة والسادسة ..! فاذا أعطيتهم قدرا كافيا من الصلصال الذى يجف ويتصلب بعد تركه بمدة فيمكنهم أن يعملوا بيتا أو مطبخا صغيرا تنظم فيه الأطباق والدوارق والاوعية بمختلف أنواعها . وببعض الارشاد البسيط يمكنهم أن يلونوها . كما يمكنهم أن يصنعوا نموذجا للحديقة أو الحقل ، مزينين الصلصال بالصـــدف والبلى الملون والعصى . ومما يساعدهم كثيرا أن ينالوا قوالب « مشرشرة » تقطع الصلصال ، أو أغطية مستديرة للعب ليعملوا منها اسطوانات مسطحة من الصلصال .

ومما يسبب كثيرا من السرور طيلة هذه المرحلة اللعب بالرمل والماء . بل ويمكن القول ان كوما من الرمل يوضع فى ركن مشمس من الحديقة لهو ضرورة من ضرورات الطفولة . فاذا كان هناك صنبور قريب للماء واعطى لكل طفل دلو و « جاروف » من الخشب مع تزويدهم بعربة اليد الخشبية الصغيرة فيمكن أن نترك أطفالنا فى هذه الجنة ساعات بأكملها فى يوم من أيام الصيف ، مع مراعاة أن تكون الملابس قليلة جدا أو من الكاوتشوك لو أمكن أو من أنواع قديمة بالية ، أو قد يتركون دون ملابس على الاطلاق بينما تغطى رؤوسهم بقبعات من القش .

والورق من بواعث اللذة فى هذه المرحلة أيضا . ويستحسن أن يكون فى أول الأمر من النوع الخفيف الملون لعمل الاعلام وملابس الدمى ، ثم وبالتدريج يحسن اعطاء الاطفال ورقا أسمك وأثقل لقص أجسام الدمى والمنازل . أما التثبيت فليكن بالنشا والعجين، فاذا كبروا فلا يخشى من استعمال الدبابيس للتثبيت . أما ورق الجرائد فهو مفيد لهذه المرحلة كلها ، ويستخدم فى طرق لا حصر لها، كذا يصلح ورق المطبخ الخشن الاصفر لعمل كتب تلصق فيها الصور - أو ما يرسمه الاطفال أنفسهم - بالنشا.

والطفل فى الثالثة شغوف باستعمال المقص . وهنا يجب أن نزوده بالنوع المستدير الطرفين . وهو هنا يتسلى بقص أو تمزيق أوراق الجرائد - أو اشياء ثمينة فى المنزل اذا لم نزوده نحن بالمادة المناسبة - وبعد وقت قصير نجد أن ما يثير اهتمامه صور للسيارات أو الطائرات يجدها فى الكتالوجات فيقصها ليلصقها . فاذا بدأ الطفل فى الحياكة فيجب أن نعطيه أولا قماشا ثقيلا به ثقوب واسعة كما نزوده بمخراز غير مسنن وشريط ملون مناسب فى الحجم. وبعد هذا ينتقل الطفل الى قماش رخيص لين من القطن فيعطى قطعا كبيرة منه (يمكن استخدام قماش من رداء قديم مستهلك) ، وسرعان ما يستطيع الطفل أن يصنع ببعض الارشاد ستائر أو فوط يزينها بالخرز الكبير أو بغرز واسعة . فاذا سمحنا للاطفال أن يستعملوا هذه الاشياء التى يصنعونها فمن الممكن فى سن مبكر ، حوالى الرابعة أو الخامسة. أن ينجحوا فى عمل مرايل ومناديل وأوشحة وستائر . وهى وان كانت ركيكة الصنع مضحكة بالنسبة لنا الا انها تؤدى عملها وتسبب لهم سروراً كبيراً وشعوراً بالقوة والابتكار كذا يعشق الاطفال أيضا النسيج فى سن الخامسة والسادسة ، ويتهيأ لهم هذا على أنوال صغيرة من الكرتون وباستعمال الصوف الملون .

ويمكن ببعض الرقابة والحذر والتدخل فى بعض الاحيان أن يستخدم طفل الخامسة والسادسة المنشار والمطرقة و المسامير . ومن المهم هنا اختيار

الثقل والاحجام المناسبة . وان مجرد طرق المسامير فى الخشب لهو فى ذاته عمل مشوق للطفل الصغير . ولكن اذا أعطى قطعا مختلفة الاطوال والسمك من الخشب ، وشريطا طويلا من الشمع الملون ، وعددا من «البكر» لاستعماله كعجلات ، فسرعان ما يبدأ الطفل فى عمل جسم معين كالطائرة أو السيارة أو عربة اليد الصغيرة ، بمنتهى الخشونة بطبيعة الحال .

فاذا أردنا أن نشبع رغبة الطفل فى الرسم والتلوين فلنراع اختيار سبورة من حجم كبير ، على الاقل أربع أقدام فى ثلاث ، تثبت على الحائط على ارتفاع مناسب ويزود الطفل بطباشير ملون ، فاذا تأثر لون السبورة فيمكن اعادته بخليط من الغراء والدقيق وبرادة الحديد ، مضافا اليه قدر من ثانى اكسيد الكربون - الهباب - المتصاعد من المصباح . كما يمكن استخدام الورق الملون بدلا من السبورة والورق الابيض للرسم بالرصاص . ويستحسن ان تكون الاقلام من النوع الغليظ المستعمل بواسطة النجارين . أما اللون فيستحسن شراء النوع السائل منه وهو مجهز فى علب صغيرة فهذا أحسن كثيراً من القوالب الصلبة التى تحتاج للمزج بالماء . ومن أحب الاعمال للاطفال ان يلونوا مناضدهم وكراسيهم وعلبهم باللون « الحقيقى المستعمل فى المنزل » ويراعى بطبيعة الحال أن يتم هذا خارج المنزل ، بينما يلبس الاطفال ملابس عديمة القيمة ، كما يوضع الى جوارهم قدر من « التربنتينا » لتنظيف اليدين بعد الانتهاء من التلوين .

وقد يستيقظ الوالدان بعد فترة نوم قصيرة بعد الغداء فاذا بالاطفال يتصايحون فى مرح وابتهاج ، ويعملون فى استغراق واهتمام شديدين ، وتناهى الى أسماعهما من ركن الحديقة صوت المطارق تعلو وتهبط على قدر ما تسمح به قوة الصغار ، والعربة تفرغ حمولتها من الرمل لتعود لتملا من جديد ، والخشب يصر تحت ضغط المناشير التى يتعاون الاطفال على تحريكها بشىء من المشقة . ويقترب الوالدان فاذا العمل قائم على قدم وساق . هذا يقص ويعطى لمن يلصق ،

وذاك يركب النشا أو يعد الدبابيس ، وثالث يلون وقد تلطخت يداه ؛ وهكذا تدخل كل هذه المواد التى ذكرناها فى « مشروع » ضخم كحظيرة صغيرة لتربية الدجاج أو الأرانب ، أو منزل صغير للعروسة بما فيه من دولاب وفراش وغرفة للمائدة .

ولا عجب فالصندوق الكبير القديم يصلح لأن يكون منزلا ، وقد تتناوله بعض الاقتراحات والتعديلات فتقام فى جوانبه بعض الشرفات وتزرع أمامه حديقة جميلة تقسم الى أحواض وترصع طرقاتها بالصدف الملون . ولا بد من تنظيم العمل بطبيعة الحال والتعاون فى تنفيذ الاقتراحات التى تدل على كثير من الابتكار ، كما أن من الضرورى أن يتوفر الصبر والمهارة الحركية ، وهذه من مميزات اللعب .

ثم يقسم الصندوق من داخله الى غرف بأواح من الخشب أو الورق المقوى ، وتغطى « الجدران » بأوراق الحائط الملونة التى يجب أن تتوفر للاطفال ، كما تزين بالصور المرسومة بالرصاص أو الملونة ، وهنا نجد فرصة جميلة للتربية الجمالية وابراز الذوق الفنى الذى يملك منه الطفل بفطرته أكثر من الكبير الذى لم يصقل . ثم يأتى الغراء أو النشا او العجين ليلصق علب الكبريت بطرق مختلفة فتتكون منها مناضد وكراسى ودواليب وأدراج . ثم تقص الستائر وأغطية الفراش من الورق المقوى الملون أو من قماش الموسلين تزينه وتثبته غرز واسعة من خيوط ملونة ، ويشكل الصلصال أو الشمع ليصور المصابيح والأوعية وأدوات الطعام وقطع الاثاث مرصعة بقشور البندق .

وهكذا تنفسح ميادين عديدة للعمل المنتج اللذيذ لتأثيث وتزيين « بيت الدمية » . فاذا استمر الأطفال يضيفون اليه ما يستفيدونه كلما اتسع افقهم فقد يظل « مشروع » مثل هذا يخلب ألبابهم أعواما قادمة . ولكن كل ما تقدم عرضه من الطرق يجب بطبيعة الحال ألا يفرض على الاطفال أو يعطى « كدروس » .

اللعب التى تستخدم فى الايهام : ومنها اللعب العادية التى يحظى بها معظم الأطفال ، كالدمى والقاطرات بمحطاتها وسيمافورانها ، والسيارات والطائرات وهكذا . وليس من الضرورى أن نشترى للطفل لعباً غالية الثمن فى كل سن . وصحيح ان الطفل فى عامه السادس يود لو يحصل على نموذج من الصفيح الملون مثلا قريب الشبه جدا من الحقيقة ، ولكن أخاه الاصغر بسنتين يشتق نفس اللذة من قاطرة خشبية ركيكة الصنع قد يقوم الوالد بصنعها بدون كبير اهتمام ، تماما كما تقوم الام بصنع العروسة من القماش . أما الطفل فى سن الثالثة فيسره جدا أن يحصل على سفينة نوح وعلى ظهرها عدد من ضروب الحيوان . واللعب الخشبية بوجه عام أحسن من الصفيح لأن الاولى تعيش أكثر ويمكن أن تكون خالية من الحروف والاسنان .

وهذا القسم أيضا يحوى المقاعد والمناضد التى يعمل منها الاطفال قطرا أو انفاقا ومنازل وحوانيت وما أشبه ، فهى جزء من « لعب الايهام » ، كما يحوى أشياء كثيرة مما يستغنى عنه الكبار فيسارع الصغار الى اقتنائه كالشرائط والازرار والوسائد الممزقة والحشيات والخرق التى تستخدم فى تمثيل « المنزل » وأجزاء الساعة ، وغير ذلك .

اللعب التى تستخدم لزيادة المعرفة : ومنها الأجهزة ذات الاشكال والأحجام المنتظمة ، ويقصد بها توسيع أفق الطفل . ويدخل ضمنها مجموعة المكعبات المتدرجة التى توصى بها الدكتورة مونتسورى لعمل البرج ، وتتكون من عشر مكعبات ، ثم المجموعات الاسطوانية المتدرجة فى الارتفاع والقطر ، ولوحة الاشكال وبها ثقوب على قدر الاجسام المربعة والمستطيلة والاسطوانية والمخروطية . وهكذا يضع الطفل كل جسم فى الفتحة المخصصة له . ثم « البرواز الحسابى » وبه أسلاك أفقية تتدرج فيما تحمل من خرز من واحدة الى عشرة بحيث يمكن أن يضيف الطفل أى عدد منها أو يقتطعه حسب الحاجة . ويماثل هذا الجهاز الاخير مجموعة القضبان الخشبية المتدرجة الطول من واحد الى

عشرة سنتيمترات أو بوصات ، ثم المقاييس أو الموازين على اختلاف أنواعها ولكن فى احجام صغيرة . ولعل «أجهزة مونتسورى» «وهدايا فروبل» تزود القارىء بمعلومات وافية فى هذا السبيل .

وأخيرا وقبل أن نترك موضوع اللعب يهمنا ان نؤكد للقارىء أنه كلما راعينا الاقتصاد فى النفقات واعتمدنا على «النجار» المجاور لتكييف ما يناسب طفلنا بالذات.. كلما تركنا اللعب حراً من تقييداتنا وتدخلنا حتى ولو استخدم الاطفال اللعبة فى غرض مخالف لما وضعت من أجله ، كلما اقتربنا من توفير القيمة الكاملة للعب.. هذه القيمة التى قد لا يكون اقلها اشباع نشاط الطفل « للتجريب » الذى لو تركناه يمتد الى ما فى منازلنا لعد «تخريبا» يصاب فيه الطفل بأشد العقوبات وينغص علينا كثيرا من وقت الراحة .

اللعب فى الطفولة المتأخرة والمراهقة : لدينا من أنواع النشاط اللعبى بعد السادسة ثلاثة : الجمع والاقتناء ، والألعاب الفردية والجمعيه ، والمسليات

الجمع والاقتناء : ما يجمعه الطفل فى سنى الطفولة الاولى هو فى العادة تافه عديم القيمة . وسرعان ما ينسى الطفل ما قد وضعه فى جيبه أو فى ركن فى غرفة لعبه . ولكن بعد السادسة يصبح الجمع ميلا قويا . والبنات هنا أكثر اهتماما بالاقتناء من الصبيان . ويصل هذا الميل الى ذروته فى السنة العاشرة للذكور والحادية عشرة للبنات ، مع فروق فردية تعتمد على الذكاء فالطفل الذكى ينتهى من هذه المرحلة قبل زميله الاقل ذكاء . وتحفظ المجموعات فى أماكن أمينة كالحصالات أو الادراج أو السلال .

ويبدأ الصبى هذه المرحلة باقتناء ما يقع تحت يديه ويثير اهتمامه . وبالتدريج تتحدد نظرته ويقل ما يجمعه . فبعد ان يبدأ الولد بجمع البلى والمجلات القديمة والعلب الصغيرة والازرار فى سن السابعة ، ثم الطوابع والمجلات المضحكة المصورة والاحزمة من الجلد أو المطاط فى الثامنة نجده فى الرابعة عشرة يتحدد اختياره للطوابع النفيسة والعملة الوطنية والاجنبية وعينات من

العمل المدرسى المتقن، و برامج دور الخيالة والمسارح والخطابات التى يتسلمها والصور والتذكارات .

ثم تأتى مرحلة المراهقة فتحمل معها رغبة واضحة فى جمع اشياء شخصية تحقق ميوله هو ، وكثيرا ما تجد الفتى فى السادسة عشرة والثامنة عشرة يحمل ألبومات تحوى صورا لابطال وبطلات السينما الذين يعجب بهم خصوصا لو كان يزينها امضاءاتهم أو كلمات اهداء ، كما ترى ابناء الالعاب الرياضية وصور ابطال الرياضة العالميين ، ثم مجموعات من الحشرات والحفريات كالفراش واوراق الاشجار والريش والاصداف ، والصور فى حجم «الكارت بوستال» تحمل مناظر مأخوذة فى بلاد اجنبية .

الالعاب الفردية واجمعية : حوالى سن الخامسة يتجمع الاطفال فى مجموعات صغيرة غير متناسقة ليلعبوا العابا بسيطة ينظمها احد الكبار أو أحد زعمائهم . وهى لاتحمل من القوانين والشروط الكثير ، ومعظمها تعمل فى حلقات «كالقط والفأر» و«ابحث عن المنديل» و «ياعم ياجمال» وهكذا

فاذا بدأت مرحلة المدارس الابتدائية تدخل عنصر المنافسة وتجمع فى اللعب عددا اكبر ، بينما يتراجع اللعب الفردى الى الظل . ويعتمد اللعب هنا على المهارة والتفوق العضلى والاتزان . وهنا نرى الصبيان يتبارون فى القفز الطويل والعالى ، وإلقاء الاحجار ، ويلعبون البلى ويطيرون الطائرات . ويلاقى الولد فى أول الامر صعوبة فى الامتزاج فى اللعب الجمعى فهو لا يزال فردا لا يخضع بسرعة للقواعد ، ولكنه سرعان ما يشترك فى سباق «التتابع» فيدور حول الحلقة ولا يخترقها من الوسط ليختصر المسافة .

فاذا جاءت مرحلة البلوغ اعتزل الغلام ميدان اللعب قليلا ثم عاد ليلعب ألعاباً منظمة جدية تخضع للكثير من القوانين من حيث الملابس المعينة لكل لعبة ، والمكان كالنادى أو الملعب المنتظم ، ثم قواعد اللعبة . وهنا نجد الفتى يندمج فى ألعاب كثيرة ككرة السلة والبيس بول والفولى وكرة القدم والتنس

والسكرة الطائرة وتنس الطاولة ، وألعاب القوى كرمى القرص والجلة والرمح والقفز بالزانة والمتوازيين والعقلة والحصان .

وكلما قارب الفتى نهاية المراهقة قل الزمن الذى يستطيع أن يصرفه فى اللعب اما لمطالب العمل والحصول على القوت أو لضغط الدراسة فى الكلية فيتخير الشاب لعبتين أو ثلاثا مما يتفوق فيه ويركز اهتمامه فيها كلما انفسح له المجال ، ويصحب الابتعاد عن الالعاب الجسمانية زيادة الاهتمام بالالعاب الذهنية كالشطرنج وحل الالغاز والالعاب السحرية والمسابقات البوليسية والحسابية واللغوية .

المسليات . ونعنى بها نوع اللعب الذى يتخذ فيه الفرد موقفاً سلبياً ، فهو متفرج يتسلى بما يعرضه الآخرون . وهذا النوع يعتمد على القراءة والمذياع والافلام السينمائية .

١ - القراءة : منذ السنة الاولى يسر الطفل كثيرا لسماع الغناء والاناشيد البسيطة ، وخاصة أثناء أرجحته فى فراشه قبل النوم ، ولدى أمهاتنا الكثير من هذه الاهازيج الشائعة يتناقلها الصغار عن الكبار ، وحوالى سن الثانية يتسلى الطفل بالنظر الى الكتب المصورة التى تضم صورا كبيرة ملونة تلويناً براقاً لاشخاص وحيوانات وأثاث منزلى مألوف . فاذا صحب النظر للصورة قصة بسيطة قصيرة عنها يخترعها الكبير من وحى الساعة كان سرور الطفل كبيرا .

والكثير من قصص الطفولة حتى سن السادسة لطيف جدا يتبعه الطفل بشغف وشوق . وبما أن معظم اهتمام الطفل هنا ينصب على الطعام واللعب فهو يسر كثيرا لقصص « الشاطر حسن » الذى يذهب الى بلاد غريبة بيوتها مصنوعة من البسكويت وموائدها من الحلوى الشهية ، ثم تعطيه « الغولة » بيضة من الذهب وهكذا . ثم ان الطفل لكونه حتى هذه المرحلة لا يفرق بين الحيوان والانسان والاجسام فى الحياة والحساسية فان القصص التى تدور حول الذئب الذى يتحدث والمرآة التى تجيب عن الاسئلة ، والنهر الذى ينصح

البطل نصيحة مثمرة يتغلب بها على ما يعترضه من أخطار ، كل هذه مصدر جميل للذة . والحق أن عنصر المخاطرة هنا هو سيد الميدان ، فالطفل يقرأ ويسمع .. ويثبت عينيه فى نظرة حالمة ليتصور نفسه يقوم بأدوار البطولة فى عالم براق .

فاذا كبر الطفل قليلا ، ما بين السادسة والسابعة ، قرأ كتباً وقصصاً عن الطبيعة .. كالريح والطيور والاشجار والزهور . وهنا رغبة بادئة فى قراءة القصص الخيالية ، ولكنها هنا يجب أن تكون قصيرة ، بسيطة ، ومعظمها قائم على الحوار محلى بالصور .

أما القصص الخيالية المصقولة فتأتى فى المرحلة التالية حيث النزعة للمخاطرة مسيطرة على صبى الثامنة ، فهو اذ تحمله القصة الى بلاد نائية غريبة الاطوار والتقاليد يتوهم أنه يقوم بهذه المغامرات التى يمنعه عالم الحقيقة عن القيام بها فقصص ألف ليلة وليلة المبسطة وعلاء الدين والمصباح أو الكنز تلذ له كثيرا . ولكن تدريبه الذهنى فى المدرسه سرعان ما يقيد هذه النزعة الخيالية فيترك الطفل هذه القصص حوالى التاسعة . وهنا تبرز قراءة قصص عن حياة الصبيان وحركة الكشف والرحلات .

وتأتى السنة الحادية عشرة والثانية عشرة برغبة حادة فى قراءة القصص البوليسية والشراك والاسرار ، ثم العلم والاختراعات وبعد هذا تبدأ فترة الاعتزال اذ تحل مرحلة البلوغ بتغيراتها الجسمية وثوراتها الانفعالية . فاذا خرج منها الغلام حلت فترة « الاعجاب بالبطل » فيقرأ الفتى كتبا عن أبطال التاريخ والأساطير القديمة اليونانية والرومانية ، يضاف اليها تواريخ حياة عظماء المستكشفين والسياسيين والعلماء والمخترعين ، بينما تهتم البنت بقراءة كتب تختص بالمنزل وقصص دينية .

وفى الرابعة عشره تظهر المجلات كعنصر هام للقراءة ، وتبرز القصص العاطفية وأعمال البطولة والاختراع والاسفار . ويبدأ اهتمام الفتاة بالشعر

والقصص التمثيليـــة . وبالتدريج تنمو مادة القراءة نحو تلك التى تحتكر فراغ الكبـار .

٢ — الافلام السينمائية : يفضل الصبيان من السادسة الى التاسعة الأفلام المضحكة والمتحركة كميكى ماوس والاميرة والاقزام السبعة، ويروقهم كثير أن يروا الاطفال والحيوانات يظهرون أمامهم على الشاشة. وبعد هذا يفضل صبيان العاشرة حتى الثانية عشرة أفلام المخاطرات كرعاة البقر وطرزان ويقل اهتمامهم بالكوميديا .

أما عصر المراهقة فهو عصر الشوق والتلهف للسينما دون منازع . فهى اذا توفرت فى البيئة تصبح عاملا هاما يلون حياة الفتيان والفتيات . ونلاحظ أن عنصر النقد هنا للرواية والاخراج يبدأ فى الظهور فى شىء من الحدة والصرامة وخاصة فى الافلام الغرامية والمتطرفة فى عواطفها . ويميل الفتيان هنا الى الأفلام البوليسية والغرامية والحربية أكثر من الاجتماعية والمآسى والروايات الثقافية .

ومن المؤكد أن تأثير الأفلام السينمائية على حياة الاطفال والمراهقين واضح جدا ، فهو فى الاولين تأثير انفعالى يتمثل فى الخوف من المواقف الحادة اثناء العرض ، الخوف الذى ينتهى بالكابوس والأحلام المفزعة والأرق فى الليل . كما يبدو فيما يصيبهم من فزع لدى حدوث مواقف عادية فى النهار لانستطيع أن نرى لها سببا واضحا لأن ارتباطها بالمواقف السينمائية بعيد عن تفكيرنا . وكثيرا ما يعانى الصبيان الاجهاد البصرى بعد تعب اليوم كله فى المدرسة أو اللعب ثم مشاهدة عرض فلم فى المساء .

أما المراهقون فتأثير الاشرطة السينمائية والتمثيليات أوضح بكثير ، ويتمثل فى الخطابات التى يرسلها الفتى للنجمة التى يعجب بها ، ورغبة الفتاة فى اتخاذ التمثيل طريقا للمجد والشهرة . كما انا نرى المراهق يملا جدران حجرته بصور أبطال وبطلات الأفلام ، كما يشترى الكثير من المجلات التى تعرض

الافلام الاسبوعية المقبلة . وهو فى حياته يقلد الملابس وطريقة تمشيط الشعر والمشية وتلويح الذراعين ونبرة الصوت واللوازم الكلامية التى يراها فى النجوم السينمائيين .

٣ — المذياع : هو مصدر حديث للتسلية ولكنه قد أضحى يحتل بينها مركزا ممتازا فى السنوات الاخيرة . ولقد طغى الآن على الالعاب التى تقام للتسلية فى داخل المنزل كالالغاز وأوراق اللعب « الكوتشينة » وغيرها . وهو يلعب دورا خاصا بالنسبة للمراهقين فهم يدعونه مفتوحا طيلة وجودهم بالمنزل ، بل هم يصرون على هذا حتى اثناء الاستذكار ، بدعوى انه يساعدهم على العمل . وقد وجد ايزنبرج فى تجربته على ٤٠٠٠ آلاف طفل فى نيويورك أن البرامج المفضلة هى التمثيليات ، والموسيقى (العامة) وقصص المغامرات والاسرار ، والاغانى ، والنكات . وقد اتضح أن نسبة قليلة لدرجة تدعو للعجب فضلت الجاز والموسيقى الراقصة ، والاوبرا والالعاب الرياضية ، والقصص الغرامية والبوليسية .

وأخيرا هناك الحيوانات المنزلية المدللة كالكلاب والقطط . والواقع أن الاطفال جميعا يحبون أن يلعبوا بمثل هذه الحيوانات . ولكن يلاحظان هناك لحظات يبدو فيها الميل لتدليل الدواجن أو الطيور أو الحيوانات المنزلية على أشده ، وهذه الاوقات هى تلك التى تتميز بتوتر انفعالى كالطفل وهو فى الثالثة أو الرابعه حين يخرج من مرحلة اللعب المعتزل الفردى ويبحث عن أصدقاء ، فاذا لم يتوفر له مايريد فكثيرا ما يجد فى الكلب الاليف بديلا . ويتكرر هذا فى مرحلة البلوغ حيث الغلام سريع الحساسية جدا يشعر أن الجميع لا يفهمونه ويتجمعون ضده ، هنا أيضا يجد فى الكلب نوعا من الوفاء والاخلاص مما يجذبه اليه كثيرا ويحدث أحيانا أن يتحول الدافع الجنسى اذا لم يجد فى البيئة اشباعا مشروعا الى نوع من الحنين الشديد لمثل هذه الحيوانات أو الدواجن . ويشاهد هذا كثيرا عند الآنسات اللاتى ظللن عانسات وقد تقدم

بهن العمر ، أو السيدات اللاتى لم يوفقن فى حياتهن الزوجية .

وبعد فنوع اللعب ومداه يتأثران بعوامل متعددة لعل على رأسها الصحة فالطفل الصحيح الجسم يختزن حيوية دافقة تزيد عما ينفقه فى مطالبه الاساسية للحياة ولذا ينفسح أمامه ميدان اللعب . ويبدو هذا فى احجام المراهق اثناء فترة الاعتزال عن اللعب العنيف الذى كان يمارسه فى مرحلة العصابات ، واكتفائه بالقراءة ، فهو سريع الاجهاد .

وهناك أيضا عامل الذكاء ، فالاطفال الذين أوتوا حظا أكبر من الذكاء هم أكثر نشاطا ، كما أن ألعابهم يبدو فيها التنوع والبدائية . وانا لنجد الطفل الذكى يخرج مبكرا حول السنة الثانية من مرحلة اللعب الحسى الجسمانى الى الايهامى والتقليدى وذلك لتوفر عنصر الخيال والتصور وادراك العلاقات .

ولكن بازدياد العمر العقلى بعد هذه السن يقل تنوع النشاط اللعبى ، وعلى الاخص ذاك الذى يتجه ناحية اجتماعية ، ويميل الطفل الذكى جدا الى اللعب وحده ، وهو يجد فى القراءة ما يرضى ميله الى حد كبير ، مفضلا فى مرحلة متأخرة الاطلاع على القواميس والاطالس والانسيكلوبيديا وكتب التاريخ والعلوم والشعر . وعلى العموم فهو قليل الاهتمام بالمباريات ويفضل عليها الالعاب الذهنية كألعاب الورق ، والشطرنج ، والألغاز ، وهو يسر للدعابة والنكات بفضل سرعته لادراك العلاقات . كما انه اذا اختار رفاقا فى اللعب فهم فى الغالب أكبر منه سنا .

فاذا انتقلنا بعد هذا الى عامل الجنس وجدنا انه ليست هناك تفرقة واضحة بين الالعاب فى أول الأمر ، ولكن منذ الثامنة تتحدد العاب الاولاد وتنحو البنات ناحية مخالفة . وعلى العموم فالعاب الاولاد أكثر عنفاً وأقل خيالا .

والبيئة هى الأخرى عامل هام ، ففى الاوساط الفقيرة نجد فرصة الاطفال للخروج من منازلهم الضيقة والتجمع مع زملائهم فرصة كبيرة ، ولكن يقابل

هذا ضعف صحة الصغار وقلة الامكنة الصالحة للعب الجمعى فضلا عن كونها قاحلة لا تمنح الكثير من الادوات المناسبة .

والواقع أن النقطة الاخيرة .. مادة اللعب .. لها خطرها هى الاخرى ، فالطفل يلعب بما يعرض له . وهكذا اذا سادت الالعاب البنائيـــة كالرمل والمكعبات والصلصال ساد النوع الانشائى ، بينما الدمى والجنود والقطارات تعزز الناحية الخيالية . ويرى بعض المربين أن قلة الاجهزة تمهد للعب الصغار بالرمل والطين وازدياد الالعاب الجسمانية والاتصال الاجتماعى ، كما أن الطفل يكون أدعى للتصرف ليعوض نقص هذه الادوات . أما اذا تعددت اللعب قل الاتصال الاجتماعى ، ولكن يقابل هذا قرب السلوك من الخلق الحميد وازدياد الادراك والمعرفة .

وأخيرا فهناك وقت الفراغ ، وهو يحدد بطبيعة الحال مدى الاستغراق فى اللعب ونوعه ، فالطفل المتعب من العمل المدرسى أو اليدوى يقبل على العاب أكثر هدوء ، وواضح أن نسبة الفراغ تعتمد الى حد كبير على المستوى الاقتصادى للعائلة .

الفصل السابع

النمو اللغوى

نعنى هنا الكلام لا اللغة بمعناها العام ، فاللغة هى أية وسيلة من وسائل الاتصال يرمز فيها للفكرة أو الاحساس فينتقل المعنى للطرف الآخر . وقد تكون هذه الوسيلة كتابية أو كلامية أو تنطبع على الوجه فى تعبيراته أو تبدو فى حركات الايدى أو الوسائل الفنية فى الرسوم والتماثيل . ومن هنا نجد الكلام أحد أركان اللغة لا مرادفا لها ، وهو وسيلة حبا الله بها الانسان دون غيره من المخلوقات .

وليس كل ما يصدره الانسان من أصوات يعتبر كلاما . وهذه نقطة هامة فى حالة الطفل اذ نحاول أن نحدد متى يبدأ الكلام . فلكى « يتكلم » الطفل عليه أولا أن ينطق اللفظ بحيث يفهمه لا أولئك المتصلين به باستمرار واذا يدركون ما يريد لاقل اشارة فحسب ، بل والغرباء أيضا .. وثانيا أن يفهم هو معنى الكلمات التى ينطق بها ويربطها بما يمثلها من الاجسام اذا كان يتحدث عن أحدها . فلفظ « دادا » يجب ألا يستعمل الا ليعنى به الطفل شخصا معينا ـ اذا كان يقصد حقا ـ لا كل شخص تقع عليه عيناه ـ ولفظ « كو » يجب أن يقتصر على الكرة لا أى لعبة بوجه عام . واذن فالكثير من عبث الأطفال يحقق الشطر الثانى من مميزات الكلام حيث انه يعنى شيئا معينا من وجهة نظر الطفل ، ولكنه لا يحقق الشطر الاول فهو لا يعنى بالنسبة لنا شيئا .

ويلاحظ أن الطفل يتعلم الكلام تبعا لمطالبه وحاجاته ، فاذا كان يحصل على ما يريد دون أن يتعب نفسه بالسؤال أو الطلب فكيف ينتظر

منه أن يبذل مجهودا لتعلم عملية معقدة كالكلام هى نتيجة توافق للشفاه واللسان وعضلات الحنجرة يضاف اليها سقف الحلق والرئتين ؟ اذا كان يكفى أن يصرخ أو يلوح بذراعيه لينال ما يريد فسيضعف الدافع لتعلم الكلام . ويشاهد هذا بشكل واضح فى بيوتنا الناعمة التى تنصب نفسها لخدمة الطفل وتجنيبه اداء أبسط الاعمال ، فالطفل هنا متأخر لغويا .

وسنرى اثناء عرضنا للمحصول اللغوى الذى يكونه الطفل ان الكلمات التى تتصل بحاجاته أوثق اتصال هى التى تظهر أولا ، أو قد يحل محلها ما يراه الطفل مؤديا للمعنى كالاشارات أو الصرخات فى مرحلة مبكرة

وعلى العموم فمطالب الطفل الرئيسية التى تدفعه للكلام أربعة : الرغبة فى اكتساب معلومات عن البيئة وبعد هذا عن نفسه وأصدقائه مما يضيف الى استقرار الطفل وثقته بنفسه ،وتبدو بشكل واضح من سن سنتين ونصف الى ثلاث سنوات .. والتعبير عن الحاجات موضوعا فى بعض الاحوال فى ثوب أوامر ، مثل « روح باى باى » أى أريد أن أخرج ، أو « بيبى كو » أى اعطنى الكرة ، وهكذا .. ثم محاولة توثيق الروابط الاجتماعيـــة بينه وبين المحيطين به .. وأخيرا التعبير عن آرائه وأفكاره.

طرق الدراسة : اذا تركنا جانبا طريقة « تواريخ الحياة » التى تعرض فى غير دقة للكلمات الاولى التى يلفظها الاطفال ، وحجم المحصول اللغوى ، ومدى تردد الاسماء والافعال والادوات وهكذا ، فانا لنجد السبيل العلمى قد انفسح أخيرا متخذا مجموعات كبيرة من الاطفال أساسا للبحث من أعمار مختلفة ومستويات عقليه معروفة ، وفى ظروف بيئية ثابتة يمكن التحكم فيها

واتخذت الدراسة فروعا ثلاث : الملاحظة اما على أطفال منفردين مستمرة على مدى طويل أو فى فترات متعاقبة ، أو على اعداد كبيرة من الاطفال. ومن

أدق الابحاث فى هذا الشأن تجربة ماك كيرتى (١) - وسنعرض لها بدقة - على ١٤٠ طفلا ما بين ١٨ و٥٤ شهرا من مستويات مهنيه مختلفة وبمستوى ذكاء ١٠٩ر١ للكل .. وفيها جمعت ٥٠ استجابة لفظية لكل طفل تماما كما سمعتها الملاحظة ودون أى محاولة لانتزاع الكلام . كما استخدمت لعب للتشويق ووضع الطفل فى حالة راحة مثل سيارة صغيرة حمراء ، وقط يحدث صوتا اذا ضغط عليه ، وتليفون بجرس ، وفأر صغير من الصفيح ، وصندوق موسيقى ، وكرة ، وكتابين مصورين . كما سجل الزمن الذى استغرقه كل طفل لنحصل منه على الاستجابات الخمسين .

والفرع الثانى واضح فى اختبارات الذكاء حيث تحوى فى معظم الأحوال مقاييس لحجم ونوع المحصول اللغوى فى سن معين ، ومدى الفهم . أما الفرع الاخير ويعتمد على التجارب فهو للاسف لا يزال مقصورا على الاطفال الاكبر سنا .

وبعد فليذكر القراء أن دراسة النمو اللغوى بدقة أمر يكاد يكون مستحيلا لسببين أساسيين .. الاول أن من الصعب جدا تسجيل كل استجابة لفظية تحريرياً خصوصا فى مرحلة المناغاة والاصوات الاندفاعية التى سبق ذكرها ص ٨٢ فمن الاصوات ما لا يمكن كتابته ، والثانى يتمثل فى صعوبة دفع الطفل للكلام بهدوء فى حضرة المختبر . وهنا يضطر الاخير الى الاعتماد على الوالدين أو غيرهم وهكذا يتدخل عنصر التحيز وعدم الدقة . ولنا أن نتساءل ما اذا كان الوالدين فى تسجيلهما لحجم المحصول اللغوى لطفلهما يلاحظان المبدأين الذين بدأنا بهما هذا الفصل واعتبرناهما أساسا للكلام ، ألا وهما النطق بطريقة يفهمها الغرباء ، ثم فهم الطفل لمعنى ما يقول ؟ .

---

(1) Mc Carthy, D. A. Lang. Develpm. of the preschool child. Minneapolis: Univ. Minn. Press, 1930

أسلوب الكلام : يتبع الكلام طريقا واضحا يسلكه كل طفل و نعنى به « الاستجابة الشرطية » فاذا أعطيت شيئا للطفل ثم ذكرت اسمه فانه يتعلم أن تلك المجموعة المعينة من الاصوات تقوم مقام الشيء المعروض ، وكلما زداد عدد المرات التى يرى فيها الطفل ذلك الشيء مشفوعا باسمه كان هذا أسرع لخروجه من مرحلة « الببغاء » حيث يقلد الطفل مجرد تقليد ما يسمع ولزيادة الايضاح نقسم مراحل تعلم الكلام الى أربعة كما يبدو فى الرسم المصاحب . فالمرحلة الاولى هى مرحلة اخراج أصوات ومقاطع عشوائية تنتهى صدفة بالمقطع « دا » . يسمع الطفل نفسه وهو يلفظه وهنا ينتقل المؤثر الصوتى الى المخ ثم يعود خلال الاعصاب الى المجموعة العضلية المستخدمة فى لفظ هذا المقطع فيتكرر مرارا وبذا تتكون عادة سمعية صوتية للفظ « دا » . وتبدأ المرحلة الثانية عندما يلفظ أحد الكبار لفظ « بيضة » مثلا وهو قريب جدا من اللفظ الذى كان يردده الطفل . وهذا يسبب استثارة للسمع مرة أخرى لاخراج المقطع « دا » وفى المرحلة الثالثة يتكرر لفظ « بيضة » من الشخص البالغ ، وفى نفس الوقت تقع عينا الطفل على الجسم الابيض الذى يمثله فيتكون ترابط بصرى بينه وبين الاعصاب الحركية المستخدمة فى نطق المقطع . وهكذا يحدث ردفعل شرطى بين مرأى البيضة ولفظ « دا » . واذن فمرآها بعد هذا وحدها كاف دون حاجة لوجود البالغ لاستثارة النطق باللفظ الذى هو أقرب ما يستطيعه الطفل ، كما يرى فى المرحلة الرابعة .

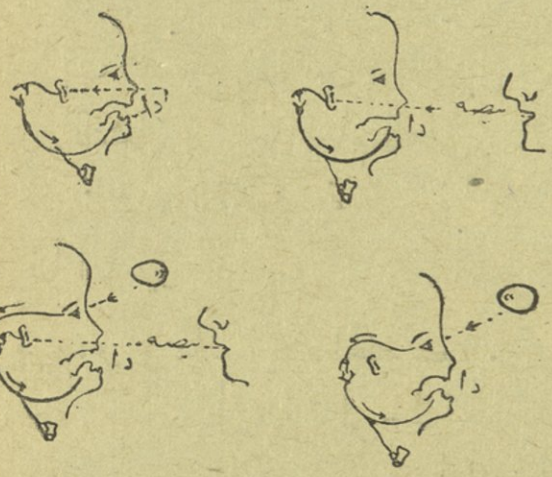

ومن هنا نستطيع أن ندرك أهمية صلاحية المثل الذى يحتذيه الطفل فى

الكلام ، كأخطاء النطق والتهتهة واللثغة التى قد توجد فى الكبار . كما أن من الخطأ أن يتعمد الوالدان استخدام لغة الصغار فى كلامهم مع الطفل مثل « تشو تشو » للقطار و « تيك توك » للساعة و « دن دن » للجرس وهكذا . ينبغى أن يكون المؤثر الذى سيستثير المقطع المقارب عند الطفل هو أصح ما يمكن .

هذا وقد سبق أن أشرنا الى عاملى النضوج والمران فى تجربة ستراير على مرأمتين متشابهتين وأكدنا أهمية توافر العاملين للوصول الى أسلم النتائج فالتدريب الصحيح فى سن مبكر قبل أن ينضج الجهاز الصوتى مضيعة للوقت ومبرز للفشل واليأس أمام الطفل .

وهناك علاقة عكسية طريفة بين النمو اللغوى والحركى ، وقد سبق أن تناولنا الاخير فى فصل سابق ، فالنمو اللغوى تتخلله قفزات سريعة ثم ركود غريب ، وهو ما نسميه « الهضاب » . وقد أثبتت دراسة هذه الهضاب انها تتمشى الى حد بعيد مع أزمنة تعلم الحركات كالجلوس وحيدا أو المشى . وكما يحدث فى حالة الشخص الكبير الذى يتعلم ركوب الدراجة أو سوق السيارة لاول مرة إذ ينحصر كل اهتمامه فى حركات اليدين والقدمين وتعرجات الطريق بحيث لا يستطيع أن يوجهه ولو لحظة واحدة للكلام مع شخص آخر الى جانبه والا أفلت منه الزمام ، هكذا نرى الطفل يبطىء جدا نموه اللغوى بين الشهر التاسع والثامن عشر فهنا تتكدس معظم الحركات العضلية لتعلم الجلوس والمشى دون مساعدة . ومن الواضح أن دافع الطفل لتعلم المشى أقوى من دوافع الكلام ، فهو يخرجه من تلك المرحلة البغيضة .. مرحلة الضعف والاعتماد على الآخرين ، ويزيد ثقته فى نفسه زيادة لا حد لها . وبمجرد ان يصبح المشى عادة لا تحتاج الى تركيز الاهتمام كثيرا تبرز مرحلة النمو اللغوى السريع .

وقد استطاعت شيرلى فى بحث دقيق أن تتبع هذه الهضاب ، فوجدت أن الطفل بين الاسبوع الخامس والثالث عشر يصدر أصوات أكثر كثيرا

من المرحلة ما بين الاسبوع الرابع عشر والثالث والعشرين . وهنا يتدرب الطفل كما رأينا فى فصل سابق على تقريب ذراعه ويده من الاجسام والامساك بها ووضع الابهام مقابل الاصابع الاربعة الأخرى . وتتزايد الاصوات بعد هذا حتى الاسبوع الثلاثين ، ثم تقل فى الاسبوع الواحد والثلاثين حيث يبدأ الطفل فى الجلوس وحده ، ويستمر الانخفاض الى الاسبوع الرابع والثلاثين وهى الاعمار المتوسطة للزحف والحبو .

مقدمات الكلام : هناك مراحل ثلاث للاتصال اللفظى تسبق الكلام عند الطفل وسنعرض لها فى اقتضاب :

ا ـ الصرخات : وهى تتحدد وتختلف نبرة وطولا ابتداء من الاسبوع الثالث فيستطيع المحيطون بالطفل أن يميزوا صرخة الالم خصوصا عقب الاضطرابات الهضميـــة وهى صرخة عالية حادة ترتفع فى النبرة يتخللها بعض الانين .

وهناك صرخة القلق من المؤثرات الحسية الشديدة كالاصوات العالية والاضواء البراقة والحرارة أو البرودة والاوضاع غير المريحة ، كما يحدث اثناء خلع الملابس . أما التعب فيصحب الصراخ اثناءه الارتخاء والتثاؤب وفرك العينين . وهناك غير هذا وذاك صرخات الجوع وهى طويلة ومتساوية فى شدة النبرة تتخللها حركات المص ، وصرخة الخوف وتبدو منذ الشهر الخامس ـ وتتجه نحو الغرباء أو من غرفة جديدة ـ اذ يصحبها الالتصاق بالام وادارة الوجه بعيدا . وأخيرا صرخات الغضب لمنع وتقييد حركة الطفل تبعا لثقل الاغطية أو الملابس او ابتعاد الأم أو المربية أو من يحيط بالطفل ويؤنسه ـ ويحدث هذا منذ الشهر الثالث أو الرابع ـ أو نتيجة لفقدان اللعبة ، ويبدو هذا ابتداء من الشهر الخامس .

وسرعان ما يدرك الطفل قوة الاثر الذى تحدثه صرخاته فيمن حوله . فيتعلم أن يستخدمها كوسيلة للوصول الى غرضه من جذب الانتباه أو الوصول

الى احساسات سارة . ويمكنك أن تميز بسرعة ما اذا كان الطفل الكثير الصراخ هو من هذا النوع « المدلع » اذا انتهى الصراخ بمجرد الاقتراب منه، بعكس صرخات الالم أو الجوع أو القلق حيث تستمر الى أن ينتهى المؤثر.

ب ـ المناغاة : وهى أصوات عشوائية يظهر منها عدد كبير منذ الشهور الاولى ، وتنتج من مرور الهواء على الاحبال الصوتية اثناء انقباضها أو بين الشفتين وهما مضمومتان بخفة فتتذبذبان ، مع حركات عشوائية من اللسان .

وقد استطاعت بلانتون أن تسجل الاصوات التى ينتجها الطفل فى الشهر الاول ، ووجدت أن الحروف الساكنة الشائعة هى حرف م (ما) ، ن (كما فى قول الطفل نكا) ج ، ه (جاه) ثم حرف ر فى صوتين (راه ، بررر) بينما الحروف المتحركة الشائعة أولا هى و (واه) ى (ياه) ، (أو) فى صوتين ow ثم oo ، والصوت آ مضخما ومخففا ، إى . وهناك غير هذا عدد كبير من الاصوات مما يصدر عن الحيوانات كالماعز والقطط .

وهذه الاصوات المبكره تحدث صدفة وبحركات عرضية للجهاز الصوتى وهى موجودة فى أى طفل من أى جنس ، بل هى موجوده حتى عند الطفل الاصم فالطفل لا يتعلمها .

وبالتدريج تزداد هذه الاصوات حتى تتضمن معظم الحروف اللازمة للكلام فلا يصل الطفل الى الشهر الرابع حتى يكون قد تعلم كيف يضبط مسير الهواء على الاحبال الصوتية ولذا ينتج من الاصوات ما يشاء. وفى نهاية الشهر السادس يستطيع الطفل عن طريق هذا التدرب أن يربط حروفا ساكنة معينة بأخرى متحركة لينتج مقاطع مثل ما ـ ما ، دا ـ دا ، نا ، نا ـ باه ـ باه ، وهـذا هو ما نسميه بالضبط المناغاة وهى مرحلة مصقولة متأخرة عن الاصوات العشوائية.

وتمتد هذه المناغاة بين الشهر الثالث والنصف الاخير من السنة الاولى فتصل الى ذروتها فى الثامن . ونلاحظ أن الطفل يشتق لذة كبير من سماع

صوته . ويبدو هذا من أن الطفل يناغى وهو وحيد أكثر جدا مما لو كنا الى جانبه نسليه . وبالمثل نجد الطفل الاصم يقلع سريعا عن المناغاة لانه لا يسمع صوته فلا يشتق اللذة .

وقد لاحظت شيرلى أن أكثر المقاطع الشائعة فى المناغاة عند طفل الشهر الخامس هى « أجل أجل » « ارده ارده » ، « أو دل أو دل » ، ثم « بب بب بب » وفى غمرة الصرخات الثاقبة التى عرضنا لها فى القسم الاول والتى نسارع جميعا لارضائها ننسى كثيرا المناغاة أو الاصوات الاندفاعية التى نحن بصددها الآن لخفوت نبرتها . ولكن اذا كان الطفل يتعلم بمرور الايام أن يتخلى عن هذه الصرخات ليعبر عن الجوع أو الخوف أو الغضب تعبيرا كلاميا أو حركيا فان هذه الاصوات الاندفاعية هى التى تثبت وتتعدل كما بينا بالرسم . واذن فهذه الاصوات التى تبدو وكأنها لا تحمل أى معنى ولا يحركها أى قصد .. هذه الاصوات التى تحدث صدفة كلما مر الهواء على العضلات الصوتية المتقبضة فيخرج بذبذبات وأصوات متعدده .. هذه الاصوات التى تعتبر جزء من نشاط الطفل اللعبى حيث تتركز لذة الطفل فى الجسد . . سوف تنمو وتقوى خلال النصف الثانى من السنة الاولى فتكون لديه صورا سمعية تقارب ما يسمعه من الكبار فيرددها ليعنى بها شيئا يريد أن يتحدث عنه .

لعلنا نحسن صنعا اذن لو تركنا الطفل فى فراشه وحيدا « يناغى » بعض الوقت ، فهذه المناغاة تقل جدا ما دمنا الى جانبه . وبدلا من أن نسارع الى الطفل كلما استيقظ فنحتضنه ونقبله وندور به فى البيت ونحن نعمل الف حركة وحركة لنجذب اهتمامه علينا أن نتذكر أن الطفل ليس دمية نتسلى بها أو نشتق من ضمها الى أجسادنا لذة ، وانما هو مخلوق حى يمر فى نمط معين من النمو نحن مسئولون عن تحقيقه . فلنتحمل بعض الحرمان فى سبيل تهيئة المران الكافى له على المناغاة فهى أساس الكلام .

ج — الحركات والاشارات : الطفل منذ أول عهده بالحياة يبدى بعض الحركات ذات المغزى ، فهو يدفع بحلمة الثدى من فمه ليدل على انه شبع ، ويدير رأسه بعيدا عنها ، أو يترك اللبن يسيل على جوانب فمه . ثم هو يبتسم ويمد ذراعيه فى مرحلة متأخرة كأنما ليقول لك « احملنى » . وغير هـذا عشرات الحركات التى تتخلل ارتداء الملابس أو الحمام والتى تدل على انه لا يريد أن تتدخل وتقيد حركاته . وبينما يستخدم الواحد منا الحركات والاشارات ليعزز كلامه نجد الطفل الصغير يستخدمها كبديل تام للكلام .

ويضع جيزل ويبلى هذه المعايير للمرحلة التى تسبق الكلام :

شهر واحد : يصدر صرخات متغايرة فى النبرة يفهم منها معنى القلق ، أو الالم أو الجوع .

شهران : يصدر اصوات متعددة متمايزة

٤ اشهر : يلعب الطفل بالاصوات (يناغى)

٥ أشهر : يبدى من الاصوات ما يدل على المضايقة لدى ابعاد ما يريده .

٦ أشهر : يبدى اصوات تدل على التلهف .. والسرور .. كما تبدأ المقاطع تتحدد وتتضح .

٨ أشهر : مقاطع عديدة ، اصوات الرضى والقناعة ، وأخرى تدل على تعرفه لمن يتصلون به اتصالا وثيقا .

٩ أشهر : يقول « دادا » أو ما يشابهها .

والان وقد انتهى الطفل من هذه المراحل الثلاث فقد بدأ يستعد لدخول مرحلة الكلام الفعلى ، وهذه تحتاج الى فهم وادراك الكلام الآخرين .. وبناء محصول لغوى .. وربط الكلمات لتكوين جمل مفهومة .. وأخيرا النطق

ا ـ الفهم : هو أسهل المراحل . وانا لنجد الشخص منا وهو يتعلم لغة جديدة يستطيع أن يدرك ويفهم ما يقال أو ما يقرأ فى كتاب أو رسالة ،

لكن يصعب عليه أن يتحدث بهذه اللغة أو يكتب هو خطابا .

والطفل لا يعتمد فى فهمه لما نقوله له على تأويل معنى الكلمات فحسب بل هو يعزز هذا بملاحظة تعبيرات وجوهنا وحركات أيدينا وارتفاع أو انخفاض نبرة الصوت . وهذا ممكن ابتداء من الشهر الثالث اذ يبتسم الطفل ردا على ابتسامة الأم أو الأب . وسرعان ما يعقب هذا ادراكه للتعبيرات الوجهية والاصوات المرتبطة ارتباطا وثيقا بانفعالات كالغضب أو الخوف . والواقع أن الطفل الصغير يفهم معنى أوامر ونواهى مثل « كخ ! كخ ! » و « بس ! بس » و « تعال » و « نام » ، عن طريق ربطها بالعملية نفسها كرفع اليد فى الحالتين الأوليين واشارة الأصابع فى الحالة الثالثة من ناحية ، كما يفسر نبرة الصوت التى يستخدمهـــا الشخص الكبير من ناحية أخرى . وهكذا اذا أردنا أن يفهم الطفل مانقول فيجب أن نعزز كلامنا بالاشارات حتى منتصف السنة الثانية . وحتى فى الارشادات البسيطة مثل « حط الفنجان على السفرة » يجب أن تصحبها أشارة للفنجال ثم للمائدة .

فاذا أردنا أن نضع هنا معايير لما يستطيع أن يفهمه الطفل فى سن معين فان عملا مثل هذا معقد جدا ، وعلى قدر اختلاف بيئات الاطفال بالمعنى الواسع يختلف المحصول الذى يفهمونه . ففى اختبار تيرمان وميلر المعدل يوضع أمام الطفل مكعب من الخشب ، وملعقة ، وفوطة ، ولعبة على هيئة القط ، وفنجال ، ثم غطاء معدنى للاصبع يستعمل فى الحياكة (كستبان) . ثم يطلب من الطفل أن « يأتى بالقطة » أو « يضع الملعقة فى الفنجان » وأخيرا « يضع الكستبان على المكعب » . فالطفل المتوسط فى سن سنتين يمكنه أن يقوم بعمليتين من هذه الثلاثة . وفى سن ثلاث سنوات ونصف يجب أن يفلح فى تأديتها جميعا . ويضع تيرمان وميلر مقياسا آخر لطفل الثانية والنصف فيقدمان له دمية كبيرة من الورق ويطلبان منه أن يشير الى شعرها ، وفمها ، وأذنيها ، وأخيرا يديها . وفى الثالثة يسأل بينيه أطفاله أن يشيروا اشارة صائبة الى

ثلاث من أجزاء الجسم الاربع . . الأنف . . والعينين . . والفم . . والشعر . . ، كما يسموا ثلاثا من الاجسام الخمسة التالية . . المفتاح ، والمليم والمبراة المقفلة ، والساعة ، والقلم الرصاص . وفى الرابعة يسأل أطفاله أسئلة مثل « اذا حسيت انك نعسان لازم تعمل ايه . . ؟ » وتتكرر هذه الاسئلة فى حالة الشعور بالبرد ، ثم الجوع .

ب — بناء المحصول اللغوى : ينقسم قسمين . . محصول عام ويتكون من كلمات لها معانى عامة يمكن استخدامها فى مواقف عديدة مثل « راجل » « عاوز » ، « بيبى » . . ومحصول خاص يستخدم لمواقف معينة ، وهذا فى الغالب بعد الثالثة كالالفاظ المستخدمة لآداب المائدة ، أو فى حضرة الضيوف .

١ . المحصول العام : ويتعلم فيه الطفل أولا الاسماء التى تجمع بين السهولة والفائدة كأسماء الاشخاص والأجسام ومعظمها ذات مقطع واحد يتضاعف بعد قليل مثل « ماما » و « تشو تشو » و « ببى » والطفل هنا اما أن يلتقط هذه الالفاظ من الاشخاص الذين سمعهم يرددونها أو يستخدم لفظا معينا ليعنى به كل ما يقع فى نفس الفصيلة ، كما لو استخدم كلمة « بوبو » ليعنى بها طربوش ثم كل ما يقع ضمن هذه الفصيلة من أردية الرأس ، أو قد يكون الاسم من اختراع الطفل تماما متخذا اياه من الصوت الصادر عن الجسم مثل (ناو ناو) للقط .

بعد أن كون الطفل عددا كافيا من الاسماء يأتى دور الأفعال ، وخاصة تلك التى تدل على الحركة مثل « خذ » ، « هات » ، « روح » ثم تأتى الصفات (كويس ، وحش ، وسخ ، سخن ، بارد) الى غير ذلك مما يستخدم للاشخاص والاطعمة واللعب . ثم الظروف (هنا ، هناك ، قوام) ، وهما يظهران ابتداء من سن سنة ونصف . أما حروف الجر والضمائر فتظهر فى مرحلة متأخرة لصعوبة التفرقة بين المواقف المستخدم فيها تعبيرات مثل « ادينى »

« عروستى » ، « أنا » ، « بتاعتى » ، بل وقد يجد الطفل حتى مرحلة متأخرة صعوبة فى استعمال نون الوقاية ، فيقول « كرسنى » ، قياسا على قوله ، « ادينى »

وقد خرج سميث من تحليله لمحادثات الاطفال فى الثانيه والثالثة بأن الاسماء والافعال والضمائر هى أكثر أجزاء الكلام ترددا فى السن الأول أما فى الثالثة فتتراجع الاسماء لتفسح السبيل للافعال والضمائر

وفى بحث أدق خرجت ماك كيرى بالنتائج المعروضة فى الرسوم البيانية

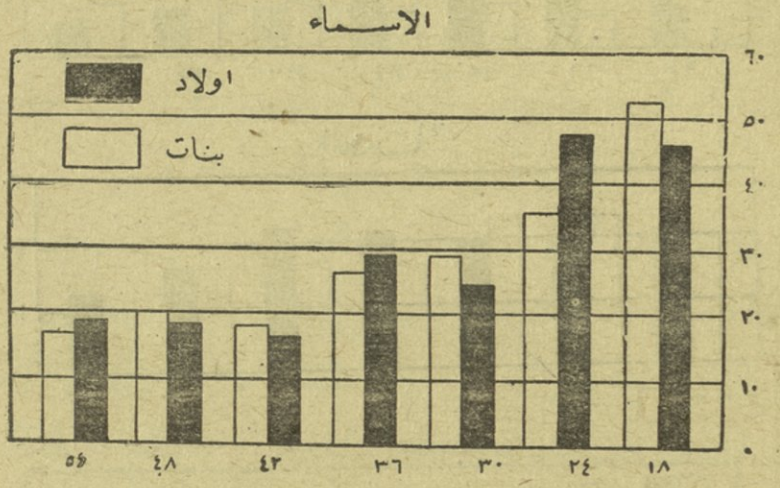

وهى هنا تتفق مع سميث فى تضاؤل الاسماء عن مكانها الممتاز فى السن

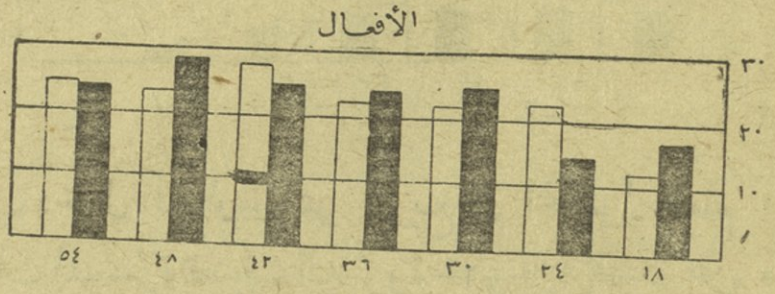

المبكر فى مصلحة النواحى الأخرى ما عدا الجمل الاعتراضية اذ يبدو فيها هى

الأخرى انحدار سريع . أما الظروف فتكاد تسير على وتيرة واحدة .

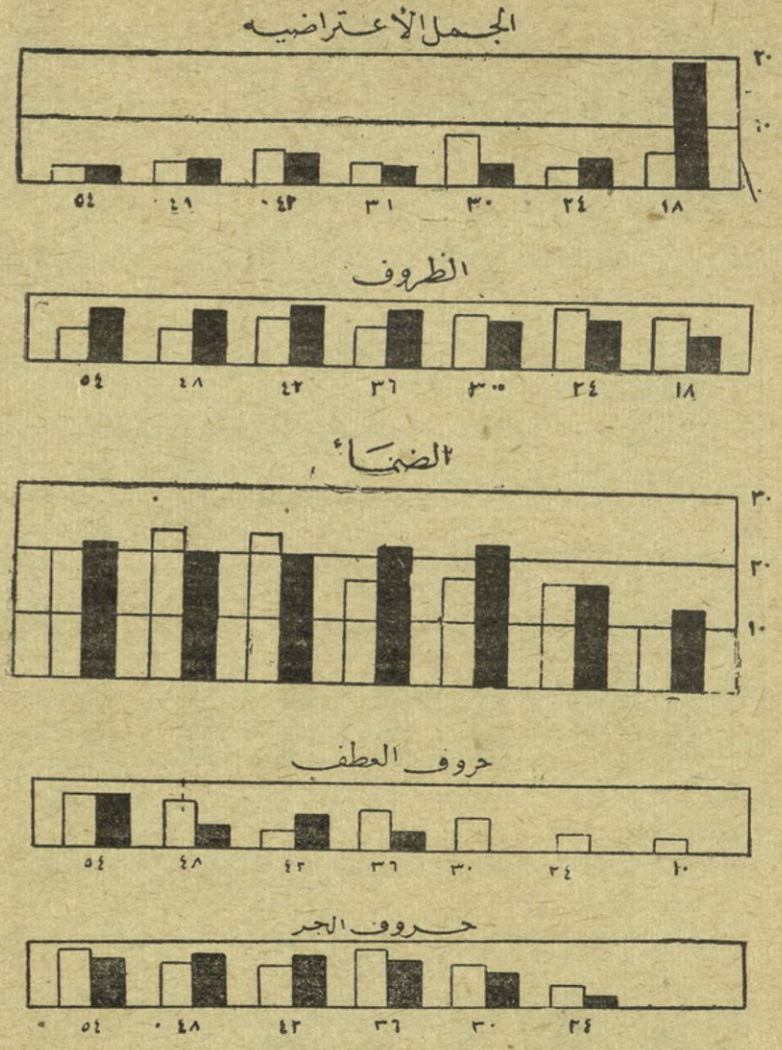

ويصحب دخول المدارس نمو سريع فى المحصول العام ، فالدروس والموضوعات المستمرة تضيف اليه ثروة خصبة ، فضلا عن ميل الطفل للقراءة لقطع الفراغ .

٢ — المحصول الخاص : وهو أضيق من جهة الاستعمال ولذا لا يحتاج اليه الطفل فى مرحلة مبكرة . ومن أنواعه :

أولا : المحصول التحايلى Trick Vocabulary ويتكون من كلمات عويصة النطق يحاول الطفل أن يلفظها مقلدا بذلك من حوله وهم يسرون

محاولاته ، وكثيرا ما تسمع الطفل يكرر كلمة « أونطجية » أو « شقلب بقلباظ » لمجرد السرور الناتج من حركات اللسان المتمايزة والاصوات الصادرة .. كما أنها تهيء له قدرا غير قليل من الأمن والشعور بالسيطرة . ويندر أن تجد الطفل يفهم ما يردد من هذا النوع « كالقسطنطينية » وغير ذلك ، ويصل هذا المحصول الى ذروته حول الثالثة .

ثانيا — كلمات تختص بالاتيكيت ، مثل «من فضلك»، «مرسى»، «آسف». يجب أن يتعلمها الطفل بمجرد استطاعته أن يتكلم بطريقة مفهومة ، فاذا وصل الى سن الخامسة او السادسة فيجب أن يكون محصوله فى هذه الناحية مساويا للمحصول الذى يستخدمه الكبار فى بيئته فى المواقف العادية

ثالثا — كلمات تختص بالألوان ، فاهتمام الطفل بالألوان واضح جداً لذا يتعلم اسماءها فى مرحلة مبكرة. ويضع تيرمان فى قياسه للطفل فى سن الخامسة أربعة ألوان رئيسية هى الأحمر والاخضر والازرق والاصفر . ولكننا نرى أن تيرمان كان متساهلا بعض الشيء ، فمعظم الاطفال من بيئات عادية يمكنهم أن يسموا هذه الألوان قبل هذه السن بمدة

رابعاً — رموز الاعداد ، وكثيراً مانجد الطفل فى سن سنتين ونصف أو ثلاثة يعد الى ١٠ أو أكثر . ولكن يشك فيما اذا كان يفهم هذه الكلمات حقاً . وكثيراً ما تدرج مثل هذه الكلمات تحت مرحلة الببغاء التى سبقت الاشارة اليها . ولكن مع التعلم المباشر او اللعب المنتظم بالخرز أو غيره يمكن الطفل أن يفهم هذه المعانى بحيث يحق لبينيه أن يضع فى مقياسه لطفل السادسة امكان العد مع الاشارة لاجسام او قطع معدنية من النقود حتى الرقم ١٣ ، ويجب أن يفهم جيداً معنى كل رقم فاذا طلب منه أن يخرج عددا منها من المجموعة التى امامه فعل .وسرعان ماتأتى المدرسة بتقدم كبير فى المحصول العددى حتى ليمكن الطفل أن يعد بالعكس من ٢٠ الى ١ فى ٨ سنوات كما يرى بينيه .

خامسا — وهناك غير هذا المحصول اللغوى الذى يدور حول الزمن .

فاذا وصل الطفل الى السادسة أو السابعة فيجب أن يعرف معنى كلمات مثل « الصبح » ، « بعد الظهر » ، « الليل » ، « الصيف » ، « الشتاء » ، وهكذا . وبدخول المدرسه سرعان ما يتعلم أيام الاسبوع وشهور السنة . ويضع بينيه هذه الموضوعات فى اختبار ٩ سنوات .

سادسا — الكلمات المرتبطة بالنقود وتختلف حسب بيئة الطفل اختلافا بينا . وقد يزداد محصول الطفل فى بيئة فقيرة عن طفل البيئة المتوسطة نظرا لأن الأول يرسل كثيرا فى مهام لشراء أشياء يعهد بها الى الخادم فى حالة الطفل الثانى . وعلى أى حال بينما نجد الطفل الصغير يعبر عن أى فئة من العملة بلفظ « فلوس » أو « قرش » نجده فى سن الرابعة أو الخامسة يستخدم الفاظا مخصوصة تبعا لحجمها وقيمتها . وتبعاً لمقياس ستانفورد بينيه على الطفل المتوسط فى السادسة أن يسمى المليم ، ونصف القرش والصاغ والمليمين . وعلى العموم فلا تبدأ المرحلة الابتدائية فى المدارس حتى يعرف الطفل فى مادة الحساب العملة البرونزية والفضية كلها فى وقت قصير ويبدو هذا فى اختبار ٨ سنوات .

سابعا — اللغة السرية — وهى مغرية جدا فى مرحلة المدارس الابتدائية أو ما نسميه « مرحلة العصابات » ، فالطفل ينضم الى مجموعة من الرفاق ويخلص لها كل الاخلاص حتى ليقاوم رغبات المنزل وقوانينه ويبدو الكبار بالنسبة له كسلطة غاشمة يود لو يتخلص منها . وهنا تلجأ الجماعة الى لغة خاصة مكونة من رموز معينة يكتبون بها رسائلهم أو يتحدثون بها . وكثيرا ما تقع فى أيدى الآباء والأمهات قصاصات صغيرة تحوى رسوما ودوائر وعلامات أو حروفا متراصة لا يفهمون منها شيئا فتكون مصدر قلق وازعاج يسران الصبى جداً فقد افلحت مجهوداته فى الاحتفاظ بسرية رسائله التى يتداولها مع زملائه . فاذا عوقب اعتبر نفسه كما تعتبره الجماعة شهيدا يستأهل كل إعجاب وإكبار . ويقع المدرس فى

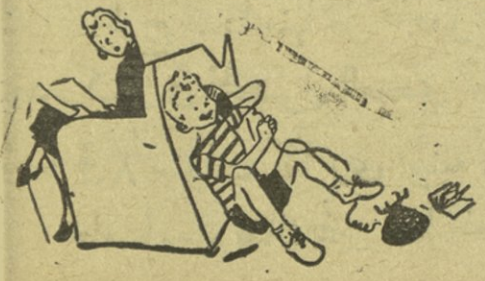

الفصول الابتدائية على عدد ليس بقليل من الأوراق التى تحمل طرقا متعددة سرية لتبادل الأفكار . غير انى أظن أن أكثرها شيوعا بين الصبيان المصريين طريقة اضافة الحروف «سطره» بعد كل حرف من الكلمة المراد نقلها ، فمثلا اذا أريد كتابة أو نطق كلمة «ولد» لكتبت هكذا «وسطرة لسطرة دسطرة». وهناك لغة «الزين» المعروفة لدى البنات ، ثم لغة التاء والنون . وهناك طريقة أصعب لا يلجأ اليها الا الأولاد الأذكياء ، وهى تعقيد لطريقة «سطرة» السابقة اذ بدلا من اضافتها بعد كل حرف فيصبح من السهل اكتشاف الكلمة المنقولة يتفق الصبيان على اختراع كلمات من وحى اللحظة تستمد اوائل كل حرف منها من حروف الكلمة المطلوبة . فاذا أريد نقل كلمة «احمد» مثلا كان على الولد أن يخترع كلمة تبدأ بحرف الالف ثم كلمة ثانيه تبدأ بالحاء ، وثالثة بالميم ورابعة وأخيرة تبدأ بالدال . وبالتمرين تجد الولد الذكى سرعان ما يقول «أروح حديقة مطرح دولاب» فاذا قيلت بشىء من السرعة مع بعض التوقف بين كل كلمة والاخرى استطاع الطفل أن ينقل الى زملائه ما يشاء من الاخبار وهو واقف فى نافذة المنزل على مسمع من الوالدين اللذين قد استبد بهما القلق .. ! وتبدأ هذه اللغة فى العادة حوالى الثامنة الى الرابعة عشر وتصل الى ذروتها فى الثانية عشر .

ثامنا . كلمات التحدى Slang وهى تتمشى مع السابقة الى حد ما ويسارع الى امتصاصها الصبى بين السابعة والثامنه لتتسع وتتضخم فى مرحلة المراهقة وهنا يغرق فيها الفتى لشعوره بأنها تصدم مشاعر من حوله من الكبار فترضى حنينه للشعور بالجرأة والثورة على التقاليد واختطاط طريق مخالف

وكثيرا ما تجد الغلام يكثر من ترديد ما يسميه كلمات «الحداءة» أو «الفهلوة» فهو يبدأ معظم كلامه حتى مع الكبار «يا ابنى دانا ..» أو تجده لوازمه «يا ويكا» أو «فاكرنى كرروديا ؟» أو «بلاش تميس» وهو فى أول امره يستخدم

هذه التعبيرات لينضم بذلك الى زمرة الطلبة الكبار فى الفصول العالية فهم قواد المدرسة ، وبالتدريج يألف هذه الكلمات ويستخدمها لانها فى اعتقاده تعبر بشكل ادق عن رغباته وانفعالاته .

حجم المحصول اللغوى : يعتمد مدى نجاح الطفل فى اكتساب الكلمات فى أعمار مختلفة على نسبة ذكائه ، والفرص التى اتيحت له للتعلم ، ومدى الدوافع التى تحركه . وقد تعددت الابحاث فى اختبارات الذكاء وتجارب سميث وتيرمان وماك كيرتى وخرج كل برأى مخالف لزميله خلافاً كبيرا فى بعض الاحوال .

وعلى العموم فاننا لنجد الطفل فى سن ٩ أشهر يقول «ما ما» ، «دادا» ، وفى سن سنة يمكنه أن ينطق بكلمتين او ثلاث غير السابقتين . وها نحن نسوق للقارىء نتائج ابحاث ماك كيرتى حتى سن الرابعة والنصف وبعد هذا يقفز المحصول سريعا كما يرى سميث وتيرمان :

العمر	عدد الكلمات	العمر	عدد الكلمات
سنة ونصف	٢٠	٤ سنوات ونصف	٢٣٠
سنتان	٦٦	ست سنوات	٢٥٦٢
سنتان ونصف	١٤٣	ثمانى سنوات	٣٦٠٠
ثلاث سنوات	١٧٠	عشر سنوات	٥٤٠٠
٣ سنوات ونصف	٢٠٣	اثنى عشرة سنة	٧٢٠٠
أربع سنوات	٢١٦	ثمانى عشرة سنة	١٧٠٠٠

ج . تكوين الجمل : يحاول الطفل أن يفعل هذا منذ نهاية السنة الاولى ، فيبدأ عهد الجملة المكونة من كلمة واحدة وهكذا يستخدم لفظا واحدا ، اسما أو فعلا ، ثم يربطه بحركة أو اشارة فيعبر عن فكرة كاملة . فهو اذا قال مثلا

«هات» مشيرا الى اللعبة فمعنى هذا «اعطنى اللعبة» وهذا النوع من الجمل يستخدم ما بين الشهر الثانى عشر والثامن عشر على وجه التقريب ثم يتراجع بعد هذا بسرعة .

ينتقل الطفل اذن لاستخدام كلمتين أو أكثر تاركا للاشارات استكمال النقص . وهذا النوع لا يعتبر جملة كاملة اذ أغلب الظن أن حروف الجر والضمائر والروابط لا تستخدم الا نادرا ، ويرى نيس أن هذه المحاولة تبدأ من جانب الطفل فى منتصف الشهر الثامن عشر بينما يرتفع جيزل بالسن الى ٢١ شهرا وتمعن شيرلى فى الارتفاع حتى الشهر الثالث والعشرين

فاذا تكاملت للطفل سنتان بدأ يربط الكلمات فى جمل قصيرة معظمها حتى الآن غير كامل وان كانت تعبر بمعونة الاشارات عن معنى كامل . والجمل هنا تحوى اسما أو أكثر ، وفعلا ، يضاف اليهما فى بعض الأحيان صفات وظروف . أما حروف الجر والعطف والضمائر فيتأخر ظهورها . ومن أمثلة هذه الجمل « هات كو » (اعطنى الكرة) « روح باى باى » (أريد أن أخرج) ، « بيبى مبو » (أريد أن أشرب) وهكذا .

وترى ماك كيرتى أن متوسط جملة الطفل فى سن سنتين ونصف هو ٣ كلمات ترتفع الى أربعة أو أكثر فى سن اربع سنوات وبعد نصف سنة ٥ كلمات . وفى هـــذا السن الاخير تكمل الجمل ، وقد يتكون الكلام من جملتين يربطهما الحرف « و » . كما ترى أن المدة المحصورة ما بين الشهر الخامس والعشرين والثلاثين هى الوقت الذى يحذف فيه الفعل ، ثم تقل هذه النزعة بعد هذا .

وهكذا لا يصل الطفل الى سن ٦ سنوات حتى يسيطر على كل تراكيب الجمل . ويرى ديفيز أن طول الجملة يتزايد بازدياد العمر حتى سن التاسعة والنصف . والواقع أن جمل الطفل الصغير تنحو دائما فى أول عهدها نحو التعقد فهى جمل مركبة ولكن فى ترابط فقير . كما تقل فيها الجمل الاسمية ، فاذا استثار انتباهه موضوع معين انطلق فى الكلام عنه فى جمل طويلة جدا

مكونة اذا حللتها من جمل قصيرة يربطها حرف العطف « و » أو « لكن »

د ـ النطق : وهو يثبت عن طريق تقليد الطفل الصغير للمحيطين به. وهذه القدرة على التقليد مرنة جدا حتى ان الطفل اذا نقل من بيئة الى أخرى تغير نطقه حسب البيئة الجديدة فى وقت قصير . وتقل هذه القدرة بيده دخول المدارس ، حتى اذا قارب الصبى المراهقة استقرت عنده عادة النطق فيصعب تغييرها . وينحو النطق نحو التحسن والوضوح كلما كبر الطفل حتى اذا وصل الى الخامسة أو السادسة ضاع معظم ما كان يشوب كلامه من لكنة كالراء والشين .

ولعل أوضح ما يميز الكلام فى حالة الاولاد فى سنى المدرسة الابتدائية ومبدأ المرحلة الثانوية خشونة نغمة الصوت بعض الشىء ، وليس هذا ناتجا عن النضوج بل هو نتيجة للصراخ الذى يصحب اللعب فى هذه المرحلة . فالمجهود الذى يلقى على عاتق الجهاز الصوتى فى الوقت الذى هو فيه ضعيف لا يحتمل المقاومة ينتهى فى الغالب بنوع من « البحة » لا يمكن أن تتحسن بتقدم السن. ولا يهم الطفل كثيرا هذا الامر خصوصا وهو يعتقد أن الصوت الناعم دليل على أن المتكلم « بنوته »

ولكن هذه النغمة الخشنة هى مصدر قلق عظيم للمراهق فى أول عهده وهو يحاول جاهدا أن يحسن من كلامه لدرجة أنه يكتسب نغمة صناعية تميز معظم الكبار الذين نراهم ، فيلجأ فى بعض الاحوال الى التضخيم أو التخفيف فى حروف معينة ، أو نطق بعض الحروف فيتبعها حركات من جوانب الفم أو الحواجب أو الأعين . والفتيات فى هذا أسبق من الشبان فالكلام عندهن أكثر صناعة وتحويرا وتكلفا

ومن السهل جدا أن يحصل ارتباك فى النطق عند بدء تعلم الطفل الكلام فهو يجد صعوبة فى التحكم فى الجهاز الصوتى . والقليل من هذه الاخطاء يرجع سببه للوراثة ، فقد يكون السبب جسمانيا لتصلب فى اللسان أو تشوه فى الاسنان أو سقف الحلق أو الشفاه أو الفك . أما معظم الاخطاء فى

نطق فترجع الى أسباب بيئية ، فهى اما تعلم أو تقليد خاطىء لشخص عمل فى كلامه لكنة اجنبية ، أو عوامل نفسية كمحاولة الطفل أن يسرع ل الكلام نتيجة لتعجلنا له بمقارنتنا اياه باخيه الاصغر الذى بدأ يلحق ء فى المدرسة ، أو نتيجة لنفاد صبرنا من كل شىء فى المنزل ، فاذا حاول ن يتحدث أو يقص قصة طالبناه بالاختصار . كما قد يكون لضعف حاسة السمع أثر ليس بقليل .

أخطاء النطق : هناك من الأخطاء ما هو شائع جداً فى الطفولة ثم يختفى فى العادة بدخول الطفل المدرسة . وهو فى الغالب ينشأ من خطأ فى التعلم لم يحاول المحيطون بالطفل اصلاحه . فهناك مثلا أخطاء تتمثل فى حذف بعض المقاطع أو اختـــلاف ترتيبها ، وهناك ما هو أكثر تعمقاً وصعوبة فى الاصلاح كاللثغة وهكذا .

ا ـ حذف بعض المقاطع : فى كلمة طويلة تتكون من مقطعين أو ثلاث كثيرا ما لا يلاحظ الطفل بدقة كل المقاطع التى ينطق بها البالغ . وهو يتخذ هذه الصورة السمعية الخاطئة بعد هذا أنموذجا يحتذيه فتكون النتيجة أن يسقط مقطعا أو أكثر من الكلمة ، ولكنه يهتم فى الغالب بالاول والاخير ، فيقول « أمبيل » وهو يعنى أوتوموبيل أو « مسحاتى » بدلا من مسحراتى وهكذا .

ب ـ اختلاف ترتيب الحروف : فالكلمات الصعبة التى تسمع فى أحيان قليلة يتذكرها الطفل فى الغالب فى صورة مهوشة . ويمكن أن يصلح الطفل نطقه هنا لو اهتم الكبار بارشاده ولكنهم للاسف يضحكون للكلمة التى يكونها الطفل ويتركونها لترسب . وكم من الكبار يقول « جرده » وهو يعنى الدرجة الثانية أو « استبالية » وهو يقصد اسبتالية أو « كشتينه » وصحتها كشتينة . وأعرف طفلا دعى لالقاء قطعة دينية بين الضيوف حتى اذا وصل الى « واغفر لنا ذنوبنا » ـ وهو لا يدرك معناها بطبيعة الحال ـ نطقها « واغفر لنا زبوننا »

فضج الحاضرون بالضحك واستمروا يستعيدونه فى كل مناسبة وما حاولو يوما أن يوجهوه لتصحيحها .

وكثيرا ما يحل الطفل الصغير كلمات أخرى بدلا من الكلمات الاصلية كلمات يخترعها حسب صوت الشيء ، كلفظ « تن » للجرس ، « وتشو تشو للقطار و « تيك تيك » للساعة وهكذا . وهذه أخطاء سرعان ما يتجنبها الطفل بعد أن يشب قليلا .

ج - اللثغة: هناك من الاخطاء ما هو أبقى أثرا واسوأ من ناحية مركز الفر الاجتماعى فى مرحلة متأخرة . وأكثر هذه الاخطاء شيوعا « اللثغة » وهذ يحل الطفل صوتا مخالفا محل الحرف المطلوب ، كحرف ث وهو يعنى س (ثميرة - سميرة) ثم س بدلا من ث أوش (اللسة - اللثة ، السمس - الشمس أو ث بدلا من ش (مث رايح - مش رايح) أو « ل » بدلا من « ش » وهناك غير هذا اللثغة الشائعة فى حرف الراء فقد يوضع بدله « و » أو « غ أو « ى » والأمثلة على هذا كثيرة .

وهناك سببان لهذه اللثغة ، الاول يختص باحتمال تشوه الفك أو الاسنان أو الشفاه ، وكثيرا ما يعقب بروز الفك الاسفل (الضب) تغير أصوات الحروف . كما قد يحدث أثناء تبديل الاسنان لثغة خفيفة اذا لم تتدارك ثبتت كعادة ولكن السبب الثانى واليه ترجع معظم حالات اللثغة هو التمسك بكلام الطفولة ، اذ يستمر الصبى فى تكرار القديم من الكلام بأخطائه لانه يرى أو يعتقد انه بذلك يكون لطيفا جذابا ، خصوصا وهو يشاهد بعض الضيوف أو حتى الآباء يقلدونه فى كلامهم له مما يثير الضحك .

د - عدم وضوح الكلمات: وهو ايضا من الاخطاء السيئة الاثر . وقد يكون ناتجا من ثقل او ركود فى الشفاه أو اللسان أو الفك ، او قد ينتج من عدم نمو اللسان وعضلاته مما يصاحب كثيرا الكساح ولين العظام . ولكن معظم الحالات تنشأ عن حالة انفعالية من الخجل او التردد تدفع الطفل الى

عدم فتح الشفتين للدرجة المطلوبة اثناء الكلام فتبدو الكلمات مدغمة . وأخيرا قد يكون سببها العجلة فى الكلام نتيجة قلق من ان يسبق الطفل اخوه الاصغر او زميل فى المدرسة من الجيران . وكثيرا ما يظهر هذا عند الصبى بمجرد بدء حياته المدرسية

هـ ـ التهتهة : تتمثل فى مظاهر كثيرة اهمها تكرار الحروف او المقاطع الاولى من الكلمة . او قد تحصل من تكرار الكلمة كلها . وسببها فى الغالب قلق واجهاد عصبى ، او توتر انفعالى . وهى تبدأ فى مرحلة متقدمة يضعها بلانتون حوالى الثانية والنصف او السادسة . وهو يختار هذين العمرين لانهما يبدآن «فطام» الطفل . فالاولى فطام من حياة الوحـــدة والاهتمام بما يختص بالذات الى الاجتماع بالرفاق الصغار وتبادل اللعب . بينما العمر الثانى فطام من بيئة المنزل ودخول الى بيئة المدرسة الواسعة المليئة بالسلطات الجديدة والزملاء الجدد. والتكيف فى كلتى المرحلتين ليس بسهل بالنسبة للطفل ، وكثيرا ما يسبب التهتهة. ويلاحظ ان هناك مواقف معينة تستثير التهتهة بينما هى فى غيرها غير واضحة ، كما لو وجد الطفل فى حضرة الغرباء ، او امام احد الوالدين ، او اذا دعى لالقاء نشيد امام الضيوف .

و ـ العقلة : تشبه التهتهة الى حد كبير . وهى توقف الكلام بعض الوقت نتيجة لتصلب العضلات الصوتية . والتوتر الانفعالى هو السبب فى معظم الحالات ، بل انها لتصاحب التهتهة عند الكثيرين . ومن اعراضها عدم خروج أى صوت ، ثم تلين العضلات فيندفع سيل من الكلمات يتوقف فجأة ريثما تلين العضلات وهكذا . وفيما عدا اللثغة نجد الحالات الثلاثة الأخرى يزداد فيها عدد البنين عن البنات .

مادة الكلام : من المهم أن نعرف ما يتحدث عنه الطفل فى أعمار مختلفة

لا لأنه يشير الى حجم المحصول اللغوى وقدرته على ربط الكلمات فى جمل فحسب ، بل لانه سبيلنا الى تعرف شخصيته وميوله المسيطرة فى وقت ما

وواضح أن الكلام فى حالة الطفل الصغير يصحب النشاط الحركى ، فهو فى الجرى واللعب وتناول الطعام والاستحمام تسمعه يغمغم راضيا ، أو يصرخ منتشيا، أو يزجر غاضبا..، أو هو بعد هذا يتحدث اذا تعلم الكلام. واذن فالتعبير الصوتى هنا هو نوع من التفكير بصوت عال . ولكم تسمع الصغيرة وهى تلعب بدميتها تقول « أغطى كوكو » اذ تفعل هذا ، حتى ولو لم يكن فى الحجرة من يصغى لحديثها ويرى سميث أن نسبة قليلة جدا من كلام الطفل الصغير يدور فى هيئة محادثة أو حوار ، بل هو يقارب كثيرا « المونولوج » فى صورة تعليق متصل على الأعمال التى يقوم بها كما تتتابع .

فى الطفولة : تعددت الابحاث العلمية على أحاديث الاطفال محاولة فى معظمها أن تسجل ما يقولونه فى أوقات يظنون فيها أنهم غير مراقبين . وعلى العموم فقد وجد أن معظم الاحاديث تدور حول الطفل وميوله ، بينما القليل جدا يتخذ أساسه موضوعات لا تمسه .

ولقد حلل بياجيه كلام الأطفال وسط رفاقهم وقسمه اساسيا الى : ا ـ كلام ذاتى ب ـ كلام اجتماعى ففى القسم الأول يتحدث الطفل اما لنفسه أو للذة يشتقها من الاتصال بآخر يتصادف وجوده دون أن يوجه هذا الاخير اهتمامه اليه . وفى الثانى يدرج بياجيه كل ما من شأنه أن يوثق العلاقة بين الطفل والبيئة الاجتماعية .

ورأى بياجيه أن القسم الأول هو السائد بين ثلاث وخمس سنوات ويتراجع الى ٤٥ فى المائة بين الخامسة والسابعة . ولكن بحث بياجيه قد تضاءل بعض الشىء فى السنوات الاخيرة منذ أن تقدمت مارك كيرتى وشيرلى بابحاثهما الدقيقة، وألقى سميث وسبراج بنصيبهما فى الميدان . وها هى مارك كيرتى تتخذ أساس بحثها تقسيم بياجيه بشكل مبدئى ـ فالتقسيم القديم فى البلاغة الى جمل خبرية وانشائية وما يخرج منها من الاستفهام والامر والتعجب لا يحسن تطبيقها على كلام الطفل الصغير ـ فتخالفه خلافا صارخا فى بعض

الاحوال وعلى الاخص القسم الاول . . الاستجابات الذاتية . . باقسامها الثلاث التكرار ، والمونولوج ، والمونولوج الثنائى أو الجمعى فهى لم تزديوما

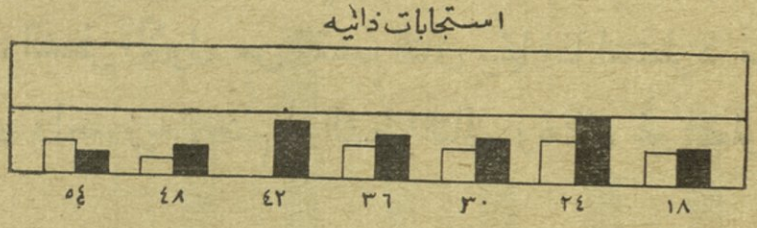

عن ١٠ فى المائه كما يرى فى الرسم وكان المتوسط بشكل عام حوالى ٣٫٦ فى المائة . ولقد يكون الخلاف كما قالت نتيجة عدم اتفاق على مدلول الذاتية ، أو اختلاف فردى فى الاطفال انفسهم ، او اختلاف فى ظروف التجربة . وما من شك فى ان حديث الاطفال هو فى الغالب ذاتى على اساس انهم يتحدثون عن انفسهم وأعمالهم ، ولكنه فى نفس الوقت اجتماعى فى اتجاهه الى شخص أو اشخاص يتوقع منهم المتحدث أن يستمعوا اويجيبوا ، ولعلنا فى ذلك على حق فى اعتباره ليس اكثر ذاتية من معظم احاديثنا نحن الكبار

اما الكلام الاجتماعى فقد قسمته ماك كيرتى اقساما سبعة كان اكثرها ترددا دون منازع ما اسماه بياجيه المعلومات المعدلة حيث يتبادل الطفل الافكار مع الآخرين فتتأثر اعماله adapted information فلقد وصل الى حوالى نصف عدد الاستجابات المفهومة فى كل عمر ، ولذا قسمته هو الاخر الى :

١ - التسمية : حيث يسعى الطفل لمعرفة اسماء الاشياء والاشخاص ، ويبدو كثير التردد فى سن ١٨ شهرا اذ يصل الى ٨٧ فى المائة ثم يتناقص حتى يصل الى ٢٥ فى سن ٤ سنوات . ولعل ماك كيرتى فى هذا تعزز ما قلناه من ان محصول الطفل اللغوى يبدأ اولا بالاسماء الكثيرة الاستعمال ثم يتجه بعد هذا نواحى اخرى

٢ - ملاحظات عن الموقف المحيط بالطفل او مرتبطة به اجمالا ، وكلها تظهر تزايدا بازدياد العمر . فمثلا اذا قدمت للطفل سيارة وقال « الله او تمبيل » وضعت هذه الاستجابة تحت القسم الأول ، واذا قال « ده فيه عجلة زيادة » وضعت تحت الشطر الأول من القسم الثانى بينما اذا استطرد من هذا الى القول « عندى واحد زيه » ضم الى الشطر الثانى . وهناك غير المعلومات المعدلة

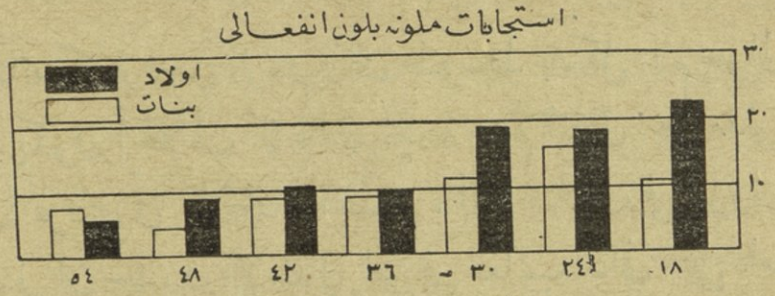

الاستجابات الملونة بلون انفعالى كما لو عبر الطفل عن نشوة أو انتصار أو خوف أو غضب . وقد وسعت ماك كيرتى فى هذا القسم ليشمل اكثر مما عناه بياجيه بالاوامر والرغبات والتهديدات ، ويبدو من الرسم أنها تتناقص بازدياد العمر ، فالطفل يصبح أقدر على التعبير عن رغباته وانفعالاته بطرق اكثر صقلا ومرونة .

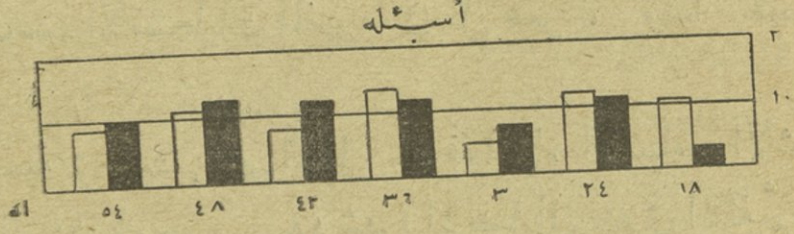

أما الأسئلة والأجوبة فهما قسمان آخران يبدو تزايدهما كلما نمت لغة الطفل وازداد فهمه للاخذ والعطاء . ويرى سميث أن معظم الاسئلة فى سن سنتين تأخذ صيغة « ما هذا » ، « وأين هذا » فالطفل هنا يجمع اسماء الاشياء

يتعرف معالم البيئة . فاذا قارب الرابعة أصبح يتساءل عن أسباب حدوث الاشياء أو كيفية حدوثها ، وهو هنا قد بدأ يفكر ويتعرف العلاقات .

وعلى العموم فالاسئلة بعد الخامسة والسادسة تتراجع كثيرا ، ولو أن الاطفال من بيئات أكثر ثقافة يسألون أكثر من زملائهم الناشئين فى طبقات اقل ، كما أن الطفل الوحيد تزداد أسئلته عن زميله الذى حباه الله أشقاء فى منزله

بقيت بعد هذا أقسام ثلاث . . النقد حيث يعلق الطفل على سلوك من حوله او اعماله هو أو يتذمر من الموقف بشكل عام .. والتعبيرات الاجتماعية التى تعلم الطفل أن يرددها من باب الاتيكيت « من فضلك » ، « مرسى » ، « تفضل » ، « باى باى » وهكذا .. وأخيرا المواقف التمثيلية حيث يقلد الطفل احاديث الآخرين ممسكا بالتليفون مثلا ، أو أصوات الحيوانات « باوواو » « مومو » ، « مياو مياو » وهكذا ، ولقد يرى بياجيه أن يدمج هذا القسم الاخير تحت الاستجابات الذاتية ، ولكن من الواضح أن عددا منها له اتصال وثيق بالمواقف الاجتماعية . وعلى العموم فهذه الاقسام الثلاث كان ترددها ضئيلا مما يدعونا للمرور بها سريعا

فى المراهقة والبلوغ : من الصعب أن نلمس بدقة ما يدور حول كلام الفتيان والفتيات ، فطابع الحذر والتحفظ يميز معظم مناقشاتهم فى حضرة

الكبار . واذا كان لنا أن نعتمد على تجربة ستوك ووست حيث قام واحد من كل مجموعة من الشبان بتسجيل ما يدور من أحاديث بين بقية الاعضاء خرجنا بأن من أكثر الموضوعات ترددا المشاكل الاجتماعية ذات الطابع الشخصى كالموضوعات الجنسية والتدخين والمسليات . أما تلك التى تحمل طابعا عاما كالمسائل السياسية والسلم فهى اقل ترددا

وعلى العموم فالفتيات يملن للاحاديث فى الموضوعات الثقافية كالموسيقى والاسفار ، والتمثيليات ، والفنون .. أما الشبان فيستغرق اهتمامهم موضوعات الاختراعات ، والالعاب الرياضية والمشروبات . وبعد فالجنسان يشتركان فى الاهتمام بالمغامرات الغرامية ، والتقبيل والرقص ، والمقابلات لاعضاء من الجنس الآخر ، والزواج ، والانظمة والتقاليد المدرسية أو الجامعية . ومن عجب أن موضوعا كالملابس كان يظن أنه منزو فى حالة الفتيان فاذا بالتجارب تثبت أنه يعالج من الجنسين بنسبة كبيرة تكاد تكون متساوية .

وبعد فاذا كنا قد عنينا فى هذا الفصل كما هو العادة بذكر العمر الذى يبدأ عنده الكلام ثم يتطور ، فمن المهم أن يلاحظ الآباء هذه الاعتبارات . فاذا تأخر طفلك عن الكلام حتى سن سنتين فلا بد أن فى الامر خللا . وهذا الخلل - كما هو الحال فى التراجع الجسمانى والحركى كما بينا - لا يقتصر أثره على اشياء سطحية مثل صعوبة فهمنا لما يريد فى اللحظة الحاضرة أو صعوبة اصلاح ما ينتج من أخطاء ، بل إن الخطر ليتعداهما الى التأثير على سعادة الشخص ونجاحه فى الحياة .

بل لعل التأخر الكلامى والتلعثم هما أسوأ أثرا من التراجع الحركى فالكلام وسيلة اجتماعية قبل كل شىء ، واذن فالاصابة فيه تهز مركز الفرد فى الحياة الاجتماعية كلها . والطفل الذى يتهته أو يلثغ سرعان ما يصبح أضحوكة رفاقه فى الفصل اذ يقف ليسمع قطعة محفوظات أو يتحدث أثناء اللعب ، ولذا نجده يتراجع وينزوى ويشعر بالغيرة والخيبة والنقص ، وقد سبق أن تناولنا ما تعكسه هذه الاحساسات على حياة الشخص

وطبيعى أن النمو اللغوى يتأثر بعوامل عديدة لعل على رأسها الذكاء ولنا فى تجارب ميد وتيرمان أدلة واضحة ، فبينما وجد ميدان متوسط العمر الذى يبدأ عنده الكلام عند الطفل العادى ٨ر١٥ شهرا اذا به يتأخر عند ضعاف العقول الى ٤ر٢٤ شهر مقابل ٧ر١١ شهرا عند أولاد تيرمان الموهوبين. والواقع أن حجم المحصول اللغوى فى أى عمر يعتمد أساسيا على النمو العقلى للطفل لدرجة أن معظم علماء النفس يعتبرونه أحد الاختبارات المفضله للذكاء.

وهناك غير هذا عامل كالصمم أو فقد السمع فهو بطبيعته يبطىء تعلم الطفل الكلام والنطق الصحيح ، فضلا عن تحديده لعدد الكلمات التى يستخدمها فالطفل يتكلم عن طريق التقليد .. ثم عامل العناد والتحفظ ، وهى فترة يمر بها عدد كبير من الاطفال وهم يقفون على عتبة تعلم الكلام ، وهى اما طور من أطوار النمو الاجتماعى وفيه نجد الطفل فجأة ودون سبب واضح قد تصلب فى ثورة من التحدى ما بين منتصف السنة الثانية ونهاية الثالثة ، وبدا هذا السلوك فى كل شىء حتى ما يختص بالنوم أو الطعام أو مقابلة الغرباء أو نظم الحياة المنزلية الروتينية .. أو هى نتيجة لدفعنا له للكلام عن طريق الاغراء أو التهديد . بل لقد تجد الطفل قد أضرب كلية عن الكلام بعد أن درج قليلا فى هذا السبيل لخوفه من أن يستثير الضحك كما يحدث كثيرا اذ نتخذ من لهجته الركيكة مادة للتسلية نظل نستعيدها فى جلساتنا العائلية وكأنما الطفل اضحوكة خلقت للترفيه عنا .

وبعد فالبيئة الاجتماعية فى غناها وخصبها ، أو فقرها وجدبها . . ثم الامراض التى تصيب الطفل فى أول عهده بالحياة فتمنعه من الاتصال الكلامى بالآخرين وتقلل من دوافعه للكلام فهو يجدما يحتاجه قبل أن يسأل، هى كلها عوامل تحدد الى مدى كبير النمو اللغوى .

ولكن اذا كان كل ما ذكرنا نواح لا نملك لها دفعا فى معظم الاحوال فلعل من الانصاف أن نقرر انا ندفع الطفل بحمقنا الى التراجع اللغوى .. من الانصاف ان نهمس فى آذان بعض عائلاتنا المصرية وخاصة الغنية منها فنقول إن المربية الالمانية وان كانت عنوان الرقى والاهتمام بالتربية فى مجتمعنا المصرى ليست دائماً الغاية الاخيرة ، كما أن ارسال الطفل فى سن الثالثة او الرابعة الى مدارس الراهبات أو المدارس الانجليزية والامريكية ، وهو عنوان الأخذ بالاساليب الحديثة حتى عند عائلاتنا المتوسطة التى تقلل من شأن كل ما هو مصرى أو يحمل طابعا مصريا ، ليس دائما المثل الاعلى فى التربية . فاذا كان للمربية الأجنبية ميزاتها ، واذا كان للمدارس الأجنبية منافعها ، فهى أولا

أخيرا مثل سيء جدا للكلام ، ومن الخطر ان يعتاد الطفل تكوين صور سمعية خاطئة . واذا كان الأوروبيون يتناولون أطفالهم منذ الصغر بالتدريب المنظم على النطق مستعملين كما يرى الاجهزة والمرايا التى تعكس ما يتتابع على لسان والحلق من مصاحبات للاصوات والمخارج، فهل نسعى نحن بأيدينا لافساد نطق أطفالنا ؟

ومن المؤسف أن نجد هذه النزعة للاخذ بالاساليب الاجنبية متفشية جداً فى منازلنا . يندر أن تدخل منزلا فيه طفل فى سن الثالثة أو أكثر الا وتجد الدين يعرضانه بزهو أمامك ليذكر أسماء أثاث الغرفة أو أعضاء وجهه أو يلقى بتحية المساء بلغة اجنبية كالانجليزية أو الفرنسية . وننظر نحن فى اعجاب هذا دليل الرقى الاجتماعى حقا . وتصل المسألة الى اسوأ درجاتها عند ما يتعلم الطفل لغتين فى وقت واحد ، العربية ولغة أخرى أجنبية ، كما يحدث عند ابنائنا الذين يجلبون مدرسة للموسيقى وأخرى للفرنسية ، أو كما يفعل بعض مواطنونا بارسال الطفل لرياض أطفال أجنبية وعذرهم فى ذلك أن التربية الفرنسية أصلح بكثير من البيئة المدرسية المصرية ، كما أن الطفل اذا تعلم اللغة الرابعة تكلمها « كاحد مواطنيها » . . !

وأود لو أؤكد للقارىء الكريم أن هذه أضمن طريقة لتعطيل تعلم الطفل الكلام . ولا تظن ياسيدى أن عشرات المقطوعات التى يرددها الطفل الصغير بالفرنسية عندما يعود من المدرسة هى كلام . فمظم الاغانى والصلوات والاناشيد يفقه له الصغير أى معنى، وانما يصاحبه باشارات محفوظة . ومن المؤكد أن هناك ارتباك واضح نتيجة لمحاولة الطفل أن يقول شيئا لشخص فى لغته الوطنية نفس الشيء لشخص آخر فى لغة أجنبية . نعم لابد ان تفكير الطفل يضطرب ، وسيتعمد ان يقلل من الكلام فهو قلق حذر يفكر فيما اذا كان هذا اللفظ هو المطلوب فى هذا الموقف أو مرادفه فى اللغة الاخرى .

وهكذا يجد الطفل نفسه مضطراً لتعلم لفظين لكل جسم أو عمل يو
لو يتحدث عنه وكل فكرة يرغب فى التعبير عنها ، كما انه مضطر لتعلم مجموعتي
من القواعد هما فى الغالب غير متفقتين . فاذا لم يكن هذا العمل سهلا بالنس
لطالب المرحلة الابتدائية ونحاول اليوم أن نخفف عنه العبء ، بل ليس ه
بسهل لطالب الجامعة الذى يتعلم لغات قديمة كاللاتينية والفارسية فماذا يكو
حال الطفل فى الرابعة وهو لما يتقن اللغة العامية الدارجة بعد.. ؟ !

الفصل الثامن

النمو الخلقى

يختلف الخلق الحميد باختلاف الجماعة وما وضعته من مستويات . واذا كانت الزوجة فى بعض قبائل الهند ترى أن من أوجب واجباتها أن تحرق نفسها حية عند وفاة زوجها فما ينبغى أن تعيش بعد هذا الرزء الجلل ، أو اذا كان الرجل فى بعض جزر المحيط الهادى يرى أن من دواعى الشرف والفخار أن يقدم فتاته الجميلة الناهدة الى الشجرة المقدسة التى تلتف أحراشها كالخطاطيف المسممة على الفريسة فتسحق أضلاعها ثم تلتهمها ، بل اذا كان التاريخ يذكر لنا ان اسبرطة كانت تخضع أطفالها وغلمانها لنظام من القسوة والوحشية يخرجهم غلاظا شدادا لايرهبون الموت ، حتى لقد كانوا يمنعونهم الطعام الا النزر اليسير الذى ماكان يسد رمقهم ويوحون اليهم أن يسرقوا مااستطاعوا سرا فاذا اكتشفوا فالويل لهم كل الويل . . !حتى لقد حكى أن أحدهم تسلق سور احدى الحدائق وسرق ثعلبا سمينا وأخفاه تحت ملابسه عندمارأى أناسا قادمين . وأعمل الثعلب الحبيس أنيابه ومخالبه فى لحمه والمسكين صابر متجلد لايجرؤ حتى على الامراع فى مشيته حتى بقر الحيوان بطنه ومزق أمعاءه فسقط ميتا دون أن يتأوه . . ! أقول اذا كان هذا يحدث فى بيئات أخرى فهو يرينا كم تختلف المبادىء الخلقية من البيئة المتمدينة الى غيرها . واذا فالخلق الحميد هو التمشى مع مايضعه المجتمع من دستور خلقى

وتبعا لهذا نرى أن الطفل الحديث الولادة لاهو بالحميد الخلق ولا برديئه . ويمكننا أن نرفض الفكرة الدينية القديمة القائلة إن الطفل يولد وهو يحمل بين جنبيه نوازع « الخطيئة الأصلية » التى بدأت بعصيان آدم وحواء أوامر الله وخروجهم من الجنة وتفرعت الى مظاهر كثيرة من السلوك الشرير

فيجب أن نطهر الطفل منها بالعقوبات فى كل مناسبة . كما ذهب البعض الى التطرف فى الناحية العكسية فأكدوا أن الطفل يولد « بريئا طاهرا كالملاك » وانما تفسده التأثيرات العالمية . نستطيع الآن أن ندحض هذين الرأيين فالخلق لابد أن يتعلم ويكتسب .

وقبل أن يسلك الطفل سلوكا حميدا أو العكس لابد أن يتعلم مايعتقده المجتمع الذى ينتمى اليه حسنا أو رديئا . وتمر الطفولة وهو لاينزال يتعلم هذا بالتدريج ، تارة عن طريق التعليم المباشر من الوالدين والاساتذة فى المدارس وطورا عن طريق تقليد سلوك أولئك الذين يتصل بهم أوثق اتصال . فاذا صحب هذا السلوك الاجتماعى المقبول رضاء من ناحية الطفل فمن الواضح أنه سيكرره فيصبح بمرور الزمن عادة . واذا فوظيفة الارشاد والتوجيه من جانب السلطة المنزلية والمدرسية هى أن يصلا بالطفل الى مرحلة يتمشى فيها مع مستويات السلوك الطيب دون حاجة للضغط والارهاب . ولايمكن أن يتأتى هذا إلا اذا تعلم الطفل أن يفرق بين الخير والشر وتكونت لديه الرغبة فى اتباع مايراه المجتمع صوابا لأنه يتوقع عن هذا رضاء المجموعة وثوابها

هذا الانتقال من السلطة الضابطة الخارجية الى الدخلية . . الانتقال الذى يتبين فى تنظيم السلوك من الداخل بحيث يصحب العمل شعور بالمسئولية الشخصية وبحيث يتضمن تفضيلا لسعادة المجموع وتراجعا للرغبات والفوائد الشخصية الى مرتبة ثانوية . . هذا الانتقال هو السلوك الخلقى الحميد حقا . وبما أنه فى هذا الضوء معقد كل التعقيد فمن النادر أن يوجد فى الاطفال بل تمتاز به سنو المراهقة . ولكن ظهوره فى هذه المرحلة الاخيرة او عدم ظهوره يعتمد الى حد كبير على نوع التربية الخلقية التى نالها الطفل فى مدى سنين عديدة

فاذا كنا نريد أن يتعلم الطفل ما هو الصواب وماهو الخطأ الخلقى فيجب أن نفهمه بأسرع ماتسمح له سنه لم نعتبر هذا خطأ وذاك صوابا . .

فالكثير منا يعاقب الطفل والأخير لا يدرى . وأيه حيرة تنتابه أكثر من أن يسمح له بأخذ قطعة من البسكويت من صندوق الحلوى دون أن يخبرنا ثم يعاقب لأخذه قلما من الرصاص من درج أحد زملائه فى المدرسة. وكيف تسمح له بأن يلاعبك ويضاحكك أمام الجميع ، وتمتد يده الى فخذك أو ظهر يدك فتضحك وأنت تروغ منه ، ثم اذا به بعد لحظة يمدها الى صدغك فى مزاح فيحمر وجهـــك وتعاقبه فى خشونة ..! كيف يقدر الطفل ما يرتبط بضربة الوجه من اهانة خلقيـــة تجمعت فى أذهاننا نحن الكبار على أثر عشرات المواقف والاعتبارات ؟

ثم اذا كنا نريد أن نضمن أن يسلك الطفل حسب الصالح العام فلا بد أن ينال فرصا عديدة ليساهم فى النشاط الاجتماعى مع رفاقه الصغار . وكم يؤسفنا أن نوجه هذا القول للعشرات من عائلاتنا المترفعه التى تحرم الطفل من النزول للشارع أو الاتصال بغيره من الصغار لئلا يفسد هذا المستوى الفاضل الذى يسير عليه فى المنزل ، كما نوجهه للمئات من عائلاتنا التى تدلل الطفل وتضع نفسها رهن اشارته فتحتفظ به فى المنزل ولا تأمن عليـــه من الرفاق الذين قد يعتدون عليه أو يضايقونه أقل المضايقة. الى هذا العدد الكبير نقول ان الطفل فى المنزل وبين الكبار يتعلم من الناحية الخلقية جانبا واحدا ويغفل الثانى وهو الاهم ، فهو فى المنزل « ينال » قطعة من الحلوى بمجرد أن يطلبها ، ولكنه فى الخارج مع الصغار لا يستطيع أن « ينال » الحلوى من زميل الا اذا كان قد « بذل » شيئا مامقابلها منذ لحظة .هذا التعامل الاجتماعى. هذا المبدأ القائل بالأخذ والعطاء .. لا يمكن أن يتعلمه الطفل « المدلل »

مراحل النمو الخلقى : كما رأينا فى الفصول السابقة من أن هناك خطوات يسير فيها كل نوع من النمو يمكننا هنا أن نتبع المراحل التى يسير فيها النمو الخلقى . وقد درس « ماك دوجل » هذه الناحيه ووضع لها أربع مراحل ، وجاء بعده بياجيه فقسمها الى خمس: مستوى العادة ، حيث ارضاء الانفعالات

هو السائد ..والتمشى مع مطالب البالغين .. وتعديل السلوك حسب ما يراه الرفاق..وتفهم الدوافع الاصلية للسلوك .. وأخيرا تقرير القواعد والمبادىء والمثل . وأخيرا تبعهما ديوى وتفتس فاعتبراها ثلاثا : السلوك المدفوع بالحاجات والرغبات غير الخلقية كالبيولوجية والاقتصادية ..والتمشى مع مستويات الجماعه تمشيا أعمى لا عن اقتناع ..وأخيرا السلوك الناتج عن نقد وتحليل واقتناع بما تضعه الجماعة .وسنحاول بعدأن نسير على نهج ماك دوجل فى بعض الاسهاب أن نقيم هيكلا عاما يجمع مايراه علماء السلوك الخلقى فى هذا الصدد .

يعرض ماك دوجل فى كتابه « علم النفس الاجتماعى » وتحت الفصل الذى يسميه « نمو الذات » فى أسلوب جميل وعبارة سلسة واضحة نقطا أربعة يخطوها الطفل فى نموه الاجتماعى والخلقى ، أو يخطو معظمها ، منذ فجر حياته الى أن يشب ويتكامل :

١ ـ المرحلة التى يتحدد فيها السلوك حسب اللذة أو الألم المشتقين من الاحساسات الجسدية .

٢ ـ المرحلة التى يحدد سلوك الطفل فيها الثواب أو العقاب المستمدين من السلطة المنزلية .

٣ ـ المرحلة التى يكون العامل الاول اثناءها المدح أو الذم الصادرين من المجتمع الخارجى .

٤ ـ المرحلة الاخيرة وهى أرقاها ..حيث يتصرف الفرد حسب المدح أو الذم المشتقين من قوة كامنة تنبع من داخله ..قوة مستقلة عن المجتمع الكبير الذى يعيش سوادنا الاعظم فيه ويخضع لتقاليده ونظمه وأحكامه

وسنتناول هنا كل نقطة من النقاط السابقة محاولين عن طريق الامثلة أن نبين كيف تتغير فكرة المرء عن السلوك الخير أو السىء تبعا لخروجه فكريا من بيئة لاخرى .

ولنبدأ بالمرحلة الاولى .. حيث أساس السلوك اللذة أو الالم المستمدين من الاحساسات الجسدية . وواضح أن هذا هو السائد فى حالة الطفل الرضيع بنوع خاص . ولقد اشرنا فى مناسبة سابقة الى ان هذه هى الطريقة التى يستكشف بها الطفل الحديث الولادة العالم المادى الذى يحيط به . فهو اذ يلقى بذراعه فى حركة عشوائية فيصطدم بحاجز الفراش الصلب يتألم .. ثم اذ يلقيه فى مناسبة أخرى وهو على حضن امه فيعثر بثديها يشعر بالراحة والدفء فيتلذذ ويسر ، او قد يمد يده فتعثر بفمه فيمص ابهامها ويشتق من هذا لذة جسدية فيتكرر السلوك ، تماما كما يحدث لو عثر بأعضائه الجنسية .

واذن تتحدد قوالب سلوك الطفل فى السنتين او الثلاث الاولى حسب ما ينال جسده من الم او تلذذ . فهو قد تعود الا يقترب من هذه الآنية لانها ساخنة وقد اكتوى جسده فى مناسبة سابقه بلسعة الحرارة اذ حاول ان يمسكها .. تماما كشعوره ازاء ذلك الشيء اللامع الحاد الذى يسميه الكبار «موسى» فهو لا يقترب منه او يلمسه لانه تعلم انه اذا فعل فسيصاب جسده بألم ممض كما حدث لاصبعه يوما .

وهكذا فالاحساس الجسدى .. اللذة او الالم الجسمانيان . هما وسيلتان نافعتان لتحديد قوالب سلوك الطفل فى اول عهده بالحياه . ولكنهما وسيلتان بدائيتان كما يرى ومجال عملهما محدود ، فأنت لا تستطيع ان تجرب كل شيء حتى اذا انتهى بلذة جسمانية تبعته واذا آلمك توليت عنه كما حدث للطفل الذى لسعته المكواة او الآنية الساخنة . فأنت لا يمكنك ان تجرب السقوط من النافذة مثلا حتى اذا عرفت بالتجربة انه مؤلم لم تعد اليه . وهناك غير هذا آلاف الامثلة لاعمال نقوم بها او نعرض عنها دون ان نجربها

ولكن ليس هذا هو الميدان الوحيد الذى تقصر عنه هذه المرحلة ، فالأهم من ذلك أن الحياة ليست كلها لذة جسدية أو ألم جسمانى . . بل ان الأمر على العكس كما يبدو لى ، فليس كل ما يسبب للرجل الفاضل لذة جسدية

عاجلة يتبعه أو ينتج عنه ضرر جسدى يعرض عنه. بل إن العاقل كثيرا ما يضحى بلذة الجسد العاجلة الزائلة فى سبيل لذة الروح الدائمة التى كثيرا ما تتحقق على حساب الجسم المادى ،وأمامنا التضحيات الفذة التى قدمها الانبياء من قديم الزمن اذ اوذوا وطردوا واضطهدوا..وجرح بعضهم وهو يقاتل دفاعا عما رآه الحق والنور .. وصلب البعض الآخر ومات وعلى فمه دعوة مباركة.. مات وهو فاتح ذراعيه كأنما ليتقبل البشرية الى صدره الدامى

ليس هذا سلوكا مستمدا من اللذة أو الالم الجسمانيين وليقس القارىء على هذا أمثلة البطولة التى يسردها لنا التاريخ .. اولئك الذين ضحوا بحياتهم رخيصة فى سبيل الوطن أو لانقاذ زملائهم .. لا بدأن سلوكهم قد تجاوز المرحلة الاولى الى ما هو أرقى . وأكبر ظنى أن معظمنا قد سمع عن معركة اليرموك التى دارت بين العرب والروم وسقط فيها كثيرون من الجانبين . وكان من عادة القوم أن يمر السقاة بين الجرحى والمشوهين بعد انتهاء المعارك ليبردوا بالمياه اللهيب الذى يشعر به الجندى الجريح فى جوفه وقداستبد به الالم . ويحدثنا التاريخ عن أحد هؤلاء السقاة وهو يقترب بانائه من جندى يئن ويتقلب على الارض وهو فى سورة الالم ، حتى اذا أخذت عيناه الخافقتان مرأى الساقى هم بفتح فمه ليتلقى الماء البارد الرقراق ثم آذ به يعدل عن هذا بقوة غلابة ، . ويشير باصبع مرتعش الى جندى من جنود الروم أى من الاعداء يرقد على بعد خطوات منه وكأنما يقول اسقه فهو أحق منى بجرعة من هذا الماء الجميل فحاله أسوأ منى .ويذهب الساقى الى الجندى الرومانى وهو يسبح فى بركة من دمائه فيتحامل هذا على نفسه ويزم شفتيه ليشرب ثم يتراجع عن هذا بمجهود قاهر ليشير الى زميل آخر. ويظل الساقى ينتقل من جريح الى آخر حتى يعود الى الاول فاذا به قد مات فيسرع الى الثانى ثم الى الثالث ومن بعده فاذا بهم قد قضوا نحبهم جميعا ، وكل منهم يؤثر زميله أو حتى عدوه على نفسه وهو على قيد خطوة من الموت

ما أبعد هذا السلوك عن ارضاء مبدأ اللذة أو الالم الجسمانيين ..!وما لنا نقلب صفحات التاريخ البعيدة ولدينا عشرات الامثلة من الحياة اليومية ؟ ان الموظف وهو يسعى ويكد ويحمل حتى عن زميله بعض أعباء العمل، والطالب وهو يسهر الليل يعمل ويجد ليجتاز امتحانه ، والطبيب وهو يترك فراشه فى منتصف الليل ليعود أحد المرضى ، والأم وهى تقضى الليل جالسه الى جانب طفلها المريض . وخروجك من منزلك للصلاة أو لسماع محاضرة أو تنفيذ الموعد مع أحد الرؤساء ، كل هذا وأنت مرتد ملابسك الضاغطة التى لو كنت فى المنزل لتحررت منها .. هذا السلوك وعشرات غيره لا يمكن أن يكون مجاراة لمبدأ اللذة أو الالم الجسمانيين .

ولكن ليس معنى هذا أننا جميعا قد تركنا هذه المرحلة المبدئية من السلوك الى ما هو أرقى ، فهناك مئات الامثلة لامن الاطفال الحديثى الولادة فحسب فسلوك الاطفال فى هذه الحالة لا يعتبر شذوذا وانحطاطا وانما هو تمش مع الطبيعة . وانما من الكبار أيضا . ولدينا فى حالات الرعاع والمستهترين سوق فسيح ، . وما ظنك برب الاسره الذى يتسلم مرتبا شهريا يمكنه بالكاد أن يسد حاجات منزله وعائلته لو تصرف تصرفا حكيما ، ثم اذا به ينفقه بغير حساب بين حانات الخمر وأصدقاء السوء ، لكى يظفر ببضع ضحكات رنانة جوفاء أو يتمتع بلذة الخمر الجسدية العارضة . ثم يستفيق فى اليوم التالى وقد ذهب الحلم وترك وراءه كابوسا ثقيلا .. بين أطفال جياع يتصايحون ويصرخون وهو عن عونهم عاجز قاصر ، وبين عمل مكدس متراكم يحتاج انجازه لسهرات طويلة لا قبل له بها فقد خدرت الخمر أعصابه فأضحى خائر العزيمة ، وبين دائنين يلاحقونه آناء الليل وأطراف النهار . ولكن مبدأ اللذة والالم الجسديين يسيطر على تصرفاته فلا يكاد يتسلم مرتبه فى الشهر التالى حتى يجد نفسه مسوقا الى الليالى الصاخبة والضحكات الرنانة الجوفاء .

ثم ما قولك فى المرأة التى تثور على الحياة الزوجية الهادئة الهانئة فى سبيل

لحظات التمتع الجسدى الزائل . وهناك بين ضمات القوم وقبلاتهم تخلق عالمها من الورق المزخرف البراق . بين كأس تبعث فى دمائها حرارة دافقة ورقص يرسل فى أعضائها نشوة طاغية ، فتسلم جسدها على مذبح الشهوة البهيمية الدنيئة .. ؟ ولكن هـــذا القصر الذى بنته من الورق لا يحتمل أعاصير الحياة فيتهاوى على رأسها مخلفا حطاماً تذروه الرياح .. بين زوج مهين تركها على قارعة الطريق .. وأبناء يلعنونها ويركلونها بأقدامهم فهى لهم مصدر للشر والعار . ولكن مبدأ اللذة والالم الجسديين لا يزال يعمل عمله فى طبيعتها الدنسة فلا تملك سوى الانقياد الى ذلك التيار البهيمى الجارف لترجع بذلك صدى نداء الجسد الذى يسوقها الى حتفها بخطوات واسعة بعد أن قضى عليها خلقيا قضاء مبرما .

ننتقل بعد هذا الى المرحلة التالية من هيكل ماك دوجل الخلقى .. المرحلة التى تتمثل فى طاعة مبدأ الثواب أو العقاب الصادرين من الوالدين أو من يمثل السلطة المنزلية . ومن الواضح أن الطفل حتى سن السادسة أو السابعة يعتبر المنزل هو المحرك الاول لشئونه ، وأن والده هو مثله الاعلى يستمد منه الرأى والمشورة والارشاد ويقلده فى الحركات والاصوات ، وأن والدته هى مصدر العطف والحنان ، المستجيب لرغباته وأهوائه المتسلطة ، ولا عجب فعاطفـــة الامومة وما يتفرع عنها من انفعالات السرور والرضى الناتجة عن ارضاء حاجات الطفل الملحة كالامتلاء الجسدى اذا جاع ، والدفء والراحة اذ ينام الى جوارها أو تحتضنه الى صدرها ، والحماية من عدو خارجى أو من أوهامه وتصوراته ، كل هذا يجعل لعاطفة الامومة قوة واعتبارا حتى ليمكن أن يقال انها أوثق العواطف جميعاً . وهكذا نجد الصبى فى معاملاته المدرسية فى روضة الاطفال أو أوائل المدرسة الابتدائية خاضعاً لاحكام المنزل فخوراً بهـذا معتزاً به .

هنا تبرز التربية المنزلية كالعامل الأول والاساسى فى تحديد سلوك الطفل. فاحساساته الجسدية التى كان يطيعها فى العامين الاولين من عمره قد تركها جانباً بمجرد أن فهم أن هناك أباً وأماً يقضى فى كنفهما معظم أوقاته .. ويستمد من نظرتهما الى الحياة آراءه وتصرفاته . فهو يسارع الى ارضائهما لانه بهذا ينال رغباته وفى هذا لذة له ، ويبتعد عن إيلامهما لانه بهـذا يستحق الضرب والتأنيب وفى هذا ألم له .

بعد هذا تبدأ نظرة الصبى تتسع وتنمو ، فيرى فى زملائه فى المدرسة أو رفاقه فى نفس الحى المجتمع الذى يطيعه ، وهذه هى مرحلة العصابات حيث ايحاء الجماعة وزعيمها على أشده .. هذه المرحلة التى تثبت وتتسع عند المراهق فى المرحلة الثانوية فيتسع المجتمع الذى يسايره ، وهكذا يتراجع الوالدان الى الظل ويبدأ الغلام يتخذ من زملائه فى الدراسة من فصول أعلى أو من الكبار الذين يحطيون به فى الاوساط الاجتماعية التى يتقدم اليها مقاييس يحدد سلوكه على اساسها . فاذا رأى منهم موافقة أو رضى أمعن فى هـذا الطريق ولو كان فى هذا مخالفة صريحة لاوامر الوالدين .. واذا لاقى منهـم تحقيرا واشمئزازا نأى عنه ولو تسبب عن ذلك اصطدام بينه وبين الوالدين فى المنزل . وهذا هو مايدفع طالب المرحلة الثانوية لان يكون مع زملائه جبهة قوية متماسكة يطيع رأيها ولو كان فى هذا عقابه. فهو إذ يثور على السلطة المدرسية فيضرب عن الدراسة انقياداً لرأى الجماعة يشعر بالفخر، وهو مستعد لتحمل المسئولية الناتجة عن هذا وما يمكن أن تصبه السلطة على رأسه من غضبها دون أن يذكر أسماء زعماء الاضراب من زملائه . وهو اذ يدخن يشعر بالفخر ، لأنه أصبح واحداً من الجماعة التى ينتمى اليها ، والتدخين فى نظرهم عنوان الرجولة . ثم هو اذ يتسلل المنزل ليقابل اصدقاءه ويطول غيابه عن البيت يشعر بالفخر ، فالسلطة المنزلية التى كانت يوما مثار فخره وانقياده أصبحت اليوم عنوانا على الضعف والاستسلام والطفولة ، وهـو اليوم رجل يدين بآراء الجماعة التى ينتمى اليها ، وماذا يقول زملاؤه لو عرفوا

أن «بابا» و«ماما» لا يزالان يطبقان عليه قوانين الأطفال.. من عشاء مبكر الى نصائح وارشادات .. الى نوم تتخلله عنايتهما وتغطيتهما له خلال ساعات الليل . . ! ؟

وهكذا يجتاز الغلام العادى ما بين السادسة والثامنة الحد الفاصل بين المرحلة التى يسميها ماك دوجل الانقياد للثواب والعقاب الصادرين من السلطة المنزلية الى المرحلة الثالثة وهى الخضوع للمدح والذم اللذين يفرضهما المجتمع. ويصل هذا الانتقال الى أبرز صوره حوالى الثالثة عشرة ، وهى حالة مصحوبة دائماً بتوتر شديد ، فالسلطة المنزلية لا تحب أن تتخلى عن قيودها واحكامها وسيطرتها بسهولة ، والفتى لا يحب أن يدمغ طويلا بطابع الطفولة الذى يلتصق به لو أطاع أوامر الوالدين وظل بهذا منضوياً تحت لوائهما .

وواضح أن مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع هما فى تسهيل اجتياز هذه الحدود الفاصلة بين مرحلة ومرحلة . فكلما أسرع الطفل فى سن الثانية فى الخروج من مرحلة الاحساسات الجسدية ، وكلما أسرع فى التحكم فى تصرفاته لا على أساس اللذة أو الألم الجسمانيين ولكن حسبما يرى الوالدان ، كلما كان بهذا أقرب الى الرقى الخلقى . وبالمثل كلما سارع الطفل الى الخروج من دائرة المنزل الضيقة الى عالم المجتمع الصغير حوالى السابعة ثم المجتمع الواسع فى الرابعة عشرة كلما قرب من الكمال الخلقى . وواضح أن المرء كلما اتسعت نظرته عرف أنه لا يعيش لنفسه فقط كخادم لشهواته ولذائذه الجسدية .. ولا لاسرته فقط كمنفذ لرغباتها ومضح فى سبيل راحتها ، وانما للوطن فى مجموعه . بل قد يشعر أنه عضو فى جماعة عظيمة هى العالم كله .. لا فرق بين مصرى وأجنبى ، أو بين مسلم ويهودى . فاجميع أسرة متماسكة عليه أن يوجه همه الى ارضائها والنهوض بها ؛ هذا هو الفرد النامى المتكامل ، فاذا استطعنا كمربين أن نذلل هذه العراقيل القائمة بين مرحلة ومرحلة .. اذا استطعنا أن نخرج الى الحياة أفراداً يتصرفون كما يقول ماك دوجل فى المرحلة الثالثة حسب

ما تمليه عوامل المدح أو الذم من المجتمع الواسع الكبير فانما نهيء للعالم بهذا عوامل النهوض والسلام الدائم .

ولكن هل هذا هو ما يحدث حقاً.. ؟ أقولها والاسف يملا قلبي.. كم منا يقف عندالمرحلة الاولى .. مرحلة الاحساسات الجسدية .وكما فعل السكير الذى تناولنا حالته منذهنيهة فباع شرفه وعائلته وصحته للشيطان لقاء سويعات اللذة الخادعة التى لا تلبث أن تزول ، أو كما فعلت المرأة الساقطة التى عرضنا لها منذ برهة فقدمت هناءها ومنزلها وسمعتها قرباناً يحترق على مذبح الشهوة البهيمية الفاسدة ، هكذا يتصرف كثيرون ممن نراهم تصرفا أخرق.. منقادين وراء لذائذهم الجسدية ومبتعدين عن كل ما يسبب شعورا بالمسئولية أو بذلا للتضحية ، فهذا يسبب ألماً جسدياً لا قبل لهم بتحمله

وكم منا يقف عند المرحلة الثانية..! كم منا يعيش فى دائرة المنزل الضيقة فيستمد منه نظمه وآراءه ، ويقيس كل شيء بمقياس الوالدين المتعصب المحدود، وهكذا يعيش فى عالم آخر.. بعيداً عن المجتمع الفسيح ..عن الانسانيـــة بآمالها وآلامها . والسبب فى ذلك راجع للاسف الينا نحن ، اذ بتمسكنا الاحمق بالطفل وفرضنا عليه قوانيننا وأحكامنا وتدليلنا له واجابتنا لمطالبه وتعطيلنا لانفطامه الخلقى عنا خصوصاً فى دور المراهقة انما نقف حجر عثرة فى سبيل تكوينه الخلقى الصحيح .

أما المرحلة الثالثة فيصل اليها معظمنا ، اذ يتصرف على ضوء مستويات الجماعة ، ولكن أفراداً قلائل هم الذين يجتازونها للمرحلة الاخيرة اذ تسيطر عليهم قوة داخلية تلجئهم الى تنفيذ ما يرونه الحق ولو هبت الجماعة كلها لتثنيهم وتحولهم عن رأيهم ، أو لو اجتمعت مغريات العالم البراقة وقسوته الغاشمة لاعادتهم الى حظيرة المجتمع ، فلقد مروا فى المراحل الثلاثة الماضية وسموا عنها وقديماً وقف جاليليو وحده أماء علماء ايطاليا ومحاكم التعذيب ، يرسف فى الاغلال وهو شيخ فى الثمانين فما اختلجت له عين وما تراجع عن المناداة

بمذهبه الجغرافى فى وقت كان كل شخص يعتقد أن الارض التى يعيش عليها ثابتة لا تدور ..! وقديما ضحك العالم ملء شدقيه عندما أعلن باستور أن معظم الأمراض تنشأ عن مخلوقات دقيقة لا يزيد طول الواحد منها عن ١ على ٢٠٠ من المليمتر سماها الميكروبات. وحبس الرجل طيلة نفسه حياته فى معمله الصغير يناضل فى معركة من أنبل وأروع المعارك فى تاريخ البشرية جمعاء. وكسبت البشرية المعركة، بفضل ارادة لا تتزعزع، وعزم لا يلين. تلك هى الذروة فى النمو الخلقى وقليلون هم الذين يصلون اليها.

نظرة عامة: نخرج من كل هذا بأن النمو الخلقى يتخذ طريقين أساسيين:

ا ـ تكوين السلوك الخلقى الحميد

ب ـ تكوين الأفكار الخلقية الصحيحة.

ا ـ السلوك الخلقى: واضح أن افهام الطفل ما هو الخير والشر كدروس ليس كافيا. فلقد يخرج الصغير بانتاج ضخم من المثل والأفكار الخلقية ولكننا لا ننتظر منه أن يطبق هذا الفيض من المعلومات على تجاربه الحسية اليومية، فهذا لا يتوفر الا اذا اقتدناه ليكون عادات سلوكية. فالطفل قد يعرف مثلا أن من الخطأ أن يغش من زميله فى المدرسة، أو يأخذ النقود من محفظة والده، أو يفر من العقوبة التى توقع على من يرتكب جرما. ولكن هذه المعرفة مقصورة على الأفكار المجردة النظرية، ولا يمكن أن نتوقع أن يطبقها فى مواقف خاصة الا اذا وصل من العمر حداً يرى فيه من تلقاء نفسه العلاقة بين ما يعلم وما يمارس فى هذه اللحظة.

واذن فتعلم الطفل السلوك المستحب يتبع نفس القوانين التى تسير فيها أنواع التعلم الاخرى، فعليه أن يتعلم أولا أن يستجيب استجابات صحيحة لكل موقف من المواقف المخصصة التى يمر فيها، فهو فى أول عهده فى المنزل يتعلم كيف يتمشى مع مستويات السلوك داخل هذه الجدران الضيقة، وبعد هذا مع المدرسة بمجرد انتقاله اليها، فاذا أصبح عضوا فى جماعة اللعب فعليه أن

بسائر ما تضعه العصابة من دستور

واضح اذن أنه على قدر اتفاق هذه المستويات واجتماعها فى مجرى واحد تتحدد قدرة الطفل على رؤية أوجه الشبه بين موقف وآخر ، وهكذا ينتقل الى المرحلة التالية .. تكوين الدستور الخلقى والأفكار الصحيحة المجردة عن الخير والشر . أما اذا اختلفت وتقطعت بها الاسباب ، كأن يدين المنزل بأفكار معينة بينما تصرخ المدرسة فى واد آخر ، أو ينضم الصبى الى شرذمة من الرفاق لا يرعون عهدا او يقيمون للمدرسة والمنزل وزنا، أصبح من الصعب أن يجرد المسكين فى ذهنه ما يحتاجه الخلق من افكار كالحق أو الطاعة أو الواجب يمكن أن يحتفظ بها فتصلح فى كل المواقف . وكم من الشقاء والحيرة ينتابان الطفل إذ يعاقب هنا لأدائه عملا يمر فى موقف آخر دون تعليق ، بل وقد يعتبر فى ثالث نموذجا يحتذى فيستحق عليه كل تبجيل . . !

بل وحتى فى الموقف الواحد يجب أن تكون المعاملة من الثبات بحيث يكون الطفل للعمل قيمة معينة لا تتقلب أو تتأثر بالأهواء والنزعات ، كأن يخطىء الطفل فى حضرة الضيوف فلا ينهاه الوالدان ، أو يبالغ الأب فى موقف خبره الطفل فاذا استوضحه الاخير عن نقطة معينة اعتذر ببساطة « لا ياحبيبى دانا بس كنت باهزر . . ! » . يجب أن نواجه الموقف فى صراحة وجلاء ، ولتعتبر السرقة عملا خاطئا فى كل موقف ، سواء أخذ الطفل قطعة من البسكويت من دولاب الطعام ، أو زراراً قديما من منزل الجيران ، أو ورقة من فئة العشرة جنيهات . بل وحتى لو لبس الطفل جورباً كان يلبسه شقيقه الاكبر فلنفهمه مشروعية هذا العمل على أساس رضاء الاخير ، ولنحذر أن يرى الصغير أنا نبرر الموقف بمجرد كلمات .

والحق أن انتقال معرفة الطفل بالسلوك الحميد أو السيء من موقف لآخر لا يتأتى الا اذا تقاربت وجوه الشبه بين المواقف لدرجة أن يدرك الطفل العلاقة . ولقد وضح من تجارب هارتشورن وماى أن معامل الارتباط بين

الغش فى الاختبارات المتشابهة كالحساب وتكوين الجمل هو ٦٩٦ ر. مقابل ١٩٨ ر. بين الغش فى الفصل والغش فى المباريات الرياضية. واذن فالسلوك الخلقى لدى الصغار يتكون من عادات يتعلمونها مرتبطة بمواقف خاصة وهى لا تعمل الا فى مواقف متشابهة. ولنا أن نتساءل هل الطفل الذى تعلم ألا يمد يده الى محفظة والده ليأخذ نقودا تنتقل معه هذه العادة السلوكية فيما يختص بالعلبة التى تحتفظ فيها العائلة بالنقود الفضية ؟ ان النواحى الظاهرة للموقفين مختلفة ولذا يشك فى امكان الطفل رؤية ما هو مشترك على قدر وضوحه بالنسبة للكبير.

واذن فالتدريب الخلقى فضلا عما سبق يتضمن قيادة الطفل لرؤية العناصر المشتركة من المواقف التى تبدو متمايزة مختلفة، وهذا يتطلب بطبيعة الحال تقديمه لاكبر عدد من المواقف مشفوعا بالارشاد والتوجيه. وواضح أن هذه النقطة تحتاج من الطفل تحليلا من نوع معقد لا ننتظره من الطفل الصغير. ولكن صبى الثامنة أو التاسعة يمكنه أن يتعلم أن من الخطأ ان يأخذ نقوداً تخص آخرين سواء أجاءت من محافظهم، أو أدراجهم، أو دواليبهم

وأخيرا فان دراساتنا النفسية لبناء العادات ترينا أن من الضرورى ألا يسمح بحدوث أى استثناء حتى تثبت العادة. وبنفس الطريقة يجب أن يكون السلوك الخلقى ثابتا على وتيرة واحدة، فالأعمال الخاطئة غير مقبولة الآن وغداً وبعد غد، فلا نعاقب عليها الآن ثم ندعها تمر فى غير اهتمام بعد لحظة.

ب - تكوين الافكار الخلقية: ونعنى به معرفة الخير والشر فى صورة

مبادىء مجردة. وهو فى تعقده لا يتوفر للطفل الصغير اذ ليس لديه من القدرة العقلية ما يمكنه أن يعمم مبدأ من مبادىء السلوك لينقله من موقف لآخر

ولقد سبق أن أشرنا الى أن الطفل يتعلم أن يحكم على سلوكه كصواب أو خطأ على ضوء نتائج أفعاله. فاذا كان النظام الذى يطبق عليه ثابتا فسرعان

يحكم على عمل ما بأنه خطأ لأن العقوبة فى شكل ما تعقبه باطراد ، بينما عمل آخر يعتبره صائبا لان المديح من نوع ما يصحبه دون تردد .

فاذا تقدم الطفل فى العمر قليلا فيجب أن يتعلم أن يحكم على سلوكه على أساس النتائج الاجتماعية بصرف النظر عن النتائج الشخصية التى تعود عليه . هكذا يفكر فى كيف ستحكم الجماعة على هذا النوع من العمل لافيما سيناله هو عن طريقه . فالصبى فى مرحلة العصابات مثلا يرى أن وشاياته عن العصابة للمدرسين أو الوالدين تسبب له رضاء مؤقتاً اذ يتناوله هؤلاء بالمديح ولكنه سرعان ما يكتشف أن اعضاء العصابة ينظرون الى هذه الاعمال بكل ازدراء ولذا يراها خطأ كل الخطأ

وما من طفل يمكنه أن يتعلم ان يصدر احكاما خلقية ناضجة ما لم تتوفر له الفرصة للاتصال بالآخرين ، فهو بهذا يلمس مدى تقديرهم لسلوكه . ومن المهم بوجه خاص أن يتصل بالغرباء سواء من الكبار أو من الرفاق فى سنه ، فهؤلاء لن يتغاضوا عن أخطائه كما يفعل أعضاء عائلته

وطبيعى أن تبدأ الأفكار الخلقية فى دائرة ضيقة محددة فى ارتباطها بمواقف مخصصة تم فيها التعلم . وكلما ازداد ادراك الطفل للعلاقات خرج بأفكار عن الخير والشر فى مواقف مختلفة وان كانت عناصرها مترابطة . وهكذا يتعلم الطفل أفكارا عامة كلما تعرف نواحى مشتركة فى عدد أكبر من المواقف . ولا يمكن أن يقتصر الأمر على الارشاد والتعليم والمواعظ بل لا بد أن يصطدم الطفل بمواقف الحياة الحقيقية ليستشف منها ما تنطوى عليه من عناصر .

وقد تعددت الابحاث التجريبية على الافكار الخلقية ، وضح منها أن فهم الصغار لها يتمشى مباشرة مع الذكاء والنضوج الفكرى العام . واستطاع المؤلف أن يقوم ببحث متواضع فى هذا الصدد على حوالى ٢٠٠٠ من الصبيان والفتيان معظمهم من طلبة المدارس الابتدائية والثانوية ، تتراوح اعمارهم بين

السابعة ثم العشرين، فطلب منهم ان يضعوا قوائم تحتوى مايرونه اردأ الاعمال وأبعدها عن الخير . واتضح من النتائج أن ما يراه الصغار حتى التاسعة شر يكتسب صفة الاعمال المحسوسة كعصيان الوالدين أو معاكسة الاشقاء والشقيقات . وبعد التاسعه تبدأ الافكار الخلقية فى التجرد ، فالكذب أو النميمة هنا عمل ردىء ، لا الكذب على الوالدين لاخذ نقود كما كان الحال سابقا. بل وحتى فى المراهقة والبلوغ عندما نحا البحث نحو تضييق الحلقة فى حدود افكار نظرية كالوطنية مثلا ، وجد أنها عند الطلبة الاصغر سنا تدور حول اشخاص أوهيئات معينة ، ثم اذا بها تتخلص من هذه الروابط بازدياد العمر لتعنى معنى مجرداً شفافا يعلو عن الشخصيات والاهواء .

معنى الخلق عند الصغير : الطفل حتى الثالثة لا يفهم لمستويات الخير والشر

كما تقبلها الجماعة اى معنى ، فسلوكه يتحدد حسب دوافعه ، وهو يحكم على الخير أو الشر تبعا للذة والالم اللذين يهيئهما له العمل لا فى حدود الفائدة او الضرر الذى يمكن ان يعود على الآخرين . فهو حتى اللحظة لا يملك من التفكير مايعينه على ان يدرك سوء العمل الا اذا نتج عنه نتائج سيئه، وبالتالى لا يرى ما يدعو لتعديل هذا السلوك ارضاء للاخرين ، اللهم الا اذا صحب سلوكه نتائج مؤلمة .

وكل ما يمكن أن يحدث هنا هو أن الطفل وقد وصل للثالثة أو الرابعة فى منزل يطبق نظاما ثابتا مستقرا يعرف ما هو مقبول ،واذن فهو صواب ، وما ترفضه البيئة المنزلية ، ولذا فهو خطأ . أما الاحساس بالواجب نحو الآخرين.. أما اداء عمل لارضاء الآخرين ..فشىء لا يخطر بباله مطلقا . هو يفعل ما يسره هو دون تفكير فيما ينال الآخرين عن طريقه ، فاذا آلمهم فلن يتطرق اليه أى ذرة من الندم .

ومن الواضح أن فكرة الملكية وحقوقها حتى هذه اللحظة فكرة غريبة عن الطفل ، فهو يأخذ الاشياء التى تسره بصرف النظر عن كونها ليست ملكه

من السهل جداً أن يتناول لعبة جميلة من داخل الحانوت أو من منزل طفل
آخر اذا اعجبته دون أن يتطرق الى ذهنه أقل احساس بان هذه سرقة. وحتى
اذا نبهناه الى عدم لمس شيء لا يخصه كحصان مثلا فانه كثيرا ما ينسى التنبيه
اذا أثار شغفه شيء جديد مخالف لما نبهناه من أجله كصندوق من الحلوى.
هو لا يستطيع أن يجرد فى ذهنه فكرة «الملكية» بحيث يعممها فى كل حالة
يأخذ الشخص فيها شيئا ليس ملكه. واذن فكلما ارتبط العمل بنتيجة سارة
سيئة بالنسبة للطفل شخصيا .. كلما تقدم لمواقف كثيرة متنوعة يرى فيها العمل
الحسن فى كافة مظاهره ونواحيه والسيء فى مختلف ظروفه وملابساته. كلما كان
ذا أدعى لتكوين مستويات ثابتة للسلوك الخلقى فى المرحلة التالية.

الخلق فى الطفولة المبكرة: ننتقل بعد هذا للطفل من الثالثة الى السادسة

حيث أسس السلوك الخلقى يجب أن تتكون. وصحيح أن الطفل لم ينضج
عقليا بعد، كما أن خبراته لا تزال فجة محدودة فلا يمكن أن نتوقع أن يفهم
هذا ومن اين جاءت القواعد، ولكننا نبين له فقط كيف يتصرف، وهو
يستطيع أن يدرك عظم الاخطاء التى يعملها تبعا لقسوة العقوبة التى ترتبط
بالعمل. واذن فالطفل يتمشى مع مستويات السلوك التى تضعها البيئة وهى هنا
تمثل كوسيلة لتجنب العقوبة واكتساب المديح. وهذا يدفعه لعمل الخير
دون أن يعلم لماذا يتصرف هذا التصرف دون غيره. وهكذا تنتهى هذه
المرحلة وقد تكونت لديه عادات للطاعة. فاذا كان الكثير من تصرفات
الطفل حتى هذه اللحظة سيئا فى بيئة معتدلة فهو انما يفعل هذا بدافع من الجهل
لا لرغبة داخلية فى عدم الطاعة.

ويبدأ تكون الافكار الخلقية عن الخير والشر فى هذا العمر، اذ ترتبط
العبارات مثل «كويس»، «وحش»، «شقى»، «عيب»، بتصرفات معينة
وهكذا يتعلم الطفل أن انواعا خاصة من السلوك «كويسة» بينما غيرها
«وحشة»، وان المديح والثواب يعقبان الأولى بينما تسبب الأخيرة له عقابا

وتعنيفا . وهكذا يرى السلوك فى ضوء خير أو سيء . وبالتالى تتكون لديه أفكار خلقية مخصصة لارتباطها بمواقف معينة . ولكن الشقة حتى الآن بعيدة بين السلوك الحميد والافكار الخلقية ، فلو أن الطفل يعبر عن الخير والشر تعبيرا كلاميا صحيحا الا ان هذا ليس داعيا لان تتبعهما أعمال حميدة تتمشى مع هذه المعرفة .

ثم إنك لا تجد الطفل يناقش هذه القواعد ويتساءل عما فيها من العدل أو القسوة ، بعكس الطفل الاكبر الذى يحاول أن يضع أنواعا من السلوك تفى بحاجته وتكون مرادفة للقاعدة التى هى بسبيلها . فمثلا ما بين الثالثة والسادسة اذا كان قد تعلم أن من الخطأ أن يأخذ لعبة تخص طفلا آخر الى منزله فهو اما أن يطيع أو يعصى .. يأخذها أو يتركها .. دون أن يخطر فى باله أن يخترع مرادفا لهذا السلوك فيقول اذا ضبط « أنا كنت حاستلفها كام يوم وبعدين أرجعها تانى . . ! »

الخلق فى مرحلة العصابات : يخرج الطفل بعد هذا الى مرحلة العصابات

حيث السلوك الخلقى تحدده الجماعة الصغيرة من الرفاق فلا يكاد يصل الى سن العاشرة أو الثانية عشرة حتى يكون قد فهم الفكرة المقصودة من القاعدة الخلقية وينافش فيما اذا كان السبيل الموصل لها صالحا ام لا . وهو هنا تكون لديه فيض من الافكار الخلقية التى تعلمها عن الخير والشر مرتبطة بمواقف متعددة . ولكن ينقصه الخلق الصحيح فى كونه غير قادر على أن يصدر بنفسه حكما شخصيا على عمل ما بأنه صواب أو خطأ ، بل هو يعتمد على ما قد تعلمه متصلا به

فاذا كان أساس السلوك قد تكون فى المراحل السابقة فان الصبى هنا لديه احساس قوى جداً بالعدل والشرف . هو يعتقد أن من الخطأ أن يكذب أو ينم ، أو يجبن أو يهين الصغير أو الضعيف ، أو يصفح عن رفيق تنكر للجماعة . هو يحتقر الكذب والغش والسرقة اذا كان مجتمعه الصغير يرى هذه الاعمال خاطئة ، وهو يشتط فى هذا الى حد كبير فمستويات الشرف

ثابتة جامدة محددة لا يمكن أن تسمح بزلة واحدة. ومن هنا ندرك مدى النفع الكبير الذى يتهيأ لو اندمج الطفل فى هذه المرحلة فى الفرق الكشفية فهو يدين بقانونها الذى يوافقه تماما من حيث الصدق فالكشاف صادق وشرفه موثوق به .. والطاعة لزعيم العصابة فالكشاف مطيع لما يصدر اليه من اوامر سواء من رئيس الجماعة أو معلم الفرقة . . ومساعدة الضعيف وهو ما يبدو فى شعار التحية اذ يتعاون الابهام ممسكا بالاصبع الصغير

والمهم بطبيعة الحال نوع المجتمع الذى يسيطر على الطفل ،فايحاء الزعيم والرفاق هنا قوى جدا ، وما دام الاطفال كما قلنا على استعداد لمناقشة القوانين ومدى عدلها وصلاحيتها فليس من النادر أن تعرض حالة طفل أمام الجماعة فتثير سخطهم وحنقهم فوالداه يمنعانه من الخروج والاتصال بهم وهما يصرخان فى وجهه ويؤنبانه لاسباب لاحصر لها بل ويوقعان عليه عقوبات بدنية عسيرة ويميزان عليه شقيقا أو شقيقة أكبر منه سناً .. ، أقول قد تعرض حالة زميل مثل هذا وهى كثيرة الحدوث فى منازلنا فاذا بالزعيم يقرر انها معاملة « غير عادلة » .. وتنحاز اليه الجماعة على الفور ، فاذا بمن يعتدى على هذه النظم المنزلية يعتبر فى نظرهم شهيدا يستحق كل تبجيل ، وتعتبر أعماله مغامرات تضاف الى تراث الجماعة المتناقل . . واذا بمنازلنا للاسف تصبح مسرحا لنوبات الغضب والثورة .. وحالات من السلوك الاعتدائى كالتخريب والكذب والسرقة، ثم اذا بمدارسنا للاسف تنقلب مسرحا للهمسات والغمزات والاهمال وعدم الالتفات والنكات ومقاطعة الدرس، وأوراق تتداول بلغة سرية ، وعبارات جنسية نابية مبتذلة تملأ الجدران وعلى الاخص دورات المياه ، بل والتدخين سرا فى هذه الاخيرة

وسنشير باسهاب فى الفصل الاخير الى كيفية التحكم فى هذه المرحلة ثم طريقة علاج كل نوع من انواع السلوك الاعتدائى المشار اليه كالسرقه والكذب .

الخلق فى المراهقه : فاذا حلت مرحلة المراهقة تأثر سلوك الفرد حسب ما يقدمه المجتمع الكبير من الموافقة أو الممانعة من ناحيته ثم حسب ما وصل اليه الفرد بتفكيره من مستويات للخير والشر . وبدلا من أن تتحدد الجماعة لتقتصر على رفاق الصبا تشمل الآن عددا اكبر، خصوصاً بين السادسة عشر والثامنة عشر. وكثيراً ما يتباحث المراهق مع زميله فى مشاكل خلقية ليكون كل دستوره الخلقى معدلا على ضوء ما رسب من تدريب منزلى ومدرسى وتأثير رفاقه الصبيان فى المرحلة السابقة . ومن الواضح انه كلما اتفقت او تقاربت المستويات التى تسير عليها كل فئة من هذه كلما اسرع المراهق الى الوصول الى دستور محبب . اما الاختلافات العديدة بين المنزل والمدرسة مثلا ، او بين المجتمع الصغير اذا تركنا الطفل يختار زملاءه دون تدخل منا او اذا كنا نسير على سنة التدليل فى المنزل فيصبح الاخير ناقصا من الوجهة الاجتماعية حيث يطلب من الطفل تضحيات عديدة فى الخارج بينما هو لا يضحى فى الداخل .. كل هذه الاختلافات تعطل النمو الخلقى

والحق ان المراهق يعشق الحق لذاته لا لأى كسب مادى . وهـذا الشعور يصل الى درجة من الحدة قد تتطلب منه لتحقيقه تضحيات شخصية جسيمة يقدم عليها دون تردد . بل انك لتجده يتابع حملته فى سبيل الاصلاح حتى وقد اتضح له انه لن يكسب عن طريقها شيئاً بل قد يخسر صداقات زملائه الذين يعتبرهم أحب الناس الى قلبه .

ولا يقتصر مصدر هذا الدستور الخلقى للمراهق على التفكير الشخصى بل يضاف اليه أثر التقليد وهو هام جدا خصوصا لو تذكرنا ما يميز مرحلة المراهقة الأولى مما نسميه الاعجاب بالبطل ، والواقع انها فترة خطيرة حقا ، فكم من غلماننا بين الثالثة عشر والسادسة عشر لا يرتفع الى أخذه بطلا أكثر من « صبى المكوجى » الذى يتخذ محله قريبا من المنزل لمجرد انه قوى ويسيطر على الأولاد الآخرين ، أو لان له حيلا جذابة فى الحصول

على سجائر من الجنود الانجليز أو فى عرض مغامرات جنسية مبتذلة . وكم من فتياننا لا يأخذ بطله أكثر من رئيس فريق الكرة بالمدرسة ، لمجرد أن جسمه متناسق ، وشعره لامع ، وضربته للكرة قوية . وكلنا يعلم أخلاق معظم أفراد فرق الكرة البارزين فى مدارسنا الثانوية .. التدخين والعربدة ، وعدم طاعة قوانين المدرسة اعتماداً على حاجة هذه لهم . وهكذا يشب طفلنا وهو يتشرب من بطله ما يرسل الاعوجاج والفساد فى حياته .

واذن فليس من النادر أن نرى المراهق يفخر بتحطيم القوانين والخروج عليها اذا كان الكبار الذين يتصل بهم يعتبرون هذا « جدعنة » ، فالقهقهة والجلوس على المقاهى فى أوضاع شاذة .. وتكلف المرح والضجيج والهمهمة بأغان وموسيقى أجنبية .. وعقص الشعر عاليا أو فى تموجات مصطنعة .. والتعليق على الرائحين والغادين وعلى الأخص من الجنس الآخر . واكتساح الطريق بالموتوسيكل فى سرعة جنونية وصوت صاخب داو يزعج الجميع .. والربت بشدة على ظهور الكبار كأنما هو يقف معهم على قدم المساواة .. كل هذه قد أصبحت تراث المراهقة عندنا يتناقلها الفتيان فى دقة واخلاص .

يجب ألا يصل الامر الى هذا . فمرحلة المراهقة تهيء لنا نحن الآباء والمربين فرصة مشجعة لا يمكن أن تعرض فى أية مرحلة أخرى ، هى فترة الاعتزال التى تسبق المراهقة وتتميز بهذا التلهف الشديد للقراءة والتفكير ووزن الامور وتكييفها فى الحياة تكها .

يخرج المراهق من هذه الفترة وقد بنى عالمه المثالى الذى يشحذ كل همته للوصول اليه . فهو يقدس الحق لنفسه لا لربح مادى ، وهو يقوم بحملته للاصلاح يضحى فيها بكل شيء حتى بصداقات الآخرين لو اقتضى الأمر ، يكتب

ويؤلف وتشيع فى كتاباته الحساسية الأدبية وروح التفكير العميق والفلسفة التى تبحث تكون العالم ونشأته وما يجب أن يكون عليه .

ولكن على قدر عظمة البناء الخلقى الذى يشيده وينسقه يكون سقوطه عظيما . ويكتشف المراهق سعة الهوة التى تنفرج بين مثله والحياة التى يحياها الآخرون الذين كانت ثقته بهم لاحدلها . فهم يعظونه ويرشدونه وهو يتبعهم فى اعجاب واكبار ، ولكن اذا بالحقيقة تسطع أمامه فيراهم على حقيقتهم بأخطائهم وبعدهم عن المثل الذى يقولون به . فالمدرس الذى يعجب به ويبدو أمامه مثالا للحكمة يكذب ويخادع ويتحايل كغيره من الناس ، فهو يستدرج الطلبة ليشوا بزملائهم ساعة حدوث حادث يتطلب التحقيق ، وهو قاصر

فى معلوماته لا يدرك حقا كل شىء ، وهو ضيق الخلق سريع الانفعال اذا تابعته بالاسئلة فى موضوع معين ، وهو يحور كثيرا فى الحقائق الجنسية فيبدو كما لو كان قد تغلب على الدوافع والرغبات واذا بالطالب يكتشف العكس ، فالمدرس يقص قصة مبتذلة فى حجرة المدرسين بين قهقهة اخوانه ، أو قد يبدو سلوكه شاذا بعض الشىء فى الشارع. ثم هو يشب قليـــلا ويتسع أفقه فيقرأ أنواعاً من الادب يتضاءل أمامها ما كتب وما يكتبه مدرسه تضاؤلا لا مجال فيه للمقارنة .

وأهم من هذا كله أنه يرى نفسه بعيدا جدا عن المثل الذى ينشده ، فهناك ذلك الدافع الجنسى الذى يلهب كيانه ومن العبث أن يخضعه فيظهر فى العادة السرية وأساليب الاجتماع الجنسى الشاذ . وما يؤلفه من قصص او قصائد فج مبتور لا يتناسب مع ما يراه فضلا عن أن الآخرين يتخذونه مادة للعبث والسخرية . والعالم الذى يسعى اليه يزداد فى كل يوم بعدا عن العالم الذى يحيطه والذى يزداد سوء . وهكذا يبدأ المراهق باحتقار فئة قليلة فى أول الامر ثم اذا بها تتسع حتى تشمل كل شىء حتى بطله ، وتنتهى بتدمير نفسه هو فيحتقر كل ما يفعل ، وتصيبه نوبة من الشك واليأس والجمود فيتعطل عمله المدرسى وقد يفكر فى ترك المدارس كلها او حتى فى الانتحار . ولعل أسوأ ما يسيئه تلك الدهشة وذلك الحزن العميقين اللذين يسيطران على من حوله لهذه الحالة . فلا يكاد يدخل أحد الضيوف حتى تقص القصة أمامه مع كثير من الحواشى والمقارنات بأشقائه الكبار الذين اختطوا حياة هادئة مشرفة، حتى لقد يبدو المراهق فى نظر نفسه أنه قد أتى أمرا فظيعا قلب به نظام الكون كله . يزعجه أن يكون مصدر اقلاق واضطراب ، ويود لو يبتعد عن الجميع . . ويتقاطر الضيوف والاقارب الى غرفته وكل يحاول بطريقة مخالفة أن يكتشف ما يدور فى أعماقه ، فيغلق الباب دونهم جميعا كى يخلو الى دموعه .

من المهم أن نتصرف بحكمة فى هذه المرحلة الدقيقة . وشرح الاعراض الجنسية الجسدية والانفعالية شرحا بسيطا هادئاً قبل البلوغ بقليل.. والتسامح مع ما يظهره المراهق من شذوذ واعتزال . . والتقليل من القلق والاهتمام والخوف على حالته.. وتقدير كتاباته ومؤلفاته تقديرا معقولا مناسبا وعدم الظهور أمامه بمظهر الحكيم العارف لكل شىء .. وتسهيل مروره من بطل لآخر مع افهامه أن كل شخص له أخطاؤه ومتاعبه .. وقيادته وارشاده لاعتناق فكرة مجردة كالصدق أو الامانة أو التضحية فتصبح هدفاً حقا لا فردا من الافراد .. ، كل هذا مع ما قلناه من اختيار الكتب النافعة فى هذه المرحلة . الكتب التى تحقق رغبته فى تلمس البطل فتعرض طرفاً من حياة المخترعين ورجال الدين والمستكشفين .. أولئك الذين ساروا وساروا حتى تمزقت أقدامهم فوق جليد المناطق القطبية ومجاهل الغابات الاستوائية .. ويموت الواحد منهم وقد تقبضت يده على الورقة والقلم، يكتب تقاريره حتى آخر لحظة ليضيف الى التراث الانسانى معلومات عظيمة القدر .. ، ثم تقديمه للنوادى والالعاب الجمعيه حيث يتعلم طاعة الحكم ورئيس الفريق ، ويمحو شخصيته فى سبيل المجموع ، ويصفق للخصم ويعترف له بالنصر .. كل هذا هو جزء من واجب كآباء ومربين نحو ايصال الفرد للنمو الخلقى الصحيح

النظام : هو التدرب على مسايرة مستويات السلوك المقبولة . وأنت فى منزلك أيها القارىء ، والمدرس فى مدرسته، فى حاجة الى نظام لا يطيع فيه الطفل لأن هناك عصا تلجم فمه .. فاذا خرجت من المنزل أو نمت قليلا ثار وصخب .. واذا خرج المعلم من حجرة الدراسة فى « الخمس دقائق» المعهودة صاح وصرخ.. ولكننا فى حاجة الى نظام ينبع من نفس الطفل وهو عنه راض مغتبط . . نظام يطيع فيه الطفل لا خوفا من العصا ولكن لأنه يعلم عن خبرة ويقين أن النظام هو الوسيلة الوحيدة التى يمكنه بها أن يحصل على

رغباته بأسهل وأقصر طريق ممكن .. وكما « ينظم » الطفل لعبه فى دولابه الصغير فى المنزل لأنه تعلم أن هذا ضمان للعبه من أن تضيع ، ولانه بالنظام يمكنه أن يضع يده فى مكان معين فيخرج لعبة معينة بأسرع وأسهل ما يمكن.. وكما « ينظم » الطفل درجه الصغير فى المدرسة لان هذا ضمان لكتبه وكراساته من الضياع ، ولانه بالترتيب يمكنه أن يمد يده الى مكان معين فيخرج كراسة الحساب مثلا بمجرد طلبها منه .. كما يفعل الطفل هذا وذاك يمكنه أن يطيع نظام المنزل ونظام المدرسة ، لانه يعلم أن النظام يعينه ، وأنه الوسيلة الوحيدة للحصول على ما يشتهى ويريد بأسرع الطرق .. وهو يعلم بينه وبين نفسه ودون أن نذكره نحن كثيراً أنه اذا لم ينضم سريعا كفرد مطيع وسط هذه العائلة التى وجد فيها فستضيع رغباته وتتعطل تماما كما تضيع لعبه أو يتعطل حصوله عليها لو كان دولابه « مهرجل »

اذا أردنا أن نصل الى هذا فلا بد أن نستعين على قيادة الطفل فى الطريق المستحب بدوافع ايجابيه ونمنع النشاط المعاكس بدوافع سلبيه . والواقع أن النظام يعتمد أساسيا على تكوين عادة .. واذن فهو يتضمن كأية عادة مبادىء اربعة :

(١) يجب أن يتصرف الطفل بطريقة مستحبة ويمتنع عن السلوك المذموم ويتكرر هذا أكبر عدد من المرات . (٢) يجب أن يرتبط الرضى بالسلوك المستحب وعدم الرضى بالسلوك المعارض للمستويات الخلقية (٣) يجب أن يصبح العمل المستحب أوتوماتيكيا بحيث يتكرر من تلقاء نفسه دون حاجة لرقابة (٤) يجب أن يتعلم الطفل اخلال السلوك الحسن محل السلوك السىء .

العقوبة : صحيح أن الدوافع الايجابية على هيئة مكافآت أو مديح تأتى بنتائج أحسن من الدوافع السلبية كالعقوبة ، الا أن هذه الاخيرة لايجب نبذها تماما فمعرفة النتائج المحتملة للعمل أساسية لكل سلوك خلقى. وهناك

انواع عديدة من العقوبات أكثرها شيوعا العقوبة البدنية ، وعزل الطفل أو تجاهله ، وتخويف الطفل بما يرتسم على وجه الاب من الغضب ، والثواب والمكافآت وهكذا .

ولسنا الان بسبيل الافاضة فى بحث كل نوع من أنواع العقوبة ولكن يمكننا ان نقول بوجه عام انه اذا كان للعقوبة أن تحقق النتائج المنتظرة فيجب ألا تكون منفسا للغضب المكبوت الذى يحسه الاب مثلا فى لحظة من اللحظات، أو كقصاص لاخطاء عملها الطفل فى الماضى وظللنا صابرين حتى هذه اللحظة فانفجر المرجل .

وما دام الطفل كما قلنا يحدد مدى خطأ العمل الذى قام به وبعده عن روح المستوى الخلقى حسب شدة العقوبة التى يلقاها فيجب اذن أن تكون العقوبة ثابتة ومدى عنفها ثابت بالنسبة للعمل الواحد . ولكننا للاسف نعاقب ونحن فى سورة الغضب وبذا تفقد العقوبة هذا الثبات .. فتمزيق رداء الخادمة لا يسيئك قدر كسر نظارتك التى لا تستطيع أن تقرا بدونها مع العلم بأن العمليتين تخريب واعتداء على ملكية شخص آخر . ولكن بينما ينهر الطفل انتهارا بسيطا فى الحالة الاولى اذا بالدنيا تقوم وتقعد ازاء العمل الثانى .

أما العقوبة البدنية كالضرب على الايدى أو الوجه فعلى رغم شيوعها واعتبار الكثيرين لها الطريقة المثلى فهى للاسف تأتى بنتائج سيئة فى أحوال كثيرة اذ أن من النادر أن ترتبط فى ذهن الطفل بالعمل السيء الذى نعاقب من أجله. فلأن العقاب البدنى يطبق فى معظم الاحوال فى سورة غضب الكبير فانه ينتهى ببغض الطفل للشخص المعاقب لا بغضه للعمل . ولا عجب فظاهر الانفعال والصراخ اللذين يبدوان على الأب مثلا وهو يضرب طفله هما عوامل أقوى بكثير وأشد ظهورا من العمل نفسه ولذا سرعان ما يربط الطفل مصدر الالم بالأب لا بالعمل ، ولذا يضيع الغرض الاساسى من العقوبة فضلا عن كراهية الطفل لنا . واذن فاذا كان ولا بد من استخدام هذا النوع

فليطبق اثناء حدوث العمل ولا يترك زمنا ريثما يأتى الأب مثلا من عمله ليطبقه. ولنقتصر فى تطبيقه على المدة ما بين السنه الثانية والثالثة ، وبعدها يمكن أن يفهم الطفل أنواعا أخرى .

واذن فأحسن طرق العقوبة هو ما يرتبط مباشرة بالعمل نفسه حتى يراه الطفل فى ضوء كريه ، ولنبتعد نحن عن اقحام أنفسنا بين الصغير وبين العمل فهذا يفسد العلاقات بيننا وبين الطفل ويحول كراهيته للبيئة لا للعمل ومن هنا كان التأنيب وحرمان الطفل من المسرات .. ومنعه من مشاركة الآخرين لعبهم بينما العمل السيء نفسه لا اتصال له مطلقا بهم . كل هذا لا يأتى بالنتائج المتوقعة

وبدلا من كل هذا يجب أن يجنى الطفل الثمار المنتظرة لما عمله سواء خيرا أم شرا .. فى ثبات واستقرار .. وبسرعة. وهى ثمار منطقية طبيعية ترتبط مباشرة بالعمل. فبدلا من أن نوقف الطفل فى ركن أو نحرمه نزهة حبيبة أو نرسله لينام لانه قذف باللبن عمداً علينا أن ندفعه لازالة الآثار التى عملها دون انفعال . واذا كسر لعبة زميله عامدا فيجب أن يعوضها من لعبه هو. واذا كسر كوبه الصغير الملون لعدم اتزان متعمد فلنقل له بهدوء اذا طلب ماء انه ليس هناك اكواب فلينتظر ريثما ننزل ونشترى . ونحن لا نطالب الآباء بطبيعة الحال بأن يتبعوا هذه الطريقة فى كل حالة ففى بعض الحالات قد يكون هذ مستحيلا ، ولكن المهم أن نقترب كثيرا من روح العقوبة الحقة حيث ترتبط مباشرة بالعمل فى ثوب طبيعى منطقى

وكثيرا ما تتجه العقوبة للسلوك الظاهرى الذى أمامنا ، كالتخريب أو السرقة أو الكذب ، وهذا فى الحق خطأ كبير . ان هناك حالات عديدة — سنعرض لها فى الفصل الأخير — يكون فيها السلوك الشاذ ناشئا عن عوامل كثيرة تتغلغل جذورها فى البيئة التى أحاطت بالطفل من أول الأمر . فالطفل الذى يبول على نفسه فى سن سبع سنوات ويكثر من « الزن » قد يبدو

أمامنا فى حاجة للعقاب . ولكنا لو أحكمنا التفكير والتدبير ودرسنا حالة الطفل فقد نجد أسبابا كثيرة تضافرت لتصل بالطفل الى هذا السلوك المقيت، منها مثلا تدليلنا الشديد له وهو صغير حتى اذا ولدت له شقيقة صغيرة تحول حناننا لهذه الاخيرة وتركناه للخادمة تطعمه وتنيمه واسرفنا نحن فى العناية بالصغيرة . فليس من الغريب اذن أن يصطنع الطفل الضعف والعجز فيبول على نفسه « ويزن » ليجتذب اليه الحنان الذى كان يتمتع به أولا . من الخطأ عقاب الطفل فى هذه الحالة فنحن اذا فعلنا فانما نؤكد للطفل كرهنا له وتحول حبنا للصغيرة وهذا يضيف الى شعوره بالعجز والضعف ويثبت السلوك السيء . واذن فلو أجلنا العقوبة ريثما نجرب اعطاءه جرعة من الحنان والعطف . وأفهمناه مسئوليته واعتمدنا عليه فى مساعدتنا فى العناية بالمولودة الصغيرة الجديدة فقد لا نحتاج للعقوبة بتاتاً .

وبعد فلدينا فى سرعة تشتت الطفل وتحوله من عمل لآخر مع اغراء بسيط عون كبير . وبدلا من أن تثور أعصابنا للضجة التى يحدثها الصغير فنمنعه ونشتط فى تقييـــد حركته وبذا ندفعه للنيل منا فى ميادين أخرى من وراء ظهورنا يمكننا أن نحوله ليصرف جهده فى عمل آخر أكثر هدوء وأقل تعارضا مع رغباتنا وراحتنا ، فالطفل ليس لديه الاصرار الذى نراه عند الكبير . ولدى احدى قريباتى طفل بين الرابعة والخامسة كان يلعب يوماً فى الشرفه فسمع جدالا بين رجلين فى الشارع سرعان ما تطور الى عراك واصطدام بالايدى تخلله الكثير من السباب المقذع . وترك الطفل لعبته وجاء بمقعد وقف عليه وجعل يرقب ويسمع ما يتتابع أمامه فى استغراق شديد . حتى اذا انتهى العراك وانفض القوم دخل الى الغرفة فوجد والدته تؤدى عملا منزلياً فبادرها بالقول دون أى مقدمات « يا ابن الكلب » . ! ثم لاحظ أن الشطر الاول فيه بعض الخطأ فأصلحه « يا بنت الكلب » .. ! لم تجزع السيدة ولم تطرف لها عين .. لا ولم تقم الدنيا وتقعدها فتضع « الشطة » فى فمه أو

تهدد بقطع لسانه الذى ينطق الكلام « العيب » .. كلام « ولاد الشوارع » ... وانما فكرت قليلا وقدرت أن الطفل لا بد قد سمع مثل هذا التعبير من الخارج فجاء ليجرب هذا السلاح الجديد فقد رأى تأثيره الشديد وكيف ارسل الانفعال والغيظ الى نفوس المتخاصمين . عليها أن تثبت له عمليا أن هذا السلاح لا أثر له فى بيئته المنزلية . نظرت اليه بكل هدوء ودون أى أثر للانفعال وقالت « وليه بتقول الكلب ؟ احنا ما عندناش كلاب .. تعالى أما نشوف البط والارانب اللى عندنا فرق ونشوف عيالهم الصغيرين » وانطلق الصغير مع أمه ليريا البطة وبنتها فقد كانت زيارة الحظائر تسلية جميلة له

وتصادف أن مررت بالمنزل فى زيارة قصيرة فاذا بالصغير لا يكاد يرانى حتى صرخ « يا ابن البطة » ! ودهشت .. كان الطفل يتفرس فى وجهى بكل دقة وكأنما ينتظر أن يرى التأثير الذى يحدثه هذا السلاح فى نفسى . ونظرت الى الام وهى تقف خلفه فأشارت الى بألا أبالى فابتسمت وقلت شيئا عن البط ثم خرجت الى موضوعات أخرى وأنا ألاعب الطفل ، ثم عرفت القصة بعد هذا بالتفصيل فكان من المفيد جدا تحويل اهتمام الطفل الى شىء آخر غير ما هو بسبيله واصطناع الهدوء التام فلم يعد الصبى الى طرق الموضوع بعد هذا .

علينا بعد كل هذا أن نكثر من تلمس الاعمال الصالحة فنثيب عليها أو نمدح ، لا أن نكثر من تلمس الاخطاء فنعاقب عليها . ان التعليم فى مدارسنا قد تغير خلال ربع القرن الاخير تغيرا كبيرا من مسبب للالم الى مصدر للذة فلم نفقد شيئا بل بالعكس جنينا ثمار هذه السياسة الحكيمة . وفى كل مرافق الحياة نجد أن معالجة الافراد باختيار اتجاهاتهم الحسنة والضرب على نغمتها أصلح بكثير من كبت دوافعهم السيئة . ولكن ينبغى أن تكون المكافآت

هى الاخرى كالعقوبة مرتبطة مباشرة بالعمل لا مجرد « رشاوى » تقدم فى يسر وتطرف

ولكن سواء أكنا نعاقب أو نثيب فلتكن عقوباتنا حازمة لا مجال للتراجع فيها .. فلا تهدد بعقوبات شديدة ثم لا تنفذ الا بعضها ، ولا تعد بمكافآت عديدة ثم تنفذ نصفها تاركا النصف الآخر .. والبيوت التى تتذبذب بين القسوة تارة واللين طورا .. البيوت التى يتناقش فيها الوالدان على مسمع من الطفل هذا يقترح عقابه وتلك تمانع .. أو قد يقترح أحد الطرفين حرمان الطفل شيئا فيتسلل الطرف الثانى سرا لاعطائه ما يرغب .. « ياختى حرام .. ايش فهمه العيل ده كمان ؟! » مثل هذه المنازل لا يمكن أن تكون لعقوباتها قيمة واضحة

ولتكن مطالبنا عادلة لا يبدو فيها التحدى أو توقع عدم اجابتها فهذا الشعور يثير حفيظة الطفل ويهيئه للنضال . وكثيرا ما تسمع أحد الوالدين يقول فى غضب مكبوت « باقول اسكت .. ستين مرة قلت اسكت .. وحافضل لآخر النهار أقول لك اسكت .. عمرك ما حاتفهم والا تقى بنى آدم طول عمرك » ! علينا أن نتفهم دوافع الطفل وميوله فى اللحظة الحاضرة فلا ندعوه فجأة من لعبة حبيبة الى الطعام أو النوم ، فأنت نفسك تتضايق لو دعيت من قراءة قصة مسلية جذابة لمقابلة أحد الزوار . وهذا ما عنيته عندما قلت ان المطالب يجب أن تكون عادلة . علينا أن ننبه الطفل قبلها بدقائق بأن الطعام سيكون معدا .

وفوق كل شىء لا ينبغى أن نظهر بمظهر الضعف أمام الطفل نتيجة لاعماله فكل هذا الكلام الذى تلقيه سيداتنا على مسمع من أطفالهن عن « الواد اللى مغلبنى » أو « أروح منه فين يا اختى دانا جسمى اتسمم » أو « نعم عاوز ايه يا بلوتى منك » ! كل هذا لن يضيف الى الامر أى كسب ، بل يمكننا أن نصرف الوقت الضائع فى علاج العمل نفسه دون انفعال

اجرام الاحداث : لعل مما يلقى بعض الضوء على خطورة هذه المشكلة ان نسوق للقارىء بعض الاحصاءات . فقد بلغ من وقعوا تحت طائلة القانون فى انجلترا وويلز فى سنة ١٩٣٨ عددا وصل ٧٨٤٦٢ منهم ٥١ فى المائة أقل من ٢١ سنة و ٣٦ فى المائة أقل من ١٧ سنة .

وفى أمريكا يقدر عدد الصغار الذين يمثلون أمام المحاكم بواحد فى المائة أى ما يقرب من ٢٠٠٠٠٠ طفل سنويا . ولا بد أن العدد الاصلى أكبر من هذا بكثير لان عددا كبيرا من الصغار يفلت من العقاب فلا يضع القانون يده عليه .

فاذا تذكرنا أن القانون لم يبدأ بمنع شنق الصغار الا منذ عهد قريب ، وقارنا النظام الاصلاحى الحالى ، وجدنا أنه فى هذه الحقبة القصيرة أمكن تحقيق نجاح لا بأس به ، ولكننا لا نزال فى حاجة للكثير .

واذا كان فرويد يرى فى الانسان قوى ثلاث .. واحدة لاشعورية تمثل المستوى الحيوانى ، فهى النزعات الدنيا الموجودة منذ البدء ، وتمثل الغرائز والدفعات الفطرية أو قل هى مخزن الاحساسات والرغبات المكبوتة ويسميها id . والثانية Ego شعورية تتفرع من الأولى فى الطفولة المبكرة مقابلة لها ، وهى منطقية مهذبة مصقولة تحاول أن تتحكم فى الاولى وتكيفها حسب مقتضيات الحياة اليومية . وأخيرا الذات العليا Super - ego وهى الدستور الذى يتحكم فى القوتين السابقتين ويمكن أن نقول انها الذروة فى النمو الخلقى ، وغالبا تتخذ معينها آراء الوالدين فتعمل فى معظم الاحوال فى اللاشعور .. أقول اذا تذكرنا ما يراه فرويد الى جانب ما عرضناه مما ينتاب مراحل النمو من ثورات وتحد تبدو بشكل طبيعى حتى فى الاطفال وهم يتعلمون المشى أو فى الروح الاعتدائية فى فجر البلوغ .. وضح لنا أن هناك نضالا مستمرا فى شخصية الفرد منا لا يمكن أن يسلم منه مخلوق . وما من واحد منا يرى فى الطفل الصغير العنيد ، أو فى المراهق الصغير الثائر ، مجرماً يحتاج للانفصال

عن الجماعة . وكل ما يمكن أن نقوله ان هناك اتجاهات تكمن فى كل منا ترى فى الانظمة والقيود والقواعد أغلالا تكبلها فتود لو تتخلص منها. ولكن المسألة فى حدتها تختلف من فرد لآخر ، ولقد تقود هذه الاتجاهات فى ظروف معينة الى سلوك نضعه نحن تحت « اجرام الأحداث » ونتبع معه نظاما أقل ما يقال فيه انه يعتمد على ابعاد خطر العضو عن الاغلبية « الصالحه » أكثر مما يمد يديه للعلاج .

أود لو أؤكد للقارىء على ضوء هذا الكلام أن المجتمع الذى يرى فى المجرمين فئة ذات طابع خاص ، فئة تختلف اساسيا عن الاخرين ، وتتطلب منه أن يقابلهم من زاوية مضادة توقف سلوكهم الحالى عند حد ، هو مجتمع قصير البصر . ولقد بدأ الاخصائيون اليوم يتفقون على أن احتمال تسلم الفرد صفات الاجرام بصورة متوارثة هو احتمال بعيد . ولعل آخر ما ذهبوا اليه فى هذا الصدد ان ضعف القدرة على التحكم والضبط هى التى يمكن أن تتوارث . ولكن مما يعزز الرأى السائد اليوم ما وصلنا اليه من أن هذا الضعف يتأثر بعوامل تتخذ أساسها سنى الطفولة المبكرة أكثر من تأثرها بصفات تنتقل فى الشخصية

والحق أن ضروب الحرمان العائلية فى مبدأ حياة الطفل .. المنازل المنحلة المفككة حيث الوالد سكير عاطل ، أو زوجة الأب تتحكم فى الصغار فى سياسة طاغية ، أو الفقر يعض بنواجذه على المنزل فتخرج الام للعمل ويحرم الصغار كل عناية أو متعة فى الحياة .. وفضلا عن هذا المعاملة الشاذة العرجاء التى تندفع اما نحو القسوة الكابتة المطلقة أو الليونة الناعمة المترفة ، تسبب للطفل نوعاً من القلق وعدم الاستقرار قد يقودان للاجرام فى وقت لاتزال قوالب السلوك الأولى هشة مرنة سريعة التأثر ، وحيث الوالدان هما أنموذج للعالم بالنسبة للطفل يكون معهما أولى روابطه وعلاقاته ، والسلطة الداخلية أو الذات العليا للفرد توضع على أساس ما يرى الوالدان. هنا يجتاز الطفل مفترق الطرق فيتقرر أى سبيل يسلك .

ولكن لنا أن نتساءل لم يفترق شقيقان فى منزل مهدم ، فيخرج أحدهما ذا طابع اجرامى بينما يكتسب الآخر مظاهر عصابية من نوع مخالف تماماً ؟ هو سؤال يبعث على الحيرة ، ولسنا نزعم أن الجواب فى معظم الحالات قريب المنال ولكننا مضطرون فى أحوال كثيرة الى العودة الى الميدان النفسانى لتلمس التفسير . والحق أنه يبدو أن تخير الظواهر السلوكية الشاذة من بين عشرات الاحتمالات يمليه فى حالة ما نوع من الاتفاق بين قوى لاشعورية تكمن فى داخل الفرد والظروف الاجتماعية فى الخارج بحيث ينتهى هذا الوضع بايجاد اضطرابات شعورية تعزز من قوة الدوافع الداخلية الموجودة فعلا فترجح الكفة فى اتجاه معين .

بل ولقد دعتنا الاكتشافات النفسانية الحديثة الى التساؤل عن مدى المسئولية الشخصية فى حدود عمل معين . فالقانون يضع حاجزا يفرق بين الاعمال التى يسأل عنها الشخص وتلك التى لا يعتبر عنها مسئولا . والحق أن هذا الوضع ملىء بالعثرات ، فلو تذكر القارىء الدور الذى يلعبه اللاشعور فى سلوك الفرد منا فلعله يتفق معى فى القول بأن آراءنا عن المسئولية لا تزال فى حاجة لتعديل وتصحيح لتواجه ما تأتى به المعرفة الحديثة .

ولعل هذا يعود بنا الى موضوع العقوبة ، فهلا نرى من الأفضل فى مناسبات عديدة أن تفسح العقوبة السبيل للعلاج الصحيح .. العلاج القائم على أسس صحيحة يستشار فيها علم النفس كأحد الطرق المؤدية للاصلاح ، وهكذا قد يعتبر الجرم الحالى نتيجة لمجموعة ضخمة من العوامل بدأت منذ الطفولة وليس أقلها أثراً القول بأن الاجرام ليس دائما نتيجة اختيار حر لشخص مسئول . وما دام المعول قد بدأ يهوى فلنتجه به الى الاجراءات القضائية والقانونية فمعظمها فاسد مسمم . وما ظن القارىء بنظام المحلفين .. وأولئك الذين يلاحظون الاحداث الموضوعين تحت المراقبة .. وظروف الحياة فى الاصلاحيات .. ألا نتفق معاً على أنا فى حاجة لتدريب تام منظم

لكل من له اتصال بالمجرمين الاحداث حيث تعتبر كل حالة موضوعا نفسياً قائماً بذاته .. وتعاوناً وتفاهما دقيقين بين المشرع والمنفذ حتى تتقدم الجماعة نحو حل مشكلة لا يمكن المبالغة فى خطرها ؟

ويروى بوينهايم[1] عدة حالات طريفة أحيلت اليه لدراستها بعد أن قال القانون فيها كلمته ، ولعل من أكثرها دلالة حالة غلام فى الرابعة عشرة سبب لوالديه طيلة السنوات الثلاث الاخيرة اضطراباً ليس بقليل . فهو يكذب دون حرج أو شعور بتأنيب الضمير . ثم حدث أن لاحظت الأم أن النقود تتناقص من الكيس الذى تحتفظ به فى أحد الأدراج . وبدأت المسألة بالنقود القليلة القيمة ثم تطورت الى الشلنات ثم الجنيهات . ولم يتجه الشك للولد فى أول الأمر ، ولكنه ضبط يوما وتعددت المحاولات والعقوبات للتأثير عليه بقصد ترك السرقة دون جدوى . ووصلت المسألة الى ذروة التوتر عندما لجأ الى السرقة من اخوانه فى المدرسة . وأبلغت الادارة الجهات المختصة واتخذت الاجراءات القضائية العادية مجراها . وقد وجد بوينهايم بالبحث أن الولد متوسط ذكائه ١٢٥ (ذكى جدا) . وهو غلام جذاب ، حلو الحديث ، يتكلم فى طلاقة وكياسة ، يحب المجتمعات وصحبة الرفاق ، ولديه رغبة حادة فى أن يحتل بينهم موقف التزعم والصدارة . ولقد كان فى نفس الوقت كريما محبوباً ، يشترى المثلجات والشطائر لزملائه ، ويدفع أثمان النزهات . ولما كان مصروفه لا يكفى بطبيعة الحال كل هذا العبء اضطر للحصول على النقود من أى مكان وبأية وسيلة . يضاف الى كل هذا أنه الولد الوحيد فى عائلة محترمة حيث يعمل

---

[1] Boenheim, C. Introduction to Present Day Psych. Staples press Lim. p. 100

الوالد بأمانة والأم باخلاص . وكانت لديهما آمال واسعة تتركز فى هـذا الولد ، ولذا أفسداه بعض الشىء بمعاملة فيها بعض الليونة .

هذه احدى الحالات قدمت للقضاء فأضيفت الى الآلاف التى سبقتها واعتبرت كلها حالات سرقة وبذا طبق عليها جميعا قانون واحد فأى جمود ادعى للرثاء من هـذا ؟ ولقد أتيح للمؤلف أن يدرس عدة حالات شاذة لفتيان المدارس «المجرمين» فوجد ضمنها حالات تبعث على الاسى حقاً. فالعائلة المـكونة من ثمانية أشخاص تعيش مزدحمة متراصـة فى غرفة أو غرفتين لا تسمحان للصغار بالتنفس أو اللعب . بل ولا يحصل الطفل يوماً على قطعة من الحلوى أو رداء جديد كغيره من الآلاف الذين يراهم ويختلط بهم . وكم تسيطر عليه رغبة حادة لامجال معهـا للتراجع كأن يتمتع بركوب دراجة « فيأخذ » واحدة ويظل يجول بها ثم يسندها فى مكان مهجور ، لأنه لن يجد لها مكاناً فى المنزل ..! ومن عجب أنه يقص عليك المسألة فى بساطة لا تملك معها سوى التأثر العميق لمثل هذه الحالات البعيده عن تصور معظم القراء .

وأخيرا فانا لنرى حالات اجرام الاحداث تنقسم أساسيا الى قسمين .. أسباب ممهدة ، وأخرى دافعة .

فالأولى تـكون عند الصغير شعورا مضادا لتقبل الافكار الخلقية . ولعل من أهمها التأخر الدراسى المرتبط بتضاؤل الذكاء ، فالطفـل هنا يجد نفسه مسوقا للغش أكثر من ذلك الذى يشق طريقه معتمداً على نفسه . وهناك غير هذا عدم الاستقرار الانفعالى ، وهى حالة تجد الطفل فيها ميالا للثورة والسخط والتحدى ، وحب السيطرة والتزعم ، والنموذج المنزلى الفاسد حيث نجد «رب البيت بالدف ضارباً» ، وأثر الرفاق ، والدافع الجنسى الزائد . هذا فضلا عن عامل الفقر والحالة الاقتصادية بوجه عام .

أما الثانية فعديدة ومعقدة ، ولعل أكثرها شيوعاً حالة عامة من السخط على الاحوال الحاضرة ورغبة فى توفير ما هو أفضل ، ويعزز هذا الشعور

ما يراه الفرد فى منازل الاصدقاء ، والحوانيت البراقة والافلام السينمائية، أويقرأ وصفه المثير فى الكتب ، والحق أن الحنين للغنى والرغبة فى المخاطرة يقودان فى أحوال كثيرة للاعمال الاعتدائية . أما مدى خطورة هذا السلوك فيعتمد على قوة الدافع الذى لا يجد اشباعاً .

وبعد فلعل أكثر مظاهر السلوك الاجرامى للاحداث تردداً يبدو فى الكذب والغش والسرقة والجولان والتشرد وادمان تعاطى المسكرات والتدخين والفضائح الجنسية ومحاولات الانتحار أو قتل الغير .

وقد وجد بوجه عام أن الصغار قبل سن ١٤ يتكون سلوكهم الاجرامى من متاعب توجه لاملاك الآخرين ، بينما يتغير الحال بعد هذا فيتجه السلوك نحو الاشخاص كالنواحى الجنسية ومحاولات القتل . وهذا نتيجة شعور الفتى بالنشوة اذ يحطم القوانين وينال من الآخرين دون أن تمتد اليه الايدى . واذن فهى رغبة فى السيطرة لا تجد لها مجرى مشروعاً .ويصل هذا الاجرام الى ذروته فى سنى المراهقة المتأخرة لاسباب اجتماعية أكثر مما هى جسمانية أو انفعالية كما كان يظن. فالفتى الان وقد بدأ يلج ميدان العمل فيقيم علاقاته مع الاخرين للمرة الأولى فى حياته دون أن يجد الوالدين الى جواره تواجهه صعوبات اقتصادية فى الحصول على عمل فالمجال ضيق والاجور زهيدة ،فليس من المستبعد هنا أن يسرق . أما المتاعب الجنسية فبعض أسبابها أيضا اقتصادى حيث يتأخر الزواج للتعقيدات التى تكتنف المجتمع المتمدين ، وهى اعتبارات غريبة عن المجتمعات البدائية .

عوامل مؤثرة على النمو الخلقى : يتأثر النمو الخلقى الى حد كبير بنوع البيئة التى تحتضن الطفل منذ الطفولة المبكرة

١ـ ولعل اهمها من وجهة نظر المؤلف العامل الدينى ولو أن رجال التربية اليوم لا يضعون له كل هذا الاعتبار فى وقت تراجع الدين فيه ليخدم أغراضا أخرى . وفى كل خطوة ذكرناها من خطوات النمو الخلقى يجب أن

تكون علاقة الطفل بالله معززاً للعمل الحسن . . ولنحذر أن نبدأ هذه العلاقة بالتهديد والتخويف . فلا ينبغى أن يسمع الطفل جملا مثل « أهو ربنا حيحرقك بالنار علشان بتشد ديل القطة . . » أو « تستاهل . . أهو ربنا عور لك لسانك عشان بتعض أختك الصغيرة . . » ! لتكن علاقات الطفل بالله علاقة محبة ورغبة فى البذل طمعافى الرضاء والاثابة. وطرق وضع اللعب أو النقود الى جانب الطفل سرا ساعة الشدة عند طلب معونة الله أو ساعة عمل شىء حسن لها فائدة كبيرة اذا اتبعت باقتصاد وحرص ، وهى ليست بغريبة عن سيداتنا .

والدين نتاج للبيئة ، يتكون بواسطة تقليد الطفل للابوين فى طقوس عبادتهما والذهاب الى أماكن العبادة من ناحية ، ثم التهذيب الدينى المباشر فى المدارس والجمعيات الدينية من ناحية أخرى

وبين الأقوام البدائيين نرى التهذيب الدينى جزء من الحفلات العامة للقبيلة ، ولكنهم يعتبرونه معقداً لدرجة يستعصى فهمها على الاطفال فيرجئونه الى مرحلة البلوغ، تماما كما يفعلون بالعالم الجنسى .

أما المجتمعات المتمدينة فمهما اختلفت فى فهمها للاديان فانها تبدأ التهذيب الدينى فى سن مبكر وهكذا يسمع الطفل وسط القصص والاهازيج الاولى طرفاً عن آدم وحواء وخروجهما من الجنة لعصيانهما أوامر الله ، وتتتابع بعد هذا قصص جذابة طريفة تتداول فى منازلنا عن سيدنا موسى وسيدنا يوسف وغيرهما من الصالحين . هذا فضلا عن المكافآت التى « يرسلها » الله سراً تحت الوسائد كما ذكرنا منذ قليل. واذا كان الاسلام يرى من الاوفق أن يرجىء بعض التهذيب الدينى المباشر والذهاب الى الجوامع حتى سن السابعة اختياريا ثم يفرضه فى العاشرة فهذا لا يمنع بدء النمو الدينى منذ الصغر ، فالطفل العادى يستطلع الكون الذى يحتويه كما يسأل عن الحوادث اليومية التى تتتابع فى عالم الصغير وهو ينظر الى الناحيتين على أساس واحد دون أن يرى فى الاولى عنصرا ميتافيزيقيا

وهو بين الثالثة والرابعة يدور الكثير من اسئلته حول الدين. . «فين ربنا؟» «فين الجنة ؟ ازاى الواحد بروح هناك ؟ »وواضح أن اسرار الميلاد والموت والنمو والرياح وعناصر الطبيعة يفسرها الوالدان تفسيراً دينياً

ولكننا فى تحمسنا لتهذيب الطفل دينيا . . فى تحمسنا لمقاومة ما يظهر كثيرا فى مرحلة البلوغ والمراهقة من عناصر الشك والالحاد الهدامة بتمكين الطفل منذ صغره من تذوق الدين .. نتعدى الهدف فنخطئه فى أحوال كثيرة . ذلك لأنا وان خالفنا الرجل المتوحش فبدأنا التهذيب فى سن مبكر الا اننا لا نزال نشاركه فى التعقيد المزعج الذى يكتنف المسائل الدينية كلها فالطفل لايكاد يستطلع احداها حتى ننهره فى رهبة وغضب ، وهو فى اللعب اذ يقول لك « أنا حاعمل ربنا وانت آدم » تعاجله بالذم والتقريع ، وقد تبطل اللعب كلية دون مناقشة . هذا فضلا عن أن لغة الكتب الدينية أو على الأقل ما تتضمنه من أفكار عميقة جدا ومعقدة . فلا يكاد الطفل يخطىء فى حرف حتى نرده فى كثير من الرهبة ونفاد الصبر . وهكذا نجد الطفل حتى الثانية عشرة أو ربما أكثر يردد جملا لا يفهم لها اى معنى وانما يلقيها جزافاً فى دروس الدين المدرسية ، كأن يقول عن آدم وحواء انهما كانا فى أول الأمر «مستورين بثوب النعمة » فاذا استوضحته معنى هذه الجملة أو غيرها كررها كما هى فى شىء من الانفعال ، تماما كما حدث بينه وبين والده وهو صغير . بل ولقد وجد المؤلف نسبة مدهشة من الصبيان يظنون أن الله يدعى « أمين » ، والسبب انا نكرر كلمة « آمين » بعد الصلوات ..!

وهكذا يتأثر التهذيب الدينى كثيرا نتيجة لما نعانى من ضيق الأفق. ونود لو نؤكد للقارىء على ضوء ما وضح من النتائج أن نسبة كبيرة من الشك الدينى والالحاد فى مراحل متأخرة تقترن بالمنازل التى تتحمس لتهذيب صغارها وتشتط فى التقديس فى جمود ودون ان يعرف المنطق أو التفاهم الى التعاليم سبيلا . فاذا كان للدين أن يؤتى نتائجه فليقترب كثيرا من حياة الطفل اليومية وليلون بصبغة حسية لا مجرد أفكار عميقة المغزى ، ولتبسط لغته لتقترب من

القصص المثيرة التى تشوقه فى كل سن ، وأخيرا لنبتعد عن تلك الحرفية الحمقاء التى قد أضحت صنما نعبـــده فى كثير من الرجعية ، ولنتبسط مع الطفل ارضاء لاستطلاعه .

والحق أن الدين يضيف الى استقرار الصغير وشعوره بالثقة اذ تلمع عليه الطقوس الدينية وسكون أماكن العبادة ونقوشها نوعا من الرهبة والجلال فيطمئن الى استناده اليها ، فهو يقبل كل ما نقوله أو نفسر به أسئلته عن الدين كالقصص عن النعيم والجحيم والملائكة والشياطين والمعجزات . ومع هذا فلا يسلم أى طفل من نوبات قصيرة من الشك تراوده - كما يرى ستار بك - وخاصة عقب المواقف التى لا تستجاب فيها صلواته . ولقد طالعتنا الحرب بأن الروس بعد انتزاع بولندا من الالمان كانوا يجمعون أطفال البولنديين فى غرفة كبيرة ثم يتركونهم جياعاً ويوحون اليهم أن يصلوا لله وهم يقصدون ألا يجيبوهم الى مطالبهم ، حتى اذا استبد بهم الجوع أمروهم بأن يصلوا لستالين وسرعان ما تتقاطر اليهم الحلوى والغذاء من فتحات فى السقف ، ومهما كان فى هذه الانباء من دعايات فهى تؤكد ما نقوله من ان العامل الدينى مهم جدا لو عرفنا كيف نستفيد منه . فالطفل يفهم الدين فى صورة نفعية حسية تتركز حول نفسه ، وكما يرى فيمن حوله أشخاصا يؤدون خدمات نحوه يرى فى الله شخصا وقورا متقدماً فى السن ذا لحية طويلة بيضاء ورداء أبيض فضفاض وهو يقدم له ما يشاء تماما كأية أو أمه ، الا أنه موجود فى كل مكان وتمتد عيناه الى كل شىء . فاذا سألته عن الجنة عرض لك ما تحتويه من مأكولات كما يقول ستانلى هول ، ففيها دمى ومراجيح وبنادق وكل ما تحتويه واجهة الحانوت أو الـــكتاب المصور ، وهناك يلبس الانسان ملابس جديدة ، وساعة ، ويجد كلابا وقططاً وعصافير ، ولا يطلب منه أن يذهب الى المدرسة . . !»

نعود فنكرر أن نوبات الشك هنا سطحية مؤقته ، وحتى عندما يكبر الطفل خلال مرحلة الرياض والمدارس الابتدائية قد يشكل عليه الامر

قليلا ما يراه من اختلاف بعض زملائه عنه فى الدين . بل ما يراه من اختلافات فى العقائد داخل نطاق الدين الواحد ، ولكن اتضح أيضاً أن هذا الاشكال عارض لا يدوم ، فالدين لا يزال شكليا جامداً لا يصحبه أى انفعال ، وأسئلة الصبى فى دروس الدين عن التناقض فيما تعلمه وهو طفل عن شخصية الله وغير ذلك لاتدل كما يظن البعض على روح ناقدة أو شك بالمعنى المعروف ، اذ الواضح أن الصبى لا يقصد سوى ارضاء النزعة للظهور باثارة أحاسيس الدهشة لدى المدرس أو لدى الزملاء . وهو ينسى كل شىء عنها بعد انتهاء الاجتماع .

ننتقل بعد هـذا الى مرحلة المراهقة فاذا بالموقف ينقلب كلية تبعا لتفتح العالم الاجتماعى . وليس من النادر أن نرى المراهق يبدى اهتماماً خالصاً عميقاً بالدين ، ثم اذا به بعد سنوات قليلة يندفع نحو الطرف الاخر فيناقش كل ما تعلمه أو اعتنقه من أفكار دينية .

ذلك لان الدين هنا يصبح للمرة الأولى خبرة شخصية للفرد يفهمها بطريقة ما كانت تتهيأ له فى مرحله سابقة . ويتبع هدا نوع من المهابة والاجلال غريب عن نفس الصبى يغرسه تفتح الفتى لادراك جمال الطبيعة وما يكتنفها من نظام علوى وهو الذى يجلس اليوم ساعات بأكملها يقلب فى ذهنه نظم الكون .

ولا يغرب عن أذهاننا ما يصاحب المراهقة من خروج الفتى الى الحياة واصطدامه بمشاكلها لاول مرة دون أن يجد نصيرا سوى تفكيره هو وشخصيته . هنا نراه يلجأ للدين كحصن يحتمى بداخله ضد أعاصير الحياة التى تتمثل فى مشاكل شخصية ترتبط بصداقاته مع اخوانه فى وقت هو فيه سريع الحساسية يصدم لاقل اشارة ، وعلاقاته الغرامية القصيرة العنيفة التى تنتهى غالباً نهايات فاشلة ، وتفكيره فى المستقبل الذى يتشعب أمامه فى طرق يراها وعرة مظلمة .

والحق أن الفتى هنا فى أشد الحاجة لمنفذ تندفع فيه انفعالاته التى تلون خواطره بلون حاد وتبدو فى كتاباته الشعرية وقصصه العاطفية ، وليس هناك بين النظم الاجتماعية ما يرضى هذه الحاجة أكثر من الدين . فهو لشعوره الدائم بعدم

الاستقرار يتشبث بالدين هروباً من عالم الحقيقة . وليست قراءته المستمرة للكتب الدينية أو سجوده ساعات وساعات يصلى فى حرارة وخشوع ، أو خلوه الى نفسه يقلب ماينتابهـــا من قلق وأفكار ، سوى تمهيد لتمسك بالفتى بالدين فى حنين جارف .

هنا تسيطر على الفتى فكرة تملا عليه كل تفكيره . تلك هى الحملة للاصلاح يشنها فى كل وقت ومناسبة ليكسب كل من يتصل به الى حظيرة الدين فهو يرى الجميع على وشك أن يتردوا فى هوة لا يقر لها قرار . ومن الشائع جدا فى هذا السن ١٣- الى ١٦ فى حالة البنات ، ثم ١٥ الى ١٨ عند البنين — أن يقرر الفرد أن يكرس حياته لخدمة الدين بأن يلبس مسوح الرهبان ويسافر الى أقطار بعيدة لا تزال تعيث فى عالم من الاثم ، أو يتخذ الوعظ والهداية طريقه فى الحياة . ولا عجب فالصغير قد أثقل كاهله بفكرة الخطايا التى ارتكبها وهو يود لو يكفر عنها بأية تضحية .

ولكن لان هذه الافكار عارضة لا تلبث أن تتبخر بمجرد انتهاء ما يحرك جذوتها من انفعال نجد كثيرا من الهيئات الدينية لا تقبل انضمام هؤلاء الصغار وترجىء ما يتخذونه من قرارات تختص بمستقبلهم الى وقت يتحررون فيه من الاندفاع ، محولة اياهم بكياسة الى تقديم الخدمات الاجتماعيـــة وسط الفقراء والجهال والمرضى .

ولكن اذا كان العنصر الانفعالى يسيطر على نفسية الفرد فى مبدأ مرحلة المراهقة فانه يفسح السبيل قرب نهايتها للعامل الفكرى أو الذهنى ، مما تكون نتيجته اتجاه الفرد نحو الشك الذى قد يصل من الحدة درجة يطيح فيها بمعظم العقائد الدينية وفلسفة الحياة التى كان الفتى الى سنة مضت مستعداً فى سبيلها للموت ..!

والحق أن ازدياد القدرة على الجدل والمنطق .. الى جانب هذه الثروة

الخصيبة التى تأتيه بها الدراسات العلمية والأدبية والفلسفية . . والنزعة التى يأتى بها التعليم العالى نحو التفكير المستقل والتحليل والنقد ، حتى لقد يشجع الاساتذة طلبتهم على الشك فى آرائهم وما يقرأونه فى الكتب وبذا تمتد هذه النزعة الى التعاليم الدينيه ، كل هذا يدفعه لتنقيح ومراجعة الكثير من الآراء التى تسلمها منذ الطفولة وقبلها الى شغف وحنين فى عهد قريب

وما من شك فى أن دراسة العلوم ، بما فيها من الحقائق البيولوجية والطبية التى تتعارض تعارضاً صارخاً مع التدريب الحرفى القديم فى ميدان الدين ، تضيف الى تمكن عنصر الشك . وكلما كان هذا التدريب فى الصغر نظريا جامدا لا يقبل المناقشة وضح تناقضه فى هذه المرحلة المتأخرة وازداد الخطر عليه من معول العلم والنقد والتحليل . ولعل أول ما يتجه اليه هذا المعول المعتقدات التى تخالف قوانين العالم المادى خلافاً شاسعاً مثل خلق الارض فى ستة أيام ، وبتولية السيدة العذراء ، وفكرة البعث

والواقع أن اثر الكتب العلمية والتاريخية والفلسفية ، والمناقشات بين الرفاق ، والملاحظات العامة على الحياة ، كبير الأهمية . وفى كل مرة يجتمع الفتيان من أديان أو طوائف مختلفة ويتحدثون فى الدين لا بد أن تثور المناقشات وتتعارض الآراء فى حدة متناهية ، ثم تنتهى بتزعزع بعض العقائد عند كل منهم على أثر بروز بعض الحقائق . هذا فضلا عن أن المناقشات مع أساتذة الجامعة وكل ينظر الى الدين من وجهة نظر علمية أكثر نقداً وتحليلا من الوالدين ، تضيف الى عنصر الشك .

وواضح ان كثيرا من المجهود يضيع نتيجة لهذه العوامل الهدامه التى يولدها الشك فضلا عن الاضطراب الذهنى والتخلى عن كثير من العادات والتقاليد والآراء الدينية التى غرست فى الطفولة ، ولذا نرى من المستحسن ان تتضافر جهود الآباء والمربين للتقليل من حدة هذه المرحلة ما أمكن . ولعلنا نخطو نحو الطريق الصحيح لو قللنا من ذلك الجزع والرهبة اللذين يحيطان بالدين منذ الصغر .

ومن تأكيدنا للطفل بأن عدم تصديق أو مناقشة أى نقطة فى الدين هو خطيئة شنيعة تقود الفرد حتما الى الجحيم ! فلنحاول أن نفسح السبيل للمناقشة فى شىء من المرونة منذ الصغر ، ولنقرب وجهتى نظر العلم فى المدرسة والدين فى المنزل وأماكن العبادة حتى لا يبدو فيهما كل هذا التعارض.

فاذا جاءت مرحلة الشك لتلقى بظلها الكئيب فيمكننا أن نقلل من ذلك الاضطراب والنضال الذهنى اللذين يصحبانها بتركيز انتباه الطفل على الدراسة الموضوعية للاديان كلها بدلا من أن يتجه تفكيره الى تحليل ونقد دينه هو. فليتعلم المراهق الأسس والطقوس التى تضعها مختلف الأديان ، ولنعاونه على فحص كل بطريقة ناقدة لتقرير أيها يناسب حاجاته الشخصية الى أقصى حد. وانا لنعتمد على التربية الدينية الهادئة المرنة من أول الأمر ، والذات العليا التى تكونت على أساس ما رآه فى الوالدين فى السنين المبكرة ، فى قيادة الفتى فى الطريق السوى الرشيد وفى تهدئة ما قد يثيره هـــذا لدى بعض القراء من استنكار .

٢ ــ فاذا انتقلنا بعد هذا الى أثر العائلة فى النمو الخلقى وجدنا أنه يبدو

فى نواحى أربعة .. ناحية التقليد لسلوك الكبار . . واستخدام طرائق المدح والذم والثواب والعقاب لتدريب الطفل على أن يسلك سلوكاً مستحباً .. ثم تقرير العقوبة المناسبة للخطأ بحيث يمكن أن يتعرف الطفل مدى ابتعاد العمل عن جادة الصواب .. وأخـــيرا فالمجال فسيح أمام العائلة لتحريك الطفـــل لعمل الخير .

ولدينا فى دراسات هارتشورن وماى وشالورث التى هيأت لنا معاملات ارتباط بين المعلومات الخلقية للاطفال مرتبطة مرة بوالديهم وأخرى بمدرسيهم فى الجمعيات الدينية ، ودراسات فيت التى تدور حول السلوك الاعتـــدائى وارتباطه بأفكار الوالدين والأشقاء ، وأخيرا دراسة المجرمين الاحداث حيث أوضح فيرنالد أن ٨٧ فى المائة من الفتيات المجرمات أتين من منازل

منحلة أخلاقياً .

٣ - فاذا وصل الطفل الى سن دخول المدارس فان معظم وقته يقضيه فى الخارج . وهنا يبدو أثر الرفاق . والحق أن الاحساس بالانتماء الى الجماعة هنا قوى جداً ، وبنموه يزداد استقلال الطفل وانفصامه عن القواعد الخلقية التى يضعها الكبار . فاذا كان البون شاسعا بدأ النضال واضحاً من ناحية الطفل وللمرة الثانية نجد دراسات هارتشورن وماى عن الافكار الخلقية فى ارتباطها بالرفاق ، ودراسات هيلى وبرونر على المجرمين ، تعزز ما قلناه من أثر الرفاق الذى وصل فى الحالة الاخيرة الى ٢، فى المائه كمؤثر على الاجرام مقابل ٥ر١٣ فى المائة وهو أثر ضعف العقل .

٤ — يضاف الى كل هذا أثر المدارس ، فروح المنافسة فى الألعاب والمواد الدراسية سلاح ذو حدين . وكم من مدارس يعتبر فيها فناء اللعب ميدانا للروح الرياضية الحقة . ففيه تعاون واخاء ونظافة فى اللعب مع رغبة فى الكسب الشريف . ولكنا كثيرا ما نجعل التفوق أو الانتصار يطغى على اللعب الحر فتضع المدرسة الهدف الاساسى كسب الجوائز ، وهكذا يجتمع الطلبة وفى نفوسهم آثار هزيمة قديمة يسعون لغسلها والاخذ بالثأر . وكم من مناسبات رياضية انتهت بتدخل رجال البوليس والاسعاف ، وافترقت المدرستان وهما لم تأخذا من الرياضة سوى قشورها الظاهرة

وهكذا تخرج المدرسة بوضعها أسس المنافسة العمياء عن نطاق الخلق السليم . وما ظن القارىء بمدارس تدعو لتبرعات لعمل خيرى فتنشر قوائم بأسماء المتبرعين وقيمة تبرع كل .. ؟ وهل من العجيب وحساسية الفتى هنا على أشدها أن يسرق من المنزل أو الخارج لينشر اسمه فى قائمة المتنافسين ؟ بل ان وضع العبء كله على التفوق الذهنى فى المدرسة يغلق أمام الطالب سبيل العواطف الرقيقة والاحساسات النبيلة . وبدلا من أن نخلق من الفصل الواحد أسرة متماسكة متحابة . اذا بالطالب يرى فيمن يجلس الى جواره مصدراً

للقلق والانزعاج ، فاذا نال نصف درجة أعلى زادت كآبته وزاد كرهه له . هو لا يحتمل أن يمد اليه يد المساعدة فيفهمه درسا صغيرا لئلا يتفوق عليه . وكم من شبان يتقابلون فى ميدان العمل بعد الجامعة فتدب بينهم صداقات وثيقة كانت مغمورة فى فيض من القلق والانانية اللذين يخلقهما نظام المدارس الاحمق الذى يضع الضغط كله على التفوق الذهنى والمنافسة العمياء

٥ - وبعد فما من شك فى أن نوع الكتب التى يقرأها الطفل ، ومادة الافلام السينمائية التى يطلع عليها ، لهما خطرهما . ولو أتيح للقارىء أن يلقى نظرة على أدراج طلبة مدارسنا الثانوية ونهاية المرحلة الابتدائية لوجدها تموج بروايات الجيب والقصص البوليسية مما ينعكس على حياتهم الخاصة فاذا بعصابات « الخنجر الدامى » و « العقرب » و « الصاعقة » وغيرها تظهر فى رسالات ومنشورات سرية ترسل حتى تهديدا للمدرسين . . ! وقد لمس المؤلف أكثر من مرة حالات مؤسية لعصابات تتألف للسطو فتدوخ البوليس .. عصابات يظل الزعيم فيها مجهول الشخصية يحرك الخيوط من وراء الستار .. ولها شروط معينة وامتحانات جسدية قاسية لابد أن يجتازها العضو الجديد فيوشم بالنار وشما معينا ، ويقسم قسما خاصا ، ويتنكر كالباقين ، ويتبع فى النجاة من مطاردة البوليس ما يقرأه فى الكتب أو يراه فى الافلام .. ! وها هى المدنية بتبذلها المقيت تفتح أمام الاحداث ميادين عديدة من الترف والتنعم تدفعهم للاغراق فى الخيال والثورة على البيئة المنزلية ، كما تتناول بعض المشاكل الجنسية أو المغامرات البراقة فى ثوب رخيص . ولدى سجلات البوليس حوادث عديدة لاجرام الأحداث كان السبب الرئيسى فيها تقليد بعض مايرون على الشاشة البيضاء ولقد طالعتنا الجرائد قديما بقصة الغلام الذى ضبط فى مخزن فحم فى باخرة ايطالية بعد اقلاعها بيومين ، ولما سئل عن هروبه قال إنه يود لو يقلد ماشست وقد كان هذا نجما من نجوم السينما اختص بادوار المغامرات .. ، وهناك بعض الحكومات تفرض رقابة شديدة على الاشرطة السينمائية ابعادا للنشء عن خطرها . وما من شك فى أن نفس هذه الحكومات تعتمد على الكتب

والافلام لتلون حياة النشء بلون فكرى أو خلقى معين ، واذا كانت السينما كما رأينا تؤثر على اللوازم الكلامية والمظهر الخارجى للفتيان والفتيات من تمشيط للشعر وتلويح باليدين فلم لا تؤثر على الافكار الخلقية والسلوك الخلقى ؟

أما الذكاء وقد رأينا أثره واضحا فى كل من الفصول السابقة فيحتل مكانا لا بأس به كمؤثر على الناحية الخلقية ، ولو انه تضاءل بعض الشىء عن مكانته الرئيسية القديمة ، فلقد كان يظن أن الطفل فى حاجة للذكاء ليتنبأ بنتائج اعماله ولكن وجد اخيرا أن الذكاء المطلوب لا يتطلب رقما عالياً . ولقد نحت أبحاث اجرام الاحداث نحو معرفة النسبة المئوية لضعاف العقول بين المجرمين ، فوجد بيرت انها لا تزيد عن ٨ فى المائة وسط المائتى طفل الذين أجرى عليهم تجاربه ، وارتفع هيلى وبرونر بالرقم الى ١٣٫٥ فى المائة كما يذكر القارىء انا اشرنا فى مناسبة سابقة .

الفصل التاسع

النمو الجنسى

للغريزة الجنسية من القوة ما يرتفع بها فوق أى دافع آخر من دوافع السلوك فى المملكه الحيوانية . ويشاهد هذا فى العقارب والعناكب بنوع خاص ، فاناثها أقوى وأضخم من الذكور ، وما يكاد يحل موسم التلقيح حتى تستكين الانثى للذكر ريثما تتم العملية الجنسية ثم اذا بها تتلقفه بين كلابتيها وتقتله . والعجيب أن الذكر يعلم هذا حق العلم ، فلا يكاد ينتهى من تلقيح الانثى حتى يستدير لينجو بجلده ، ولكنه فى معظم الاحوال لا يفلح . ومن هنا تبدو قوة الدافع الجنسى الذى يجعل الذكر يضع رأسه بين فكى الاسد

أما فى الانسان فقد تضافرت العوامل الاقتصادية التى تمنع الفرد من الزواج بمجرد نضوجه الجنسى وتؤخره الى ما فوق العشرين أو الثلاثين . . وعوامل الاستثارة التى صحبت المدنية الحديثة من حرية فى الاختلاط بالجنس الاخر فى الاندية والشوارع والمحال العامة وعلى شاطىء البحر . . وحرية المناقشات المبتذلة والكتابة القصصية التى تدور حول مغامرات جنسية فجة تضيف الى غرابة العالم الجنسى وبريقه المفتعل . . وعدم الرقابة الكافية على الاعلانات السينمائية وصور بعض المجلات وما تعرضة دور السينما من افلام استعراضية تعتمد فى نجاحها على اظهار أوضاع شاذة فى الجسم الانسانى . . تضافر كل هذا ليجعل من العالم الجنسى كابوسا يحيل حياة الكثيرين جحيما لا يطاق

يضاف الى كل هذا ما تلعبه التقاليد فى أذهان الكبار . وهى تقاليد ورثناها عن آبائنا وأجدادنا فصبغت حياتنا منذ الصغر بصبغة من الاشمئزاز والخجل من كل ما يمت للعالم الجنسى والاعضاء الجنسية بصلة ، وظل هذا

العالم مستغلقا الى يومنا هذا بالنسبة للكثيرين ، فالطفلة لا يكاد الهواء يلعب بردائها قليلا حتى تسمع التنبيه « اتغطى يا ماما عيب » . والطفل يترك ليلعب كما يشاء حتى اذا دخل أحدهم الحمام أقيم من الاحتياطات والسرية ما يدهش الصغير كل الدهشة . واذا اقترب الطفل من فرد من الجنس الاخر ليؤثره بلعبة جميلة أو قطعة من الحلوى أو ليربت عليه فى حنو انطلقت الضحكات تدوى من كل مكان من جانب الكبار ، وأثيرت تعليقات عجيبة عن روميو الصغير و « الدون جوان » و « يللا يا عم شد حيلك عشان نجوز هالك » . . ! وفكرة الزواج علاقة غريبة طالما تستغلق على الصغير ، فهو يعلم مثلا أن « بابا مجوز ماما » ، ولكن ما كنه هذه العلاقة ؟ هو يعلم عن يقين أن هناك نوعاً من اللذة يصحبهما وهذه اللذة هو ممنوع عنها . ويزداد شعوره بوجود هذه اللذة الغريبة لو كان ينام فى غرفتهما ليلا كما يحدث فى آلاف المناسبات اذ تطرق أذنيه أصوات وحركات لا يستطيع أو يفسرها أو يشترك فى أحاسيس اللذة التى تصحبهما

بل وقد يقيض الله له خادما أو خادمة مراهقة تتفحص أعضاءه الجنسية وهو صغير أو تعرض عليه أعضاءها . بل وكثيراً ما يلجأ الخدم للعبث بأعضاء الطفل الجنسية ليسكتوه عن البكاء بما يستثيره هذا عنده من احساس سار . أو قد يسأل الطفل أسئلة جنسية لا يعنى بها سوى الاستطلاع ، فهو يجذب والدته من يدها لترى المنظر الغريب « يا حرام يا ماما شوفى الكلب الاسود طالع على ضهر الكلب التانى حيعضه يا ماما . بصى بصى بيعمل له ايه . . ! » واذا بالأم تنفلت راجعة فى عنف وأنفاسها تتردد فى خجل وحرج عجيبين بالنسبة للطفل الذى يسمعها تقول « اخص ما احبش اشوف القباحة دى . . ! »

وهكذا يشب الطفل والعالم الجنسى سر مستغلق ، يزيده حلوكة ما يسمعه من تعليقات اثناء المرحلة الابتدائية عن زملاء فى فرقته حباهم الله وجها صبوحا مشرقاً أو جسداً بضا ممتلئا . وهى تعليقات عجيبة عن علاقات جنسية بينهم

وبين أولاد كبار فى فرق أعلى .. يضاف الى هذا ما يقرأه من عبارات جنسية نابية وسباب غريب تمتلىء به دورات المياه فى المدرسة . وليس من النادر أن يلفق له بعض الرفاق تهمة جنسية تصل الى أسماع ادارة المدرسة فيحقق فيها أحد المعلمين تحقيقاً شاذاتتخلله تعبيرات غامضة لا يدرك كنهها ، ولقدوقعت بنفسى على تهم عديدة من هذا النوع .. أقول يشب الطفل حتى يصل الى مرحلة المراهقة فتتكامل حلقات التوتر والاستغلاق . فالتغيرات العضوية كخشونة الصوت ونمو الشعر ونزول السائل المنوى ليلا .. والتغيرات النفسية من ركود الى حيوية جنسية جارفة يكبتها المجتمع فتتحول الى اغراق فى العادة السرية أو اجتماع جنسى شاذ مع البغايا والساقطات أو أعضاء من نفس الجنس .. كل هذا يصل بالتوتر الى حده الاقصى

ومن من فتياتنا بين الحادية عشرة والثالثة عشرة لم تصب بذعر وهلع شديدين لدى حدوث مظاهر النضوج الفجائية ـ منظر « الدماء » المفزع وما يرتبط به فى الذهن باستمرار من معانى الالم ومتاعب الجروح . وتتوالى التغيرات الجسمية والعضوية الغريبة من استطالة فى الاطراف يتبعها نقص فى الدقة والاتزان الحركى .. ونمو الثديين والشعر تحت الابطين وحول الاعضاء التناسلية .. ثم التغيرات النفسية .. ذلك القلق العجيب الذى يستولى على المراهقة .. ذلك الدافع الجنسى الذى لا تفهم له سببا .. هذه الحيوية الدافقة التى تغمر جسدها فتحيل حياتها كتلة من المتناقضات .. نوبات الفرح والانقباض نوبات الشك والتسليم .. نوبات الاجتماع والعزلة .. نوبات الانفعال الحادة ، الضحك لاقل سبب والبكاء لاقل سبب ، بل وبدون ما سبب ظاهر .. بل وأكثر من هذا المجهود المضاعف الذى ألقى على عاتق القلب ليدفع الدم لأجزاء الجسم التى استطالت ونمت نموا سريعا مدهشاً .. كل هذا يؤدى الى فقر الدم ، والى حدوث فترات طويلة من الخمول تتخلل نوبات الحركة والحيوية التى تسرى فى كيانها .

ولقد عنينا بذكر هذه الظواهر لنقرر حقيقة تؤكدها الاحصاءات ، وهى أن هناك نسبة كبيرة من الفتيات فى هذا الدور يقعن فريسة للهستريا والاغماء ، وننظر نحن الى هذه الاعراض التى تدل أبلغ دلالة على ما يعتمل فى أعماق الفتاة من شك وخوف قاهرين ونبتسم ابتسامة العارف المطمئن ونقول ان هذا شيء عادى متكرر أو قد لا يحدث للفتاة أى أعراض ظاهرة ونظن نحن أن الدور قد مضى وأن فتاتنا صحيحة سليمة ، مع أن المسألة قد تكون أسوأ وانما قمعتها الفتاة وهو ما سيكون له أخطر النتائج وقد ذكرت لى احدى السيدات وهى تعرض بدهشة ، لقوة شكيمة فتاتها ، كما نعتتها أنها ظلت شهورا أربعة تخفى ملابسها الداخلية عن أمها كلما جاء موعد العادة الشهرية فلم تكتشف الاخيرة الا بعد مدة أن فتاتها قد دخلت دور المراهقة ولعل هذا يرينا ما يجب أن تكون عليه علاقاتنا مع أطفالنا .. علاقة توجيه وارشاد وتبادل العطف والتقدير ، حتى يفتح هؤلاء لنا صدورهم . كما يرينا حادث مثل هذا دليلا على الصراع العقلى العنيف والقلق الذى تحسه المراهقة فتكبته اما لسوء العلاقات أو لافكار جنسية خاطئة تدور حول الخجل والحرج من كل ما يتصل بالاعضاء الجنسية .

طرق الدراسة : لقد أتتنا المعلومات عن النمو الجنسى من مصادر ثلاث : تحليل المواقف المرضية الشاذة التى تصحب النضال أو الكبت الجنسى ، وهو يلقى ضوء على مراحل النمو الجنسى وخاصة الفترات الحرجة التى يمكن أن يتشوه فيها السلوك الجنسى .. واليوميات أو المذكرات التى يكتبها الفتيان والفتيات فى مرحلة المراهقة ، وهى تعطى تفصيلات دقيقة عن الحالات الانفعالية المرتبطة بالاحساس الجنسى كالرقص والتقبيل والالتصاق الجسدى . . واخيرا الاستفتاءات التى لا تحمل أسماء من يجيبون . وهنا يطالب الافراد بالاجابة بكل صراحة دون أى تحفظ عن اتجاهاتهم ومشاعرهم فى مواقف دقيقة لا يمكن الحصول على

معلومات عنها بطريقة الملاحظه المعروفه . ولكن ككل انواع الاستفتاءات نجد الاستفتاءات الجنسية قاصرة على الشبان والفتيات فى اعمار متأخرة فضلا عن أن عددا من المدارس والكليات لا تسمح بتداوله بين طلبتها لانها لا تود أن تركز انتباههم على المسائل الجنسية أو تشجع على حرية المناقشة فى مثل هذه الموضوعات

مراحل النمو الجنسى : كان يظن قديما أن الميل الجنسى يظل راكدا خاملا حتى فى مرحلة المراهقة ، ولكن فرويد كان أول من أدرك أن التفكير الجنسى يبدأ فى الطفولة .. وان النضوج الجنسى فى المراحل المتأخرة يعتمد على طريقة علاج أو اشباع الحياة الجنسية عند الطفل ، فاذا تدخلنا فى هذه الاخيرة تدخلا ملتويا نتج لدينا سلوك جنسى شاذ عند الكبير

١ المرحله الذاتية أو النارسيسية auto erotic والاشارة هنا الى «نارسيسوس» أحد فتيان الاغريق وكان ذا ملاحة نادرة. وتقول الاساطير انه أعجب بصورته فى الماء فوقع فى غرام نفسه حتى أنه رفض ان يتزوج «ايكو» احدى الالهة ، وكان لا يرى إلا وهو مستلق على بطنه وقد مس وجهه صفحة الماء يداعب صورته بأرق الاسماء . ويرى فرويد أن عشق الذات هذا أو استمداد اللذة من الذات يشبه كثيرا حالة الطفل فى المهد حتى منتصف السنة الاولى فهو يمص ابهامه أو يعبث بأعضائه الجنسية أو يناغى او يهمهم لنفسه والواقع ان الطفل لا يرى اللذة الا فيما يرضى حاجاته الاساسيه . . الطعام او النوم .

والحق أن الفم هو وسيلة الطفل للاتصال بالعالم فضلا عن ارضائه لاحاسيس الحنان والعطف التى تضفيها عليه أمه أثناء الرضاعة ، فليس غريبا أن يعتبره فرويد منطقة شبقية . ولعل القراء ليسوا فى حاجة لتذكيرهم بأنه يظل هكذا فى حالتنا نحن الكبار .

٢ — مرحلة الشرج . anal state وقد يرى البعض ادماجها فى السابقة وهى واضحة منذ منتصف السنة الأولى حتى نهايتها ، وفيها ينتقل اهتمام الطفل الى عمليات الهضم والتبول والاخراج ، ولكم تجد الطفل يهجع فى رضاء واضح أثناء

العملية الأخيرة أو يغمغم راضياً . بل وبعض الأطفال يقاومون نزول هـذه الفضلات بعض الوقت وكأنهم بذلك يستزيدون لذة هذا الشعور حتى لقد يصاب الطفل منذ أول عهده بالامساك . ولو تمشيت مع مثل هذا الطفل فى حياته المقبلة لوجدته فى الغالب شخصا مشاكساً عنيداً يميل للعبوس والتجهم والعنف وتتلون حياته بلون من الوحدة والكآبة والثورة.

٣ ـ مرحلة الاختلاط أو عدم التفرقة undifferentiated phase: قرب نهاية السنة الاولى تتسع ميول الطفل للخارج فيترك الاحاسيس المنبعثة من جسده ليوثق علاقاته بمن يتصل بهم فى بيئته المنزلية كالام أو المربية أو الأب أو ربما أحد الأقارب أو الخدم ، بل وحتى الحيوانات الأليفة قد تشوقه . والمهم هنا ما يشتقه الطفل من احساسات باتصاله بشخص معين فهو مستعد أن يصادق أى مخلوق ما دام يرعاه ويعتنى به فيصيب من ذلك لذة وسرورا .

فاذا نما الطفل قليلا خلال السنة الثالثة بدأت تتسع نظرته فتضم الرفاق الصغار فى قائمة الحب والحنان . وهو فى أول الأمر يختار طفلا أكبر منه متخذا مبدأ اللذة والسرور من عشرته اساسا . وتتسع الحلقة قرب نهاية مرحلة ما قبل دخول المدرسة فيلعب الاطفال فى حلقات تضم عددا منهم من الجنسين فى حرية وسعة صدر .

ويعبر الطفل عن حبه بطريقه ساذجة طريفة ، فهو يربت على صدر امه اثناء الرضاعة ، وقد يعض حلمة الثدى فى حنان ، ويمسح وجه الام فى الشهر السابع أو الثامن ، ويدير لها وجهه لتقبله ، ثم هو يلف ذراعيه حول عنقها ويلصق خده بخدها فاذا كبر قليلا فقد يتبع الشخص المحبوب الى أى مكان مما يثير تعليقات طريفة ، وكم يؤلمه ان يخرج من المنزل دون ان يسمح له باصطحابه . أما الحيوانات الأليفة واللعب فهى اكثر طاعة وسكونا ، وانك لترى الطفل يحمل لعبته الحبيبة حتى الى الفراش فينام وهو يحتضنها فى حنان برىء .

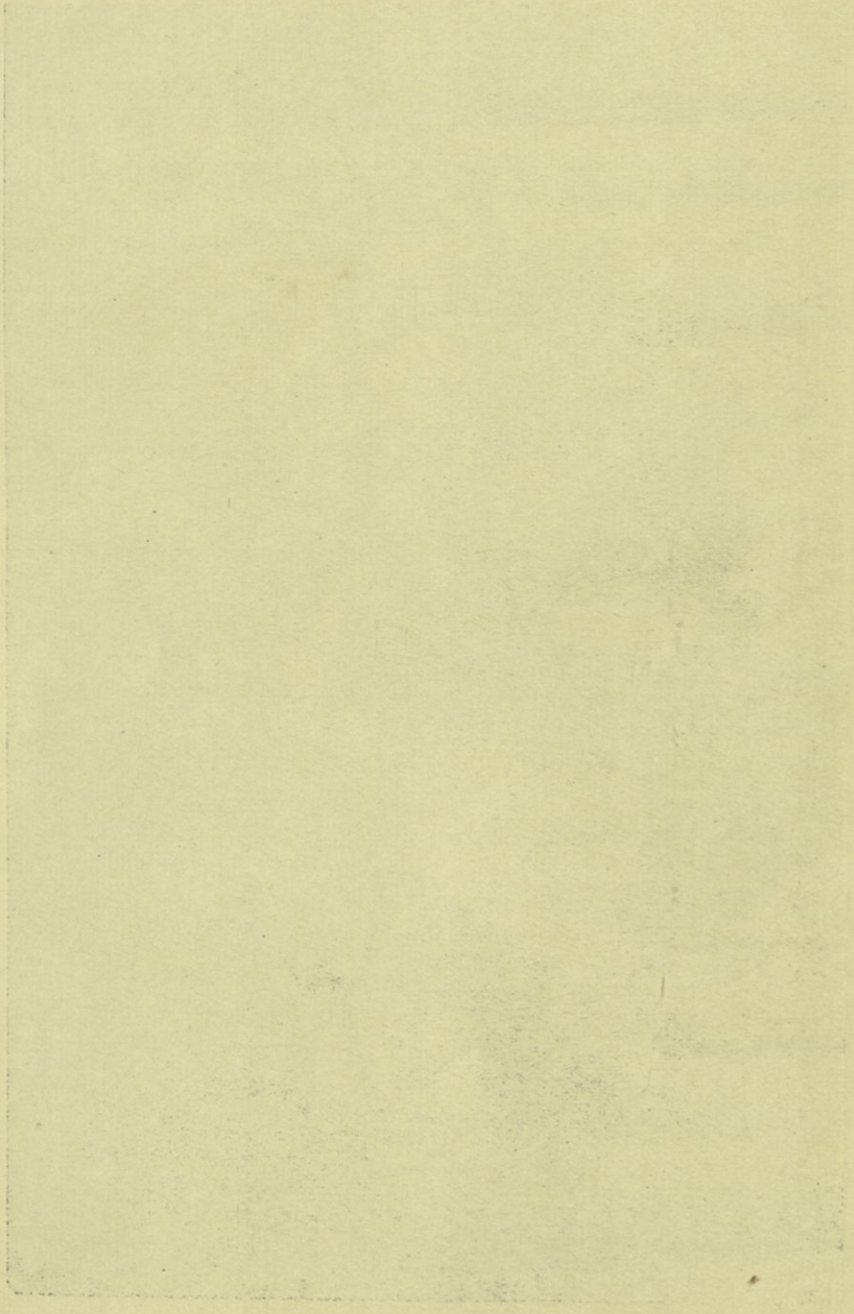

. . . ولذا تحدث معارك كثيرة بين الصغار من الجنسين . . .

ولكن هذه التعبيرات لا يطول أمدها كثيرا فى العادة . فالطفل يبدى كل حنو وحب ما دام الشخص موجودا فاذا خرج تحول عنه الى شخص أو شىء آخر . وكذلك فى حالات الوفاة أو الطلاق أو خروج المربية من خدمة العائلة نجد الطفل لا يسأل كثيرا عن الغائب .

٤ - المرحلة الاوديبية . Oedipus situation والاشارة هنا الى الملك أوديب اليونانى ، وتقول الاساطير انه قتل أباه وتزوج أمه ثم كفر عن هاتين الخطيئتين بأن أفقد نفسه حاسة البصر . وقد دفع فرويد الى هذا التشبيه ما يرى كثيرا من اتجاه الابن الى الأم فى حنان غريب ، والبنت الى أبيها . فأنت تكاد تلمس هنا عامل الغيرة ينهش قلب الصغير خصوصا فى المنازل التى يغيب الأب فيها عددا من الايام ثم يعود فاذا الام تقيم البيت كله وتقعده لتوفير كل الراحة للقادم مهما تعارض هذا مع راحة الصغار . ولكم تسمع الطفل إذ ينفرد بأمه بعد خروج الوالد يقول فى سذاجة « ماما .. أهو دلوقت ننام مع بعض مش كده ؟ »

٥ - مرحلة النضال ضد الجنس الآخر . تقع ما بين السادسة أو السابعة والثانية عشرة أو الرابعة عشرة . فالاولاد والبنات الذين كانوا يلعبون مع بعضهم فى حنو فى مرحلة رياض الاطفال نجدهم ينضمون فى جماعات كل منها من جنس واحد . ويبدو هذا فى اختلاف الالعاب ، فلعب الاولاد بالنسبة للبنت « عفرتة » و« شقاوة » بينما يرى الولد أن العاب البنت « دلع » و« مياصة » .. ، ولذا تحدث معارك كثيرة بين الصغار من الجنسين ويبدو هذا فى العائلة الواحدة . وهى مرحلة شاقة للاباء والامهات وخاصة أولئك الذين يحاولون أن يجمعوا الصغار من الجنسين فى حفلات أو نشاط جمعى فهى محاولات معظمها لا بد فاشل

ونحن لا نرى أى سبب فسيولوجى لهذا التعارض بين الجنسين فى هذه المرحلة ، وانما يغلب على الظن أنه يرجع الى اعتبارات اجتماعية ، اذ يقع اللوم على البيئة التى تفرق كل هذه التفرقة بين ألعاب الاطفال .

ومما يزيد حدة هذا النضال أن الاولاد والبنات فى هذه السن وهى سن التجمع فى عصابات لا يتطرق اليهم أى ذرة من التسامح حتى مع من لا ينتمى لعصابتهم من نفس الجنس ، فاذا كان الولد لا يحب ولداً آخر لا ينتمى لعصابته فماذا يكون سلوكه ازاء البنت ؟ هو يغيظها ويعذبها .. ويتدخل ليفسد لعبها مع غيرها ، بينما هى بدورها لا تترك فرصة تسنح الا لتنقل لوالديها حكايات ووشايات بعضها ملفق عن أعماله فى المنزل أو المدرسة وقد لوحظ فى المدارس التى يشترك فيها الاولاد والبنات فى تلقى العلم أن الاولاد يتجمعون فى جانب ويدعون للبنات الجانب الآخر ، وهم يتجنبون بعضهم بعضا اثناء الدخول أو الخروج ، فاذا حاولت المدرسة جمعهم فى الحفلات أو طوابير الصباح ثارت المعاكسات وتعالت الضجة وفسد الجو

ويلاحظ على العموم أن هذا النضال أقل حدة من ناحية البنت عنه فى حالة الولد ، بل هو يتخذ فى الحقيقة نوعا من التجاهل لا المعاكسات وصحيح أن ألعاب الاولاد فى نظرها خشنة عديمة الذوق مزى لعب الفلاحين الا أن البنت اذا تركت وشأنها فلن توجه الى الاولاد أى ذم أو اغاظة بل هى تتجاهلهم .

ولكن وسط كل هذا التوتر والنضال قد تحدث حالة طريفة حقا تنير حلوكة الظلام ولوانها قليلة الحدوث ، علاقة غرامية فريدة بين الصبى والبنت علاقة حب واحترام عميقين من الولد ورغبة فى خدمة الزميلة الحبيبة .. فهو يحمل لها كتبها فى خروجها من المدرسة .. ويقطف لها زهرة من الحديقة . ويدرأ عنها خطر عصابات الاولاد واغاظتهم لها . ولكنها علاقة مغايرة تماماً لتلك التى تنبت فى المراهقة ، فليست هناك تعبيرات جسدية ما عدا بضع

مواقف قليلة تتشابك فيها الايدى فى خجل. والبنات أكثر تسامحاً مع زميلتهن التى يحبوها أحد الصبيان بحبه ، ولو أنهن يتناولنها بسخريتهن اللاذعة بين حين

وآخر ، الا أنهن لا يستبعدنها من جماعتهن اذا أرادت اللعب معهن ، بعكس الاولاد الذين لا يطيقون أن يلعبوا أو يتصـــلوا بزميلهن الذى يعطف على احدى البنات .

٦ـ السلوك الجنسى فى المراهقة : وهو يستغرق أربع أو خمس سنوات منذ

بدء المراهقة ريثما يستقر المراهق فى مستوى جنسى صحى يمكن أن يعتبر أساساً لزواج موفق ناجح . ولا يتم هذا عن طريق المحاولة والخطأ من جانب الشخص فحسب بل هو فى حاجة أيضا الارشاد من ناحية المدرسة والوالدين. وكما تبينا أهمية تسهيل السبل للمراهق حتى يمر من بطل لآخر الى أن يعتنق مذهباً أو فكرة مجردة خالصة علينا هنا أيضا أن نكثر من تحقيق الفرص

لاتصال المراهق اجتماعيا بأعضاء من الجنسين نعرف عنهم أو عنهن صفات حميدة حتى يساير الدافع الجنسى ويتكيف تكيفا حميدا .

ا — دور الاعتزال : Sex aversion يتخذ الدافع الجنسى فى دور المراهقة عدة تعبيرات سلوكية تتتابع منذ بدء المراهقة . فالاقتراب من الجنس الآخر لا يتم فجأة ، وانما تحدث المرحلة الاولى قبل المراهقة بقليل وهى فترة تستمر ما بين نصف سنة وسنة ونصف ريثما تتم التغيرات العضوية التى يأتى بها نضوج الجهاز التناسلى . وتتميز بتباعد أو اعتزال عن الجميع وخاصة عن أفراد الجنس الآخر . وتختلف هذه المرحلة عن تلك التى سبقتها مباشرة فى أن سببها عضوى وليس اجتماعيا . فالتقاليد توجه نظر البنت الى أن العادة الشهرية ظاهرة مخجلة بغيضة ، خصوصا وهى تتصل مباشرة بالاعضاء التناسلية ، مما يربطها على الدوام برباط من السرية والقلق ويحيطها بثوب من الاشمئزاز يمتد الى كل ما يختص بالجنس . وهكذا تشعر الفتاة أن كل هذه التغيرات العضوية التى يراها الاخرون على جسدها كبروز الثدى واستطالة الجسم والبثور الجلدية على الوجه الناتجة من ازدياد نسبة الشحم والمأكولات المهيجة ، كل هذه « تكشف سرها » للجميع فيلمون بما ينتاب جسدها من تغيرات داخلية كنمو الشعر ونزول السائل المعروف فى حالة العادة الشهرية . ومن هنا تعتزل الفتاة المجتمعات وخاصة تلك التى يوجد فيها رجال أو شبان . بل وليس من النادر أن يرتبط الوالد الذى كان قبلا مفضلا عن الام فى الحب والعطف برباط من الخوف والخجل فتعتبره هو الاخر ضمن « العدو المشترك »

أما الغلام بين الثالثة عشرة والنصف والرابعة عشره فلديه من متاعبه هو الاخر الكثير . فخشونة الصوت وتقطعه ونمو الشعر على العارضين والشفة العليا يثيران سخرية وتعليقات تهكمية من جانب الكبار . فالكثير منهم يتعمد أن يضخم صوته اثناء الحديث معه .. أو يدعوه للغناء . أو يشير

الى « الضفدع » الذى جاء الى البيت حديثا .. فيثير بذلك عاصفة من الضحك . هذا فضلا عن أن الجسم يبدو فى نموه غير متناسق بشكل غريب . . فالانف يكاد يملا الوجه الصبيانى الصغير ..والفخذان واليدان قد استطالا بسرعة غريبة حتى ليثير المراهق وهو سائر يرتطم بأقدام الجالسين أو يتعثر فى بساط الحجرة تعليقات طريفه . . !

يذعر الغلام لكل هذه التطورات فيبدو له كما لو أن حالته هى الاولى والاخيرة وانها لا بد تحمل شرا مستطيراً ، فاذا أضيف الى هذا ممارسته للعادة السرية وهى طريقة طبيعية فى أول أمرها للتخلص من العدد الكبير من الهرمونات التى تفرزها الغدد التناسلية . . ونزول السائل المنوى أثناء النوم فاذا به يستيقظ فيحس شيئا رطبا فى ملابسه الداخلية .. فلا عجب بعد كل هذا اذا هرب الغلام الى حجرته وحيدا يفكر فى حياته المخزية البغيضة ويتصور انه لو استمرت هذه التطورات الاخيرة فسوف يشب مخنثاً غير متكامل الرجولة

ولكن التغيرات العضوية ليست كل السبب فى حالة المراهقين . فهناك من الاسباب الاجتماعية وخصوصا للفتاة ما يملاها خوفاً من الشبان ، فالكوارث الزوجية التى تحيط بها من كل جانب ..المشاجرات بين الاب والام أو الازواج والزوجات. والانفصال أو حتى الطلاق .. هى مذكر لها على الدوام بنواحى الشقاء التى تنتظرها لو عرضت لها حياة الزواج . ودور السينما للاسف مليئه بأفلام سينمائية تعزز هذه الافكار المتشائمة ، فهى اما مآس مباشرة أو عرض لمستوى من المعيشة الزوجية فى ثوب لا يتناسب مطلقا مع الحياة المملة العادية التى تراها حولها فى كل مكان . ولكون البنت تقضى فى المنزل مدة أطول مما يقضيه الولد نجد أن هذه الفكرة الاجتماعية تسيطر على ذهنها تماما

ب ـ عشق البطل من نفس الجنس : Crushes بمجرد انتهاء التغيرات العضوية تأتى مرحلة انتقال بين اعتزال الجنس الآخر الذى رأيناه وبين ما

سيكون عليه الجنسان فى نهاية المطاف من لهفة وشوق لبعضهما . وتتميز مرحلة الانتقال هذه بعاطفة وثيقة جداً من الحب العميق بين المراهق وشخص كبير من نفس الجنس ويبدو هذا فى المرحلة الثانوية على الاخص اذ يحب الطالب مدرسه أو أحد الزملاء الكبار من ذوى الشخصية الجذابة أو صديقاً وقوراً من أصدقاء العائلة . وهو حب غريب حقا فى حدته . . يتضمن من الغيرة والرغبة الكلية فى الاستحواذ على كل دقيقة من دقائق حياة وتفكير الشخص المحبوب ما يتألم الشاب معه كل الألم لو وجد اعراضا ولو بسيطاً غير متعمد من الشخص الذى يحبه .

ولقد دلتنى الخبرة على أن المدرس المحبوب فى المدرسة الثانوية وخاصة اذا كان فيها قسم داخلى يواجه موقفاً فى غاية الحرج يمكن أن يصل بمنتهى السهولة الى كارثة تصيب بعض الطلبة بضرر جسيم لو تصرف بدون حذر فيما يختص بعلاقاته بالطلبة الذين « يعبدونه » لو استعملنا التعبير العلمى . من السهل جدا أن تتشوه حياة الطالب العلمية والنفسية مؤقتا فيصبح متشائما سوداوى المزاج قليل الانتاج لو سخر منه مدرسه يوماً . وأعرف حادثا كاد يؤدى الى انتحار لمجرد ان الطالب حضر الى غرفة مدرسه الذى يعجب به ليقرئه تحية المساء كالعادة فلم يجده ، وعند ما عاد كاسف البال الى « عنبره » وجده يتبادل الأحاديث فى مرح مع بعض الطلبة . . ! .

وهذا الاتجاه الجنسى أوضح فى البنات عنه فى البنين اذ تصل تضحيات البنت فى سبيل بطلتها حدا كبيرا ويصل عذابها اذا وجدت منها اعراضا درجة أليمة . وبين يدى مذكرات كانت قد كتبتها احدى فتيات المدرسة السنية بالقسم الداخلى وكانت تستعد وقتها لتكون مدرسة ، تصف فيها فى اسلوب شاعرى رقيق علاقة فريدة فى بابها بينها وبين احدى المدرسات . فهى تكتب فى أول العام الدراسى :

« . . . فتاة بها من الحنين الى رؤيتك ما تضيق بحمله نفسها الضعيفة ومن السرور بعودتك ما يكاد يطير له صوابها ، أتقابلينها هذه المقابلة التى تتركها

حائرة مذهولة ...

«ثم ... تحضير الدروس ... ! مهمة شاقة لم أعهدها قبل اليوم.. ولكن غيرى فى عرفك من يستحق مساعدتك . غيرى من هن أهل لها . قد تعترضين قائلة أنك سألتنى.. والحق انك سألتنى « عملا بالواجب » ، اذن ما هذا الطمع وماذا كنت أرجو فوق ذلك ؟ أى ربى لقد كنت أرجو أكثر من ذلك . . نعم أكثر وأكثر . . . .

وبعد قليل « . . . لقد كان خيراً عندى نظرة عطف حقيقية من ملايين من كراسات التحضير.. نعم كراساتك التى ظلت بين أيدى بعض المختارات ..!»

وتستمر هذه المرحلة بين الثالثة عشرة والسابعة عشرة . . وقد تتجه الى أبطال وبطلات السينما والمسرح . ويلاحظ أن المراهق والمراهقة يتلمسان فى الأبطال ما يخالف الآباء والأمهات ، ومن هنا يحدث صراع ومقاومة شديدين اذ يحاول الفتى أن يصلح من والديه نحو ما يراه فى بطله .

ولا تحدث اتصالات جسدية بين المراهق والشخص الذى يتعلق به ، فالعاطفة هنا يملأها الاعجاب والتقدير العظيمان ، وتجد منفذاً لها فى تقليد نوع الملابس التى يلبسها ، وطريقة الكلام واللوازم الحركية والإشارات. كما يبدو هنا ميل المراهق الشديد لاختيار ألوان الملابس والاهتمام بالمظهر الخارجى ، فهو ينتقى ربطة الرقبة بمنتهى العناية ويصلح هندامه ما أمكنه حتى يجتذب الانتباه من المحبوب .

وقد لا يشعر الشخص الكبير بهذه العلاقة فى أول الأمر ، ولكنه يكتشف مدى حدتها فجأة . وقد يسر ويشعر بالزهو لهذه القوة التى يضفيها عليه المراهق فيحاول مدفوعا بالأنانية أن يحتفظ بهذه العلاقة ويطيلها ما أمكن وخاصة فى حالة السيدة التى لم تنل من النجاح فى حياتها الجنسية مع الرجال ما يشعرها بالاعتدال فهى تشعر أن هذا الاعجاب الحاد من جانب الفتاة نوع من التعويض . ولكن هذا السلوك من جانبنا يتضمن نتائج خطيرة ليس أقلها أثرها أنها تقود الى اتجاهات غير صحيحة متصلة بالجنس الآخر وقد

تنتهى بالعزوف عن الزواج كلية

ليكن رائدنا بوجه عام – كما أشرنا الى الخطأ الذى تتورط فيه منازلنا الناعمة المدللة فتلصق الطفل بها معطلة اياه عن النمو الاجتماعى والخلقى والخروج الى البيئة الواسعة - أن نسهل مرور النشء من مرحلة الى أخرى أرقى منها حتى يصل الى ذروة النمو الجنسى فيتجه اتجاهاً صحيحاً - موافقا لمستويات المجتمع نحو الجنس الآخر .

وتختلف حدة هذه المرحلة التى نبحثها الآن حسب البيئة التى تحيط بالمراهق وما يسيطر عليها من تقاليد المنع وعدم تيسير الاختلاط. فاذا كانت البيئة غير معقدة من هذه الناحية فان المراهق يمر سريعا فى هذه المرحلة فلا تتأخر حتى السابعة عشر . والمهم أن يستغل البطل سواء أكان رجلا أو سيدة قوة الايحاء التى يهيئها له الموقف فى الوصول بالمراهق الى مرحلة النمو الخلقى الصحيح ويتخلص منه بهدوء ليقدمه الى اعتناق فكرة سامية نبيلة فهذا هدفنا حقا . هذه الفكرة قد تتمثل فى فرد من الجنس الآخر فيقدر الفتى فتاته على هذا الاساس وهنا يندمج العالمان الجنسى والخلقى وبذا نصل الى النضوج الفكرى الحق .

ج . عشق البطل من الجنس الآخر : Calf love من الجائز اذا كانت

البيئة كما قلنا لا تقف حجر عثر فى سبيل الاتصال بأعضاء من الجنس الآخر أن يتخطى المراهق المرحلة السابقة الى حب سيدة أكبر سنا بكثير بل قد تصل الى ضعف سنه ، كما تختار المراهقة لحبها رجلا متكامل الرجولة ربما ناهز الاربعين . ولعل أحد أسباب ابتعاد المراهقين عن حب فتيات فى سنهم والعكس هو أن أجسام الاحداث هنا لا تزال فى أوضاع غير متناسقة بينما أجسام الكبار قد استقرت وصقلت وأضحت الحركات متزنة رشيقة .

وكثيرا ما تثير هذه العلاقة البريئة سخرية الموجودين وتعليقاتهم التهكمية كلما حاول الفتى الصغير أن يحتل المقعد المجاور لبطلته على المائدة أو حاولت الفتاة أن تنفرد برجلها أو تتابعه وهو يتحدث أو يتحرك فى اعجاب واستغراق

ملحوظين . ويتسبب عن هذا خجل شديد قد يقود لتوتر انفعالى أو خوف من أى اتصال مقبل بالجنس الاخر .

وكما قلنا فى الحالة السابقة نجد أن السلوك هنا سلوك اعجاب مصحوب برغبة فى تقليد الصغير لسلوك الكبير. فالمراهق يحاول أن يبدو فى مظهره رزينا وقوراً كالكبار ، توحى نظراته بالتأمل والتفكير العميق . وليس من النادر أن يفكر فى ترك المدرسة للاشتغال بأى عمل ليعول السيدة التى يحبها كزوجة له ان لم تكن متزوجة ..! وهكذا فى حالة الفتاة التى تعجب برجل فى العقد الرابع من عمره ، فهى تحاول أن تنافس أمها وصديقات أمها فى مظهرهن وسلوكهن ، محاولة أن تكتسب اهتمام الرجل ، فاذا كان البطل من أى الجنسين متزوجا — وهو أكثر احتمالا فى حالة السيدة التى يعشقها الفتى — فان الصغير يحس بالغيرة الجارفة من ذاك الذى يقاسمه حياتها ، ويتمنى سرا أن يفصم عقد الزواج

وكما قلنا أيضا فى الحالة السابقة يخلو هذا المظهر الجنسى من أى التصاق جسدى بين المراهق ومعبودته أو العكس .. خصوصا والشخص المحبوب فى معظم الاحوال متزوج فهو لا بد يوجه اهتمامه لشخص أكبر من المراهق وأكثر خبرة . ولكن مثل هذه السيدة قد تشعر بالزهو اذا اكتشفت هذه العلاقة ، والبعض الأكثر هدوء وفهما للحقائق يشعرن بنوع من عاطفة الامومة والرغبة فى اسعاد الفتى الصغير ، تماما كما تتمنى أن تسعد أحد أبنائها . أما الرجل فى العقد الرابع فقد لايكون متزوجاً وفى هذه الحالة قد يجد فى شعور المراهقة العميق بعض التسلية . ولكن لا يبعد أيضا أن ينقلب هذا الشعور على مر الأيام حبا ينتهى بالزواج من الفتاة . ولكنه لو كان عاقلا لما فعل ، فمثل هذه الزيجات لاتنتهى عادة بنتائج سارة ، فهذا الدور — كما يجب أن يكون — دور عارض فى نمو الفرد الجنسى فاذا انتهى انقضى معه الاعجاب بالكبير وتحول الى من هم أكثر شباباً وحيوية ، وهنا تشعر الفتاة أنها قد تورطت . فلنسع دائما كآباء وأبطال أن نقود الطفل الى الامام دون اهتمام بمصالحنا أو

عواطفنا الشخصية . وليس معنى هذا أن نهزأ بعواطف الفتى أو الفتاة ونبين فى سفور ان اهتمامنا بعيد عنه منصب الى شىء آخر ، فهذا يورثه شقاء وهما واكتئاباً تتدخل فى عمله الدرسى فتعطله ، وفى علاقاته الاجتماعية فيتجهم ويعتزل ، كما تشعره بالخيبة والنقص فيتعطل مروره لمرحلة الغرام المتبادل المعروف لدينا جميعاً .

د ــ الحب الصبيانى : Puppy love قبل أن يصل الفرد الى هذه المرحلة الأخيرة تعترضه مقدمة صغيرة يمر فيها معظم المراهقين والمراهقات فى صورة حب لعضو من الجنس الاخر فى نفس السن . وهى تبدو فى أوضح مظاهرها بين السابعة عشرة والثامنة عشرة . لقد تضاءل الآن الاعجاب بالسيدة أو الرجل الكبير ، فهؤلاء لا يعرفون من الحياة وجهها المرح الطروب ، ومن الملابس سوى الألوان الخامدة الباهتة . كان المراهق فى المرحلة السابقة خجولا ينعقد لسانه ويشعر بالحرج لأقل اتصال بينه وبين السيدة . ولكنه اليوم يتغلب على هذا ويغطيه فى رداء من الجرأة المصطنعة . ومن هنا تختلف هذه المرحلة عن مرحلة الحب الأخير الموفق الذى ينتهى بالزواج فى كونها خشنة غير مصقولة يعززها اندفاع الصبا ورعونته . فارتفاع نبرة الصوت .. والصفير .. والقهقهة العالية .. وحركات الجسم السريعة كالدوران ووضع قبضتى اليدين فى الوسط .. وتحسس الشعر باليد .. ، كل هذه مظاهر الحب وجذب الاهتمام فى هذه المرحلة ، يتخللها فى بعض الاحوال تشابك الأيدى فى خجل واحمرار الوجوه

ويلجأ كل من المراهق وزميلته فى جذب انتباه الاخر الى لبس الملابس ذات الالوان البراقة الزاهية والموديلات الحديثة للازياء ، وعقص الشعر فى أوضاع صارخة ، والاكثار من دهن الشعر بالزيوت ليلمع . وتقضى المراهقة ساعات أمام المرآة ، وتهتم بزينتها وهى خارجة للمدرسة كما او كانت تذهب لحفلة كبيرة تحشد لها كل مواردها .

ولكن هذا الحب ليس مضيعة للوقت بالنسبة للصغار كما قد يظن البعض ،

فهو جدما بعده جد ، فالفتى يقدس فتاته وهما يتمنيان لو بقيا مع بعضهما . وينتابهما منتهى الشقاء لو انفصلا قليلا ، فيقضى كل منهما وقت الانفصال فى خيالات وأحلام متسائلا عما يفعله الطرف الاخر . ويعمد الفتى الى كتابة خطابات يتأجج فيهـــا الحب ويزينها برسم زهرة جميلة فى الركن ، أو يودعها أوراق « البانسيه » رمزا على العهد الباقى والاخلاص الدائم ، كما قد يتجه للشعر فيكتب ويمزق أو يحتفظ بما كتبه بعيدا عن الأعين

ويحاول المراهق ما وسعه أن يصلح من عيوبه حتى يصل للمثل الأعلى الذى يظن أن محبوبته تتربع عليه أو ليكون جديرا بحبها . وهذا يدعو الشاب بالتدريج ـ اذا اخترنا صديقاته اختيارا موفقا ـ لاكتساب مظاهر الاتيكيت وآداب المجتمعات ، وهذه فرصة ذهبية أمامنا لاصلاح ما يمكن أن تكون قد أفسدته مرحلة العصابات حتى الرابعة عشرة من ميل للتدخين والمشروبات الكحولية وتحطيم القوانين . وكثيرا ما نجد الفتى ينفق أكثر مما يطيق على الهدايا البسيطة التى يقدمها لحبيبته ، ولا يبعد أن يصرف من الجهد ما يعوض به تفاهة الهدية من الوجهة المادية ، فهو يسهر الليل ليصب لها دبوسا جميلا تشبكه فى صدرها أو ليلون صورة لها مكبرة ، فاذا خلا بها بعض الوقت فهو يحدثها عن مستقبله وما سيهيئه لها من وغد وسرور

ولكن على عكس ما قلناه فى المراحل السابقة كلها نجد هذه الفـــترة خطيرة جداً لما يمكن أن تتمخض عنه من مآس خلقية نتيجة للالتصاق الجسدى الذى يميزها . فالاستثارة الجنسية والدافع الجنسى هنا على أشدهما ، وليس لدى الصغار من الخبرة والاحساس الاجتماعى ما يمنعهما مـــن ارتكاب حماقة فى لحظة من لحظات الاندفاع خصوصا والغدد الجنسية تعمل فى فورة بعد هجوع طويل . وهنا تأتى التربية الجنسية لتهيء للاحداث موقف الحذر من الاتصال الجنسى لا عن طريق الارهاب والتهويل فيما قد يصيب الفرد من أمراض سرية ولكن عن طريق تعزيز الروابط الاجتماعية

التى قد تتأثر لو اعتدى النشء على مثل هذه الحواجز . نحن هنا فى حاجة الى كل موارد الوالدين والكبار من لباقة وكياسة لتيسير مرور الفتيان والفتيات فى هذا الدور دون أن ينزلقا ، ففى الزيارات والاجتماعات وعلى الأخص تلك التى تعقد فى الخارج كالرحلات الخلوية التى تستغرق بعض الوقت فرص ذهبية جميلة لصقل الدافع الجنسى ، ولكنها خطيرة .. فينبغى أن تكون العيون ساهرة لا تغفل ولكن فى ثوب من عدم الاكتراث المصطنع فاذا كانت البيئة مستقيمة ومر النشء فى مراحل النمو الخلقى التى سبق عرضها ، فتكفى رقابة يسيرة لابعاد عنصر الخطر ، خصوصا والفتاة فى الغالب أكثر حذرا من زميلها وخطر « الحمل » عندها قريب جدا للذهن .

ان بعض كبار المربين الامريكيين الذين ينادون بالحرية المطلقة والتربية المختلطة فى المدارس لا يرون فى العملية الجنسية بين الفتيان وزميلاتهم سوى عرض من أعراض النمو الجنسى ، وهى فى تمزيقها لاغشية أو خلايا معينة لا تعدو أن تكون تدبيرا فسيولوجيا محضا يمكن النظر اليه مجرداً دون ما يحوطه من تهويلات خلقية يضعها المجتمع لمجرد أنها غير مشروعة ، وعلى هذا الأساس فهم لا يتألمون كثيراً لحدوثها — ولا أقول يبيحونها — كخطوة من خطوات التقدم نحو الكمال والنضوج الجنسى والاجتماعى .. ! ولكنا بالطبع لا نستطيع بتقاليدنا الشرقية أن نشاركهم فى هذا الاعتداء الصارخ ، وسنعود لبسط دور التربية الجنسية بعد قليل .

أما المرحلة التى نحن بصددها الآن فتتكون من عدة مغامرات متكررة بين الزملاء والزميلات . وهى مغامرات حادة عنيفة يقسم فيها الفتى أنه يحب صديقته حب العبادة ، وتقسم الفتاة أن مصيرها الى « الدير » لو تخلى عنها صديقها ..! والغيرة هنا احدى المظاهر التعبيرية الحادة . فالشاب أو الفتاة سريع الشك فى أقل اهتمام يوجه الى من يحبه ، وكثيراً ما يعقب هذا سلوك

عنيف قد يصل الى الاضرار بمستثير هذه الغيرة ، فاذا هدأ الصغير وخلا لنفسه ندم على تهوره .

وسرعان ماتتعلم الفتاة بعد خبرة قليلة هذه الخدعة التى تتقنها هى واترابها من سن مبكر ، اذ تستثير غيرة الصبى باصطناع التلطف أو التقرب من غيره ولعلها بذلك تود لو تحتفظ باهتمامه بها كاملا مع كثير من السرور لما يبديه من رغبة فى امتلاكها لنفسه . ولذا يتميز هذا النوع من الحب بمواقف العتاب وسوء التفاهم والشجار ، وكثيرا مايفترق الطرفان بعد موقف عاصف فيخلو كل لأشجانه يتذكر الحب المستعر القديم ، ولنفسه يطارحها العتاب ، ويؤمن الصغير بأنه كان مغاليا فى شكوكه عنيفا فى تصرفاته سريعا للاحساس باهانة الكرامة حيث لا اهانة . وهو يتخيل ما سيحدث فى اليوم التالى من اعتذار رقيق متبادل وعودة الحب الى جذوته الاولى . ثم يأتى اليوم التالى حقا ويجتمع الصغيران فى جو بارد ملىء بالأعين ، وتتغلب على الفتى نفس اعتبارات الكرامة خصوصا والفتاة لاتزال تتلاعب بعواطفه فيتقابلان فى جفاف وتحت الرماد سعير يتلظى .

وهكذا تتتابع المغامرات ، وهى بالرغم من حدتها فى كل مرة نجدها قصيرة الامد تنتهى كما بدأت فجأة ، على أثر خلاف تافه .. ! ويقضى الطرفان فترة من الالم والشقاء قد يفكر الفتى أثناءها فى الانتحار ، كما تفكر الفتاة فى اتخاذ « الرهبنة » طريقا تدفن فيه نفسها بقية حياتها ، ولكن كلا منهما سرعان ما ينغمس فى مغامرة أخرى مع عضو آخر .. وهى مغامرة تحمل من العنف والتأجج ما حملته السابقة تماماً ..! وليس من النادر اذا سمحت البيئة أن يندمج الفتى فى أربع أو خمس محاولات من هذا القبيل قبل أن يصل للعشرين ، فلا عجب اذا رأيناه فى دوامة عاطفية مستمرة تؤثر على صحته وعمله المدرسى أو الجامعى .

هـ . الحب المصقول : Romantic love هو المرحلة الاخيرة فى النمو

الجنسى..الحب الرومانتيكى الذى يعتـــبر الأساس الصحيح للزواج الموفق ومظهره محدود يتبع مستويات السلوك الاجتماعى . فالشاب بعد مروره خلال المراحل الخلقية والجنسية السابقة لديه مثل معين يحاول أن يطبقه على فتاة هى أقرب ما تكون له . وكلما أفلحنا فى جعل فتاتنا أو فتانا يسيران بمثلهما على الأرض ولا يحلقان فى السماء.. بمعنى أن يكون المثل قريبا من الحقيقة مرناً على قدر ما فيه من السمو والنبل.. كلما كانت العلاقة الغرامية أدوم وأبقى أثراً .فالحب « من النظرة الأولى » هو تقمص المثل الاعلى للفرد فى شخص حقيقى . وهذا المثل قد يكون شخصية نتجت عن أحلام اليقظة والخيال ، أو شخصية فى كتاب أو فى فيلم من الافلام السينمائية أو تطبيقا لذكرى أحد الوالدين مات وترك فى ذهن الشخص أثراً لا يمحى

ولكون الاعتبارات الاقتصادية فى المجتمع المصرى تضع القدرة على اختيار شريك الحياه فى جانب الرجل أكثر منها فى جانب المرأة ..فهو لقدرته المالية وموافقة المجتمع يمكنه أن يتردد على منازل كثيرة ليختار منها من يروقه بينما المرأة تلعب دورا أكثر تراجعاً وسلبية خصوصا لو وصلت الى سن معين لا تستطيع بعده أن ترفض من يتقدم لطلب يدها . . لهـــذه الاعتبارات الاقتصادية نجد أن المثل الذى يخرج به الفرد من المراحل الماضية هو أكثر وضوحاً وتحدداً فى الرجل عنه فى المرأة التى تحتفظ دائماً نظرا لموقفها المستكين بالكثير من الليونة والمرونة فى فكرتها عن الرجل بحيث يسهل نسبياً تحويرها لتناسب القادم الجديد .

وهناك من الصفات التى تجذب الشباب من الجنسين عدد كبير ، ومن تحصيل الحاصل أن نشير اليها فى اسهاب ، وانما نكتفى بالقول بأن الجمال الجسدى للوجه والقوام أولون العينين والشعر وشكل الساقين..وجمال الملابس وتزيينها بالأزرار والحواشى والورود وذوقها وطريقة مناسبتها للجسم .. والاتفاق فى الميول والأمزجة ..والاتفاق فى نوع العمل أو نوع المعيشة أو

الطبقة الاجتماعية والاقتصادية . . ، هذه العوامل الاربعة تؤثر على اختيار الشريك . ونحن نختار العاملين الأخيرين لنؤكد أهمية وجودها أو وجود أحدهما فى الزواج الموفق . بل وقد يصل الفرد فى مثله الأعلى الى التجرد فيحب صفة معينة كالذكاء أو التواضع أو تقدير المسئولية وهكذا .

وقد يتخذ هذا النوع من الحب فى أول أمره مظاهر تعبيرية يتطلب الامر حدوثها للتحرر من المرحلة الصبيانية السابقة . ومن أكثر هذه التعبيرات شيوعا الرغبة فى الالتصاق الجسدى . وهى رغبة ثابتة مستقرة تخالف فترة الاندفاع الفائتة ، كما تتخذ وسيلتها ما يهيئه المجتمع من ضروب الاتصال ، خصوصا وقد خرجت الفتاة اليوم الى المنتـــديات العامة وهيأت السيارات والنزهات الخلوية فرصا عديدة للاجتماع ، وجاءت بعض الآراء الحديثة وبالا على عدد كبير من الفتيان لا يكاد الواحد منهم يحس شذوذا عصبيا من نوع ما حتى يقتاده أحد « النفسيين » الى موضوعات غريبة عن الكبت والتوتر الجنسى ووجوب توفير الالتصاق الجسدى . بل وكم من الأطباء — سامحهم الله — يدفعون الى الفتيان « بكارت بلانش » مصحوباً « بروشتات » تقيهم ما قد ينتج من أخطار . . ! فاذا نجحت هذه المواقف فى حالتين أو ثلاثة فلدى القراء ولا بد أمثلة فى أذهانهم عن مئات غيرها دمرت فيها حياة النشء المسكين من الجانبين .

والمؤلم أن هذا المظهر التعبيرى لهذه المرحلة من النمو الجنسى يستثير الغدد الجنسية بشكل أكثر خطرا مما رأينا فى الفترة السابقة . فاذا تكرر هذا فأخوف ما نخافه حدوث « تكييف كيمائى » كذلك الذى ينتج من الاستثارة الكحولية ، مما ينتهى بفضائح سلوكية عديدة فضلا عن صعوبة استقرار الفرد فى وضع الزواج .

ومن أساليب التعبير أيضا الرغبة فى تقديم الخدمات للطرف الآخر مهما تطلبت من مصاعب ، بل ان التضحيات التى يجتازها الفرد لمما يضيف الى

شعوره بالسعادة . ومن عجب أن هذا الأسلوب أوضح فى الفتيات عنه فى الذكور الذين يختلفون قليـــلا عنهم فى المرحلة السابقة اذ بدلا من اغراق الاوليات بالهدايا يسعون لارضائهن بأعمال تدل على التفوق الجسمانى أو الذهنى .

وكثيرا ما ينقد الفتى ماسبق أن كتبه فى المرحله الماضية من قطع شعرية أو موسيقية وخطابات غرامية ، ويحاول أن يضع هذه الرغبة الانشائية فى ثوب أكثر صقلا وهدوء .

يضاف الى كل هذا رغبة الشباب من الجنسين فى اتخاذ أصدقاء يعهدون لهم بأسرارهم الغرامية ، ويستحلفونهم أن يبقوها سرا مكتوماً . ولعل ماينفس كثيرا عن الفتى أن يقص لصديقه الحميم أوصافاً معينة ومواقف وداع أو لقاء تنطبع فى ذهنه . أما الفتيات فكثيرا ما يكتشفن ان صديقاتهن يبحن بهذه الاسرار فى سهولة ولذا يلجأن الى اليوميات يودعنها مكنونات قلوبهن ويخفينها بكل حرص وعناية .

وفضلا عن هذا فهناك الرغبة فى صحبة المحبوب وملازمته طيلة الوقت ما أمكن . ولايقتصر الامر على اجتماع الفتى بفتاته فى المناسبات الاجتماعية كالحفلات ، بل انهما ليودان ان يستذكرا دروسهما سويا ، ويشتركا فى نفس الالعاب والمباريات ، وهكذا تتوثق بين الجنسين روح زمالة وتعاون غير موجودة فى المراحل السابقة كلها . فاذا انفسحت أمام النشء الفرص للاتصال ببعض الحرية كان هذا تمهيدا لاستقرار المشاعر على أساس صحى أوثق مما تهيئه اية مرحلة أخرى

كبت الدافع الجنسى والتربية الجنسية : رأينا ما للدافع الجنسى من قوة

قاهرة فى حياة الانسان . وهو بما يعرض من فرص ذهبية للميل للاصلاح والتضحية بكل شىء فى سبيل الطرف الآخر يحقق ما قاله أحد كبار الفرنسيين من ان « كل عظيم لا بد كان فى مسرح حياته يوما ما امرأة .. » ولسنا نعنى

.. وإذا اقترب الطفل من فرد من الجنس الآخر ليقبله انطلقت الضحكات
وأثيرت تعليقات عن « روميو و جوليت .. ! » ... ص ٢٦٨

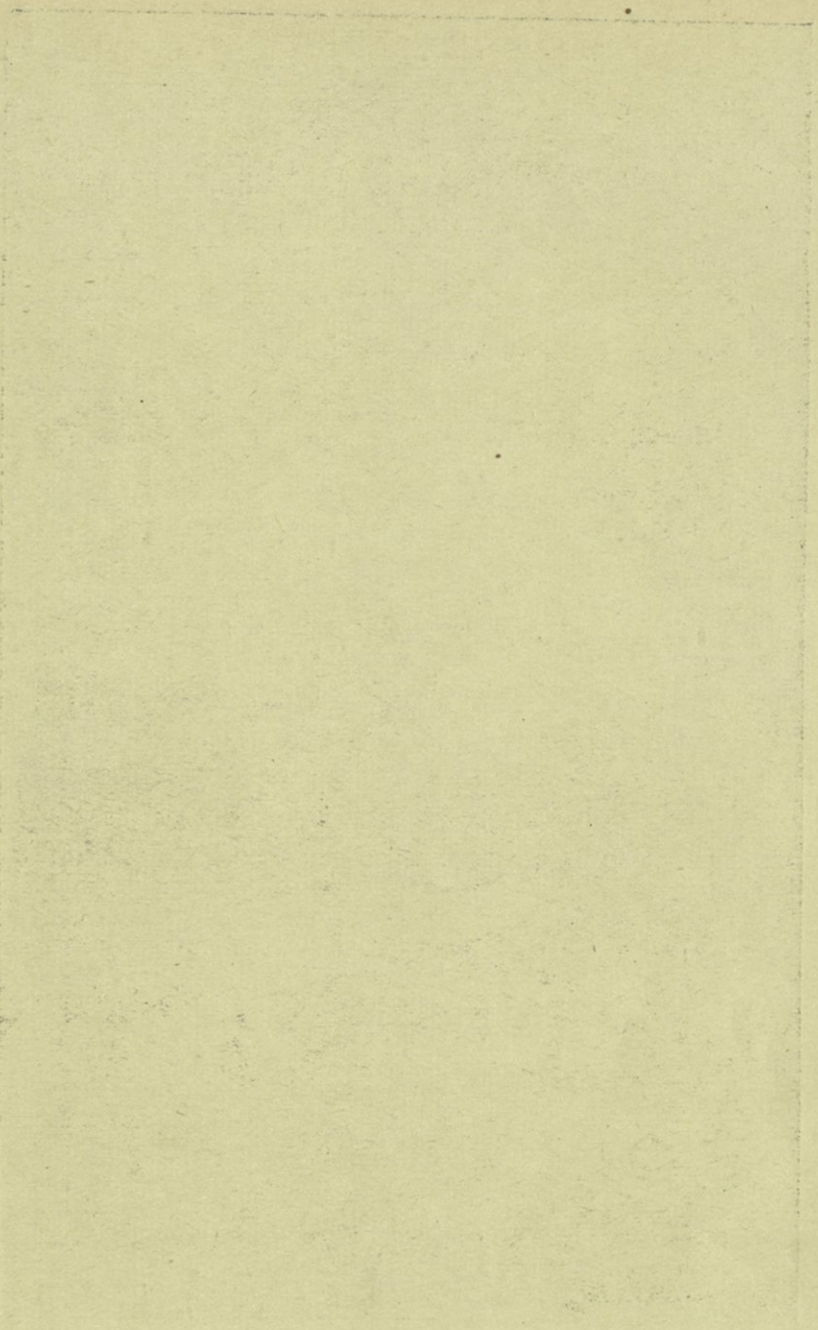

بطبيعة الحال أن مشاهير الرجال والنساء كانوا دائما متزوجين اذ لا يستلزم وجود المرأة أو الرجل فى حياة الفرد أن يتزوج .

فاذا استطعنا أن نتسامى بهذا الدافع ليسير فى مجرى يوازى ما يطلبه المجتمع فقد جهزنا الشباب بمحرك قوى للكمال . ولكن المدنية للاسف تستثيره أثناء المراهقة وقبلها بما تعرضه من أفلام ودراما وقصص وصور مبتذلة ونكات جنسية . وبدلا من أن نساعد الفتى والفتاة لضبط هذا الدافع بطريقة صحية والتقـــدم مع الزمن للحياة الزوجية الموفقة اذا بمعظم الآباء والأمهات يحاولون منعه بأى شكل . ومعظم كوارث الحياة الزوجية حيث يتحطم قلبا الزوجين الفتيين أو ينفصلان أو تدمر سعادتهما سببها أن هذه كانت أولى محاولاتهما الجنسية فلم يمرا فى المراحل التى سبق عرضها بل ظل العالم الجنسى دونهما سراً مستغلقا حتى ليلة الزواج . وسنعرض هنا مع بعض الايجاز أوضح أخطار الكبت الجنسى :

١ ـ العادة السرية : لعلها أقرب الحالات الى « مص الاصابع » فى أول الأمر ، وهى تحتل المكان الاول كمسبب لقلق الآباء والمحيطين بالطفل وكهدف للقمع والتقريع . فاذا عرفنا أن الحياة الوجدانية كلها للرضيع مركزة فى الاحساس الجسدى بالالتصاق والضم والتقبيل ، فهو عنيف فى حبه لامه يشعر أنه يود لو يأخذها لنفسه كلية ، وهو يراها فى أول الامر مجرد ثدى يرضعه وذراعين يحتضنانه .. وبنفس الطريقة نجد أن حب الطفل لابيه يعنى بالنسبة للوليد الصغير اللذة الجارفة التى يحسها اذ يرفعه الاب بين يديه القويتين ويحتضنه .. ، واذا أضفنا الى ذلك أن هذه اللذة الحسية منذ الايام الاولى تتركز فى الفم وبعد قليل فى الاست ، فلعنا لسنا فى حاجة لتأكيد الدور الذى تلعبه الاعضاء التناسلية بعد هذا بشهور قليلة . ويلاحظ هذا بوضوح فى الولد والبنت ولو أنه فى الولد أوضح ، اذ يميل العضو الى الانتصاب أثناء اطعام

الطفل أو احتضـــانه أو احساسه بالحب من أى نوع . فليس من الغريب والحالة هذه أن تمتد يد الطفل للامساك بهذا العضو تماماً كما تمتد الى فمه ، ولـكن الغريب أن يقابل هـذا السـلوك بكل هذه المحاولات للمنع وبعد هذا بالذم والعقاب والتهديد ..!

وينتهى هذا الدور العادى اذا كانت البيئة المحيطة بالطفل عاقلة حكيمة بمجرد أن يتحرر الطفل من قيود اللذة الحسية الذاتية ـ المرحلة النارسسية ـ وتتسع ميوله لمشاهدة الاشجار والطيور ، وسماع أغانى أمه وأهازيجها ، والتمتع بألعابه فى صحبة الآخرين .. هذا مع تيسير وسائل النوم بحيث لا يترك الطفل وحيداً دون ما يشغله قبل أن ينام ، ولا يصيبه الارق لاسباب جسمية كاللوز والزوائد الانفية وغير ذلك .

أما اذا كانت البيئة سيئة فقد يترتب على القمع زيادة اهتمام الطفل بالعضو التناسلى ، وهو موزع بين هذا وبين احتقاره كما تمليه السلطة الضابطة . فاذا تذكرنا ما قلناه من خطر القلق وعدم الاستقرار والشعور بالخوف والنقص وأثر هذا على مص الطفل لاصابعه ـ وهى مشاعر قد لا تنشأ عن القمع فقط بل تصحب عشرات الحالات كفقد أب أو أم أو شخص عزيز على الطفل أو غيرة من طفـل آخر ، أو عقوبات قاسية مرتجلة متناقضة وهكذا ـ اذا تذكرنا كل هذا وجدنا أنا نسير مع الطفل على أرض زلقة محفوفة بالمخاطر ، وليس من الغريب أن يلجأ الطفل فى أية لحظة الى العادة السرية كوسيلة لتهيئة جو من السرور لا يشعر به فى الحياة العادية . كما قد يؤدى المنع والتهديد الى اخفاء هذه العملية والتحايل على ذلك والاغراق فى الخيال والتلذذ أثناء ممارستها وهنا تصبح فرصتنا فى علاجها أقل . بينما فى الاحوال العادية قبل أن تتعقد المسألة نجد الاطفال يمارسون العادة علنا كما لو كانوا يحكون رؤوسهم .

وترى سوزان ايزاكس أن العادة السرية عند طفل الثالثة أو الرابعة هى تعبير طبيعى عن الازمة الداخلية الشديدة التى تنتاب مشاعره بالنسبة لوالديه .

وهو فى محاولته أن يحبهما بدرجة متساوية يجد نفس الصعوبة التى يلاقيها الشخص منا اذ يحاول أن يحتفظ بعلاقة صداقة واحدة مع صديقين مخلصين ، أو يمنع توتر الغيرة بين رجلين ازاء امرأة ، أو امرأتين ازاء رجل . بل ان المشكلة بالنسبة للطفل لأقسى وأعمق نظراً لحدة انفعالاته ورغباته واعتماده الكلى على الوالدين . فهو اذ يحب أمه يريدها كلية لنفسه ، ثم اذ يتمتع باحتضان أبيه تتدخل الام فيضطرب الميزان . ويشاهد تفضيل معظم الاولاد للبقاء مع الام من وقت مبكر ، تماماً كما يلاحظ ميل البنات للاستمتاع بآبائهن أكثر من أمهاتهن ، ولعل السبب نوع المعاملة الممتازة التى تلقاها البنت من أبيها والولد من أمه. ولكن ليس معنى هذا أن الطفل يكره أو يتجاهل الطرف الاخر فالطفل الصغير يعجب بأبيه ويحبه لقوته ومهارته وحكمته ، وهو يود لو يكون مثله ويحاول فى لعبه التقليدى أن يقوم بالاعمال التى يقوم بها أبوه . ومع هذا فهو مدفوع لان يخافه ويخشاه فى بعض المناسبات لنصيبه من حب الام الذى يود الصغير لو ينالـه كله .

والبنت الصغيرة أيضاً تود لو تحصل على حب وتفكير والدها كله . قد تحب أمها وتعجب بها وتقلدها ، ولكنها تتمنى مع هذا أن تحتل مكان أمها فى تفكير الأب ، ولكم تسمعها تقول : « لما أبقى ست كبيرة حاتجوز بابا » فإذا قيل لها « وماما تعمل ايه امال ؟ » أجابت « ساعتها حتكون عيلة صغيرة . . ! » وكثيراً ما يتحول هذا الشعور الى صدقاء العائلة من الرجال ، ويصاحبه إحساس الخوف من الأم . . هذا الخوف الذى قد يظهر فى نوبات التحدى والعناد تتخللها فترات ندم وحب عنيف « ماما . . أنا باحبك . . باحبك خالص . . ! » كما قد يحدث فى بعض الحالات أن يتغطى موقف الغيرة والرغبة فى امتلاك الوالد بشعور تعويضى من الحنان للأم مبالغ فيه ورغبة فى طاعتها وقد يستمر حتى بعد أن تكبر البنت

فى هذا الصراع العنيف الذى يقوم به الولد ليتغلب على رغبته فى ملء

حياة أمه تماماً وعلى شعوره بالغيرة من أبيه الذى يحبه فعلا ..قد يلجأ الطفل فى بعض المناسبات للعادة السرية . وهو لا يملك من الكلمات أو المعرفة بحالته ما يمكنه به أن يخبرنا عما يعتمل فى أعماقه ولكننا استطعنا أن ندرك هذا الموقف عن طريق الدراسة الهادئة لحقائق النمو الجنسى ، وهو ما يدعونا لأن نعالج العادة بمنتهى الحذر والحيطة فهى متصلة بأعمق جذور الحياة الوجدانية. فاذا لجأنا الى التأنيب وفرض طرائق التهذيب فانا نرتكب بذلك من الضرر ما يمكن أن نجتنبه لو تركنا الطفل يتصرف فى أمرها بنفسه ، فى جو من العطف وإشباع الميول المتصلة بالحياة الخارجية .

ولنا أن نتأكد أن الطفل يشعر من نفسه من ناحيتها بالخجل والحرج واذن فلا لزوم للتهديد أو التعيير. وواجبنا الرئيسى ينحصر فى تجنب تمكين الخوف والشعور بالخطيئة المصاحبين لها . وليس خافياً أن معظم الخطر الناتج من ممارسة هذه الظاهرة ليس هو فى الظاهرة نفسها كما تود البيئة أن تنسب اليها من الاصابة بالجنون أو الارتخاء أو ضعف الأعصاب ، وانما فى المصاعب التى تكتنف الحياة العقلية بسبب ما يخالطها من جذب ودفع من البيئة الخارجية ؛ بل لقد اتضح بالكشف أن معظم الاطفال الذين وصلت حالاتهم الى مشاكل تحتاج علاج خاصاً فى العيادات السيكولوجية كانوا أولئك الذين ربطت أيديهم أو جلدوا بشدة أو أنبوا لدى محاولاتهم الاولى . ولعل أسوأ ما يمكن أن يحدث هو أن نسمع فى بيوتنا تهديدات « بقطع » العضو أو « حرقه بالكبريت ».

ليتجه علاجنا اذن طريقاً غير مباشر ، وليس هناك أفضل من أن نملأ أفق الطفل بصحبتنا المحبوبة وحبنا الهادىء الذى نعبر عنه لا بالالتصاق والتقبيل كما تفعل منازلنا المصرية فى ملايين المناسبات فتعيد الطفل الى مرحلة اللذة الحسية الذاتية التى بدأ يخلفها وراءه ، بل بالمساهمة فى ألعابه وقص القصص وتشجيعه على الاهتمام بالحياة الخارجية واعطائه ما يشغل كلتى يديه ، ولدينا فيما ذكرنا من الالعاب مجال فسيح ، وسرعان ما نجد الطفل قد ترك سلواه الى ما هو منتج

محسوس .. هذا مع استبعاد الاعراض الجسمية كالملابس الضاغطة والكشف على البول والمجارى البولية .

أما عند المراهق العادى فالعادة السرية نتيجة لنشاط الهرمونات والغدد التناسلية فى مرحلة البلوغ دون أن يجد الشخص الوسيلة للاشباع الجنسى المشروع نظرا للتعقيدات الاقتصادية فضلا عن زيادة الاستثارة المصاحبة للمدنية . ولكنها تثبت - كسلوك انسحابى ضار وكعملية فسيولوجية تفرضها على المراهق تغيرات عضوية ناتجة عن تكرار استثارتها - اذا تتابع على الفرد الصراع العقلى نتيجة للميل الجنسى مصحوبا بالاشمئزاز والخجل اللذين غرستهما البيئة ، أو تميزت حياته بطابع من القلق والبؤس قد يكون حديث العهد نتيجة لاجهاد عقلى أو تأخر دراسى أو أرق أو وجوده وسط زملاء أقوى أو أغنى الى غير ذلك .. ، كما قد يكون قديما يجد جذوره فى حياة الطفل المبكرة كما رأينا عند الطفل المتسم بطابع انسحابى نتيجة لشعوره بالتراجع الحركى أو اللغوى كما سبق أن أشرنا ، وبذا ينطوى على نفسه ويستغرق فى الخيال والوحدة ، وهنا مجال كبير لممارسة العادة السرية . والفتيات هنا أقل اغراقا من الفتيان لصعوبة أداء العاده من ناحية وتشتت الحساسية الجنسية على معظم أجزاء الجسم بدلا من تركزها كما هو الحال فى الذكور فى العضو التناسلى .

ولعل أسوأ الحالات عند المراهق هى تلك التى يصحبها شعور بالضعة والهوان حتى ليحس المسكين أنه طريد المجتمع حقير لأبعد حدود الحقارة فلن يضيف الى ذنوبه شيئا جديدا . كما يخيل اليه عن طريق الوهم أن « الناس كلهم يعلمون حالته وما يفعل من هيئته الظاهرة » ، وهى أفكار كثيرا ما نبثها فى فتياننا البالغين . ولا ينبغى أن نعجب فى هذه الحالة لو سلك صاحبنا سلوكا اعتدائيا اجراميا قد يصل للسرقة من منازلنا أو سلوكا متراجعا منطويا قد يصل للميل للانتحار والاغراق فى العادة السرية .

وعلاجنا بطبيعة الحال ينقسم قسمين.. احدهما قبل مرحلة البلوغ واحتمال ظهور العادة وذلك بتهيئة الطفل للعالم الجنسى متى سأل ثم الغلام للتغيرات العضويه والحاجات الجنسية فى ضوء هادىء.. والثانى اثناء مرحلة البلوغ وممارسة العادة وذلك بتقوية الثقة بالنفس ومظاهر عطف المجتمع واحلال الهوايات العملية والميول المتجهة للمجتمع الكبير محل الميول المتجهة للذات .

فاذا افسحنا للمراهق سبيل التعبير الجنسى العادى عن طريق الاعجاب بالبطل من نفس الجنس، ثم من الجنس الآخر، ثم الزميلات من نفس السن وأخيرا النوع العادى المتكامل فان ميول الشاب تتسع ويجد فى هذه التعبيرات منفذا للدافع الجنسى المكبوت غير الإغراق فى العادة .

٢ـ الاشباع الجنسى مع أفراد من نفس الجنس (الجنسية المثلية) Homosexuality:

هو سلوك اجتماعى ينتج عن البيئة فى الغالب ويدفع الفرد لاشباع الرغبة الجنسية مع أناس من نفس الجنس . . وغالبا يتم مع الغلمان . ويوجد فى الغالب فى الاقسام الداخلية من المدارس ، والادبرة، والاصلاحيات ، حيث يجتمع الافراد من نفس الجنس مدة طويلة ، كما يحدث فى الرحلات . واذن فهو سلوك مستمد من البيئة ، ولو أنه قد يجد جذوره فى ذكريات سيئة من أيام الطفولة مرتبطة باعمال من هذا النوع كان الفرد ضحية لها اما معتديا او مجنيا عليه .

٣ ـ السادية : Sadism نوع من السلوك الشاذ من مظاهره الرغبة فى ايلام الشخص المحبوب . ويبدأ هذا السلوك فى الظهور فى الطفولة اذ يسر بعض الأطفال سرورا عجيباً بتحطيم أعشاش الطيور الصغيرة أو قطع اجنحة الفراش أو البعوض وتمزيق أوصال الحشرات الصغيرة كالنمل ليروا كيف يمكن أن تتحرك الحشرة بدون هذه الاعضاء . ويكبر الطفل وتنمو لديه هذه النزعة ، فهو يسر كثيرا لاغاظة الآخرين ، وخاصة البنات، وكثيرا ما يحدث أن يعارك الولد رفاقا فى سنه خصوصا اذا كان قويا لا لشىء الا

للذة التى يستمدها من تغلبه عليهم فلا يتركهم الا اذا استنجدوا أو أقروا بقوته .

فاذا قربت المراهقة فقد تؤثر العقوبات البدنية على الغلام وتدفعه لاظهار السيطرة أو الانتقام بالضغط على الآخرين وتعذيبهم . وفى مرحلة المراهقة وما بعدها يأخذ هذا السلوك الشاذ مظهر التعذيب العقلى كالتقريع أو الاغاظة أو السخرية أو الارهاب لمن يحب . بل قد يصل الى التعذيب الجسدى .

٤ — الماسوكية : Massochism ترتبط ارتباطاً كبيراً بالسادية فى كونها استمدادا للذة من التعذيب . ولكنها تختلف عنها فى أن الشخص يشتق اللذة الجنسية من تعذيب المحبوب له . وتظهر بنوع خاص فى المرأة الضعيفة التى تسر وتنتشى اذا تزوجت رجلا قوى الشكيمة صلب المراس يقسو عليها ويؤنبها ويعتصرها بين يديه القويتين . ولا يخلو الأمر من رجال ضعاف لا ينالون الاشباع الجنسى الا باستكانتهم للمرأة القوية تحركهم فى عنف كما تشاء .

٥ — الاحتفاظ بالتذكارات وتقديسها : Fetichism وهى رغبة حادة فى الاحتفاظ بأشياء كان يملكها المحبوب . ويبدو شذوذ هذا السلوك فى تقبيل هذه الاشياء وتعليقها فى الصدر من الداخل اذا كانت صغيرة ووضعها تحت الوسادة . وقد يسخر الكبار من هذا السلوك جاهلين أن له معنى انفعاليا عميقا . ويحدث هذا السلوك فى الغالب كمصاحب للمرحلة الثانية من مراحل النمو الجنسى .. مرحلة الاعجاب بالبطل من نفس الجنس .

٦ ـ الاغراق فى أحلام اليقظة : وفيها يحاول المراهق أن يعوض مرارة الحياة الواقعية التى لا تسمح له باشباع الدافع الجنسى فى الخيال . وفى بعض الأحوال قد يؤثر هذا على عقلية الفرد وهى حالة طبية ظهرت حديثاً تسمى dementia praecox من أعراضها السرحان والتشتت اللذان يصلان الى درجة مزمنة . وهنا يعتزل الشخص الحقائق ويعيش فى عالم من نسجه هو .

وحتى لو لم تؤثر أحلام اليقظة على العقل تأثيرا مباشرا فان لها تأثيرا صحيا ضارا ، كما أنها تجعل من المستحيل على الشخص أن يصل بالعمل الى نتيجة موفقة .

٧ ـ التراجع : كبت الدافع الجنسى نحو الجنس الآخر أو عدم التوفيق فى المغامرات الغرامية فى دور المراهقة قد يعيد الفرد الى مرحلة الاعجاب بالبطل من نفس الجنس أو بشخص أكبر من الجنس الآخر . وليس من النادر أن يعزف الفرد عن الزواج كلية ويجاهر على الدوام بأنه قد خبر الحياة والعالم الجنسى وخرج بأن النساء على الدوام خائنات العهود لا يمكن أن يحرصن على المسئولية وواجبات الزوجية .

ولقد سبقت الاشارة الى عدم توفيق الزواج الذى يتم بين الفتاة ورجل يكبرها بعشرين عاماً ، وبالمثل فى حالة الفتى .

٨ ـ عقدة « أوديب » : اللفظ مشتق من قصص الاغريق وأساطيرهم حيث قتل الملك أوديب أباه وتزوج أمه ثم كفر عن هذين الخطأين بأن أفقد نفسه حاسة البصر . والشخص اذا تكونت لديه هذه العقدة نجده قد تحول ميله الجنسى المعقول الى ميل شاذ نحو أمه . فهو يحبها ويغار عليها من والده كما يغار الانسان من شخص غريب يقاسمه محبوبته . وهكذا يخاف والده ويكرهه . وهذا السلوك فى الغالب ينتج عن التدليل المتطرف الذى يحدث من الأم لوليدها فى سنى الطفولة فيتعطل النمو الجنسى للاخير ويصبح الزواج المرفق مستحيلا .

٩ ـ عقدة اليكترا : تشبه الحالة السابقة الى حد كبير لولا أنها تختص بالبنت ، فهى تغار من أمها وتتمنى ألا تتدخل بينها وبين أبيها . ونجد أنها اذ تزوجت تلمست فى زوجها صفات أبيها فاذا لم تجد تحطمت الحياة الزوجية . والاشارة هنا الى ابنة أجاممنون ، وقد انتقمت هى وأخوها أورست لمقتل أبيهما .

١ ـ العرض Exhibitionism . ويبدو بنوع خاص فى حالة الأطفال الصغار الذين يعانون من كبت الاستطلاع الجنسى والاشتطاط فى اظهار النفور والحرج من كل ما يختص بالعالم الجنسى . وقد تذهب الى منزل أحد أصدقائك فاذا بالطفل ينتهز فرصة انفراده بك ويرفع ملابسه داعياً اياك للنظر الى أعضائه الجنسية ، وهو يشتق من هذا لذة غريبة . وزيارة بسيطة الى أحد مستشفيات الأمراض العقلية تريك هذه الظاهرة فى ثوب حاد ، فلا يكاد يدخل أحد الزوار أو الممرضين أو الطبيب الى حجرة أحد المرضى بهذه الحالة حتى يخلع ملابسه ليعرض أعضاءه . ومن الواضح أن اللذة الجنسية هنا تقتصر على مجرد العرض ولا تتجه الى جنس معين فقد لاحظت أن وجود النساء لا يثير فى المريض اهتماماً خاصا .

ولن نطيل الآن فى مظاهر شذوذ السلوك الجنسى فهناك غير هذا عدد من المظاهر الأقل حدة . والمهم فى العلاج موقفنا نحن الآباء ازاء العالم الجنسى . من السهل جداً أن نخطىء فى حق أطفالنا خطأين ..الأول عندما نعتبر الطفل قد كبر وأصبح فاهما ، فنطبق عليه قوانيننا نحن الكبار ، مع أنه صغير له عالمه وقوانينه . ويظهر هذا بنوع خاص بمجرد الفطام أو تعلم المشى والكلام فيرتفع الطفل فى نظرنا فجأة من يوم ليوم ونعتقد أنه قد كبر فننتظر منه أن يفهم قوانيننا الخلقية كلها ويتحمل طرائقنا فى التهذيب . والخطأ الثانى وهو الاهم يحدث عندما نعتبر الطفل صغيرا لا يفهم ولا يقدر فنتحدث ونعمل أمامه ما نشاء دون أن نأبه به ، مع أنه يفهم ولو بصورة بسيطة ، ويقدر ولو على نطاق ضيق .

ويكفينى الخطأ الثانى فى هذا المجال . انا نظن أن أطفالنا الذين لهم من العمر سنتان لا يفهمون المسائل الجنسية ، وهكذا نتردى فى أخطاء فاضحة . فى المنزل قد تحدث بين الزوج والزوجة بحكم العلاقة الزوجية حركات واشارات وكلمات ..ونظن نحن أن الطفل صغير لا يفهم ولا يقدر . بل ويحدث ما هو

أسوأ من هذا .. يحدث أن يسمح الوالدان لنفسيهما أن يضعا سرير طفلهما الصغير فى نفس الغرفة التى ينامان فيها ثم يجتمعان معا الاجتماع الجنسى .. على أساس أن الطفل صغير . ولقد تكررت الاشارة الى أن كل شىء يتقدم اليه الطفل فى ثوب انفعالى عنيف يهز الطفل ويضره . وهكذا يستيقظ الصغير من نومه فى الظلام على حركات وأصوات مصحوبة بلذة انفعالية عنيفة . وياليته لا يفهم حقا أى شىء لانتهى الأمر .. أو ليتـــه يفهم كل شىء .. اذن لانتهى الامر أيضا وما كنا نضيف شيئا جديدا . ولكنه يفهم بصورة بسيطة ويدرك على نطاق ضيق وهنا موطن الخطر . يفهم أن هناك نوعاً من العلاقات هو محجوب عنه ، وهذه أضمن طريقة لاعطاء الطفل صورة خاطئة مشوهة عن المسائل الجنسية . هل من الكثير علينا أن ننام فى غرفة أخرى ؟ هـذه هى القاعدة الأولى . والثانية تختص بالأسئلة الجنسية

فى سن مبكرة .. حوالى الثالثة أو الرابعة ، وعلى أكثر تقدير الخامسة ، يسأل الطفل أسئلة مثل « أنا جيت منين ؟ » « نزلت ازاى ؟ » « الفرخة بتبيض ازاى .. ؟ بطنها بتتفتح وتتقفل تانى ؟ » « الديك بيجرى ورا الفرخة دى ليه .. بيعضها فى رقبتها .. طلع على ضهرها .. بيعمل لها ايه ؟ » وهكذا . ولست أظن أن أحدا من القراء ممن توفرت لديه أقل الفرص للاتصال بالاطفال لم يواجه أسئلة مثل هذه ، فماذا يحدث فى تسعة وتسعين فى المائة من بيوتنا المصرية ازاء أسئلة كتلك التى سقناها ؟ يسود فجأة جو ارتباك وتوتر واضحين ، ويخيم على المكان شعور من الرهبة والفزع ، تماماً كما لو ألقيت قنبلة فى وسط الغرفة . وينظر أفراد العائلة الى بعضهم وعيونهم تدور فى محاجرها ثم يندفع أحدهم وقد وجد لسانه فى سيل من الكلام القارص .. « شوفى يا اختى الواد اللى عاوز قطع لسانه . سمعت فين كلام القباحة ده .. ، ما عندناش احنا الحاجات دى .. ايش فهمك يا واد يا مفعوص الكلام ده كمان .. أمال لما تكبر تبقى تعمل ايه .. ؟! » وهكذا تسيل العبارات ثائرة مهتاجة .

لم هذا الانفجار يا سيدى ؟ ان كل هذا الكلام عن «العيب ..والقباحة والاصول» كل هذه مستويات وضعناها نحن الكبار لنعيش على أساسها فى مجتمعنا . أما الطفل فلا يفهم من كل هذا شيئا . أم لا نزال كما هى العادة نعتبر الطفل « مصغر رجل » نطبق عليه ما ينطبق على الكبير ؟ وبعد فلم تغضب من شىء طبيعى ؟ ان طفلك إذا وصل الى سن الرابعة ولم يسأل أسئلة جنسية فأغلب الظن أنه متراجع عقليا اذ كيف يقصر عن استطلاع عالم مهم كالعالم الجنسى . . تماماً كما نخشى أن يتراجع الطفـل عن اللعب فينمو قاصراً خامل المدارك .

كيف تعامل أسئلة مثل هذه ؟ الجواب بسيط . لاترتبك مطلقا .. بالعكس هنىء نفسك لأن طفلك غير متراجع أو راكد . هنىء نفسك لان الطفل سألك أنت ولم يسأل الخادمة فتشوه المسألة وتزيدها تعقيدا . بعد هذا جرب ما اذا كان طفلك يستطيع أن يقبل تعليلا صبيانياً بسيطا . فى مرحلة مبدئية والطفل صغير لم يتجاوز الثالثة أو الرابعة يستطيع أن يقبل تعليلا بادئا مثل هذا « أنا جيت ازاى .. ؟ » « انت كنت فى عش صغير زى بتاع العصفورة ، وكنت منشال فى بطنى ودفيان ، وبعدين لما لقيت نفسك تعرف تاكل وتمشى لوحدك رحت نازل من بطنى » . فى مرحلة متأخرة قد لا يقبل الطفل تعليلا مثل هذا .. وهنا يجب أن نحدثه فى صراحة وهدوء وطلاقة ودون أى ارتباك عما يطلب .. نتحدث كما لو كنا نجيب عن ظاهرة بسيطة مثل « ليه الحصان بيعمل حس وهو ماشى ؟ » « عشان فيه حديد فى رجليه » وهكذا .

أما القاعدة الثالثة فيما يختص بالعالم الجنسى فهى أن نمهد الطريق بحيث يرى الطفل العمليات الجنسية وكل ما يمت اليها بصلة ، يراها فى الطيور والحيوانات ، يراها فى الطبيعة وتكرر أمامه بشكل هادىء بعيد عن مظاهر الانفعال . الطفل يحب أن يرى أرانب وكتاكيت . دعه يفعل هذا وسهل له الامر .. ، وهناك فى موسم التزاوج عند الطيور والحيوانات تتكرر

العمليات الجنسية مثلث المرات بين ذكور القطط واناثها ، ذكور الكلاب واناثها ، بين العصافير والحمام ، والارانب والدجاج. صحيح ان المعيشة فى المدن تقلل هذه الاحتمالات ولكن لنحاول الى اقصى حد ان يتقدم طفلنا الى العمليات الجنسية فى جو هادىء طبيعى .. جو الحيوانات والطيور ، فهذا يقلل كثيرا من حدتها عندما يكبر لنراها فى الانسان

ثم ماذا عن واجبنا ازاء أولادنا وبناتنا على عتبة البلوغ ؟ أما فكرت سيداتنا المصريات فى الجلوس الى جانب بناتهن فى الحادية عشرة والنصف أو الثانية عشرة أى على شفا المراهقة ، وشرح ماسيحدث لاجسامهن ونفسياتهن من ظواهر ؟ بالله دعونا من ترديد هذه السخافات أمثال « عيب .. وقباحة .. وقلة أدب » ، فلقد سئمنا ترديدها ولم نفز منها بطائل . لقد خرجنا الى الحياة ورأس مالنا لايعدو كلمات جوفاء نقلناها عن آبائنا كالببغاوات « عيب .. هس .. اوعوا تقولوا الكلام ده .. دى قباحة » ! ماذا فعل لنا رأس مالنا الأحمق؟ان أبناء نافتيان المدارس الثانوية وشبان الجامعة يقضون أجازتهم الصيفية فى زوايا الشوارع والازقة ، يتصيدون الفتيات المسكينات . واذا تحدثت معهم قالوا ان الفتيات هن المسئولات لخلاعتهن. ان الجنسين يشتركان فى الخطأ .. وكل هذا لاننا لم نقدمهم للحياة الجنسية على أساس صحيح .. كل هذا لاننا نحن الآباء والامهات نخجل من أن ندع هذا الموضوع يفتح فى بيوتنا .

علينا أن نشرح لصغارنا قبل المراهقة فى هدوء وبساطة ماسيحدث من تغيرات . وأقول فى هدوء وبساطة وأريد أن أضغط على هاتين الكلمتين فهما كل شىء . لنتحدث كما لو كنا نشرح ظاهرة طبيعية كالمطر النازل من فوق .. والبخار المتصاعد من آنية على النار .. والصوت الصادر من المذياع. لست أقول أن تشرح الام ظاهرة العادة الشهرية مثلا شرحا علميا فتتحدث عن نزول بعض خلايا غشاء الرحم المخاطى ثم افرازات غدد الرحم مضافا اليها كمية معينة من الدم والبلازما .. لالسنا فى كلية الطب .. ، كل مانطلبه

هو أن تتحدث فى طلاقة عن الظواهر التى عرضنالها كثيرا فى هذا المؤلف. ولكن لايجب أن تهدأ قبل أن تتأكد أن فتاتها التى قاربت البلوغ قد اتخذت نحو هذا الدور موقف الباحث الهادىء المستطلع .. فى غير خوف أو وجل بل فى هدوء ممزوج بقدر من الترقب والتلهف .

ويقص أستاذى فى علم النفس كيف طلب من إحدى السيدات أن تقوم بهذه المسألة مع فتاتها فوافقت بعد تمنع اعتقادا منها بأن هذا الكلام « عيب » ..! وجلس الاستاذ فى غرفة مجاورة يسمع حديثهما بعد أن أفهمها ماتقول . وبدأت الام فعلا تتحدث فى نبرة عادية وموضوعات عادية فقال « هذه مقدمة طيبة ولكن متى تنتهى ؟ » وانتهت المقدمة ودخلت السيدة فى الموضوع . وبالطبع بدا على البنت الدهشة وأخذت تسأل أسئلة كان يمكن أن ترد عليها الام فى صراحة وهدوء مثل « طب ويبقى عندى عيال وارضعهم ؟ » لا ! « امال ليه الصدر يكبر ؟ واشمعنى طنط فلانة وطنط فلانة ما عندهمش عيال مع انهم كبار ؟ » عشان ما اتجوز وش ! « ازاى الواحدة تتجوز ؟ ازاى اتجوز تى بابا؟ » وهكذا ..

ولكن للاسف تحطم كل شىء وهما لاتزالان فى البداية ، للسبب المعروف لدينا جميعا .. ارتبكت السيدة فجأة ، واحمر وجهها ، وجف لعابها ، واستندت الى ظهر المقعد وكأنها تمثال للخجل واليأس المجسمين . وهكذا ضاع كل شىء ، تماما كما يتحطم قصر كبير من الورق تحت هبات الهواء الضعيفة .

من المهم اذن أن نقدم أطفالنا للمسائل الجنسية تقدمة صحيحة . فإذا تذكرنا ماسبق قوله من أن التفكير الجنسى لا يظهر فجأة فى المراهقة بل هو يتغلغل فى حياة الطفل المبكرة .. وتذكرنا القواعد الثلاث التى اقتناها للصغار فضلا عما ذكرناه من طرق معالجة العادة السرية فى أول أمرها ثم فى المراهقة فإنا نسدى للنشء خدمة كبيرة

الفصل العاشر

نمو المعانى

لو تناهى الى أسماعنا صوت ثاقب حاد لفسره أحدنا بأنه انصفاق باب أغلقه الريح ، أو صوت طلق نارى ، أو سقوط جسم ثقيل ، أو تحطم آنية الى غير ذلك . ولعل كلا منا فى ذلك يذهب الى تفسير معين على ضوء ماتجمع فى ذاكرته من معلومات سابقة (١) خبر فيها مثل هذا الصوت .

وإذن فكلما تجمعت للمرء خبرات عديدة عن موضوع معين كان ادراكه له أو لما يدور حوله كلما صادف شيئاً يلامسه أكثر غنى وخصوبة . ولعل الصغير اذ يرى البرتقالة لأول مرة تتحدد فكرته عنها فى قالب ضيق ثابت لا يقبل التحوير ، وإذن فهى فكرة مبهمة غامضة تكتسب بريقاً ومضاء كلما رأى الطفل نبات البرتقال ، وعرف أن هذا اللون « برتقالى » ، ثم كبر قليلا ففهم أن من أنواعه البرتقال الدموى والبلدى واليافاوى وأبو صرة والسكرى وهكذا . واذن فهو ينبذ الفكرة القاصرة الأولى من أن البرتقال ثمرة ذات لون واستدارة معينين فحسب ، تماماً كذلك الطفل الذى رأى يوماً ماسورة يتصاعد منها الدخان وقيل له انها مدخنة ، ثم اذا به يرى والده يدخن سيجارا فيقول « شفت مدخنة أكبر من مناخيرك يا بابا . . ! »

ولقد رأينا فى عرضنا للعب أن الطفل وهو يلعب يمسك اللعبة ليتفحصها بعينيه ويديه ، ثم يضعها فى فمه ليختبر مذاقها وصلابتها ، ويطرق بها الأرض

---

(١) يضيف أنصار نظرية الجشتالت Gestalt إلى عامل الخبرات السابقة عاملا آخر هو طريقة عرض الشىء فى ثوب خاص أو على أرضية معينة .

ليتسمع صوتها ، ثم يحطمها اذا استطاع ليرى مم تتركب ، وهكذا تتضافر الحواس كلها لتعدل من الفكرة القاصرة الأولى فى ثوب مرن يقبل فى داخله مختلف أقسام الفصيلة . ولعل هـذا هو السبب أيضاً فى أن ادراك الشخص العادى منا لكائن كالثعبان ادراك غامض مهوش، فلم تتهيأ لنا الفرصة للتحقق منه عن كثب بمختلف الطرق ، ولعل حاسة البصر هى الوحيدة التى تتقدم بفكرة غامضة مبهمة عن مثل هذا الكائن .

ومن هنا تغيرت أسس التعليم ودخلت الناحية الحسية لتضيف الى معنى الدرس خصباً وحيوية ، وجاءت الأشغال اليدوية كمادة أساسية فى المدارس الحديثة . فالموضوع الواحد يعرض اليوم فى أثواب متعددة فيقوم التلاميذ بالرحلات ليشاهدوا الجبل والقنطرة عن كثب ، ويعملوا النماذج بأيديهم ، ويبحثوا مصادر تعرض للموضوع . وهكذا تتكون لديهم خبرات حسية حية تضفى على تجاربهم المقبلة خصوبة وبريقاً كلما أدرك الطفل العلاقات القائمة بين القديم والحديث .

واذا كان الطفل يبدأ حياته والعالم - كما سبق أن سقنا قول وليم جيمس - يهاجمه بسهامه من كل مكان . العينين والأذنين والأنف والفم وهكذا .. فيراه كخلية نحل تئز وتدوى فى طنين مضطرب فليس لديه حتى الآن خبرات سابقة معروفة ، الا أن لدينا من الأدلة ما يجعلنا نؤكد أن الافكار تنمو بسرعة خلال السنوات المبكرة من الحياة . وإنك لترى الطفل قبل أن تتهيأ له القدرة على التعبير شفهياً عن المعانى يتعرف الاشخاص المألوفين كأمه او مربيته والأشياء المألوفة ، كالبزازة ، واللعب وملابس الخروج فيستجيب لها بسرور بينما يتراجع خائفاً منكمشاً ازاء الغريب أو الموقف الجديد .

ادراك العام : اذا كان من الصعب أن نتعرف بالدقة فى هـذه المرحلة المبكرة ما يدور فى خلد الصغير أو ينتاب عقليته من ادراك وترق فلقد جاءت الاختبارات الحركية لتلقى ضوء على هذه الناحية ، فالطفل يتحسس المكعبات

ويستكشفها ، ويتعرف جسماً وحجماً معينين فيحاول ان يضعهما فى ثقوب تشابههما ، وهو يبنى مكعبات أو أبراجاً من القوالب .

ولقد جاءت الفترة الاخيرة بأبحاث طريفة وضعت على أساس تفهم رسوم الاطفال وتخطيطاتهم سواء دون قصد أو تقليدا لما يرون . وهكذا عرفنا أن الطفل يبدأ قرب نهاية السنة الأولى يعبر عما يشوقه بالرسم ، وهو يبدأ بخط واحد أو خطوط متكاملة لا نقط ، ولعله بذلك يعبر عن معنى عام لم يتناوله بعد عنصر التحليل .. تماماً كما يبدأ بالأصوات العامة منذ المهد ثم يحللها الى مقاطع فى مرحلة المناغاة ، وبعد هذا الى حروف .

يصعب على الطفل اذن ان يتعرف الدقائق أو التفصيلات بالسرعة التى يستجيب بها للموقف كله بشكل عام ، وهكذا قد يختلط عليه الأمر فيعامل موقفين بطريقة واحدة دون أن يرى وجه الاختلاف ، تماما كما رأيناه فى النمو الخلقى يأخذ شيئاً من الحانوت ويخرج به مادام يفعل هذا بلعبته فى المنزل .

وقد جمعت هيرلوك بمساعدة تومسون رسوماً لأطفال بين ٤ ½ ، ٨ ½ تمثل أشياء شائعة كرجل وبنت ومنزل وكلب وشجرة وسيارة وزهرة وقارب ، يبدو منها أنه بتقدم السن تأتى النزعة لتعرف الخاص أكثر من العام ، وإدراك الدقائق والتفصيلات وأوجه الترابط . كما وجد فى معظم الاحوال أن الاطفال يرسمون أرضية الصورة مما يدل على أن لديهم النزعة لإدراك الأشياء فى وحدات .

ولقد وضح من الابحاث أن الصغير يدرك المعنى بصرف النظر عن الوضع الذى تقدم به الصورة أو الجسم ، كما لو أريته كتاباً مصورا بحيث ينظر للصور من الجانب أو مقلوبة ، مما يوحى بأن الطفل يستوعب الشكل العام أكثر مما يقترب منه من زوايا جزئية .

وبالتدريج وبازدياد الخبرة يميز الطفل هذه الاخيرة ، ويضع ماله مظاهر متشابهة منها فى مجموعات . وهنا يلعب تركيب الشىء ووظيفته الدرو

ولكم تجده يتابع تقليب صفحات رسالة وقد استلقى فى وضع استرخاء جذاب ... ص ٣٠٨

الأول فى فهم الطفل له . فالأم لاتصالها المبكر الوثيق بالطفل وحاجاته يدركها أولا ويرسمها كرأس متعارض الخطوط يستند الى خط طويل يمثل الجسم . وهو اذ يرسم أطفالا يمسكون بالكرة يرسم للسابق منهم يدين ممدودتين الى نهايتهما وأصابع منتشرة كالمروحة كأنما تهم بالامساك ، بينما من يتراجع منهم قليلا يرسم بدون أيد . ومع هذا فهم أسعد حظا من يتعثر فى المؤخرة اذ لايمن عليه الطفل حتى بالأذرع ، ولاعجب فما وظيفتها هنا .. ؟!

خلع الحياة على الاجسام : animism كما يعبد الشخص البدائى أو المتوحش النار اذ يراها تتوثب وتتلظى فيرى فيها قوة جبارة تبتسم اذ تشوى طعامه أو تبعث الدفء الى كيانه ، أو تزمجر اذ تمرق خلال الغابات فتحيلها مأوى للموت والدمار .. وكما يعبد زميله الشمس اذ يراها تنتقل على صفحة السماء فتجلب معها الدفء والنور ، ثم تبيت وراء الافق السحيق فتخلفه مقرورا خائفا من الظلام .. هكذا يرى الطفل الصغير بخبراته القليلة المحدودة عنصر الحياة فى أجسام عديدة فلا يفرق بين الحى والجماد . ومن هنا يمكننا أن ندرك مدى ماينتابه من أوهام ومخاوف لدى رؤيته بابا يحركه الريح أو مقعدا ينقلب على أثر دفعة غير مقصودة ، أو الكرة التى يلقى بها الى الحائط المواجه ترتد اليه طائعة مختارة ، أو ترتطم بأنفه حانقة مهتاجة ، أو تنحرف بعيدا كأنما هى تداوره . بل انظر الى الطفل الذى يتعثر فى قطعة من الاثاث فيسقط تراه ينظر اليها فى تحد ممزوج بقدر من الجزع ، فاذا اقترحت عليه أن «يضرب الكرسى .. يضربه أآ» .. سارع لتنفيذ هذا وهو يرى فيه انتقاما وتنفيسا لغضب مكبوت .. ! .

وقد درس بياجيه هذه النقطة عند الصغار وخرج بأن الطفل يمر بمراحل أربعة تبدأ الاولى من ٤ - ٦ وفيها يضفى الطفل الشعور على كل مايحتمل الحركة من أى نوع كالشمس والسيارة والباب الذى يدور على مصراعيه

والحجر اذ يسقط بعيدا ثم يتدحرج على الأرض . وخلال السادسة والسابعة يقتصر الشعور على مايراه الطفل يتحرك دون أن يدفعه ، وهكذا يخرج الباب والحجر والمنضدة من القائمة . ثم تأتى المرحلة الثالثة من ٨ - ١٠ فيميز الطفل بين الحركة التى تعود الى الجسم نفسه والحركة التى تعتمد على أى مؤثر خارجى ، وبذا يحتفظ الطفل بالحيوية للشمس والريح وينبذ السيارة أو الدراجة . وأخيرا يقتصر الطفل بعد الحادية عشرة على اعتبار الحيوان والنبات من الاحياء وما عدا هذين يعتبره جمادا .

أسلوب نمو المعانى : واضح ان الطفل فى اول عهده يفهم الموقف فى شكله الظاهرى لا على ضوء مايخفيه من معان . ولدى القارىء فيما ينشر كثيرا من قصص الدعابة المصورة بدون كلام مجال فسيح للتحقق من هذا . ولقد عرض شافر ١٧ صورة من تلك الصور الرمزية على أطفال من ١٠-١٨ سنة ، ووجد ان هناك أسلوبا للاستجابة يتمشى مع العمر . فلقد بدأ الاطفال بتكرار عنوان الصورة لا أكثر ، وخرجوا من هذا الى وصف ماتحتويه بشكل ظاهر ، وتلا هذا تفسير حسى أعقبه التفسير المعنوى الصحيح فى المجموعات الكبيرة السن وعلى العموم فيمكننا أن نتدرج مع الطفل منذ صغره فنرى أنه يمر أولا فى :

١ — دور الاستكشاف الحسى والحركى : ولقد رأينا فى مبدأ هذا الفصل كيف يتعرف الصغير معنى مافى بيئته المباشرة من أجسام عن طريق الالتصاق الحسى فهو يرى ويسمع ويتذوق كل ماتمتد إليه يداه وهو فى اول الامر لا يتعدى فراشه الصغير ، وهكذا يمكنه ان يتعرف من المعانى مايمكنه ادماجه مع ماسبقه من ان يرى فى كل هذه الاجسام الغريبة التى تبدو له سرا مستغلقا مايجعلها مألوفة فتضيف إليه شعورا بالطمأنينة والاستقرار . وكلما عرضت للطفل فرص أكثر لرؤية الشىء فى فترات متقاربة أصبح هذا الشىء ذا معنى أوضح . وهكذا يعرف الطفل أمه أسرع مما يعرف جدته مثلا

فاذا وصلت التوافقات الحركية حدا يسمح للطفل بالوقوف والمشى

وإمساك الاشياء حسب رغبته عززت معلومات الطفل بفيض من المعانى ماكان يمكن أن يتوفر له عن طريق الاقتناع بالنظر وهو جالس فى الفراش. وهو هنا يمد يده ويتخلل بأصابعه كل ماهو قريب فيختبر النعومة والليونة والدفء . و كثيرا مايتخلل هـذا الدور عناصر الافسـاد أو التدمير فنسارع نحن لتقييد حركة الطفل فنشل بذلك تفـكيره ونعـوق تفتح ذهنه ، وهى اغراض يجب ان نهيئها فى جو من التسامح وتوفير المادة المناسبة لا لاشباع استطلاع الطفل بأقـل نسبة من التخريب فحسب ، بل لتنمية مدارك الطفل فيـكتشف من المعانى أكثر مما يتهيأ له لو ترك لطرائقه الخاصة الساذجة .

٢ — دور الاسئلة : بمجرد وصول الطفل سناً يسمح له بوضع الـكلمات فى جمل يبدأ سؤال من حوله عما يستثير استطلاعه. ويبدأ هـذا الدور حول الثالثة ليصل الى ذروته حول السادسة . ويعتمد استمراره بعد هذا كوسيلة من وسائل نمو المعانى على مدى مايقـدر للطفل من نجاح فى إرضاء أسئلته فى الفترة المذكورة . ولـكم يجد المدرس بين تلاميذه من يستغلق عليه فهم نقاط عديدة فى الدرس وهو لايجرؤ على التساؤل . ولعل هذا بقية عهد مرير يخفيه الطفل تحت نظرة من المعرفة المصطنعة .. عهد كان لايكاد يسأل فيه سؤالا حتى تتتابع الضحكات فى سخرية لجهله ، أو يسموه «عم الحاج لكاك..!»

ولن نفيض الآن فى الكلام عن الاسئلة فلقد عرضنا لها معززة بتجارب ماك كيرتى فى فصل سابق ، والمهم أن الطفل يجد فى الأسئلة عوناً كبيرا . ولقد يقابل الواحد منا فى اجابة بعضها مشاكل قد يدهش لطرافتها ، كما لو سألك الطفل « ليه الارض فيها زلط ؟ » بل انظر إلى هذا المنطق العميق فى سذاجته «عاوزنى آكل عشان أكبر ابقى أدك يابابا ؟ طب انت بتاكل عشان تـكبر تبقى أدمين .. ؟! »

ومع هذا فقد يحرك الطفل للسؤال دوافع غير مجرد السعى للمعرفة ، فهو قد يسأل للتأكد مما وصل اليه هو من خبرة شخصية ، بل قد يسأل لا لشىء الا

لاستثارة انتباه من فى الحجرة ، وفى هذه الحالة نجده قليل الاهتمام بالاجابة ، وكثيرا مايتكرر سؤاله للشخص الواحدعدة مرات . أو قد تتجه معظم هذه الاسئلة الاخيرة وجهة دينية أو جنسية فلقد عرف الطفل بالتجربة أنهما ركنان حرجان . واعرف طفلا تعود كلما ساربين شخصين أحدهما رجل والآخر سيدة ان يقرب يديهما اللتين يستند إليهما حتى تتلاصقا فاذا بدا عليهما الحرج والممانعة سارع بالسؤال « انتوا متخاصمين ؟ مش كلنا بنحب بعض ؟ ! »

٣ ـ دور القراءة : حتى قبل ان يتعلم الطفل القراءة بالمعنى المعروف يتعلم الكثير من المعانى من النظر الى الصور ، أو مما تقرأه له أو تقصه عليه من القصص مهما بلغت هذه الكتب المصورة أو تلك القصص من البساطة . ولكم تجده يتابع تقليب صفحات الكتاب وقد استلقى فى وضع استرخاء جذاب ، ولعله بذلك يضيف الى المعانى متعة يشتقها من لعب الايهام اذ يقلد فى القراءة أباه .

وبعد فما من شك فى أن الطفل يسر لتقليب الكتاب الواحد أسابيع وأسابيع ، ويستمد فى كل مرة سرورا غريباً . ولكن الطفل ليس راكد التفكير كما قد يتبادر الى اذهان البعض ، بل هو يرى فى كل يوم من الدقائق والتفصيلات ماعجز عن رؤيته فى اليوم الفائت . وهكذا تضيف الصور والقراءة الى الطفل فضلا عن المعانى وما تستثيره من الاسئلة النافعة ثروة خصيبة من التركيز والتدقيق . ولقد تقص على الأطفال قصة فيستعيدونها كل ليلة فى لذة متزايدة ، فاذا حدث يوما أن حرفت جزء صغيرا منها سارع الصغار لتصحيحك فى دقة تعجب لها

فاذا ماجاز الطفل المرحلة التى يستلفت انتباهه فيها أسلوب القراءة وطريقتها خرج الى القراءة لغرض السرور وقضاء الفراغ ، وهى عملية يحركها الى حد كبير رغبته فى اكتساب المعرفة عما يستثير استطلاعه . وبدلا من أن يعتبر

الكبار فقط مصدرا للمعلومات أصبح الآن يستشير المؤلفين فى كتاباتهم وهى طريقة أسرع وانشط وأدق خصوصا وقد بدأ عنصر التحفظ قرب المراهقة يلون علاقاته بالآخرين ويخرج موضوعات كالمسائل الجنسية عن نطاق الاسئله أو البحث المباشر .

٤ - دور المنطق : لكى يدرك الطفل المعانى يجب ان يكون قادرا على ادراك العلاقات ، فكل سنة تحمل معها خبرات جديدة تفسر على ضوء ماسبق. وهكذا يربط الطفل بالجديدة معان نتيجة لتعرفه مدى ارتباطها بما تعلمه فى مناسبة سابقة . وكلما زاد التشابه بين الخبرتين ازدادت المعانى التى يمكن أن ترتبط فتضيف الى الاسبق خصباً ونموا ، كما تصبح الجديدة اكثر طلاوة واثارة للاهتمام ، وبالتالى تستثير استطلاعه فتزداد محاولته لكشفها دقة واصرارا .

ولارتباط القدرة على ادراك العلاقات بالذكاء العام نجدمعظم اختبارات الذكاء تتضمن ما يقيس هذه القدرة لتحديد السرعة والدقة اللذين يصحبان محاولة الطفل وضع اجزاء الصور الى جانب بعضها البعض لتكميلها ، واختيار الاشكال المتشابهة بين رسوم هندسية مختلفة ،أو ذكر الاختلافات فى أوزان معروضة أو اطوال خطوط. موضوعة متوازية أو متعارضة . وها هو بيلى يقدم لنا هذه القائمة نسوقها ببعض التصرف :

العمر بالأشهر	الحركة
٢ر٩	يحرك الخاتم فى يده
٣	يمد ذراعه للخاتم المعلق
٣ر٥	يلعب بالشخشيخة
٣ر٦	يتحسس طرف المنضدة
٢ر٧	يتفحص اليد المبسوطة له
٣ر٥	يلتقط المكعب
٤ر٥	يستعيد الشخشيخة
٥ر٨	يلعب بالورق
٦ر١	يقترب من صورته فى المرآة
٧ر٢	يهتم بدقائق الجرس
٧ر٣٥	يجتذب الدوبارة ليصل للخاتم
٨ر١	يخطط اعتباطا على الورق

العمر بالأشهر	الحركة
٦ر٨	يستكشف ثقوب لوحة الاشكال
٧ر٨	يحاول الاحتفاظ بثلاثة مكعبات
٧ر٩	يلعب مع صورة المرآة
٤ر١٠	يضع المكعب فى الفنجال
٦ر١٠	يزيل مايغطيه من ورق
٢ر١١	يمسك بالقلم مسكا صحيحا
٦ر١٢	يضع القالب المستدير فى اللوحة
٥ر١٣	يبنى برجا من مكعبين
٥ر١٥	ينظر للصور
٣ر١٦	برج من ٣ مكعبات
٦ر١٦	مربع أو مستطيل بلوحة جيزل
٤ر١٧	يسمى شيئا واحدا
٥ر١٧	يغطى الصندوق
٧ر١٧	يصلح الدمية المكسورة
٦ر١٩	يسمى شيئين
٢٠	يدير أكرة الباب
٧ر٢٠	يشير الى ٣ صور

العمر بالأشهر	الحركة
٣ر٢١	يبنى رجا من ٦ مكعبات
٥ر٢١	يسمى ٣ أشياء
٢٢	يفرق بين البرج والهرم
٢٤	يملأ لوحة بيلى فى ٩ ثوان
٤ر٢٤	يسمى ٥ صور
٥ر٢٤	يقلد خطوطا متوازية وعمودية
٣ر٢٥	برج من ٨ مكعبات
٤ر٢٥	يختار الجسم « الأكبر »
٥ر٢٦	الذاكرة : يتذكر شيئا واحدا
١ر٢٨	يبنى هرما من ٣ مكعبات
١ر٣١	يثبت زرارا واحدا
٣٢	وصف صورة : صفة أو فعل
٩ر٣٣	يعرف ٥ حروف جر
٦ر٣٤	يقلد الدائرة بعد ٣ محاولات
٧ر٣٤	يتعرف الخط الطويل
٦ر٣٥	يتذكر صورة من اربع
٦ر٣٦	يثبت زرارين فى ٧٥ ثانية

وبعد فقد جاء بياجيه مستعملا طريقة « المقابلة الفردية » فدرس تفسيرات الصغار لظواهر عديدة كطبيعة الهواء ، وأصل الريح ، وانفاس الانسان ، وحركة السحب ، وقدرة الزوارق على الطفو . وخرج من كل هذا بـ ١٧ نوعا من انواع التفكير المنطقى أوسعها غيره من العلماء بحثا وعلى الأخص جان ماركيز دويتش اذ قسم بحثه على أطفال بين ٨ و ١٥ سنة قسمين استعمل فى

الاول أجهزة كأن ينكس دورقاً فوق شمعة ويسأل عما سبب انطفاءها ،أو يضع عملة صغيرة على غطاء صندوق من الورق المقوى مربوط بخيوط من جوانبه الاربعة ثم يديره بسرعة فلم لا تسقط العملة ، او ارتفاع سطح الماء فى حوض عند اسقاط جسم ثقيل ، أو مصدر الصوت الناشىء من سقوط مكعب من ارتفاع مناسب ، او الاصوات المتغايرة لدى الضغط على مفاتيح آلة موسيقية ، اوارتفاع الماء فى الاوانى المستطرقة . ، والقسم الثانى قدم فيه اسئلة مباشرة عن سبب تكون الجليد ، وارتفاع البالونات فى الهواء ، وظهور قوس قزح بعد المطر ، وتكون الظل ، والصورة فى المرآة ، وسبب حصول الرعد والبرق ، واصابة اماكن معينة بالصواعق .

وقد اظهرت هذه الابحاث الاخيرة بكل اختصار ان بياجيه اعطانا اساساً صالحا للبحث،وان كانت بعض التجارب الحديثة لا توافقه فى نسبة تردد الانواع السبعة عشر وقد ترفض بعضها كلية ، كما تأخذ عليه اشتطاطه فى تقسيم التفكير المنطقى الى مراحل محددة تنتهى واحدة لتبدأ التالية لها ، فهو اذ يضع المرحلة الأولى فى صورة التفكير ذى الطابع الخيالى السحرى (كأن يقول الصغير ان الرعد صوت تحدثه المردة والشياطين) . . ، ويضمن المرحلة الثانية خلع الحياة على الجماد (تتحرك السحب لانها حية) .. واخيرا تأتى مرحلة التفكير الاستنباطى الناضج حول الحادية عشرة او الثانية عشرة حيث يستنتج الصبى الحقائق بالطريقة المنطقية مستفيدا من معلوماته عن الكثافة والوزن النوعى وهكذا ليفسر انسياب الماء الى الانبوبة المجاورة .. نقول ان بياجيه فى هذا الوضع قد اغفل قليلا تداخل هذه المراحل ، فاذا كانت الاولى تتراجع سريعا قرب التاسعة عند البنين والحادية عشرة عند البنات فى مصلحة الاخيرة التى تبدأ فى الشيوع قرب السن الاخير فالواقع ان التفكير التسلسلى الصحيح هو مسألة نمو تدريجى .

أما عن عامل الجنس فقد وجد ان البنات يعطين اجابات اكثر تخصص

بالنوع الاول ، ونعنى به التفسير المعتمد على الظواهر السحرية ، بينما تزداد اجابات البنين فى الناحية الميكانيكية (السحب تدفع الرياح.. البدالات تدفع الدراجة) ، ثم فى التفكير الاستنباطى .

ولسنا الآن بسبيل الافاضة فى بحث المقاييس العقلية اذ لا يتسع المقام لعرض ماجاءت به مدرسة فونت فى ألمانيا من أبحاث شيقة اجتذبت اليها فلاسفة أمريكا الناشئين اذ تقاطروا الى معامل ليبزج لتلهمهم أفكارا عن التطور (أمثال ج . ستانلى هول الذى اقتبس طريقة جولتون فى الاستفتاءات) وتغذى ميولهم لدراسة الفروق الفردية (أمثال جيمس كاتل) ، والحق أن هذا الاخير كان أول من خطا نحو وضع المقاييس العقلية على أثر اختباراته لطلبة جامعة كولمبيا سنة ١٨٩٦ ، وإليه يرجع الفضل فى توجيه نظر ثورندايك الذى كان منشغلا بتواهاته وصناديقه ذات المزالج الى استخدام هذه الطرق مع الاطفال فخلق بذلك من ثورندايك أكبر داعية لمقاييس الذكاء فى امريكا، هذا فضلا عما جاء به هيرمان ابنجهاوس الالمانى قرب نهاية القرن التاسع عشر من احصاءات ومنحنيات عن التذكر أخضع فيها نفسه لنظام لابد قد احتاج تطبيقه الى مجهود عنيف .. بل ولعل هذا المجهود يتضاءل ازاء ماوصل اليه من قياس للقدرات العقلية « الارقى » بطريقة « التكميل » سنة ١٩٠٧ ، وتبعه جورج مرلر مضيفا الى هذا « قوانين الترابط » والظروف المساعدة على التعلم

ثم جاء القرن العشرين فافتتحه بينيه الفرنسى بأبحاثه على بناته ، ولكنه سرعان ماتجه الى دراسة الشواذ والاطفال المتراجعين منفذا بذلك رغبة الحكومة الفرنسية . وكان من أدق المشاكل التى واجهها بينيه وجماعته التفرقة بين نقص القدرة من ناحية والكسل أو قلة الاهتمام من ناحية أخرى . وهكذا وضع بينيه بمعونة سيمون سنة ١٩٠٥ سلسلة من الاختبارات نظمت بترتيب صعوبتها ، ودخلتها التعديلات بعد هذا بسنوات ثلاث ثم ست . وهى فى وضعها الاخير تهدف الى قياس الذكاء على أساس « العمر العقلى » .

أى وضع معايير لكل من سنى النمو .

ظهر نجاح مقاييس بينيه واضحا ملموسا ، فسارع الجميع لترجمتها والاقتباس منها فظهر فى أمريكا جودارد وبيركس وتيرمان ، وفى انجلترا بيرت ، ثم فى ايطاليا تريفز وسافيوتى . ثم جاءت أمريكا لتلقى بنصيبها الشخصى فى الميدان على أيدى كيرباتريك وكيلى ونورزورثى ، وقد استطاع الأخيران بمقارنتهما فئتين احداهما عادية والأخرى متراجعة أن يثبتا أن الأخيرة ليست « فصيلة » قائمة بذاتها بل ان هناك تدرجا وانتقالا مستمرا من رأس القائمة لنهايتها .

كان كل هذا فاتحة نهضة مباركة تضافرت فيها الجهود لابتداع وتطبيق المقاييس العقلية حتى لنكتفى بأن نسوق للقارىء فى منتهى الايجاز أهم ما جاءت به الاتجاهات الحديثة :

ا . التفرقة بين النتائج التى ترجع الى القدرات الفطرية من ناحية ثم عامل الخبرة والكسب من ناحية أخرى .

ب . وضع حد بين الاختبارات اللغوية مثل ما وضعه بينيه حيث يلعب التفوق اللغوى دورا ليس بقليل ، والاختبارات غير العملية كالتواهات أو لوحة الاشكال

ج . التفرقة بين الاختبارات الفردية حيث يختبر كل شخص على حدة ، والاختبارات الجمعية التى تعطينا مجالا واسع النطاق لاحصاءات عن توزيع القدرات بين طبقات عديدة ، ولعل أشهر هذه الأخيرة تطبيق اختبار الجيش الأمريكى الشهير « الفا وبيتا » على حوالى مليونين من المجندين ، عند دخول أمريكا الحرب العظمى سنة ١٩١٧ .

د . مقارنة نتائج الاختبارات بتقديرات أشخاص أكفاء كالمدرسين لمعرفة ما اذا كانت الأولى تقيس الذكاء حقا أو لا تقيسه . ولقد كان مما يشرف الاختبار فى أول الامر أن تطابق نتائجه ما يراه المدرسون حتى لقد أصبحنا الآن مطمئنين الى هذه الاختبارات فصرنا ننبذ الاراء الشخصية فى أحوال عديدة .

هـ . تطبيق الاختبارات للتفرقة بين العادى والمتراجع لاغراض تربوية

و . بعد أن بدأت الاختبارات بمحاولة قياس الذكاء بعيداً ما أمكن عن عنصر الخبرة والاكتساب خرجت الى محاولة دراسة القدرات المكتسبة على حدة على قدر الامكان ، كاختبارات التقدم فى العلوم العادية المكونة للمنهاج المدرسى ، وهى اختبارات يمكن الى حد ما أن تحل محل الاختبارات المدرسية الحالية بأخطائها المعروفة ، فهى أسهل فى التطبيق والتصحيح وأقدر على استيعاب عدد أكبر من المعلومات فى زمن محدد . وهناك غير هذا الاختبارات الخلقية والمزاجية وغير ذلك .

ز . تطبيق الاختبارات فى ميادين عملية واسعة النطاق . فاختبارات الجيش الامريكى تهدف الى استبعاد المتأخرين جداً بحيث لا يصلحون للخدمه العسكرية ، واكتشاف أولئك الذين ينتظر أن يرتقوا سريعا ، أو يختاروا لانواع من العمل تحتاج قدرة خاصة . بل لقد طبقت الاختبارات على المهاجرين لامريكا لتعطى نتائج فى منتهى الاهمية بالنسبة للاجناس التى تكون الشعب الامريكى . وهناك غير هذا الارشاد والتوجيه المهنى .

ح . استخراج معاملات الارتباط بين الاختبارات ، فمن المهم أن يكون هناك ارتباط وتمش بين القدرتين المتداخلتين ، بمعنى أن الاشخاص الذين يحصلون على الدرجات العليا فى اختبار ما يجب أن يشغلوا نفس المراكز فى اختبار آخر مفروض أنه يقيس نفس القدرة أو قدرة مرتبطة بها ارتباطاً كبيرا . واذا كان جولتون قد بدأ بالبحث فى هذه النقطة وعززه كارل بيرسون فما من شك فى أن سبيرمان هو أول من أدرك فعلا أهمية الترابط وابتدع طرقا أسهل لحسابه ، كما وضع تفصيلا لتصحيح الاخطا التى قد تنشأ . وبعد فإليه يرجع الفضل الاول والاخير فى تعريفنا تركيب العقل الانسانى .

ولكن مهما حاولنا الاشادة ببعض المراحل التى خطاها البحث فى المقاييس العقلية فان أى بحث ينقصه الكثير لو خلا من الاشارة فى اعجاب الى ذلك المجهود البديع الذى أبداه اسماعيل القبانى بك فلقد عمل عزته مع العالم السويسرى كلاباريد ثم تابع العمل بعد سفر الأخير مدة سنتين حتى وضع اختباريه لقياس ذكاء الطفل المصرى ، أحدهما للمرحلة الابتدائية (على أساس اختبار بالارد) ، والثانى للثانوية (اختبار برشلونه) . ولا يتسع المجال لعرض محتوياتهما ففيهما الكثير من ترتيب الجمل وتكميلها والمتوائيات وادراك العلاقات والسخافات ، الى غير ذلك . وهانحن نسوق مثلا لادراك العلاقات ، فالمطلوب وضع خط تحت الكلمات الاجنبية المقابلة للكلمات العربية التى تحتها خط :

فيام أنا توصاد ان اصطن : لون الورد أحمر .

ان ميم جركى كاف أناتو : الورق الابيض جميل

كاف اصطن يانق أناتو : هذا ورد جميل

ميم أنا توصاد ان كراو : لون اللبن أبيض

٥ — دور التدريب : اذا كان صحيحا أن المواقف الجديدة أو المشوقة تستثير استطلاع الطفل وتضيف الى معلوماته فهناك عدد ليس بقليل من الحقائق لم يكن ليلاحظها ما لم نوجه اليها التفاته بشكل خاص . وكلما شجعناه على ملاحظة التفصيلات والدقائق زادت المعانى التى يمكن أن يشتقها ، تماما كما يحدث فى حالة الكشاف الصغير اذ يتدرب على أن يرهف حواسه لسماع الهمس الخفيض وملاحظة الرسوم والعلامات المنزوية .

ولدينا فى اللعب التى سبقت الاشارة اليها معين على تنمية ادراك الطفل للمعانى وادراكه للون ، تماما كما تعمل الكتب والصور المنتقاة على ادراك الجمال أو الدعابة . ولقد يجد القارىء الكريم فى هذا الصدد أن وضع جداول يومية مناسبة وتشجيع الطفل على مراعاتها يعطى الصغير فكرة عن الزمن والنظام أوضح بكثير مما تهيئه عشرات المواعظ أو التهديدات عن وجوب اداء العمل فى الوقت المناسب وسنعرض فيما يلى بعض الميادين التى تتضح فيها المعانى بالنسبة للصغير :

فكره الطفل عن نفسه

قبل أن يكون الطفل أفكاراً عن الآخرين يكون افكاره عن نفسه ويستعملها كمقاييس للاخرين على ضوئها . وهو يكتشف هذه الافكار الأولى عن جسده عن طريق تلمس أعضائه والنظر الى صورته فى المرآة اذا عرضت له الفرصة . فهو منذ وقت مبكر ، فى الشهر الرابع أو الخامس ، ينظر الى أصابع يديه وقدميه ويمصهما ، ويجذب شعره وأذنيه وانفه ، ويربت على جلده ويتحسسه ، كما يراقب حركاته فى المرآة .

ونظرا لتمركز اهتمام الطفل فى ذاته فى سنى الطفولة المبكرة نجد فكرة الطفل عن نفسه ترتقى بسرعة ، ويضع تيرمان وميرل فى مقياسهما لطفل السنتين اختبار تحديد ثلاث من أربع : شعر ، وفم ، واذنى ، ويدى الدمية . وبعد هذا بنصف سنة يجب ان يتعرف الاربعة . وفى سن ٣ سنوات يرى تيرمان ان الصغير يجب ان يعرف ما اذا كان ولداً او بنتاً ، واسمه الكامل ، واين تقع انفه ، وعيناه ، وفمه ، وشعره .

ولكنا نرى ان الطفل بين الثالثة والرابعة يدرك ما هو اكثر من هذا . يدرك اين تقع اصابع يديه وقدميه ، ثم الساقين ، والذراعين ، والبطن . كما انه يعرف فيم يستخدم كل منها اذا سألته بطريقة بسيطة مناسبة . بل هو يعلم أى اجزاء الملابس يصلح لعضو معين . ويضع تيرمان فى اختبار طفل السادسة معرفة الجانب الأيمن من الأيسر فى جسمه ، وفى السنة التالية يعرف عدد اصابعه دون عدها .

ويمر ادراك الطفل لنفسه فى مرحلتين .. الأولى تأتى من الخبرات والاتصالات الخارجية بالآخرين ، بحكم كون هذه الخبرات فى اول عهد الطفل بالحياة موضوعية . وهكذا تتكون لدى الطفل افكار خاصة تتصل بقامته ، ومظهره ، والمستوى الذى يشغله بالمقارنة بالاطفال الذين يتصل بهم وهم فى

العادة عدد كبير منهم من هو كبير وصغير . فاذا قارب سن دخول المدرسة امكنه ان يكون احكاما شخصية يصدرها هو ، ونتيجة لهذا تأتى المرحلة الثانية حيث تعتمد فكرته على احساسه وتفكيره وخبراته الانفعالية . والواقع ان من الصعب عليه ان يوفق بين هاتين النظريتين . وهو يظل موزعا بينهما يفكر فى نفسه كشخصية ثنائية لا تندمج فى الغالب الا قرب البلوغ .

اساليب التعبير عن النفس : نال الطفل تحت طرقات التربية القديمة من العنت ما ليس بالقليل ، « فالأدب » يقضى بأن يحتفظ الطفل بالهدوء والاتزان ولا يتحدث الا اذا وجه اليه أحدهم كلاماً ، وعليه ان يطيع دون مناقشة ، ويقص على الضيوف ما تعلمه من قصص فى المدرسة ، ويترك اللعب لينام فى الوقت المحدد. ثم جاء فرويد وانصاره ليؤكدوا الاضرار التى تنشأ لو عرقلنا ميلا طبيعيا ، وتقاطر بعد هذا رجال التربية الحديثة فقلبوا فلسفة التربية تماماً حتى لقد ذهب البعض الى ان الدوافع كلها خير فلندع الطفل يتفتح حسب ما تمليه رغباته وما من شك فى انه لن ينحرف عن جادة الصواب ما دمنا لا نتدخل لمنعه. ثم ظهر ان اساليب الطفل للتعبير عن رغباته ليست كلها صواباً . ولذا جاءت سياسة التوسط لتؤكد قيادة فاعلية الطفل وتعبيره عن نفسه كأحسن طريقة لمواجهة وتحقيق رغبات الطفل فى اللحظة الحاضرة ، وفى نفس الوقت تثبيت عادات التعبير التى ستكون مفيدة له خلال الحياة .

أولا — التعبير بالجهاز الصوتى : ا . الصراخ : يعرف الطفل العادى قبل انتهاء شهور ثلاث مدى فائدة الصراخ وأثره فى جذب الانتباه . وهو يظل يستخدم هذه الوسيلة حتى يكبر قليلا ويتصل برفاقه الصغار فيكتشف أن الصراخ ليس عديم الجدوى فحسب ، بل انه يكسبه احتقار الزملاء ، وسرعان ما يلقبونه « بالعيل النظاظ »

ب — الحديث : قبل أن يتعلم الطفل الكلام يحاول أن يشترك فى الحديث بالمناغاة .. وهو يرفع من صوته كثيرا بحيث لا يملك الآخرون

سوى الالتفات اليه . فاذا تعلم الكلام فهو يتبع نفس الطريقة اذ تراه يتحدث بصوت مرتفع وفى نبرات حادة وببعض السرعة تتطلب من الآخرين التمعن فى حديثه لالتقاط الكلمات . وكثيرا ما يعمد الى توجيه أسئلة لا تهدف الى اكتساب معلومات وانما يقصد بها إثارة الانتباه ، فهو اذا تحدث حديثاً عادياً فلن يحظى بالاهتمام الذى يتهيأ له لو سأل سؤالا .

فاذا ماقارب الطفل سن العاشرة واكتسب مهارة كافية لاستخدام جهازه الصوتى لجأ هو ورفاقه الى استخدام لغة سرية اما بالاشارة أو بالكلام رغبة منه فى التستر على أسرار العصابة من ناحية وارضاء لحاجته للشعور بالسيطرة من ناحية أخرى وهو الأهم . وكم يسره أن يلمس رغبة الكبار فى استطلاع هذه اللغة تزداد الحاحا .

يضاف الى كل هذا رغبة الصبى فى الصراخ والضحك بصوت عال فى كل مناسبة ليجتذب الانتباه ، هذه الرغبة التى تتراجع كثيرا فى فترة الاعتزال التى تصحب حلول التغيرات الجنسية ثم تتبلور لتظهر بشكل حاد مزعج عند الفتيان قرب الخامسة والسادسة عشرة ، ولكم تجد الطلبة فى المرحلة الثانوية يسيرون فى الأفنية رافعين رؤوسهم للخلف فى تحد ، يقهقهون بصوت عال ، ويصفرون ويغنون فى سرور مصطنع ، وكم يسر الواحد منهم أن يسير تحت نافذة أحد الفصول الهادئة فيعطس أو يسعل بصوت داو فتتجاوب ضحكات الزملاء من الداخل وهم يتهامسون باسمه . . ! ويصحب هذا اقبال الطلبة على امتصاص أنواع من التعبيرات الصارخة سبق أن أسميناها « المحصول الجارح » أثناء عرضنا للنمو اللغوى ، وهى تعبيرات تعتمد على أنواع من القسم أو السباب أو الاساليب الجنسية النابية يلقيها الغلام كلما اجتمع بزملائه محاولا بذلك أن يبدو « اسبور » كما يحاول أن يلقيها على مسمع من الكبار فى تستر ليرقب بابتسامة ماكرة ما ينطبع على وجوههم من دهشة واستنكار . . ، وحتى الفتيات وان كن لا يضربن بسهم وافر فى هذه النواحى الاعتدائية الا أنهن يتصنعن طرقاً للنطق

ومتابعة الحديث بالاشارات تختلف عما يرينه فى بيئتهن .

أما المبالغة أو « الفشر » فأسلوب شائع من أساليب التعبير عن النفس وان كان يختلف موضوعه حسب السن، فالصغار يبالغون فى وصف ممتلكاتهم المادية كالملابس واللعب والخدم ، والصبيان عن قوتهم ومهارتهم فى الالعاب والمباريات ، وفى المراهقة والبلوغ يتجه الحديث الى عرض اخاذ للتعرض لمخاطرات والنجاح فى مغامرات غرامية ، كما يلجأ الشبان الى المبالغة فى مركز عائلاتهم ومدى نشاطها وانتاجها ، على قدر ثوراتهم ضد أساليب معيشة نفس هذه العائلات عند عودتهم لمنازلهم ..!

ثانيا : الثورات الانفعالية : يتعلم الطفل فى سن مبكر جداً أن فى امكانه أن يسود المنزل بنوبات الغضب والتقلص والرفس والركل .وهوفى أحوال أخرى يتعمد أن يبدو خائفا أكثر مما يحس فعلا ليسارع الآخرون للاهتمام بأمره ، أو قد يضحك ضحكات هستيرية . وتقل المظاهر الأولى بالتدريج لأن الطفل يرى أن الانتباه الذى تجتذبه هو من نوع غير مرغوب فيه بين الرفاق ، أما الضحك المصطنع فيستمر فى الطفولة والمراهقة

ثالثا — السلوك السيء : معظم الاطفال للاسف يتعلمون بالخبرة أن القريبين منهم يوجهون اليهم اهتماماً أكبر عندما يكونون أشراراً مشاغبين مما لو سلكوا سلوكا حميدا . واذا عوقبوا فهم يتحملون العقاب فى سبيل ما اكتسبوه من الاهتمام .

والحق أن العناد كمقاومة واضحة للسلطة يحدث بشكل شائع جدا حول السنة الثانية والثالثة حتى ليعتبر طريقة عادية للتعبير عن النفس

فاذا جاءت مرحلة العصابات حملت معهـــا شعورا اعتدائيا واضحا ، فالصبيان يدقون أجراس المنازل ويفتحون صمامات اطارات السيارات ، ويرسمون صورا ليلوثوا بها الجدران فى الشوارع والمنازل والاسوار ، وفى المدرسة تجدهم يتهامسون ويتبادلون قصاصات الأوراق ، ويعتدون على

اعضاء العصابات الاخرى فيعاقبون ، ولكنهم لا يأبهون لهذا كثيرا مادامت أنظار تلاميذ الفصل كله تنتبههم .

أما عصر المراهقة والبلوغ فهو أكثر المراحل إغراء بالسلوك السيء المقصود. والفتى يعتبر القواعد والنظم تحديا شخصياله، وهو يشعر بالسيطرة والتفوق على المشرع لو حطمها دون أن يضبط . والكثير من الغلمان يدخن ويسكر لا لأنه يسر لهذا ولكن لانه يحس بالنصر . وهو اذا ركب سيارة ساقها بسرعة جنونية ، ودار حول المنحنيات على عجلتين ..وأطلق الكلاكسون دون ماحاجة لذلك ، و الاختصار هو يجعل من نفسه مصدر ازعاج وخطرا على الامن يجب على الآخرين أن يحسبوا حسابه . ثم هو فى « عنابر » القسم الداخلى يتسلل والكل نيام الى أسرة زملائه فيطلى وجوههم بفرشاة اللون حتى اذا استيقظوا صاروا أضحوكة اخوانهم .

٤ — الرغبة فى الاستقلال : يحب الطفل من وقت مبكر أن يؤدى حاجياته بنفسه ، وقد يصل به الامر الى الثورة على الكبار لو حاولوا مساعدته مع انه لا يستطيع أن يقوم بالعمل بمفرده على وجه مرض . فالطفل الصغير يريد أن يأكل بمفرده ، يلبس ويخلع ملابسه ، ويلعب بالطريقة التى يريدها .

وهو اذا كبر قليلا أراد أن يمنح حق اختيار ملابسه ، وزملائه ، وكتبه. فإذا شارف البلوغ وصلت الرغبة فى الاستقلال الى ذروتها ، فهو يريد أن يبرهن للجميع أنه رجل يمكنه أن يتحكم فى حياته ، وكثيرا مالا يفهم الآباء هذه النظرة ويدهشون لهذا « العناد » فى الوقت الذى يتطوعون هم فيه لمساعدته لتجنب الخطأ . فإذا حدث ، فى وقت متأخر ، أن طلب منهم المراهق المساعدة اتخذوا فى الغالب طريقة التعنيف « ماذا ؟ ألم نقل لك ؟ » وهى طريقة تؤكد لديه الرغبة فى الاستقلال مستقبلا مهما حدث له من متاعب .

وإنا لنرى الفتى يود أن تفرد له غرفة لنفسه ، وملابس يختارها هو ، كما يريد أن يحتفظ بحق اتخاذه أصدقاء كما يشاء ، وبمفتاح ليذهب ويعود فى أى وقت

وهو يحب أن ينظم رحلته أو سفره وحده ، وكم يؤلمه أن يصحبه أحدهم الى المحطة أو الكلية .

٥ — الرغبة فى الظهور بمظهر كبر السن : فى أى مرحلة من مراحل النمو نلاحظ أن الطفل يود لو يبدو أكبر وأكثر فهما مما هو . وحتى الصغير يشعر بأهميته لو تركناه يسهر أكثر من الموعد الممنوح لزملائه فى سنه ، أو إذا دعوناه إلى مائدة الكبار فى الطعام . والواقع أن ارتداء الصبى « بنطلونا » طويلا أو البنت جوربا طويلا ، أو السماح لها بقص شعرها على طريقة الآنسات ، كلها ترضى لدى الصغار هذه الرغبة ، وهم ينتظرون من وراء هذا امتيازات متلاحقة .

٦ — الممتلكات والشعور بالمسئولية : بين السنة الاولى والثانية يقاوم الاطفال رغبة الآخرين فى انتزاع ممتلكاتهم كاللعب والملابس . ومن الصعب أن تقنع طفلا بأن يدع آخر يشاركه ما يملك ، وهذا هو السبب فيما ينشأ من مشاجرات .

ويصحب الشعور بالملكية الرغبة فى العناية بالشىء . ولكن كثيرا ما يقوم الآباء بهذه المسألة فيؤلمون اطفالهم ويحرمونهم من الرضاء الذى يحسونه لو تركوا لأنفسهم . والحق أن الأب مخطىء لو ظن أنه بهذا يهىء للطفل الراحة فيقضى طفولة مرحة .

فإذا كبر الطفل قليلا فلنطمئن اليه ونعهد له بمهام يقوم بها فى الخارج فهذا يشعره بالاهميه . كأن « يسجل » خطاباً فى البريد أو يشترى شيئاً . ويصل هذا الشعور بالمراهق أقصاه فهو لايقبل المسئولية مادمنا نقيده بتعليمات كثيرة . والحكم الذاتى هنا يهىء فرصة جميلة للتعبير عن النفس .

٧ – أحلام اليقظة : هى تعويض لما يفقده الفرد ، أوهى رغبات مدفونة فى اللاشعور لا تتحقق فى الحياة اليومية . والشخص اذ يستغرق فى أحلام اليقظة يتصور نفسه مركزا للحلم ويشتق السرور من الاهمية التى ينسجها حول نفسه .

وقد وجد جرين فى تحليله لمئات من هذه الأحلام أنها واحدة من أربعة :

١ – خيال العرض : حيث يقوم الفرد ، بمقدرة لا تتوفر له فى الحياة، بأعمال ينال لها التقدير والتهليل .

٢ – خيال الانقاذ : حيث يتخيل الفرد أنه ينقذ حياة آخر وهكذا يكتسب تقديره واعجابه ، وهو فى الغالب واحد من الجنس الآخر .

٣ – خيال العظمة : حيث يمثل الفرد دوراً هاما ، كملك أوكآله

٤ – خيال التضحية : حيث يكتسب الفرد حب الشخص الذى يعجب هو به ، وهو فى الغالب أرقى منه ، بعمل خدمة جليلة له .

وتبدأ أحلام اليقظة فى الطفولة المبكرة متأثرة بالقصص الخيالية وبعد هذا بالمغامرات والمخاطرات ، فالصغير يتصور أنه يسهر على أميرته الجميلة الممددة الى جانبه فى الغابة بينما الطيور تجلب لهما الغذاء الشهى

والحق أن هذه الأحلام المبكرة تدور فى الغالب حول اللعب ، والطعام وعلى الأخص ذاك الذى يمنع عن الاطفال كالمرطبات ، كما يتمنون أن يكونوا أغنياء لتتحقق طلباتهم .

ويتدخل عنصر القصص الخيالية فى مرحلة العصابات فالبنت من ٨ - ١٠ أميرة تعيش فى قصر ملىء بالملابس والجواهر ، أما الأولاد فيهتمون باكتشاف كنوز ونقود وميراث من أقارب حديثى العهد . ومن هذا الوقت حتى فجر المراهقة نجد الألعاب الرياضية والاسفار تحتل الصدارة فى أحلام اليقظة .

. . . فالصغير يتصور أنه يسهر على أميرته الجميلة الممددة الى جانبه بينما الطيور تجلب لهما الغذاء الشهى . . .

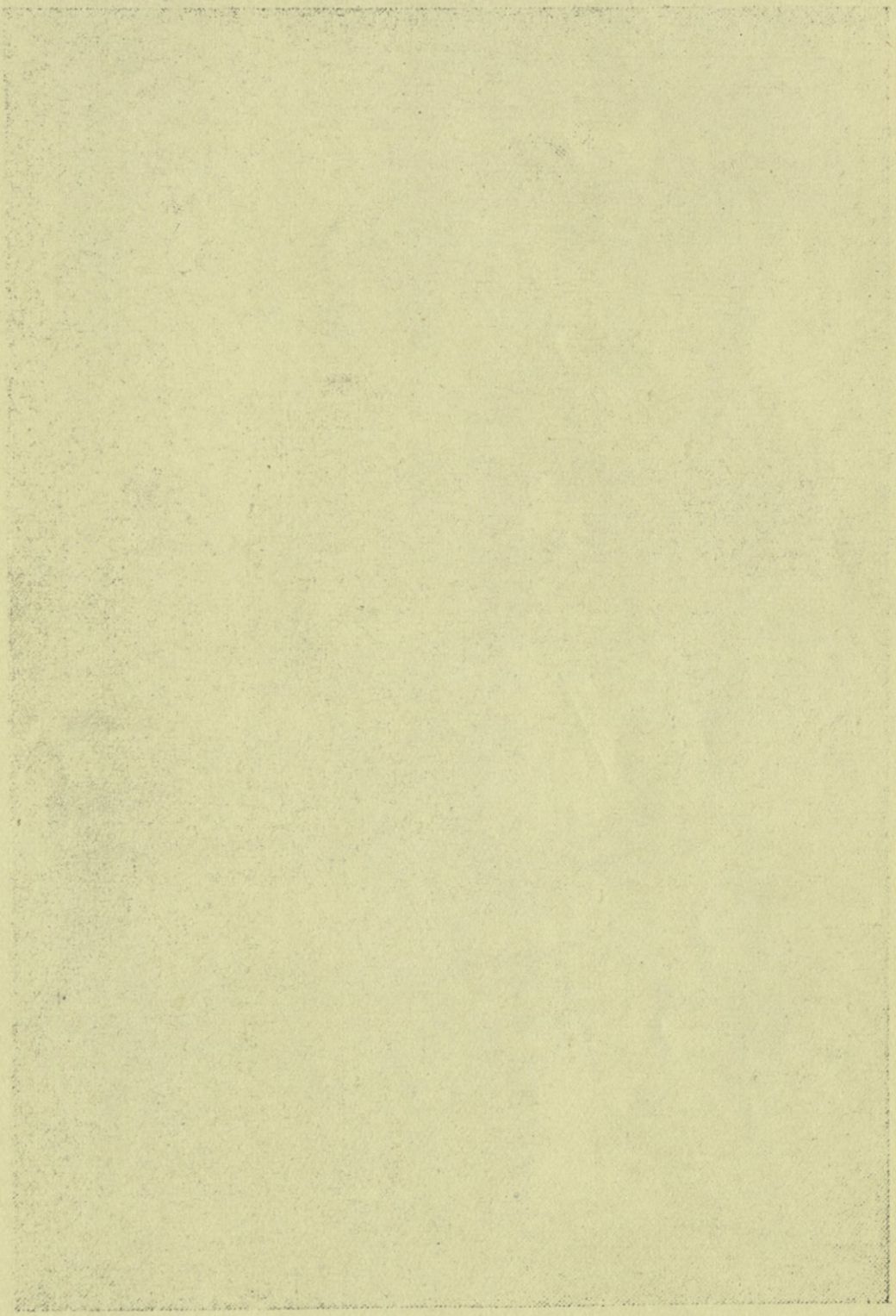

أما المراهقة فأكثر الاوقات امتلاء بها ، فهى تراجع من الحقيقة المريرة، وتمتلىء بها الساعات التى تقضى فى العزله، كما تهىء للمراهق الفرصة للاغراق فى تصوير نفسه بمظهر البطل المعذب ، فهو شهيد فى ايدى الآباء والمدرسين والرفاق . وكم يلذ له أن يتصور نفسه وقد توفى فامتلا المنزل بالنحيب والعويل لفقده ، فلينتحبوا ماداموا يضايقونه كل هذه المضايقة .. ! ومعظم الصبيان فى هذا السن يحلمون أنهم فى منازل أخرى وبين آباء وأمهات آخرين أغنى وأرفع فى الطبقة الاجتماعية والمستوى الاقتصادى مما هو حادث فعلا .

وتستمر الأحلام فى احتلالها للصدارة فى مرحلة البلوغ ، فهى طريقة للهروب من الصدمات والثورات الانفعالية الشائعة للفتى ، أوكوسيلة لارضاء الحب والدافع الجنسى .

وقد وجد سميث أن أصلح الأجواء للاحلام هى الغروب ، والليل المقمر والوحدة ، والموسيقى الهادئة ، والمياه المنسابة ، أو أى صوت رتيب يدور فى ملالة كالاصغاء لموعظة ممله ، أو مراقبة النار المشتعلة ، أو احساس الفتى بحالة من التعب الجسمانى أو العقلى

٨ — الرغبة الأدبية : من أحسن أنواع التعبير ، فهى ترضى الطفل ويقبلها المجتمع . ومن أنواعها الرسم ، ولو أن الطفل الصغير لا يقدر فعلا على الرسم لضعف التناسق العضلى ، ولكنه يسر من التخطيط على الورق فيعمل حركات بالقلم مهوشة وغير ذات هدف واضح ، فالرسم بالنسبة له طريقة للتعبير أكثر منه طريقة لخلق الجمال .

ويضع وادل هذه المراحل الاربعة : الأولى مرحلة التخطيط ، من ٢-٥ فالرسم هنا مرتجل مهوش ، وبالتدريج يوحى بشىء يضع له الطفل اسماً .. والثانية مرحلة الاضطراب الفنى ، من ٥-١٢ ، وهنا نرى الطفل غير ناقد ، بل هو يصور مافى ذهنه بشكل رمزى ، لايهتم كثيرا بالتناسق والنسب ؛ هو يهتم

بالتفصيلات المزينة كالازرار والقبعات .. والثالثه مرحلة التردد حول الثانية عشرة حيث يتناول الطفل مدرس أو شخص يشرح له أخطاءه وما يجب أن يفعل فيحس الطفل الحرج والتراجع والخيبة ، وهنا يترك معظم الصبيان الرسم مؤقتا .. وأخيرا تأتى المرحلة الرابعة ببعث القدرة الفنية من ١٥ - ١٧ حيث يصبح الرسم عملا فنيا يلونه الطابع الشخصى .

تأتى بعد هذا الموسيقى ونلاحظ بدء الرغبة فى الغناء من سن مبكر جداً

حيث ينغمس الصغير فى هذا النوع من التعبير عندما يدخل التنغيم فى المناغاة . وكم يسر الطفل أن يسمع غناءه فى مناغاته . فاذا وصل الصغير الى سن أربع أو خمس سنوات أمكن أن يغنى معظم الأطفال اناشيد وأغان بسيطة ، ويصاحبوا الاغنية بأقدامهم أو أصابعهم . وحتى لو لم يعرف الطفل كلمات الأغنية كلها فيمكنه أن يحل محلها كلمات من عنده . ومن الشائع جداً بالنسبة للاطفال الذين تهيأت فى منازلهم الفرصة لممارسة بعض أنواع العزف كالضرب على مفاتيح آلة موسيقية ، أو شد صندوق موسيقى ، أن ينتجوا بعض القطع البسيطة الركيكة فيشتقون من هذا سرورا عظيما . ولكن الغناء اكثر شيوعا على العموم فهو لا يتطلب خبرة .

وقد درس بوينتونز ٩٠٠٠ ولدا وبنتاً بين ٧ ، ١٢ فوجد أن الاناشيد والأغانى المدرسية شائعة جدا فى السنين الاربعة الأولى ، ولكنها تقل بعد هذا فى مصلحة الموسيقى الكلاسيكية والشعبية والوطنية . وبالمثل نرى الاهتمام يقل بالأغانى الدينية بينما يزداد الميل للموسيقى الراقصة .

وكما رأينا فى حالة الرسم تأتى بوادر البلوغ أى حوالى الثانية عشرة بضربة قاصمة للموسيقى اذ يهجرها الصبى فى كثير من الملالة نتيجة لتعليمات المدرب المقيدة أو سخرية الزملاء ، ولذا لا يلجأ الفرد الى الغناء الا حينما يجد نفسه وحيدا . والحق أن معظمنا يسر للاشتراك الفعلى فى الغناء أو العزف فى الوحدة أو وسط جمع كبير اذ يطمئن الى انه لن يجتذب الانتباه ، مما يدلنا على أن

هذه الطريقة التعبيرية لا تهجر كلية وانما تتعدل لتقابل الحاجات الاجتماعية .

أما عن الكتابة من قصص أو شعر فهى أوضح فى مرحلتى المراهقة والبلوغ .وكثير من الفتيان ذوو المقدرة المتوسطة يتمنون ان يدخلوا فى مجال الادب ليؤسسوا حياتهم ككتاب لأنهم يسرون للإعجاب الذى يصحب مثل هذه الميادين من الحياة وتهيء المذكرات للمراهق فرحة جميلة للتعبير فيجد مجالا للتنفيس عن انفعالات مكبوته .

٩ اصلاح الآخرين : يبدو فى أوضح صوره عند المراهق ، فهو فى اعتداده بنفسه وتحمسه لمثله العليا يسعى للاصلاح ،ويأتى الوالدان والاشقاء فى المنزل ليواجها اولى ضرباته. .فشعر الأم «فلاحى»..والأب يلقى الكلام على عواهنه دون لباقة.. كما أن حركاته على المائدة او أمام الضيوف مؤذية جارحة. والبنات أكثر اغراقا فى هذا من البنين .

وبعد هذا ياتى دور المنزل . . فالاثاث بال عتيق ، ومزيج الالوان فيه غير متناسق ، والأضواء سافرة يمجها الذوق السليم . والبنات هنا أكثر حساسية نحو منازلهن وما تحتويه وكثيرا ما يصرحن انهن لايردن أن تزورهن الزميلات فى المنزل لاسباب واهية كعدم الاهتمام بالحفلات ولكن الحقيقة أن الخجل هو السبب الأساسى .

وأخيرا يتجه النشء بنقده للخارج ،فالمدرسة أو الكلية بنظمها وتقاليدها العتيقة التى لا تتمشى مع روح الرجولة والزمالة ، والاصدقاء المحبون ، بل وحتى المجتمع الكبير ،كل هذا يصبح هدفا للذم .ولقد يسخر الفتى من أصدقائه حتى يغيروا من طريقتهم فيفقد بذلك صداقتهم مما يسبب له فى كلتى الحالتين ألما عميقا .

١٠ — الملابس : يكتشف الطفل من سن مبكر أن الملابس تجتذب الانتباه الى حد كبير ، ومن الشائع جداً أن ترى أحدنا يتلطف مع الطفل بالجملة المعهودة « مين اللى عمل لك البلوفر الحلو ده ؟ » بل ان رفاقه الصغار سرعان ما يلحظون ملابسه الجديدة ويعلقون عليها باعجاب أو حسد

ويتمنى الطفل أن يلبس رداءه الجديدة بمجرد شرائه دون أن يهتم كثيراً بمناسبته للظرف المعين ، وكثيرا ما تسمعه يفخر بما يلبسه لأول مرة فى سذاجة « بص جزمتى الجديدة »

وتكتسب القطعة الجديدة أهمية أكثر فى نظر الطفل لو قربته لأول مرة من الكبار ، كالبنطلون الطويل أو الجيب الخلفى أو القفاز . وفى مرحلة الاعتزال التى تسبق المراهقة نجد الغلام يعنى بارتداء كل ما يقربه من الجماعة حتى لا يكون مصدرا للتعليقات فهو هنا شديد الحساسية ، وكثيرا ما يضرب عن الخروج للنزهة لو لم يسمح له بارتداء البنطلون الطويل فهو موقن أن الانظار تنتهبه من كل جانب .

فاذا ما انتهت مرحلة المراهقة الاولى تأرجح الفتى الى الطرف الآخر فهو يبالغ فى ارتداء الالوان الصارخة والازياء المغايرة لمن حوله فقد أصبح يهتم الآن بالظهور وجذب الانتباه .

ادراك الطفل الاجتماعى

ونعنى به القدرة على فهم أفكار الآخرين وانفعالاتهم بملاحظة التعبيرات الوجهية والسلوك . وهو يتضمن القدرة على تقدير شخصية الآخرين بسرعة ودقة على ضوء الادلة الموجودة ، وبهذا يمكن أن يتكيف الفرد اجتماعيا وينال نجاحاً معقولا . فاذا استطاع الطفل أن يتفهم شخصية هذا إلى حد ما ويفرقها عن شخصية ذاك ترتب على هذا تعديل سلوكه هو ليتمشى مع الحياة الاجتماعية المقبولة .

١ — الاستجابة للكبار : واضح أن الطفل عند الولادة لا يشعر بنقص

صحبة الاشخاص ، فهو لا يفرق بينهم وبين الجماد . وهو يستجيب للمؤثرات فى بيئته استجابة متعادلة ، اذ يمكنك أن تسكن الطفل الباكى برفع الوسادة دون لمسه أو اصدار صوت ما ، كما أنك لو تحسست وجهه بزجاجة اللبن لأدى هذا الى نفس النتيجة التى تتوفر لو ربت على الطفل بيدك .

ولقد رأينا فى فصل سابق أن الطفل فى الشهرين الاولين يستجيب للاصوات الحادة كالطرق أو الشخشيخة أكثر مما يستجيب لأصوات الاشخاص ولكن الموقف ينقلب بالتدريج ، فهو فى نهاية الشهرين يفرق بين أصوات الأجسام والأشخاص تبعاً للدور الذى يلعبه الأخيرون فى حياته ، وهو منذ الشهر الثالث يبدى الرضاء فى وجود الآخرين بينما يتملكه الحزن اذا ترك وحده .

وهكذا نرى الطفل يسكت عن الصراخ اذا رفعته من الفراش فى نهاية شهرين ، وهو يستدير اذا سمع صوت الانسان . ومن هذا الوقت تقريبا يبدأ الابتسام الاجتماعى فى الظهور اذ يبتسم الصغير تبعا لابتسامة الشخص .

وخلال الشهر الثالث يصرخ الطفل عندما يتركه الكبير ، ثم هو يتألم لفقدان انتباهه فيحاول استعادته بشتى الوسائل . وفى الشهر الرابع يبدى تكيفا ترقبياً نحو حمله بواسطة الكبير ، ويفرق بعض التفرقة فى انتباهه نحو الوجوه ، وينظر فى اتجاه الشخص الذى يتركه ، ويبتسم لمن يتحدث اليه ، ويبدى السرور للانتباه الموجه اليه ، ويضحك اذا لعبت معه .

ومنذ الشهرين الخامس والسادس يستجيب الصغير استجابات مختلفة مفرقاً بين الابتسام والتأنيب ، والاصوات الودودة والغاضبة . ومن ٦ - ٧ يضحك الطفل اذا أخفيت وجهك بمنديل ثم أظهرته قريبا منه ، ويقلد أعمالا بسيطة كالتصفيق والتلويح بالذراعين ، ويبدى لأول مرة خوفاً من الغرباء .

وفى الشهر الثامن والتاسع يقلد الصغير بعض المقاطع التى يسمعها ، وقرب نهاية السنة الاولى يمتنع من عمل أشياء لدى قولك « كخ ! كخ ! » . ثم هو يصرخ أو يبتعد عند اقتراب الغرباء . فاذا ما اكتملت له سنة ونصف شاع لديه « العناد » والاعتراض وعدم قبول طلبات الكبار . ولكنه فى سن سنتين يمكن أن يتعاون مع الأم فى عدد من الاعمال المنزلية البسيطة .

٢ — الاستجابة للصغار : من الشهر الرابع للخامس يبدأ الطفل يبتسم

لرفيق صغير ، ويظهر الانتباه لصرخاته . وبالتدريج يتزايد اتصاله بهم ودياً او العكس بالنظر والابتسام ومد اليـــدين للاستكشاف وجذب الشعر والامساك باللعب التى معهم .

وهو بين ٩و١٣ شهرا يقلد سلوكهم وتبدو لديه رغبة فى التعاون البسيط والاستعمال الاجتماعى للعب . ولكن الشجار مع هذا يصبح شخصيا وحاداً فهو يقدر الملكية بحيث اذا أخذ أحدهم لعبته غضب وانطلق يعارك ويصرخ

ويتطور شعوره بسرعه خلال السنة الثانية، من١٣ الى١٨، اذ ينتقل الاهتمام من اللعب الى الرفاق ، ويقل العراك قليلا ليزداد التعاون ، بل ويمكن أن يتحد الاطفال قرب نهاية السنة الثانية فى مجموعة لينتظروا اشارة المربية قبل البدء فى تناول الطعام .

عامل التقليد : لكى يصبح الطفل واحدا من الجماعة يجب أن يقلد من حوله ، فهو فى أول الامر يقلد الضحك والابتسام خلال الشهر الثالث ، وبعدها الحركات والاشارات (باى باى ، هز الرأس ، ارسال قبلة فى الهواء) منذ الشهر السادس، وحوالى الشهر الثانى عشر يقلد الاصوات التى يسمعها (تشو تشو ، تيك توك ، دينج دونج)

عامل الانزواء: يأتى نتيجة لتفرقة الصغير بين المألوفين والغرباء فيسبب هذا لديه التراجع والخجل ، ويصل هذا الشعور ذروته من ٩ الى ١٢ شهرا فنسميه « عصر الغرابة » strange age وتراه هنا يتعلق بمن يحمله ، ويصرخ ، ويزم شفتيه ، فاذا أخذ الى غرفة أخرى بدت عليه نفس مظاهر الخوف . بل وحتى لو لبس الشخص المألوف ملابس الخروج استثار هـــذا لدى الصغير الخوف .

وقرب نهاية السنة الثانية يأتى « عصر غرابة » آخر ، وتتوقف مدى حدته على الفرص التى عرضت للطفل ليختلط بالآخرين وهنا يكتسب سلوك الطفل مايبدو على النعامة المذعورة اذ يدفن رأسه فى حجر أمه أو خلف قطعة

من الاثاث .

ويبدو التنافس أيضا قرب هذا السن ، فالطفل يأخذ لعبة زميله لا لانه يريدها ولكن لانها تشعره بالسيطرة . وهنا يصعب لعب الاطفال مع بعضهم اذ يستمر العراك والضجيج ، ولا يستقيم الامر الا اذا لعب الطفل مع الكبير الذى يجب أن يتسامح معه كثيرا فيقدم له ما يشاء

وبازدياد السن يزداد اهتمام الطفل بزملائه ويقل اهتمامه بالكبار ، بل انه بعد دخوله المدرسة الابتدائية يعتبر اصطحاب والديه له فى الرحلات أو الحفلات والزيارات سخيفا مملا ، فهذا عصر الانضمام للعصابة ويتميز بالاهتمام بالألعاب الجمعية ، والاتصال بجماعة يفخر بها ويخلص لها ويشعر بالانتماء اليها فهى أفضل بكثير من غيرها ، ثم عدم الرغبة فى اللعب مع الجنس الآخر ، ثم السرية التى تنتاب أعمال الجماعة .

وكثيرا ما يجتمع الصبيان هنا للعب الورق ، والذهاب للسينما ، وينظمون مكان الاجتماع ، والرحلات والحفلات ، والانتاج التمثيلى الذى يقومون به بأنفسهم ، فضلا عن اغاظتهم للاخرين . ولا يبعد أن تثور نوبات العراك ويغرق البعض فى السرقة ولعب الميسر والتدخين والجولان عدة أيام وتدبير الشراك .

وبعد هذا يأتى عصر سلبى أو عنادى قبل المراهقة بقليل ، اذ يعتزل الفرد زملاءه ويكره المنزل والمدرسة والمجتمع كله حتى لتطيح هذه الفترة بصداقات وثيقة ماضية . وهو هنا شديد الحساسية يشعر أنه مظلوم وأن العالم كله قد اجتمع ضده .

فاذا جاءت المراهقة نما الشعور الاجتماعى ، فالفتى ليس واحدا فى جماعة فحسب بل ان واجبه أن يقوم بالكثير من الاصلاح فى سبيلها . فاذا وجد أنها لاتحقق مثله العليا حاول أن يصلحها ولكنه فى الغالب لا يفلح فيصيبه هذا بكثير من اليأس والجمود . والمهم هنا أنه يتمشى مع الجماعة فى اخلاص

يفوق ما لدى الصبى فى مرحلة العصابات مدفوعا فى ذلك لاخفاء الشعور بالقلق والخوف من أن يسخر به اخوانه لشذوذ مظهره ولذا نراه يتمشى مع طراز الملابس أو السلوك الذى يراه فيمن حوله فى حرفية عمياء .

ادراك الطفل المكانى

يصعب الحكم على الاتجاهات والمسافات بالنسبة للاطفال الصغار ، ولا بد أن يتدخل عنصر الخبرة لعونهم فى هذا السبيل فضلا عن نضوج أعصاب البصر . فلكى يحكم الطفل على الابعاد حكماً صحيحاً يجب أن يتعلم أن يقارن المسافة التى يود أن يقدرها بالاجسام المألوفة أى التى لمسها من حيث الحجم والبعد .. وأن يرى فى درجة وضوح الشكل الخارجى ولونه وكمية التفصيلات التى تقع على العين أدلة ومفاتيح . وأخيرا عليه أن يتعلم أن يعتمد على الاحساسات المختلفة التى تتتابع على العين والناتجة من التلاقى أو الانفراج ليستعين بكل هذا على التقدير الصحيح .

ويندر أن نجد الاطفال الصغار يمدون أيديهم لما هو أبعد من ٢٠ بوصة مما يدل على ان لديهم تقديرا بسيطا للمسافات حتى قبل مرور سنة . وقد تصطدم يد الصغير بحاجز الفراش عفوا فيحس صلابة الجسم المقاوم ، وربما قليلا من الالم ، فيدير عينيه الى مصدره وهكذا يبدأ فى تجميع ما تقوم به اليد وما تراه العين فى فكرة أولية عن الابعاد . وواضح أن المسافات القريبة هى التى تدرك أولا ، وبالتالى أحجام الاشياء التى يمكنه أن يمسك بها فعلا .

فاذا ما بدأ الصغير يمشى تهيأت له الفرصة لتقدير مسافات أكبر ، بكثير من البطء والمرونة بطبيعة الحال . وانك لتجد الصغير حتى فى سن سنة ونصف يسعى لامساك القمر . . أو التقاط شعاع الشمس الممتد الى بساط الحجرة .. أو الامساك بصورته فى المرآة . . أو جذب مسيل الماء من الاسفنجة كأنما

هو خيط . بل ومن المناظر المألوفة بالنسبة للصغار فى سن متأخرة عن السن المذكورة أن نراهم يقفون أو يضغطون بأقدامهم على خيال بعضهم البعض لمنعه من مجاراتهم فى اللعب والجرى . وقد تبدو لنا هذه المواقف غريبة لأن مرأى وملمس هذه الاشياء العادية مرتبطان الى الحد الذى لا يمكن أن ينفصلا فيه .

وبالتدريج كلما حاول الطفل أن يمسك بشىء عرف لا بعده فقط بل والاتجاه الذى يقع فيه . وإن ألعابه بالمكعبات والعربات والدراجات وغيرها سرعان ما تهيىء له الوحدات التى تمكنه من تقدير المسافات القصيرة بدقة . أما الطويلة فلأنها بعيدة عن متناول جسمه كالبعد بين شجرتين أو ارتفاع بناء كبير فلا يمكن ان يتعرفها قبل حلول مرحلة البلوغ وحتى هنا كثيرا ما ينتاب احكامه بعض الخطأ .

وقد وجد أن التدريب على تعرف المسافات والاتجاهات والحجوم هام جدا . وتعمل اللعب واجهزة رياض الاطفال كالخرز والمكعبات والاسطوانات ولوحات الاشكال « والتواهات » والدراجات والزحافات على القياس فى ضوء ما هو طويل أو قصير . ثم هو بدخوله المدرسة الابتدائية يتعرف البوصة والقدم واليادرة والمتر الى غير ذلك ، حتى ولو كانت هذه شكلية يصعب عليه تطبيقها فى حياته اليومية . وما من شك فى أن قدرة الطفل اعلى ادراك الفروق فى الشكل ومحاولة وضع الاشكال الصحيحة فى ثقوبها تزداد تدريجيا حتى السادسة . . كما تزداد بالتمرين .

وفى تجربة لدراسة أى العاملين يلعب دورا أهم . . اللون أو الشكل . . قام بريان وجود انف بتجربة تتمثل فى عرض شكلين واحد كروى والآخر مكعب بحيث يتفق كل مع أحد زميليه فى صفة معينة ويختلف عن الثالث كما يرى فى الرسم وهنا يطلب من الطفل أن يخرج شكلين متشابهين دون ذكر وجه التشابه .

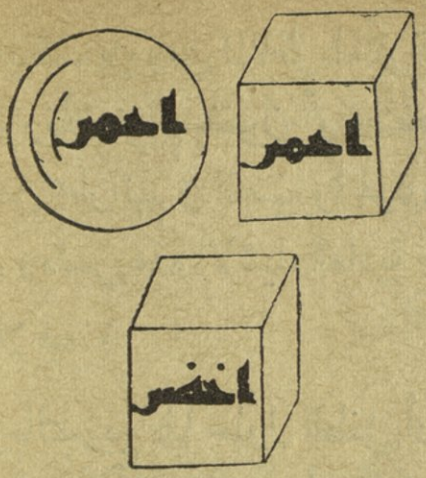

وقد وجد فى هـــذه التجربة أن الاطفـال الاقل من ثلاث سنوات وأكـثر من ست يختارون الاشـكال المتشابهة بينما أطفال السن المتوسط بين المرحلتين يختارون على أساس اللون . وقد قام المؤلف ببحث على حوالى ١٤٠ ولدا وبنتاً مستخدما هذه الاجهزة مع تعقيدها وتنويعها بعض الشىء فوجد أن اللون يلعب دورا أكبر ممـا ذكره الباحثان . ولو أن الفكرة على العموم صحيحة

ادراكه للوزن

يعتمد اصدار الحكم الصحيح على وزن جسم ما على تقدير الحجم من ناحية وعلى المعرفة السابقة للمادة المصنوع منها وثقلها بالنسبة لغيرها من ناحية أخرى . والشطر الاخير مصدر ارتباك كبير للطفل فى أول عهده ، فهو لم يتعلم بالخبرة أن المواد تختلف فى ثقلها ، وهو اذا رأى كرة من القطن على سبيل المثال فقد يحكم أنها أثقل من مكعب من الخشب أو قطعة من الرصاص أصغر حجما.

ولعل هذا هو السبب فى الحوادث المؤسفة التى تنتهى بتهشيم الاوانى والادوات المنزلية واللعب اذ تتساقط من بين يدى الطفل لانه لم يدرك بعد القدر المطلوب من التوافقات العضلية للاصابع والرسغ بحيث تحتمل ثقل الجسم الذى اعتبره هو أقل من الواقع .

وبالتدريج يتعلم الطفل أن يدخل اعتبارات المادة التى يصنع منها الجسم فى حسابه ، فضلا عما تاتى به الالعاب والادوات التى تقع تحت حسه من أفكار عن الثقيل والخفيف . وهكذا يكتشف أنه لتحديد وزن الجسم عليه أن يلتقطه من الارض أو من على المائدة ولا يقنع بالنظر اليه . ثم هو إذ يضعه على راحة يده ثم يحركها الى أعلا وأسفل يتضح له وزنها أكثر مما

لو احتفظ بيده ثابتة .

فاذا أخذنا تعديل تيرمان لمقياس ستانفورد بينيه وجدناه يطلب من الطفل فى سن ٥ سنوات أن يتعرف الفرق بين وزنين احدهما ٣ جم والآخر ١٥ جم ولو انهما متحدين فى الحجم والمظهر الخارجى . وعلى العموم فان هذه القدرة على ادراك الفروق فى الثقل تزداد سريعا بين السادسة والثانية عشرة وهنا تصل لذروتها فتقارب قدرة البالغ .

ادراكه للعدد

بمجرد أن يبدأ الطفل الكلام قد يردد ألفاظا تختص بالاعداد ، فهو يحمل شيئا على رأسه « ويبيع » فاذا سالته عن السعر فقد يلقى بعدد ما ، ولكن يشك فيما اذا كان بين الثانية والثالثة يدرك معناه ومتى يمكنه ان يستخدمه بطريقة لها دلالتها . وقد تعددت الابحاث العرضية على الاطفال ولكن الناحية الشخصية تغلب عليها الى حد كبير أما التجارب العلمية فلا تزال الى الان قليلة لا يمكن الاعتماد عليها . وعلى أى حال فيمكن القارىء أن يعرض على الطفل فى أى عمر كمية من البلى فى يده مدة تمكنه من النظر اليها ولا تمكنه من عدها ثم تطلب منه أن يقدر هذا العدد . وسيجد فى الغالب أن الطفل من الثالثة حتى السادسة يستطيع أن يقدر تقديرا صحيحا فى حدود بلية واثنتين وثلاثا ، أما الرابعة فيختلف فيها مدى النجاح والفشل . وقد خرج دوجلاس من بحثه على هذه النقطة بان عاملى السن والثقافة يتدخلان فى نمو الادراك العددى

وقد سبقت الاشارة الى محصول الطفل فى الاعداد اثناء عرض المحصول اللغوى فى فصل سابق وتحدثنا عما تضعه المقاييس العقلية كمستوى يبلغه الطفل المتوسط . والمهم هنا هو أن الطفل حتى قرب نهاية المرحلة الابتدائية قليل الادراك لما تعنيه الأعداد الكبيرة ، ونعنى بذلك ما فوق المائة . فهو فى دروس الحساب قد يستعمل أعدادا كالمائه والألف والمليون ، ولكنك لو سبرت غوره قليلا لوضح لك أنه يعنى بها مجرد « كثير خالص » . وقد يتحدث

مدرس التاريخ عن الهرم الأكبر فيذكر أن ارتفاعه ١٤٥ مترا فيقبل الصغار هذا العدد دون كبير اهتمام . ولكنه لو قارن هذا البناء الشامخ بالمدرسة التي يعتبرها الطفل بالطبيعة من أضخم الابنية فى بيئته الضيقة ، فقال للطفل « لو انك بنيت فوق هذه المدرسة دورا ثالثا ثم رابعا ثم خامسا و . . حتى تصل للدور العشرين لما قاربت نهاية الهرم الاكبر .. أى أن الفراعنة قد استطاعوا أن يضعوا عشرين مدرسة من نوع مدرستك فوق بعضها البعض » هنا يمكن أن يقدر الطلبة معجزة الفراعنة فى فن البناء فضلا عن وضوح الفكرة القديمة المهوشة عن العدد .

ادراكه للزمن

يظل الزمن مصدراً للغموض بالنسبة للطفل حتى فى مرحلة متأخرة ، بل يشك فى امكان الطالب فى مبدأ المرحلة الجامعية اذ يدرس التاريخ القديم أن يدرك على وجه الدقة تتابع العصور الغابرة السحيقة التى يدرس رسومها على الكهوف ، ودلالة التواريخ التى تصحبها .

فاذا ذكرت لطفل العاشرة أن الهرم الاكبر استغرق بناؤه عشرين سنة لنظر اليك فى جمود . وهولا يمكن أن يقدر مدى هذ الحقبة ومغزاها الا اذا فسرتها له على ضوء عمره هو — وما من شك فى أنه يعتبر نفسه كبيرا على وشك انهاء المرحلة الابتدائية — فقلت له « هل تتصور أن هناك بناء بدأ فيه العمال منذ أن ولدت ولم يكتمل ؟ » فيجيبك « كلا » بالتأكيد . . ، حسنا . ان صبيا مثله فى عهد قدماء المصريين كان يمكنه أن يرى الهرم يبنى وهو صغير ثم يصل الى سنه الآن والعمل لا يزال يجرى حثيثا ، ثم يدخل المرحلة الثانوية سنة بعد أخرى حتى تنتهى ، ومع هذا فهو لا يزال يرى أن أمام العمال الكثير ليصلوا بالهرم الى قمته . . !

ولعل عدم ادراك الطفل للزمن يفسر ما يبدو من عدم الطاعة اذ يخرج الصغير للعب ويتأخر كثيرا عن الموعد . فهو لعجزه عن الحكم على الزمن حكما قريبا من الصحة ، فضلا عن اهتمامه باللعب أو أى نشاط آخر ، قد يمر الزمن بأسرع مما يعتقد . بل لعل قلق الطفل أثناء الزيارة أو فى رحلة بالقطار مرجعه الى أن الوقت يمر ببطء شديد اذا كان ساكنا لا يجد ما يشغله . وأوضح من هذا وذاك تقدير الصغير لطول الليل ، اذ نظراً لان النعاس يتسرب الى جفنيه سريعا ، ولانه ينام نوما عميقا لا تقطعه فترات الاستيقاظ ، تراه يظن أنه لم يذهب للنوم الا منذ بضع دقائق

وهكذا فنوع النشاط الذى ينغمس فيه الطفل فى وقت ما يحدد طول الزمن ، « ففسحة الغداء » فى المدرسة وقد تزيد عن ساعة تمر بأسرع جدا مما يمر أحد الدروس . والواقع أن ما نشاهده كثيرا من التكاسل والتعطل فى عمليات كالطعام أو ارتداء الملابس بين سن ٣ ، ٥ يمكن أن نعيده مبدئيا الى تقدير خاطىء للزمن . فيوم الطفل لا يزال حتى الآن مهوشا « مائعا » لا يزدحم كما هو الحال عندنا بالاعمال والمقابلات ولذا لا يرى أن التكاسل فى عمل ما قد يتدخل فى تعطل غيره وضياع اليوم . بل ان عددا كبيرا من الاطفال فى مرحلة الرياض والتعليم الابتدائى قد يرسبون فى الامتحانات لانتهاء الوقت وهم لا يزالون يزحفون وئيدا فى اجابة كان يمكن ينتهوا منها لو شعروا بدلالة الوقت . وانى لاشعر ان من العبث أن ينبه المدرس تلاميذه الصغار فى الامتحان بالجملة المعهودة « مضى من الزمن نصف ساعة » ، وانما من الاصلح أن يقول « يجب أن تكونوا قد انتهيتم الآن من سؤالين ، أو ثلاث ، وهكذا .

فاذا لم يتعلم الطفل أن يضع ليومه حدودا معينة لاكمال أعمال واضحة كتناول الطعام أو الذهاب لدورة المياه الى غير ذلك فان من الخطر أن تتكون لديه عادات الخمول والتكاسل والاستهتار بالوقت

وكلما استطاع الطفل أن يربط بالزمن أنواعاً معينة من النشاط عملت

هذه كدلالات يعتمدعليها. فالنهار يختلف عن الليل لأن الأول مضيء والثانى مظلم ،ثم هو فى الصباح يلعب وفى الظهر ينام بعد وجبة الغداء ، أما الغروب فهو وقت الملابس النظيفة والخروج للنزهة . وبنفس الطريقة نجده يميز أيام الأسبوع ، فيوم الجمعة هو اليوم الذى يقضيه الوالد فى المنزل ، وقد يضاف الى هذا وجود أشقائه وشقيقاته ، وتبعا لهذا قد يتعقد «روتين» الحياة اليومية فتخرج العائلة للزيارة أو لقضاء يوم فى الخارج . وعلى العموم فلا يصل الطفل الى سن ٥ أو ٦ سنوات حتى يعرف فى أى يوم هو ، ولو ان ادراكه للاشهر والفصول يتأخر عن هذا سنة أو اثنين .

ولقد كانت التجـارب لتقدير ادراك الطفل للزمن قليلة محدودة منها أن يطلب من الأطفال أن يحكموا على فترات من الزمن تتراوح بين خمس ثوان وخمس دقائق . وقد وجد إلـكن ، كما قد يجد القارىء اذا حاول أن يجرب ، أخطاء كثيرة ، فالمدد الطويلة يقللون منها بينما القصيرة يبالغون فيها . ولـكن إلـكن يضيف إلى هذا أنه وجد أن أحسن تقدير كان فى حالة الفـــترات الواقعة بين ٣٠ ثانية ودقيقة . كما وجد أن الاولاد أقرب الى النجاح من البنات فى المدد الطويلة والعكس فى الفترات القصيرة . أما معرفة تاريخ اليوم والشهر والسنة فيظل محدودا قبل السابعة والثامنة حيث أن عمليات العد المطلوبة صعبة على الطفل ، ولـكنها تزداد خلال السنتين التاليتين حتى تتضح فى العاشرة

ادراكه للدعابة

ليس هناك شىء مضحك فى ذاته بل ان ما نراه مضحكا يعتمد كثيرا على المعانى التى نربطها به وما ندركه من علاقات ومفارقات . وهو كغيره يعتمد على الخـبرات السابقة والذكريات التى ترتبط بالحديثة . هذا فضلا عن أن الاستجابة للضحك تعتمد على الحالة المزاجية والانفعالية للفرد ،فالطفل وهو

فى ثورة غضب لا يرى ما يضحك فى موقف قد يكون مضحكا جداً فى حالة أخرى عادية ، هذا فضلا عن أثر الحالة الصحية

طفل ما قبل المدرسة : وضعت السيدة فنتون ملاحظاتها شهرا بعد شهر عن طفلها وخرجت بالقائمة التالية :

٤ أشهر : يلعب بالجهاز الصوتى

٦ أشهر : يشاغب من يخلع له ملابسه أو يلبسه اياها .

٧ أشهر : يرسل الفقاقيع فى الماء اذ يشرب ، ويلقى ما يقدم له من لعب الى الأرض .

٩ أشهر : يرقب سقوط اللبن من فمه فيتناثر على الارض .

١٢ شهرا : يقلب وجهه فى أوضاع مضحكة

١٤ شهراً : يختفى من الناس ويضحك اذ يبحثون عنه .

٢٤ شهرا : تحاول أن يدخل رأسه فى أماكن ضيقة ، أو يقوم بحركات تتطلب اتزاناً داعياً الآخرين للنظر اليه .

ويرى كيمنز أن الطفل وقد قارب دخول المدرسة يبدأ يلعب بالالفاظ ويبدأ ما يسمعه يثير فيه الضحك أكثر مما يراه . وهو على الاخص يجد فى الجمل الغريبة الترتيب مصـــدرا للضحك مثل « بربرينا بنى منبر » وسرعان ما يجد فى هـــذه الناحية الكلامية مجالا فسيحا فهو يلتقط الكلمات ذات المعنيين ليبنى حولها نسيجا .

فى الطفولة المتأخرة : من السابعة الى العاشرة تلعب الالغاز «والفوازير» دوراهاما ، وتقل بعدهذا . ويضحك الصبيان والبنات هنا لسقطات الآخرين ومتاعبهم ، وللاخطاء التى يسمعونهـــا فى الفصول من زملائهم وخاصة اذا كانوا يعرفون الاجابة . ويضيف آلن وهول الى هذا مصادر أخرى كالخروج من مأزق ، وقلب الوجوه ، والكاريكاتور ، كما يسرون لمن يتحدى السلطة . والواقع أن الاشرطة المضحكة تسر الاطفال لان الممثلين فيها يعملون أشياء

يود الصغير أن يعملها ولكنه يحجم خوفاً من السلطة . ويزداد سروره لو اتجهت سخرية الفيلم نحو من يمثل السلطة فى نظر الصغير كالأب أو المدرس

فى المراهقة والبلوغ : واضح أن الغلام هنا لشدة حساسيته سريع الخجل والحرج ، ولذا فلا يمكن أن يدرك عنصر المزاح فى موقف تدور عليه فيه الدائرة . ومع هذا فهو أكثر من أى وقت مضى سروراً وتقديرا للنكتة إذا قيلت على غيره فهذا يعطيه شعورا بالراحة والسيطرة ، كما يراها أدعى للضحك كلما استعيدت .

ادراكه للجمال

ان ما يراه الطفل جميلا يعتمد الى حد كبير على الترابطات التى يكونها ، فالروابط السارة تجعله يرى فى الشخص أو الشىء الذى يراه جمالا ؛ بينما الروابط المؤلمة تنتهى باعتباره له قبيحا . وعلاوة على هذا فان كل ما هو جديد وغير مألوف يعتبر مخيفاً قبيحاً ، وبالعكس فى حالة المألوف اذا افترضنا أن الروابط المتصلة به مناسبة .

وليس هناك شىء قبيح أو جميل فى ذاته ، فما يحبه الطفل ويميل اليه يعتبر جميلا ، والأشخاص الذين يحبهم هم على قدر كبير من الجمال مهما كان رأى الآخرين فيهم . ومما يعزز هذا أن عددا كبيرا من الأطفال فى سن ٥ سنوات اذا عرضت عليهم صور مقياس تيرمان لوجوه السيدات اختاروا فى بعض الأحوال قبيحها فاذا سألتهم لماذا تلقيت منهم أجوبة تكاد لا تخرج عن « هى تشبه ماما » أو « طنط » أو « تيته » أو « الطباخة » وهكذا .

ثم ان الصور الملونة تلويناً براقاً ، أو الممثلة للحركة والسرور والحفلات والآلات الضخمة ، كلها تعجب الطفل وتثير شوقه . كما انه يسر لأية صورة تتضمن أناساً يقومون بأشياء عادية كأعمال المنزل ، أو الزوارق الشراعية ، والقطارات والخيول والسيارات . ولكن صور الطبيعة لا تشوقه الا اذا

احتوت أناسا أو حيوانات ترعى . بل ان قدرة الطفل على فهم ما تعنيه الصورة مسئولة الى حد كبير عن تقديره للجمال ، بدليل أنك لو عرضت على الطفل صورا خيالية جميلة وأخرى واقعية لفضل الأخيرة .

ويعمل عامل الثقافة والمجتمع الذى يعيش فيه الطفل ليحدد الى مدى كبير ادراك الطفل للجمال ؛ فهو يتخلق بدستور الجمال الذى يضعه الكبار لطول اتصاله بهم ، وهو يقبل هـــذه الأوضاع ويعتنقها دون مناقشة أو اعتبار لميوله هو .

فاذا كبر الطفل قليلا وجدنا أنه من ٧ - ٨ يتركز اعجابه حول الازهار والحيوانات والدمى. وهو يبـــدأ حول الثانية عشرة فى الاعجاب بالمناظر الطبيعية ولـكنه لا يظهر اعجابه مطلقا بالمبانى .

وواضح أن هناك فرقا بين الطفل والفرد فى مرحلة البلوغ ، فالمؤثرات القادرة على استثارة الاحساس بالجمال تصبح أكثر تنوعاً ، فضلا عن أن الخبرات الانفعاليـة المصاحبة له أكثر وأعمق منها فى مرحلة مبكرة حيث يقتصر الصغير على اعتبارها مجرد خبرة عقلية

وعلى العموم ففى مرحله البلوغ نجد الفرد يفضل ألوانا باهتة واكثر ترابطا وانسجاما . أما إدراك الجمال الجسدى فى الجسم الانسانى فيعتمد على تجمع المظاهر كلها التى تضفى على المرأة صفات الانوثة وعلى الرجل كل مظاهر الرجولة كما تحددها الأوضاع الثقافية للجماعة . ثم ان « المودة » الحديثة عامل هام ، فمهما نضجت ملامح الشخص كل على حدة فلا يمكن أن يعتبر جميلا الا اذا كان أسلوب الملابس أو الجلسة حديثا جدا .

ويظهر أن الروابط لاتزال تعمل هنا أيضا ، فقد وجدت هو لينجورث من دراسة صور الغلمان المتوسطين فى الذكاء والمتفوقين أن الأخيرين يعتبرون بواسطة إخوانهم أجمل كما أن مصاحبات القبح أربعة :

ا ـ المتراجعون خلقيا ب ـ القذرون ـ ج ذوو المظهر الحيوانى د ـ الضعاف أو المرضى .

واذن فالخبرات السابقة تتدخل لتلون الحاضرة فى الفكرة عن الجمال.

أما عن اللون فكلما صغر الطفل فضل اللون الفاقع . بل انك لايمكن أن ترضيه بتقديم اللون المطلوب فى بريقه . وهو يعتبر التظليل بالباستل والالوان الباهته قبيح .وتتغير هذه الحالة بتقدمه فى العمر ، فاذا وصل للبلوغ اعتبر الالوان البراقة صارخة .. «فلاحى» . وقد يكون السبب فى هذا راجعا للتدريب ، ويعزز هذا أن صبيان وبنات البيئات الأفقر لايزالون يفضلون الألوان البراقة .

الفصل الحادى عشر

المنزل المصرى فى « قفص الاتهام »

تنقسم منازلنا المصرية من حيث نظامها أقسامها أربعة .. قسم يبالغ فى عدم الاعتراف بالطفل حتى لايكاد يسمح له بالتنفس ، وقسم يبالغ فى الاعتراف به حتى ليعتبره السيد المطاع ، وثالث يتذبذب كبندول الساعة فتارة يتطرف فى القسوة وأخرى يتفانى فى التدليل ؛ وهذه هى الاقسام السائدة فى منازلنا .

بقى بعد هذا قسم أخير وهو نادر الوجود .. وأعنى به ذلك النوع من المنازل الذى يعطى طفله القدر المعتدل المناسب .. فيرضى الحاجة « للاعتراف » بالطفل الى الحد المعقول .. بحيث يخرج طفلا كامل التكوين الخلقى ، طفلا يعرف حقه على الآخرين كما يقدر كل التقدير واجبه ازاءهم . فالمنزل يعرف كيف يعترف بالطفل .. ويرضيه ، ولكنه فى نفس الوقت يعرف كيف يوقفه عند حده .. فى هدوء .. وبدون تعنت .

وسيكون همنا فى الصفحات القادمة ان نقيم اساس ذلك المنزل الاخير ثابتاً وطيداً .

المنزل الاول .. نظام القسوة المطلقة

أكبر ظنى أن لكل من القراء ذكريات خاصة أو مشاهدات معينة فى هذا الصدد . ولكنى لا أريد أن أذهب بعيدا . فأمامى رواية تمثيلية تدرس ح قسم الأدب الانجليزى فى الجامعة ، كما عرضتها فرقة تمثيلية انجليزية على مسرح الاوبرا وعنوانها « عائلة باريت بشارع ويمبول » . وان الانسان ليعجب كيف تمكن مؤلف هذه التمثيلية « رودلف بيزيير » ، فى خمسة فصول قصيرة

من أن يؤسس ذلك المجتمع الصغير فى صورة حية ناطقة. انك لتكاد تحس أنك تعيش بين عائلة باريت . . وتتتابع على وجهك نفس الانفعالات التى يحسون بها . هاهم يسيرون الى جانبك .. جورج وهنرى وألفريد وتشارلس واليزابيث وهنرييتا، وتطالعك وجوههم كأشباح هزيلة متعبة ، طبع عليها الألم والحرمان خطوطاً عميقة غائرة ، لا تكاد تستبين وراءها معنى الحيـاة أو الحيوية . وبين هذا وتلك يقف ادوارد باريت الأب .. عمـلاقا ثابتاً كالطود الراسخ . . يلقى بظله الاسود القاتم على كل من أبنائه وبناته فيحيـل حياته جحيما لا يطاق . وفى احدى المواقف تندفع هنرييتا على غير وعى منها مستفيضة فى وصف ذلك الجحيم لأحد الاصدقاء الجدد :

هنرييتا : كلا . . كلا . . يامستر بيفن ان المسألة ليست كذلك. المسألة . . (وفجأة تتدافع الكلمات من بين شفتيها فى ثورة حبيسة جارفة) المسألة هى انه لا شىء . . لا شىء مطلقاً فى هذا البيت ينبغى ان يحدث بدون تصريح واذن أبى . ربما كنت تعلم انه كان يقتنى عبيداً فى جمايكا ويستخدمهم فى مزارعه . ولما ثار الزنوج فى امريكا واستعادوا حريتهم كان من الطبيعى جـدا ان يقيم ابى نظام الرقيق فى مكان آخر . . وأى مكان احسن من هذا ، هنا وفى انجلترا ؟ . . »

وعلى ضوء هذه الكلمات القليلة سنحلل هذا المجتمع الصغير بشىء من التفصيل لنرى الى اى شىء يقودنا نظام العبيد .

الخوف : لعل أظهر شىء فى حياة هؤلاء الشبان والفتيان هو تملك عنصر الخوف عليهم بشكل غريب . ففى الثلاث أو الاربع مرات التى يظهر فيها الاب على المسرح تسبق ظهوره حالات واضحة جـداً من القلق والفزع الشـديدين .

وهكذا تتتابع الفصول والجو مكهرب يسوده الرعب الغريب . ولكن المؤلم أن عامل الخوف هذا قد اكتسب حالة الاستدامة وتأصل فى طبيعة الصغار حتى لاصبحوا يخافون كل شىء . إن أية حادثة بسيطة تروعهم

وأى صوت مفاجىء يرسل الاضطرابات الهستيرية الى أبدانهم . اسمع « أوكى » اصغر الاخوة وهو « يتهته » فى كلامه بشكل واضح . و « التهتهة » كما قلنا نتيجة مواقف انفعالية تتسم بطابع القلق والخوف . وانظر الى « جورج » أكبر أفراد العائلة وهو على أبواب العمل بعد أن تعلم ونال أعلى الدرجات الجامعية تجده متأكدا أنه سيفشل لا محالة . لماذا ؟ لانه يحس بضآلة شأنه وسط الآلاف من اخوانه .. ولانه يخاف ذلك الطريق الجديد الذى لم يعتد السير فيه . وتأمل هنرينيا هذه الفتاة الناحلة الهضيمه .. هى عصبية المزاج حادة الصوت تضحك لأقل سبب وتبكى لاقل سبب . يختلج وجهها وتغمز بعينها اليسرى فى حركات عصبية . لماذا ؟ لانها تعودت أن تخاف من أبيها وهى صغيرة ، وأن تتحفز للابتعاد عنه اذا ما رأته مقبلا نحوها أو مارا الى جوارها ، وأن تتهيأ لاخفاء وجهها واغماض عينيها اذاما تهددها . واحتفر هذا السلوك الدفاعى المتكرر طريقا عميقا فى تصرفاتها وكيانها العصبى فأصبحت تؤدى هذه الحركات الدفاعية الحادة كلما رأت أباها أو تهددها أى خطر . وكبرت وتأصل هذا السلوك فى نفسها فأصبحت تقوم بكل حركة فى حدة وتوتر .. فآذانها على الدوام مرهفة ، وعيونها قلقة زائغة ، ويدها ترتفع فى حركة عصبية سريعة الى دبوس تشبكه فى صدرها ، وهى حركة قديمة كانت تقصد بها اخفاء وجهها من أبيها ثم تعدلت بمضى المدة ..!

هذه رواية حقا ولكنها مقتطعة من صميم الحياة . ها هم شبابنا المصريون يخرجون الى الحياة بالالوف فى كل عام ولكنهم لا يحملون من الشباب الا الاسم فقط وبعض المظهر الخارجى . أما معدنهم الداخلى .. أما الرسالة التى يؤدونها .. فهى رسالة أرنب مذعور .. ! أو قولوا انهم كلاعب « البسبس » الذى يضع كل جوارحه فى أطراف أنامله ، ويحشد كل ما يملك من سرعة ونشاط ليتفادى الضربة التى يتوقعها على يده .

ان شبابنا لا يعرفون من الحياة سوى انها ضربات . ويحسبون أنفسهم

سعداء كل السعادة لو تفادوا منها ضربة أو ضربتين . لماذا ؟ لان رأس مالهم « الخوف » . ان الشاب منا لا يجرؤ أن يقتحم ميدان العمل الحر . وكم يكون سعيدا لو حصل على وظيفة حكومية فى أحد الدواوين ، فى الدرجة السادسة أو السابعة . فتراه يتشبث كل صباح بالمركبة الاخيرة للترام ليصل فى الميعاد ، وهناك يتلقى تعليمات الرئيس ، ثم يعود الى منزله حاملا « بطيخة » فى يد ، وفى اليد الاخرى دوسيهات العمل التى لا تزال تحتاج لاستيفاء .

ان الشاب منا لا يجرؤ أن يهاجر من مكان الى مكان ، مهما صادفه من متاعب هنا ومغريات هناك . وشعاره فى هذا « اللى نعرفه أحسن من اللى ما نعرفوش » .. ! ومن يدرى .. ربما صادفته المتاعب حتى فى الرحلة القصيرة التى تعرض له الى الخارج . ربما غرقت به الباخرة فحوادث البحار كثيرة .. ربما سرق أحدهم نقوده فمن أين ينفق فى بلاد غريبة ريثما تأتيه النقود . ربما وجد الفنادق مزدحمة فلم تتيسر له الراحة أو التمتع بالنزهات .. ربما مرض أحدهم فى المنزل أو مرض هو فى مكان ناء فماذا يكون المصير .. ؟ ربما .. ربما .. آلاف الافتراضات .. ! أليس من الافضل أن يتريث قليلا ريثما يتثبت ؟ ويظل يتريث ويتريث حتى يمرض فعلا أو يحدث أى حادث بسيط يروعه فيقول لقد أحسنت صنعا بالاحتياط .. !

ويقولون ان المصريين شعب مسالم هادىء يحب الاستقرار .. وأقسم انه لقول مضحك حقا . الى متى نظل نطلى السم بالعسل ؟ ألا دعونا بالله نزيح هاته الزهرات اليانعات التى تخفى تحتها قبورا دفنا فيها شجاعتنا وإيماننا . إنا لسنا شعباً هادئاً مسالماً ولكنا شعب خائف .. ! انا رضعنا لبان الذلة والاستخذاء مع أول قطرة من اللبن شربناها . إنا تعلمنا أن ننكمش وتجمد أطرافنا تحت ظل القسوة القاتم .. وفتحنا عيوننا فإذا الحياة غول مخيف يصر بأسنانه كأنما ليبتلعنا .. تعلمنا أنا نقطة صغيرة حقيرة فى بحر خضم

لانهاية له ، فعدونا الى مخادعنا بعيداً عن عيون الآخرين ، وهناك بين الشهقات والدموع أخذنا نبنى عالمنا الذى نتمناه من الخيال .. عالماً براقاً ملوناً مرصع الحواشى والأطراف .. جدرانه من « الشوكولاته » الدسمة اللذيذة .. وأبوابه مرصعة بالحلوى الملونة الشهية .. ، فراشه وثير يتأرجح بك فى نشوة طاغية .. وأثاثه خيول وعرائس ومراجيح . وحتى صنبور الماء اذا فتحته تلقيت منه شرابا ورديا جميلا .. لماذا؟ الأن عالم الحقيقه قاس مرير .. فعلينا أن نعيش فى عالم الخيال الذى نبنيه نحن من لاشىء .

ونخرج الى الحياة ورأس مالنا الخيال . انا نخشى أن نواجه الحقيقة .. نخشى أن نواجه الانوار الصاخبة والمجتمعات والاندية . . لانا تعلمنا أن نتروى فى حجراتنا ونحن صغار عندما يأتى الضيوف .. نخشى أن نختط طريقا جديدا . . نخشى أن نستوضح المعلم نقطة فى الفصل لئلا يسخر بعض التلاميذ .. أو نتكلم فى اجتماع ونحن كبار لئلا يكتشف الكبار ماقد نجهل . لاننا تعلمنا ونحن صغار أنا مصدر سخريه وهزأة ، لانه لم يطلب منا ابداء الرأى فى أية مناسبة ، لانا نشعر انا أقل من الآخرين .

وهكذا يتقدم الشاب منا الى ميدان العمل وهو راغم مضطر .. يتقدم اليه بعد تردد كبير وبعد أن تفلت منه فرصة واثنان وعشر .. يتقدم اليه بعد أن أغلق عليه باب حجرته أياما بأكملها ، وظل يقلبه على وجوهه المتعددة ، فإذا سأله صاحب العمل فى الاختبار الشخصى سؤالا معيناً رد بكيت واذا تكلم عن الموضوع الفلانى أجاب اجابة أخرى . . وهكذا يظل يدور فى حجرته كالفار الحبيس حتى يشعر أنه استعد استعداداً مناسباً ووضع لنفسه برنامجاً معيناً محدوداً ثابت الأركان . ثم يخرج فى صبيحة اليوم التالى واذا بفلان بك الذى يود مقابلته للتوسط له لدى رؤسائه مشغول اليوم ، وهى حادثة عادية تتكرر عشرات المرات فى مصالحنا الحكومية ، ولكن ذهن صاحبنا قد تسمم بالخرافات والخزعبلات . . وسرعان مايفسر هذه الحادثة بأنها مدبرة ضده ، وأنها حلقة من سلسلة سوء الحظ الذى يلاحقه فى كل

مكان .. وإذن فما جدوى مقامة قوى جبارة تتلاعب به كما تشاء ؟ ويفر صاحبنا الى حجرته ليخفى فى الخيال همومه وأشجانه ، وقد تأكد لديه اعتقاده السابق أنه فاشل لامحالة .

أوقد يقابل صاحب العمل فينفرد به هذا قليلا ليختبره .. ومع أن صديقنا قد استعد وعمل حسابه لكافة الاحتمالات الا أن أستعداده بطبيعة الحال كان ناقصا أعرج ، فهو استعداد مبنى على الخيال ، فهو لم يتقدم الى ميدان العمل قبل الآن ، ولم يتردد عليه فى ضوئه السافر الصحيح . وفرق بين أن تقابل الاسد فى الخيال وأن تراه يتوثب على قيد خطوات منك . وهكذا قد يسأله الرجل سؤالا غير متوقع .. أو قد يه جهه اتجاها مخالفاً لمارسمه فى ذهنه . ولو كان هذا مرنا قليلا لاطاع .. ولكن ذهنه وتفكيره وشعوره وجوارحه .. كل هذه للأسف قد تحددت وجمدت وثبتت داخل برنامج معين رسمه لنفسه وظل يستعيده ويستزيده طيلة الايام الماضية فى وحدته . فلما تصدع هذا القالب فى ركن من اركانه برزشبح الفشل امام صاحبنا حتى قبل ان يخلق . وهكذا يحس الطفل بضعفه وعجزه فيتردد .. وينهار البناء كله .

ثم هو اذ يتقدم للعمل وسط عشرة شبان يشعر فى قرارة نفسه انه اقل منهم بكثير . ومع أن دراساته ومؤهلاته العلميه لاتنقص بل ربما زادت عنهم كثيرا ، الا ان هذا الشعور يفقده نصف قوته على الاقل . وهو شعور ألفه منذ نعومة أظفاره تحت ضربات العصا الحديدية وزئير الوالد الجبار فتعلم انه كمية مهملة لايحق له ان يرقى الى ماينا له المحيطون به . وهكذا قد يتخطاه شاب واثنان وخمس ، مع انهم لايساوون فى تفكيرهم العلمى بالنسبة له دريهمات معدودة .. كل هذا وهو سعيد اذ نال فى وسطهم موضعا لقدم واحدة .

ويتكرر هذا فى كل مناسبة يبدأ فيها عملا جديدا . .، هو يتقدم للزواج لا كما يتقدم غيره للفتيات بعد مقابلات متعددة ، واتصال مباشر ، ودراسة عن كثب ،ولكنه يتقدم له فى حجرته المغلقة الهادئة . .! هو يتقدم اليه بعد تفكير وتردد طويلين . وكما بنى قديما فى حجرته عالمه الوهمى البراق ، كما أقام جدرانا من « الشوكولاته » ، وأبواباً من الحلوى ، ودواليب مليئة بالكعك والفطائر ، وصنابير يسيل منها الشراب .. هكذا يبنى عروسه من خياله.. ففى جسدها رشاقة جسد فينوس آلهة الاغريق ، وفى عينيها صفاء عينى ديانا آلهة الصيد ، وفى اخلاقها وداعة العذراء اذ تحتضن المسيح .وهكذا يتقـــدم الى عروسه حاملا تمثاله الفنى الكامل ، والكمال غير موجود فى الحقيقة .

ويطبق صاحبنا فتاته على التمثال فلا تنطبق ..فهى بشر على كل حال لها أخطاؤها وهناتها .و بعد يوم أو يومين من العذاب المبرح الاليم يقرر أن يضغط التمثال قليلا ليسويه بفتاته . ولو كان التمثال مرنا لاطاع ، ولكنه للاسف هش كعود القش الجاف.. فلا يكاد يثنيه حتى ينكسر ويتهاوى بين يديه كأوراق الخريف الذابلة .

وهكذا فكل مثل أعلا يتعهده ويرعاه يتحطم .. وكل بقعة من الارض يضع عليها قدمه تتهاوى وتتزلزل . وحتى مثل المرأة الذى ظل يراوده أعواماً عشرة منذ تفتح قلبه للعالم الجنسى..هذا الحلم الجميل المنمق أصبح كابوسا ثقيلا يخمد أنفاسه . انه كان شقياً تعسا قبل أن يتزوج.. كان العالم كله يسخر منه ولا يقدره ويفهمه . كانت الاقدار كلها تتأامر ضده ، وكان يرجو أن يجد شريكته التى تقدره وتفهمه فيخلقان معا عشهما الذى يأويان اليه بعيدا عن العالم،ولكن اذا بالمرأة التى علق عليها كل هذه الآمال تنضم الى زمرة العالم الخارجى . هى ظاهرة أخرى من ظواهر الحياة الواقعية التى يخافها ويتباعد عنها . ألا ما أشقى الحياة ..!

ولكن المسكين لا يعلم أن زوجته عادية جدا وأنه هو المخلوق الشاذ ..، وكما صدمته الحياة بكافة مرافقها ونواحيها لانه تقدم اليها مسلحاً بأمانى وأوهام تذروها الرياح . . هكذا صدمه الزواج لان « فستان الفرح » الذى فصله لزوجته كان رداءا واسعاً فضفاضا طوله عشرة أقدام وعرضه خمسة . . وأية سيدة يمكنها أن تملأه ؟

ليس الذنب ذنب زوجته . . لا ولن أستطيع أن اقول انه ذنبه هو ، ولكن لنقل انه ذنب أبيه . . أبيه الذى علمه كيف ينكمش ويفر ويعدو الى حجرته هاربا . . أبيه الذى علمه معنى الخجل ، والانزواء ، والشعور بالضعة والهوان . ان هناك وفى قرارة نفوسنا نحن الآباء والامهات . . ترقد روح ادوارد باريت . وتعاليم ادوارد باريت .. التعاليم القائمة على نظام العبيد الذى يتبع أهواء السيد ، النظام الذى تديره الرأس الجامدة الصلبة وتطيعه الاذناب وهى مغمضة العينين لاتملك نقضا ولا ابراما .

أثر الخوف على التغذية : من مظاهر الخوف حالة القىء وهى من صعوبات التغذية التى نواجهها كثيرا فى منازلنا الدكتاتورية . ولعل تجربة « كانون » توضح هذه العلاقة الى حد ليس بقليل . فقد تابع كانون بطريقة التصوير بالأشعة عملية الهضم المنتظمة عند القط . ثم أحضر أمامه كلبا شرساً أو قع فى نفسه الرعب والهلع فلاحظ أن عملية الهضم قد توقفت فجأة عدا حدوث تغيرات عضوية أخرى . فاذا كان الجهاز الهضمى يتوقف كلية عند حدوث انفعال الخوف العنيف فهل من العجيب أن تضمحل القدرة على استبقاء الطعام فى المعدة فيقذفه الطفل من جوفه دون ارادة على اثر مشهد رهيب يجبر فيه على أن يتناول كميه معينة أو لونا خاصا من الطعام ؟

ان الواحد منا نحن الكبار قد يجد نفسه يوما فى موعد الطعام ضعيف الشهية وأن من الافضل أن يؤجل الوجبة نصف ساعة يقبل بعدها عليه فى نشاط . كما قد يحدث ألا يستسيغ صنفا من الاصناف قد تكرر عرضه خلال الاسابيع

الاخيرة فيود لو استعاض عنه بصنف آخر . أو قد يمل الانسان طعام الافطار فى المنزل فيفضل أن يسير على قدميه فى نزهة صباحية جميلة يصل بعدها الى مطعم أو « كازينو » هادىء على شاطىء النهر فيطلب طعاماً بسيطا يتناوله بكل شهية وسرور . أما الطفل المسكين فيجب ألا يخرج عن النظام الآلى الاصم ، فالطعام له مواعيد يجب ان تقدس مهما كانت الحالة ، والالوان التى تقدم هى اصح وأفيد ما يمكن فيجب ألا يرفض الطفل أحدها مهما تكرر أو يقترح تحويرا .. اما اذا طلب المسكين ان يؤتى له بالطعام فى الشرفة حيث المنظر أكثر بهجة ورواء ، أو لو طلب أن يأكل على مائدته الصغيرة الملونة على سبيل التغيير ، فتلك هى الطامة الكبرى ، فالطعام « نعمة » مقدسة ويجب ان يتناول « بالشكر والاحترام » وفى المكان المخصص له والا « منعه الله عنا » اذا تلاعبنا به أو تمنعنا قليلا . . !

لعل من الواضح ان التغذية يجب ان تتهيأ فى جو من السرور والهدوء . وهذا بالضبط هو ما يدفعنا الى نصح الكبار ألا يفكروا باستغراق أو يقرأوا باهتمام أثناء الطعام ، ونصح الطالب ألا يستذكر بعده بقليل ، فاللون الانفعالى هام جدا أثناء هذه العملية وبعدها ريثما يتم الهضم . ولعلنا نقدر بعد هذا مدى الخطأ الذى نقع فيه بحسن نية اذ نأمر اطفالنا وهم مستغرقون فى العابهم الحبيبة بترك اللعب الى غرفة المائدة ، فنحن نعتبر التغذية العامل الاساسى لإسعاد الطفل . اى لون انفعالى ذلك الذى يفرض نفسه على الطفل وهو يجلس ليتناول طعامه وقد ترك فى الغرفة الأخرى كل ما يشتهى فى اللحظة الحاضرة . . ؟ علينا ان ننبه الطفل فى هدوء اذا رأيناه منصرفا بكليته الى شىء معين الى ان الطعام سيكون معداً بعد دقائق فعليه ان يستعد لترك ما يشغله عندما نناديه .

أثره على الجهاز البولى : يضاف الى أعراض الخوف أيضا حالة التبول

اللاارادى . ولعل تفرغ المثانة هو من مصاحبات الخوف حتى بالنسبة لنا نحن الكبار . فالجنود معرضون لهذا عند بدء نزولهم الى ميادين القتال أو

بعد تعرضهم لمحنة شديدة من الخوف . وبنفس الطريقة كثيرا ما يحدث فى المنازل التى لا نعترف بالطفل ويتسلط فيها الخوف من العقوبات التى يفرضها الوالد أن يحلم الطفل أحلاما مزعجة - يتخللها الكلام أو صرير الاسنان - عن الشياطين والمردة .. أو عن قاطرات وآلات تدهسه وتهشم أعضاءه .. أو ثعابين أو كلاب تنقض عليـــه . والاحلام ظاهرة من ظواهر الكبت ، اذ تدفن نوبات الخوف النهارية الناتجة من نظامنا المستبد وعقوباتنا الجائرة فى اللاشعور ، ثم تظهر فى الليل فى صورة عنيفة . ويهب الطفل جازعا متصبب العرق ، فاذا به قد بلل ثيابه وفراشه . وفى الوقت الذى كان يمكن أن نتغلب على هذه الحالة بأن نهيء للطفل الامن والاستقرار اللذين يفتقدهما .. ونكون نحن الاباء بمثابة مرشدين واخوة كبارا يتبادل الطفل واياهم العطف والتقدير فيفتح صدره لنا ويسر بمخاوفه وآلامه حتى نعمل على ازالتها بتكرار التفاهم فى شأنها فى ضوء عادى فلا ترسب فى اللاشعور .فى الوقت الذى كنا نستطيع ان نكسب هذا الطفل الى حظيرة المجتمع الصالح ونتخلص من هذه العادة المرذولة بيث الثقة فى النفس .. اذ بنا كما يحدث دائما فى مثل هذه المنازل ننحى عليه باللائمة ونعرض به فى تهكم أمام الضيوف قائلين انه « عيل وشخاخ .. » !

انا نعتمد فى علاج مثل هذة الحالة - بعد الانتهاء من المثيرات الخارجية - على الطفل نفسه أولا واخيرا . فاذا انتهينا من توفير النواحى الصحية والجسمانية .. كالتحقق من سلامة الكلى و الجهاز البولى وعضلات المثانة ، واذا اتبعنا نظاما ثابتا للمأكولات التى يتناولهـــا الطفل فى العشاء بحيث لا تزيد ادرار البول ، ولجأنا الى ايقاظه قبل منتصف الليل بقليل لتفريغ المثانة - ويمكن تحديد هذه اللحظة بالضبط اذا تناوبنا السهر على الطفل حتى نتثبت من اللحظة التى يبول فيها على الفراش — اقول اذا انتهينا من المؤثرات الصحية والجسمانية وساعدتنا البيئة على توفير الامن للطفل فلا يبقى أمامنا سوى هذا الأخير وعليه وحده

يعتمد العلاج.. علينا أن نفهمه ان هذه الحالة حالته هو شخصيا ولا يمكن ان يساعده احد منا على التخلص منها ، وهو بما له من قوة العزيمة والارادة يستطيع ان يتحرر منها كجميع زملائه . وهكذا نستطيع ان ندرك مدى الخطر الذى يصحب النظام القاسى فى منازلنا اذ يقضى على شخصية الطفل وشعوره بالمسئولية فيكون ذلك نقطة الخطر التى تنهار عندها طريقتنا فى العلاج

الخوف من الحسى : ان تكرار استثارة الخوف عمل ضار حقا . فكم منا يستخدمه كحقن مستمرة وسط تحذيرات دائمة وهو يظن انه بهذا يضمن للطفل سلوكا متفقا مع المجتمع ، فمعظم النواهى تنتهى بتهديدات مبالغ فيها وليس من النادر أن تسمع جملا مثل « اوعى تطلع لسانك تانى.. مرة ولد عمل كده وماقدرش يدخل لسانه وفضل لا يتكلم ولا ياكل .. » أو « اوعى تضرب القطة لحسن ربنا يحرقك بالنار » أو « ما تطلعش فى الشارع لحسن الكلب ياكلك » وهكذا . وقد تؤتى هذه التهديدات ثمارها فى الظاهر فلايخرج الطفل لسانه أمامنا ويبعد الاذى عن القطة ونضمن عدم خروج الطفل من المنزل فى اللحظة الحاضرة ، ولكنها تترك فى حياته العقلية ندوبا غائرة .. وانه لخير ألف مرة أن يتدلى لسان الطفل من فمه عشرات المرات فى اليوم أو تسام القطة العذاب من أن يقف الطفل عاجلا أو آجلا على مبالغة هذه التحذيرات وبعدها عن الحقيقة فتضيع ثقته بوالديه وبالتالى تنهار ثقته بالبيئة كلها . أو قد يتأثر الطفل بالخوف حقاً فيصبح جزء من شخصيته كما رأينا فى حالة جورج باريت .

والعجيب أن « القطرة » التى نحب أن يقبل الطفل على استعمالها كلما ألم به عارض بسيط فى العينين .. والشرطى الذى يعتمدون عليه كثيرا فى البلاد الأوروبية فى سلامة أطفالهم أثناء ذهابهم أو عودتهم من الرياض ، فيوقف حركة المرور الشديدة ليعبر بالاطفال الشارع حاملا بعضهم على كتفيه وهم يضحكون ويجذبون ملابسه وخوذته .. والله الذى نود أن تكون لدى طفلنا

من ناحيته علاقات طيبة وشعور بالشكر للمكافآت والعناية ، اذا بكل هذا ينقلب خلال تخويفاتنا الحمقاء التى نسارع الى ازجائها فى مائه مناسبة ومناسبة كل يوم الى مصادر للفزع والاجتناب . فاذا جاءت اللحظات التى نود فيها أن يستعمل الطفل « القطرة » أو « الدواء » ، أو يسأل « الشرطى » عن شارع معين ، أو يذهب معنا الى عيادة « الطبيب » للكشف على أسنانه ، أو يصلى الى « الله » طالبا منه المعونة والحماية ومقدما الشكر والعرفان . . اذا جاءت هذه اللحظات وانكمش الطفل كما هو منتظر انهلنا عليه باللوم والتقريع وعاقبناه بقسوة ، وهكذا ندور فى حلقة مفرغة نبدأها مخطئين وننهيها متعسفين

ينبغى أن يكون الامر على العكس من هذا تماماً . فاذا كان طفلنا يخاف شيئا حسيا كحيوان معين أو انسان يشغل وظيفة معينة كالفحام أو عامل المجارى الذى « يصعد من بطن الارض » أو الشرطى نتيجة لتخويف من الخارج أو تجربة قاسية فلنجعل الطفل يألف بالتدريج ، وبدون أى انفعال أو اهتمام وقلق ، ما يخيفه . وأعرف طفلا فى الرابعة تركه والداه نائماً فى المساء ثم خرجا لعيادة الطبيب ، وبينما هما عائدان تذكرا أنهما نسيا مفتاح الباب فى المنزل . ودق الوالدان الجرس طويلا فهب الطفل من نومه جازعا فى الظلام وصاح ينادى والدته ، فأجابه صوتها برقة من الخارج يدعوه ليفتح الباب . وذعر الطفل وانتابه خوف شديد . وعبثا حاول والداه فى صوت هادىء أن يعطياه تعليمات بشأن فتح الباب اذ بينما كان يحضر كرسياً ليقف عليه سقط ، فهو فضلا عن صغر سنه كان مضطرب الحركات ولعله لم يفهم كيف ترك والديه فى المنزل وذهب لينام ثم اذا بهما فى الخارج وقد عجزا عن الدخول . . ! وبين بكاء الام وصراخ الأب الذى نفد صبره مر الطفل المسكين فى تجربة من الخوف قاسية . وظل الحال كذلك حتى احضر اصحاب المنزل مفتاحاً فتحوا به الباب .

وانتاب الطفل بعد هذا خوف من كل ما له صلة بالأبواب . المفاتيح .

دق الجرس . . وعلى الاخص الابواب المغلقة ! وقد نحسن صنعاً لو تذكرنا أن مثل هذه المخوفات وإن كانت تبدو أمامنا سخيفة حمقاء الا أنها بالنسبة للطفل حية مجسمة ، ولذا ينبغى ألا نهزأ بها بل ندعه يتكلم عنها وعن الموقف حتى لا يدفن فى اللاشعور فيشب الفرد وهو يحمل بين جنبيه مصادر الخوف من أشياء بسيطة ضعيفة الحول تجعل منه أضحوكة أمام الآخرين . فالخوف من « الصراصير » و « الابراص » «والفيران» شائع جدا بيننا نحن الكبار ، مع أن الواحد منا يعلم تماما أن الصرصور حشرة ضعيفة جدا قديركها بقدمه فتتمزق أوصالها ولكنه لا يفعل. واذا كان التاريخ يحدثنا عن قواد جبابرة خاضوا غمار الحروب بين قصف المدافع وصليل السيوف فلم تختلج عضلة واحدة فى وجوههم ،ولكنهم يفتشون خيامهم قبل النوم ليتاكدوا من عدم وجود فأر أو قطة سوداء..!واذا كانت الحربان الاخيرتان قد أنهتا إلينا أنباء جنود وضباط شجعان نالوا أوسمة الشرف لإقدامهم ومجابهتهم الموت،ثم اذا بهم يصابون بهلع شديد عند دخولهم مكانا مغلقا كما لو انهار مدخل الخندق أو المخبأ الذى يحتمون فيه وهى مواقف عادية جدا بالنسبة للملايين من الجنود العاديين الذين لم يبرزوا كثيرا فى المعارك ..! أقول اذا كان التاريخ يحدثنا عن هذا وذاك فليس هناك تفسير لهذه الظواهر الغامضة سوى ما تعاقب على الفرد وهو صغير من مواقف مخيفة هزأ بها الكبار لسخفها فرسبت فى اللاشعور.. كحالة الطفل الذى نحن بصدده والذى استيقظ على صوت والديه يدقان الجرس والباب مغلق بينهما وبينه .

وقد دأب الوالدان بعد هذا على اصلاح طريقتهما بعد التعليمات التى قدمت لهما فحاولا ان يجعلا الطفل يألف ما أمكن هذا الموقف فيتفق معه الوالد مثلا على أن يلعبا « الاستغماية » فيختبىء أحدهما فى الغرفة ويغطى الآخر عينيه حتى اذا مضى بعض الوقت قام ليبحث عن زميله . ويتعمد الوالد مثلا أن

يغلق باب الحجرة التى سيختفى فيها فاذا تساءل الطفل فى فزع عن السبب سارع الوالد الى القول بلهجة طبيعية «مش نقفل الباب عشـــان ما تشوفنيش وأنا باستخبى ..؟ تقدر تخليك مفتح عينيك عشان تتسلى فى البلكون لغاية ما أقول لك خلاص». ويفتح الطفل الباب بعد ذلك ليبحث عن والده فينفتح بسهولة. وبالتدريج أمكن ان يدخل الوالد فى اللعبة ظروفا متعددة حتى يقربها من الحالة المفزعة الأولى كأن ياخذ معه جرسا يدويا صغيرا فى الغرفة الأخرى حتى اذا دقه علم الولد ان والده قد استعد.

وتستخدم طريقة «التفريغ الانفعالى» هـــذه بنجاح لعلاج الامراض العصبية التى خلفتها الحرب الأخيرة بغاراتها وأهوالها المفزعة . وهناك عدد ليس بقليل من سكان أوروبا لا يسمعون صوت بوق سيارة أو فرقعة اطار أو أزيز طائرة حتى يصابوا بأبلغ مظاهر الفزع فتتأخر صحتهم ويتعطل انتاجهم مدة طويلة .وقد هبت الحكومات لمعالجة هذا الخطر الماثل بطريقة منظمة ، فلقد طالعتنا الأنباء بان المستشفيات قد انتشرت فى أنحاء انجلترا لتضم مثل هذه الحالات ثم تعمل تجارب منظمة تصطنع فيها مواقف مفزعة كتلك التى حدثت فى الحرب بالاشتراك مع سلاح الطيران والمدفعية بصورة ضئيلة عديمة الضرر ، حتى اذا عانى المريض مظاهر الخوف الهستيريه نتيجة للدوى و «القنابل» بدأ العلاج بالتقدم لهذه الظواهر بالتدريج والتثبت من قلة ضررها مع الاشارة الى انتهاء حالة الحرب

الخوف من المعنوى : هناك خوف من أشياء معنوية كالخوف من الظلام

مثلا وهو نتيجة لقلة خبرات الطفل مع تلون حياته بلون خيالى ، اذ سرعان ما ينسج خياله أشياء غير صحيحة يخافها كما يخاف الاشياء الحسية. وهنا يجب أن نتسامح مع هذه الخبرة أكثر من أى شىء آخر، فالطفل معذور كل العذر، وعلينا عن طريق الدعوة للتقليد والاصطدام المباشر بالحقائق أن نؤكد للطفل أن أوهامه غير صحيحة وأن ظنه فى غير محله كأن ندخل نحن الغرف المظلمة ثم

فدعوه لمصاحبتنا بصوت عادى ودون اهتمام أو ضغط فاذا أبدى تمنعا تركناه لفرصة أخرى . أو قد نضىء النور فى غرفة نومه أثناء تعبيره عن الخوف فيكتشف الطفل أن هذا « العفريت » الطويل الرفيع جداً ليس الا « الزعافة » التى تستعمل لتنظيف السقف . ولكن لنحذر أن نبقى النور مضاء ليلا فى غرفة النوم أو نستجيب لما يرغب بحيث يخصص له من ينام الى جواره ، فهذا بمثابة تأكيد منا بأن هناك مايخيف . قد نحتاج إلى اضاءة النور بعض الوقت فى أول الأمر ثم نخففه بالتدريج . هذا مع اتباع الطرق التى سبق ذكرها من تسهيل أمر النوم حتى لا يصاب الطفل بالأرق أو الأحلام المزعجة ، وذلك بعلاج ما قد يكون هناك من لوز أو زوائد أنفية ، وعدم تخويفه أثناء النهار بالشرطة و « الشطة » والكلاب ، أو العقوبات القاسية . كما يجب ألا نرسله للنوم وفى أذنيه تتردد قصص خرافية مزعجة عن الغيلان والمردة والوحوش الغامضة .

ومن أمثلة الخوف من أشياء معنوية الخوف من الموت على أثر قصة حمقاء عن شخص دفن حيا أو تعذب ، أو على أثر خبرة ملونة بلون انفعالى عنيف إذ يفقد الطفل شخصاً عزيزا كالأب أو الأم أو يرى منظرا قد يستغلق عليه فهمه ويربطه بالموت . وقد حدث أن ذعر طفل ذعراً شديدا لدى رؤيته دجاجة ترقد على البيض تقوم من رقدتها وتنقر بيضة فيبدو من تحتها رأس الكتكوت مغمض العينين وشبه ميت . وأغلب الظن أن الطفل قد خشى أن يمر فى نفس هذه المحنة فيتعرض للموت على يد والدته أو شخص من العائلة . ولكنى استطعت أن أفهمه عن طريق الخبرة الحسية أن الدجاجة لم تقتل الكتكوت مطلقاً بل انها على العكس كانت تساعده على الخروج من البيضة إلى الحياة

ولعل هذه النقطة الأخيرة .. تربية الحيوانات والطيور .. تهيء لنا مفتاحا جميلا لعلاج خطر خوف الطفل من الموت . والأطفال جميعا مغرمون بتربية الأرانب والكلاب والعصافير والدجاج . فلنتم عندهم هذا الميل ما أمكن .

وفى كل مرة يملك الطفل عصفورا يحبه ويطعمه ثم يموت.. قطة تشب فى المنزل ثم تمرض وتموت.. كتكوتا يفقس ضعيفا فلا يكاد يخطر قليلا حتى يموت.. يتقدم الطفل لظاهرة الموت فى ضوء طبيعى هادىء بعيد عن مظاهر الانفعال التى يفاجأ بها وتقلب حياته العقلية رأساً على عقب اذا حدثت فى حالة الانسان وخاصة اذا كان شخصاً عزيزا

أثر الخوف على السلوك : الخوف يورث الطفل هما وكآبة مقيمين، ويشعره بعدم استقرار البيئة، وهو ما نعنيه بالأمن. وليس من النادر والحالة هذه أن يلجأ الصغير الى سلوك انسحابى مستسلم كالاغراق فى أحلام اليقظة والنزوع للوحدة واشتقاق بعض اللذة من أعضاء جسمه. وهكذا تنشأ عادة مص الأصابع والعادة السرية.. أو قد يهمهم الطفل لنفسه فى صوت خافت أو يتسلى بهز نصف جسمه الأعلى فى حركات منتظمة تتطور فى الكبر الى هز السيقان أو حركات النقر بأصابع اليدين أو طقطقة الاصابع أو الرقبة وهى حركات شائعة بين الكبار.

أوقد يحدث العكس تماماً فتخرج منازلنا القاسية المستبدة أطفالا ينحون إلى الاعتداء. فالكذب والسرقة والتخريب والاعتداء كلها نتائج ليست بغريبة إذا كانت البيئة تشيع القلق فى نفس الطفل ولا تهىء له الاستقرار والأمن.

وقد تناولنا فى مناسبات سابقة بعض مظاهر السلوك الانسحابى أثناء علاجنا لمص الأصابع والعادة السرية وأحلام اليقظة وسنتهز الفرصة هنا للاشارة الى تلك التى تصحب السلوك الاعتدائى :

الكذب : لا يظن القارىء الكريم أن نظام الخوف يؤتى ثماره حقا فاذا عدنا إلى التمثيلية التى كنا بصددها وجدنا إدوارد باريت الأب يصرح لبيلا إحدى قريباته وقد جاءت تزورهم مدة أسبوع بأنه قد استطاع أن يكبح شهواته بارادة من حديد، وأن لا شىء هناك يدعى « الحب » بل هو « شهوة

اخرى من شهوات البدن الدنيئة ، وأنه قد تمكن بحمد الله من أن يشفى منها أطفاله ، ومع ذلك فلا يمضى على بيلا أكثر من يومين حتى تكتشف أن المنزل « يموج بالمغامرات » فهنريبتا تقابل حبيبها الكابتن كوك وهو ضابط فى حرس الملكة فكتوريا ، و « أوكى » الصغير يطاردها هى الغرام . وحتى اليزابيث ، هذه الفتاة المريضة الضعيفة ، تقابل شاعراً شابا يفيض بالحيوية المتفجرة يستطيع بحبه العميق وتعبيراته الملتهبة الدافقة أن يبث فيها الرغبة للحياة فتنفض عنها شحوب المرض لترتد فتاة مرحة صحيحة تتلهف للحياة . كل هذا والوالد يشكر الله إذ استطاع أن يجنب أذهان أطفاله هذه الخزعبلات التى تدعى الحب . . ! .

ولكن الكذب كمص الأصابع لا يصل إلى هذه الدرجة الحادة إلا إذا كانت السلطة باطشة كما هو الحال فى البيئة القاسية وبمعنى آخر إذا أسيء تناوله بفضل المستويات الخاطئة التى نضعها فى مجتمعنا الكبير ، إذ سرعان ما نتكرم بتعليقاتنا الجميلة « كذاب ! » بلاش « كذب ! » وهكذا ، لمجرد أن نسمع طفلا صغيرا يقص قصصا خيالية عجيبة وهو يؤكد أنها حقيقية . وقد سقت للقراء مثلا من هذا النوع لطفلة قصت حكاية طويلة جذابة عن عصفور ملون حملها على جناحيه ومر بها بين الكواكب والنجوم .

ولكنك مع هذا تقرأ قصيدة « الملاح التائه » لكولريدج الانجليزى حيث يضف عوالم غريبة تأسرك وتخلب لبك دون أن تحط من قدرها لبعدها عن الحقيقة . الواقع أن هذا النوع من « الكذب » فى الأطفال الصغار ، مضافا اليه الميل القوى للتأليف والانتاج الأدبى والشعرى فى مرحلة المراهقة ، هما أساس الكتابة الشعرية والقصصية عند الكبر .

والواقع أن الطفل الصغير له قدرة كبيرة على التخيل فسرعان ما تطغى هذه على الحقيقة . وإذن فيمكننا أن نعتبر مثل هذه القصص أو الاقوال نوعا من اللعب نشاركه فيه بعض الشيء . ويمكننا أيضا أن نسلم له بانه

يستطيع أن يؤلف قصة مسلية جذابة أمتعتنا ، ولو أننا لم نفكر لحظة واحدة فى تصديقها .

ويقرب من هذا إلى حد كبير اختلاط الامر على الطفل العادى فيحلم حلما فاذا استيقظ قص الحلم كأنه حقيقة واقعة لا احتمال للشك فى امرها . هنا ينبغى أن نتسامح أيضا فما دامت البيئة عاقلة فسرعان ما يزول هذان النوعان بمجرد تثبت الطفل من عالم الحقيقة وتحدد قوة التخيل الكبيرة بقيود الواقع .

فاذا كبر الطفل واستمر يكذب أضحت المسألة باعثة على العناية والاهتمام ، وفى الغالب نجد الخوف والشعور بالقلق وعدم الاعتراف بالطفل هى السبب ، فالطفل الذى يعتمد على المبالغة والفشر — ويشاركه فى هذا الكثير من الكبار بصورة مخزية — ينسب لنفسه تصرفات وانتصارات كثيرة نحن نوقن أنها لم تتوفر لديه . هذا الطفل فى حاجة إلى علاج ينصب على البيئة . . فى حاجة للعطف والتقدير وإعادة اعتبار الذات التى فقدها عن طريق القسوة الجائرة والتعييرات المستمرة . وقد نحسن صنعا لو لم نطلب منه أكثر مما تمكنه قدرته من أن يحقق ، فلا نزج به فى المدارس فى الوقت الذى لا يستطيع صحيا أو عقليا أن يساير من حوله ، أو ندعه بين أولاد يفوقونه جسمانيا أو ماليا فيشعر إزاء كل هذا بالنقص ويحاول أن يعوض فى المبالغة والكذب ما يرى فيه نفسه متراجعا فى الحقيقة .

وقد يصل تعسف البيئة وجورها حداً يجعل الطفل يتحداها ويضرب بقوانينها عرض الحائط . وفى موقف عاصف رهيب يعرض لنا مؤلف التمثيلية كيف ينتزع الوالد سر هنريتا من بين شفتيها وهو يضغط معصميها بقسوة فتقر انها تحب الكابتن كوك . وهنا يجعلها تقسم ويدها على الانجيل انها لن تقابل او تتصل او تحاول ان تسمع شيئا عن هذا الضابط . ويهددها بأنه لو شك فى انها حنثت بقسمها فسيلقيها الى الخارج « عارية . . تماماً كما تسلمها

من الشيطان الذى يسكن جسدها » ..!

وتحنث الفتاة بقسمها مرة ومرات ويدارى عليها الجميع . ويقابلها أبوها يوما وهى خارجة تقابل حبيبها فيسألها « هل تذكرين القسم الذى اقسمتيه ؟ » فتجيب دون ان تطرف « نعم » !.

ويسمى مورجان الكذب الأخير « الكذب الوقائى » وهو ناتج عن شعور هنريتا بجور العقاب ومايتهددها من متاعب إذا ضبطت ، كما ينتج ايضا عن تأكدها بأن الصراحة لن تجدى فى تخفيف العقاب . وقريب من هذا إلى حد كبير كذب افراد العائلة وهم يتسترون عليها ويدعى « الكذب الوفائى » . ومن امثلته ما يحدث فى المدارس وعلى الأخص فى المرحلة الثانوية إذ يتهم أحد الطلبة باتيانه جرما فيدلى باعتراف كاذب بأنه حقاً قد اتاه بينما هو يعلم يقيناً ان فلانا هو المذنب . وفى الوقت الذى كان يجب أن تكون السلطة المدرسية أو المنزلية بمثابة قائد او مرشد يشعر ويشترك فى مشاكل الطفل التى يعرضها هذا دون دعوة او ترقب ظاهرين إذا بنا ننصب عصينا ومشانقنا فى كل مكان ونستدعى اطفالنا حتى من النوم لنكمل تحقيق الأمس ونحن نظن اننا نحصل على الحقيقة بينما يمرح الشر وراء الستار . ان مما يسر الصغار أن يتفننوا فى الكذب و « يستغفلوا » هذا الكابوس الكريه فيبدون فى ثوب البطولة فى نظر أنفسهم وزملائهم ، ويسمى هذا « الكذب العنادى »

ولكن على عكس مارأينا فى الكذب الوفائى حيث يتماسك الصغار لدرء الخطر عن احدهم قد يحدث ان يلقى أحد الأطفال تبعة الذنب - كذباً - على زميل له صغير لم يفعل شيئاً . ويحدث هذا كثيراً إذا أقمنا « محاكمنا » الرهيبة فى منازلنا فاذا دعى الطفل « الكذوب » للادلاء بما يعرف فسرعان ماتسنح له فرصة الانتقام . إنا نرتكب هنا خطأ مضاعفاً ، فنحن إذ نشجع الكذب بقسوتنا لانقتصر على هذا وإنما نفرق بين الصغار ونجعل منهم أعداء فنعطل الصفات الاجتماعية السامية التى هى عماد المجتمع السليم .. صفات التعاون

والتضحية بالذات والوفاء . ويخطىء المشرف فى المدارس الثانوية كل الخطأ لو حاول ان يصل فى تحقيقه الى الحقيقة عن طريق الدس بين الطلبة ومصادقة بعضهم واعطائهم بعض الامتيازات لينموا ويكونوا عيونا له ضد زملائهم . ولقد سمعت يوماً احدهم يلقى هذا التنبيه على طلبة القسم الداخلى « ان استحضار الطعام المحفوظ والاحتفاظ به فى الدواليب ممنوع . ولا يظن احد منكم اذا هرب به خفية من فوق السور ان الأمر سيجوز على ، فبينكم من الزملاء المخلصين من هم اعوانى وسيكونون رقباء عليكم فى عنابر النوم .. فى دورة المياه .. فى الحديقة .. بل وحتى وأنت نائم داخل « ناموسيتك » لاتظن انك وحيد » . . !

ألا سحقاً للطعام المحفوظ إذا كان منعه سيتحقق على حساب هناء ذلك المجتمع الصغير ..! لقد تفرق هؤلاء الطلبة وكل منهم يحمل بين جنبيه خوفا دفينا . ترى من يكون هؤلاء الجواسيس «المخلصون» ؟ لابد انهم بعض الطلبة الكبار، ففى إمكانهم أن يتلاعبوا بالآخرين بفضل قوتهم وجاذبيتهم فيكونوا موضع الاسرار ثم يسرعوا بها للمشرف . ولكن لا ..! لابد انه يعتمد على التلاميذ الصغار الذين يبدون فى ثوب من البراءة والسذاجة فيندسون بين الجماعات دون أن يثيروا الريبة فيعلموا عن الزملاء مايودون أن يخفوا . أو لعله يعتمد على هؤلاء وأولئك .. بل من يدرى ؟ قد يكون صديقى الذى يلازمنى على الدوام وارتاح له كثيراً واحداً منهم . ليتنى ما ذكرت أمامه كذا وكذا فلابد ان هذه المعلومات لدى المشرف . يالله ! لقد أقبل الفراش فعلا . . أبهذه السرعة ؟ ولكن لا . . انه يقصد واحداً آخر . الحمد لله . . سأكون حذراً فلا اصادق مخلوقا أو أبوح بأسرارى لأى كان . سحقا لهذه المدرسة . . ! ان كل مكان فيها موبوء . . حتى فى الفراش كما قال المشرف يخيل إلى ان العينين تتبعانى وتهتكان سترى . . ! ومن يدرى ؟ ألا يجوز أن يدعى على القوم شيئا حتى يبدوا « مخلصين » يؤدون واجبهم ، وبالطبع سيصدقهم صاحبنا فهم موضع ثقته ؟

هذا هو المجتمع الذى سنخرج به من نظام التخويف هذا .. مجتمع ممزق الأوصال يشيع فيه الشك والعداء .. والوجوم والاعتزال . وسرعان مايعير الطلبة بعضهم بعضاً بأنهم «عيال» وجواسيس، فتتكرر الحوادث والاشتباكات والبلاغات الكاذبة ،ويزداد العبء على صديقنا المشرف الذى ظن أنه بنظام « الجستابو » يستطيع أن يضمن استتباب الطاعة والنظام .

من المهم إذن أن نقدم على مواقف التحقيق فى منازلنا أو مدارسنا بمنتهى الحذر ، فلا تكن معلوماتنا عن الحادث مقلقلة، ولايجب أن نعتمد على شهادات طفل كذوب فهذا سيترك له الفرصة ليلقى عبء الجرم على غيره ممن يكره ، ولنكن دائماً بالنسبة لأطفالنا أصدقاء كباراً يعتبروننا محل ثقتهم. فضلا عن أننا نحن نبدو كما لو كنا نثق بهم فلا نفترض دائماً الكذب بمجرد أن يتحدث الطفل فهذا يثير حفيظته . وقد سمعت يوماً طالباً صغير السن يقول لزميل له وهو يظن أنهما وحيدان « لايمكن أن تكذب على (فلان) افندى ..إن قلبك لا يطاوعك على الكذب ، فعيناه العليمتان بكل شىء تبـــدوان كما لو كانتا تصدقان كل حرف تنطق به تكيف تكذب ؟ ! »

وبعد .. فهل يتصور القارىء الكريم أن هناك نسبة هائلة منا تنقل الكذب إلى أطفالها عن طريق التقليد فكأننا نسمم حياتهم العقلية بأيدينا ؟ وشكراً لسيداتنا اللاتى تعتذر الواحدة منهن الى زائراتها عن سبب تغيبها عن رد الزيارة السابقة فتذكر قائمة بأمراض كانت تعانيها طيلة الاسبوع الماضى فلم تتمكن من ترك الفراش ، بينما الطفل يسمع ويعلم أنها قضت الأسبوع الماضى فى نزهات وحفلات ولم تمر عليها فترة كانت فيها أصح مما هى الآن ..! وشكرا لآبائنا الذين ينزوون فى حجراتهم ويكلفون الطفل بان ينهى إلى الضيوف الثقلاء أنهم غير موجودين ..! وكم مرة تصحب طفلك فى نزهة جميلة ثم يعجبك شىء فتشتريه ولكنك تخشى أن تذكر ثمنه الحقيقى لزوجتك فتتفق مع الصغير على ذكر ثمن مخالف وتنبهه الى أنه يجب ألا ينسى أو يخطىء وكأنما أنت تعلمه

أصول الكذب ..! بل كم مرة تفتح زجاجة دواء الصغير وتتناول جرعة منها كأنما لتشجعه وأنت تقول : « الله ! طعمه حلو خالص » . كل هذا وأنت تحاول أن تغتصب ابتسامة بينما وجهك ينطق بأبلغ معانى الاشمئزاز ..!

السرقة : هى مظهر آخر من مظاهر السلوك الاعتدائى يصحب البيئة القاسية الجائرة التى لاتشعر الطفل بالأمن . وكما قلنا عن الكذب فى أول عهده نرى معظم الأطفال يتعرضون لنوع معين من حب التملك فى مقتبل عمرهم لوعا لجناه بحكمة وتسامح لانتهى هذا الدور دون ان يخلف وراءه أثرا شاذا.

والواقع أن غريزة التملك هذه دافع فطرى موجود فى الأطفال كلهم وهى بالاضافة الى قلة خبرات الطفل فى أول عهده بالحياة وعدم وضوح فكرة الملكية عنده قد تدعوه لأن يفتح درجك فيتناول صورة ملونة أو ورقة من فئة العشرة جنيهات — ونسبة تقدير الطفل لكلتيهما واحدة — ويضيفها الى قائمة محتويات درجه هو . وينسى الحادث بعد هذا نسياناً تاماً . ويكتشف ضياع النقود دون أن يجدى البحث ، والوالدان لايسألان الطفل بطبيعة الحال . ثم إذا باحدهما يفتح درجه لسبب عادى بعد أيام فيجد ما كان ضائعاً فيصعق ..! وقد يعقب هذا فى منازلنا الجبارة موقف انفعالى عنيف يتناسب وقيمة الشىء الضائع والتعب أو الخسارة التى تسببت عن تعطل وجوده وقت أن كان مطلوباً . ولشدة دهشة الطفل يسمع كلاماً غامضاً مثل « حرامى ! بتسرق ! تروح السجن ! » وهكذا . وقد يكفى حادث مثل هذا وما قد يتبعه من عقوبات لتنبيه الطفل لنوع سافر من السرقة وهو شائع أيضا يقصد به الانتقام بينما بدأت المسألة عن طريق عدم فهم فكرة الملكية على الوجه الصحيح .

وكثيرا ما يحدث أن يزور الزوج والزوجة وطفلهما عائلة أخرى عندها أطفال . ثم يحين موعد انتهاء الزيارة وإذا بالطفل الضيف يصر على أخذ اللعبة التى كان يلعب بها هو وزملاؤه ولا غرو فقد أعجبته وسببت له سرورا

كبيرا. وبالطبع لا يستسيغ أطفال البيت هذا الاقتراح، ويستمر الجذب والارخاء فلا يتمالك الكبار أن يتدخلوا فى المسألة فيزيدوها تعقيدا . وهنا تسمع أقوالا عجيبة . يقول الضيوف « ايه اللى عاجبك فى الاتومبيل ده ؟ ما عندك واحد زيه وأكبر منه فى البيت » ولكن الطفل لا يجد مانعاً من اضافة أتومبيل آخر الى قائمة الالعاب التى لديه

كل هذا والوالد يشفق من افساد الزيارة والموقف كله بالضغط على الطفل. ولكن هذا يصر على الاحتفاظ برأيه ، خصوصاً وهو يسمع أصحاب البيت مثلا يقولون لأمـــه « يا اختى حرام ..يعنى ايه مش عيل.. يعنى هم الولاد بيلعبوا بيه ؟ وحياتك يا اختى اللعب كلها منشاله فى الدولاب ما يفكروش يطلعوها غير لما ييجى حد أدهم من بره » . وهكذا يتعقد الموقف بين عبارات التودد والانتهار . . يتخللها صراخ الاطفال وبكاؤهم ، حتى يقرر الوالدان أن يضعا حداً للموقف وأمرهما الى الله فينتزعا اللعبة من الطفل ويجراه معولا باكيا على السلم تشيعهما عبارات الاحتجاج من المضيفين لهذه «القسوة التى لا مبرر لها » فأيه نهاية هذه للزيارة ؟

لعل مما يفيدنا ويخطو بنا فى الطريق الصحيح أن نتنازل لحظة عن كبريائنا الذى يملى علينا أن ننعت مثل هذه الاعمال بالسرقة، والميل للاعتداء، وبوادر الاجرام ، وغير هذا من الاوصاف التى نسارع دائماً الى القائها بمناسبة وغير مناسبة..الأوصاف التى اخترعها مجتمعنا الكبير وألصقها بانواع من السلوك الشاذ الملتوى بينما الطفل لا يفهم لها حتى هذه اللحظة اى معنى . متى نقدر ان مشاكل الاطفال لا تنشا من طبيعة الطفل « الشريرة » كما يشاء البعض منا ان يعتقد..متى نقلع عن ان ننظر للعمل كشىء منفصل قائم بذاته لا تحركه دوافع من وراء الستار ،وان نلصق به من المعانى والتعبيرات ما يحيطه بجو من الرهبة والجزع .. ؟

إن هذه الحالة التى عرضناها الآن ، تعنى بكل بساطة أننا قد أخطأنا فى

تقديم الطفل لفكرة الملكية على أساس صحيح . هناك ما هو ملكى ، وهناك أيضا ما هو ملكك .هناك حقى الذى لى ، وهناك أيضا واجبى إزاءك.. واجبى هو أن أحترم ملكيتك وحقوقك . والطفل الذى نحن بصدده الآن ينحصر خطؤه فى أنه فهم الشطر الأول وأغرق فى فهمه ، بينما نسى الشطر الثانى وأغرق أيضا فى نسيانه. الطفل يفهم أن هذه اللعبة ملكه فلا يريد أن يتخلى عنها لمخلوق ، ولكنه لا يفهم أن اللعبة الأخرى لعبة زميله وبالطبع لا يحب أن يتخلى عنها لشخص آخر . وإذن فيجب أن نقدمه لفكرة الحق والواجب على أساس صحيح ، ونقدمه لها بالترتيب الذى يفهمه الطفل ، الخطأ عندنا هو أننا ننتظر من الطفل أن يعترف بالواجب الذى عليه ازاءنا وازاء زملائه قبل أن يتثبت من حقه

كيف نحقق إذن هذا الشطر الأخير ؟ أمامنا فرص كثيرة . .هناك أشياء عديدة تتكرر على الطفل كل يوم ويمكن أن يشعر أنها تخصه ، أنواع الأكل التى يفضلها ، أوانى الطعام وأدواته الصغيرة ، الكوب الملون الذى يشرب فيه ، بل وغرفته الخاصة وهى أهم من أى شىء آخر ، بما تحتويه من فراش ومنضدة ودولاب، والأخير بما تحتويه من ملابس وأدراج يحفظ فيها لعبه، كل هذه تشعر الطفل أنه شخصية مستقلة لها حقها وملكيتها ، وما دام نفس الشىء يحدث مع أطفالك ، فكل منهم له أدواته ودرجه الخاص ، وما دمت لا تعتدى بأى حال من الاحوال على ملكية أى طفل بدون استئذان ، إذن فتأكد أن الاطفال بدورهم ، بعد أن ترسب فكرة الحق فى ذهن كل منهم، سوف يقدرون فكرة الواجب نفس التقدير ، ويحلونها من انفسهم نفس الاعتبار . يستطيع الطفل أن يقبل كلامك عند ما تقول « الساعة دى بتاعتى وما احبش انك تلعب بيها من غير ما تقول لى ، إذا حبيت تسمعها ابقى انده لى وانا اسمعهالك فى ودنك وهى فى ايدى » .نعم يستطيع الطفل ان يقبل هذا برضاء وهدوء لأنك انت بدورك لا تقترب من ساعته الصغيرة « اللعبة »

الا اذا طلب هو منك أن تلبسها إياه . يستطيع الطفل ان يدخل إلى حجرتك فيرى كتابك المفتوح عند الصفحة التى وصلت اليها ، وبجانبه نظارتك الثمينة التى لا تستطيع ان تقرأ بدونها ، ويمر على كل هذا بهدوء ، فلا يمس احدهما او يفسد نظامه ، لانه تعلم بينه و بين نفسه انهما كتابك ونظارتك ، وقد تعلم ان يقدس فكرة الملكية مادام الآخرون يقدسونها بالنسبة اليه

اما ان توزع الحلوى على الاطفال ثم يعن لك ان تغير الوضع فتأخذ قطعة من واحد لتضيفها لنصيب آخر ، اما ان ياتيك زوار فلا تمانع فى ان ياخذ طفلهم احدى لعب طفلك اعتمادا على انه كان قد تركها مدة طويلة ، اما ان يتراءى لك ان تمزح وتتلاعب بشعور الطفل فتشرب من كوبه الصغير الملون او تتظاهر بتعليق بذلتك على شماعته الدقيقة وتضحك من الموقف الناشىء عن هذا او غيره ، مع ما يستثيره ذلك فى نفس الطفل من احاسيس لا يستطيع ان يفسرها بعقله البادىء الا بكونها اعتداء ، اما ان يحدث هذا وغيره فأنت بذلك تشوه فكرة الملكية عند الطفل وتعطل تقدمه لمسائل الحق والواجب على اساس صحيح

وأخوف ما يجب أن نخافه هو السرقة فى المراهقة . . فالمراهق قد يشعر بالضعة والهوان حتى ليحس انه قد أصبح طريد المجتمع لاخير فيه — وهو شعور قريب التحقق اذا تذكرنا شدة حساسيته وأثر التغيرات الجسمية والنفسية وبعده عن المثل العليا التى يبنيها - فيفكر اما فى الانتحار وما يتبعه من سلوك الانسحاب ، او فى اضافة سلوك اعتدائى آخر الى قائمة مايشعر به من غضب وحقد ، فيرى مثلا ان السرقة لن تضيف الى ذنوبه مايثقله أكثر مما هو حادث فعلا فى نظر المجتمع . ومعظم هذه الحالات يصحبها انضمام المراهق الى جماعة ممن هم فى سنه ، فيسرق ليمونهم بالسجائر أو النقود لدخول دور السينما ، مما يثير فيهم الاحترام له والاعجاب بمجهوداته وهى صفات فقدها فى المجتمع الذى نخلقه نحن بقسوتنا الهمجية فنلغى من قواميسنا كل ما يمكن أن يمت

للاحترام او التقدير أو المديح مهما فعل .

وليس من النادر أن تدفع المدرسة الطفل للسرقة بحسن نية ، اذ تعلن عن مشروع معين يحتاج الى تبرعات . ويتقدم الطلبة كل يلقى فى الصندوق ما تمكنه بيئته من أن يدفع . وتعد المدرسة قوائم بما دفع كل واحد . والواقع ان هذه الطريقة تبرز الموازنة الى حد سافر بين الطلبة .

ولعل القارىء قد أصبح الآن عارفا بطرق العلاج لبعض نواحى السرقه. فاذا فاتت فرصة التدرب على احترام ملكية الطفل وتقديمه لهذه الفكرة على أساس صحيح بحيث يحترم ملكية الآخرين واصبح السلوك شاذا كما اشرنا ، فيجب الا نعالج المشكلة فى كل حالة على انها «سرقة» ولا شىء اكثر . علينا ان ننظر الى الدوافع التى تتحرك وراء الستار . وبدلا من ان تدفع البيئة الطفل للغضب والانتقام عن طريق الكبت والقمع والتخويف قد يكون من المفيد أن نشعره بالحنان والثقة والاعتراف به وبمطالبه العادلة تدريجيا . ولنبتعد عن الموازنات ودفع الطفل للغيرة والحقد ، وقد عرضنا فى مناسبات سابقة لأساليب تقوية الثقة بالنفس ، هذا فضلا عن صقل الرغبة للتملك الموجودة فطريا بتشجيع الطفل فى مراحل حياته حتى المراهقة على جمع الطوابع النادرة أو مجموعات من الريش أو القواقع أو صور الشعوب أو نجوم السينما وابطال الرياضة والمجلات وهكذا .

وعلى أى حال فيجب أن يشعر الطفل الصغير من اول الأمر بأن السرقة تنتهى ببعض الخسارة حتى لا يتمادى فيها ، كأن يعيد ماسرقه مع الاعتذار او يعوض ما فقد من مصروفه الخاص . على ان يراعى ان لا تتعنت او نلقى عليه من العبء اكثر مما يطيق او يحتمل مصروفه فنخلق له البيئة التى يمقتها. لندربه دائما على الصراحة والعمل دون مواربة او خفاء . ولعل من المفيد ان يتدرب على ذلك اثناء اللعب الجمعى المنظم ، فعرقلة الخصم فى لعبة الكرة عملية قذرة تلقى جزاءها فى شروط اللعبة فى الحال ، لأنها تشبه طعنة من الخلف ،

وهكذا يتعلم الطفل أن يواجه الآخرين جميعاً فيما نسميه «اللعب المكشوف» وبالتالى تشـــيع فى تصرفاته روح الصراحة فيكره السرقة لأنها لعبة فى الظلام.

أثر الخوف على نمو الشخصية : ان الخوف وما يتفرع عنه من سلوك انسحابى او اعتدائى ليس كل ما نعيبه على نظام القسوة الذى نحن بصدده . فاذا عدنا إلى قول هنريتا الذى سقناه فى اول الأمر وهى تحدث مستر بيفن : « لاشىء .. لا شىء مطلقا فى هذا البيت ينبغى أن يحدث بدون تصريح واذن ابى » لرأينا أن الأب هنا هو المرجع الأول والأخير وفى هذا خطر كبير ، فالفرد فى هذه العائلة لا ينتظر حتى تسد فى وجهه السبل ، بل حتى تتعقد الامور ولو تعقداً بسيطا . إن أى شىء يراه أو يعرض له يجب ان يحيط أباه به علما وينتظر تقريره والويل له إذا اكتشف أبوه شيئاً ولو دقيقا جدا يكون قد مر فى خاطره دون أن يذكره له . وإذن فما جدوى أن يفكر « جورج » فى مشروع معين ، أو أن يكون « أوكى » لنفسه رأيا خاصا ، أو أن يتجه « ألفريد » الى غاية يراها هى الصحيحة ؟ ان هذا المشروع .. هذا الرأى .. تلك الغاية .. ستصطدم حتما وتذوب فى ارادة الأب الباطشة .

والنتيجة . . ؟ النتيجة يمـــكن أن نخرج بها اذا نظرنا الى هؤلاء الفتيان والفتيات المساكين .. ستة من النوع الأول وأربعة من النوع الثانى ، كلهم كآلات تتحرك هنا وهناك تبعاً للاوامر ، أو كتماثيل يمسك الأب خيوطها فى يده ويسيرها ناحية اليمين أو ناحية اليسار .

انى لأرجو أن يتصور القارىء مشهدا يأمر فيه الأب أولاده بالاستئذان من أختهم الكبرى والذهاب للنوم ، فيتصور منظر الفتيان وهم يتقدمون الى أختهم واحداً واحدا ، فاذا انتهى أحدهم تبعه الأصغر منه مباشرة ، مقبلا أخته فى نفس الموضع ، مردداً نفس الكلمات . وهكذا يخرجون جميعا من الباب .. نفس المشية الآلية المتزنة .. نفس الانحناءة اليسيرة المتصلبة .. ونفس الوجوه

المقنعة الجامدة.. كل هذا يترك فى النفس أثرا بالغاً أليما .

ان علم النفس، بعد تجارب وأبحاث قام بها علماؤه ، قد أثبت أنه ليس هناك فى العالم مولودان متشابهان فى كل شىء . فكل منا فرد مخالف للآخر ،وعليك أنت ياسيدى باعتبارك الرأس المربية فى المنزل تقع مسئولية اكتشاف ميل واتجاه كل طفل على حدة ، وتنمية هذا الميل وهذا الاتجاه كل فى الطريق الذى أعد له بالطبيعة الى أقصى حد ممكن .

وإذن فمما يقتل التربية ومما يقضى على المجتمع ان نخرج قوالب متشابهة كأولاد وبنات باريت . ولكن كلا منا فى منزله للاسف ادوارد باريت .. ديكتاتور المنزل . فالتفكير تفكيره هو وعلى الآخرين أن يطيعوا ، والرأى رأيه هو فعليهم ان ينفذوا . وهكذا نخرج شبابنا عينة واحدة..مسلوبى الارادة، مسلوبى التفكير ، مسلوبى الميول . وكما يفعل الزعيم الذى فقد سطوته ومكانته فى قلوب أتباعه ، فيستأجر صبية من الرعاع فيلتفوا حوله ويشدوا أزره فى كل مكان يحل فيه ، هكذا نجلس نحن فى منازلنا وحولنا من نسميهم أطفالنا وما هم فى الحق سوى مهرجين . فاذا ابتسمنا لشىء صفقوا له معجبين ، وإذا عبسنا نأوا عنه مشمئزين..وكم يستبد بنا الفرح اذ نرى هذا فهو فى نظرنا عنوان التربية الحقة و « سمع الكلام » ..مساكين نحن حقا . . ! !

لقد قال أحد عمداء الجامعات فى أمريكا ان الالمان خسروا هذه الحرب لأسباب كثيرة لعل أهمها انهم أمة دكتاتورية مستبدة .. قتلت الفرد فى سبيل ضمان الحياة للمبادىء لاشتراكية . واستطاعت التربية العسكرية الالمانية أن تخرج جنوداً كالآلات ، جنوداً باسلين شديدى المراس يطيعون طاعة عمياء ، جنوداً نبذوا تفكيرهم ، وتخلوا عن رغباتهم ، وألقوا بأنفسهم على خطوط الأعداء وسط عمد من البارود والدخان ، وهم ينشدون « ليحيا الفوهرر »

واستطاع هؤلاء الجنود أن يجتاحوا سهول أوروبا وجبالها وهم يخوضون بحراً من دماء أعدائهم لأنهم كانوا قريبين من القيادة العليا التى تأمر فيطيعون

ثم جاء الوقت الذى وجد الجنود فيه أنفسهم يحاربون على حدود مصر النائية وفوق جبال القوقاز الشاهقة ، جاء الوقت الذى ابتعدوا فيه عن الرأس ، وتركوا ليتدبروا أمرهم ويفكروا ريثما تأتيهم الأوامر . والجندى الألمانى لم « يصنع » ليفكر ولكنه « صنع » ليطيع . وهكذا تزلزل الجيش الألمانى ، كقطيع الأغنام الهائمة على وجوهها إذا أخذت راعيها سنة من النوم ..!

وقد يكون لكل منا تعليقه على هذا الرأى ولكنه صحيح بالنسبة للتربية . فهكذا أطفالنا فى منازلنا الدكتاتورية المستبدة يطيعون طاعة عمياء وتبدو الحالة على ما يرام ، فاذا خرجوا إلى الحياة انهارت قواهم .. وزاغت عيونهم ، وهاموا على وجوههم كالنعاج المذعورة

المنزل الثانى .. نظام الحرية المطلقة

هو النظام الذى يخضع المجموع للفرد . ففى الأسرة المكونة من الوالد والوالدة ومن حولهما من الأقارب نجد الطفل هو محور الاهتمام من الجميع . فاذا دخل من المدرسة انقلب البيت إلى حلبة سباق .. هذا ينزع طربوشه عن رأسه ، وذاك يخلع له ملابسه ، وتلك تضع فوطة مبللة على رأسه لئلا تكون حرارة الشمس قد أثرت على جسده . ثم هو لو أبدى رغبة بسيطة فى تناول نوع معين من الطعام قلب الأب أسواق الحى رأسا على عقب للبحث عنه وتقديمه للطفل .. أو لو انه تهيأ للاستذكار ولو ربع ساعة حيل بينه وبين هذا السلوك ، فجسمه متعب ، ووشه أصفر زى اللمونة ياحبة عينى » .. ! تجد الطفل الصغير لا يكاد يترك لنفسه لحظة ، بين مداعب يتفنن فى اداء حركات وأصوات تثير فيه الضحك ، ومسارع لحمله واحتضانه والاطمئنان على سلامه أعضائه .

وقد يكون فى أذهان الكثيرين منا أمثلة محسوسة علقت بها لطرافتها وغرابتها ، وخصوصا فى عهود الطفولة ومراحل التلمذة ، فكم من طالب

أدهشتنا تصرفاته أو على الأصح تصرفات من يتولون أمره ، وكان لهذا مصدراً لسخرية وتعليقات لاينضب معينهما . فهو فى قاعة الطعام متقزز مشمئز .. لايكاد يصيب منه لقمة أو لقمتين ، ينظر بعيون مرتاعة إلى « الفوطة » التى يجدها فوق طبقه الفارغ .. ويتحسس أدوات الطعام التى يراها إلى جواره . وفى الوقت الذى يسارع زملاؤه بطريقتهم البريئة الساذجة إلى انتقاء قطع اللحم من « الطاسة » العامة تجده ينظر اليهم واجماً مدهوشاً . ولا عجب فهذه معاملة لم يعتدها فى منزله الذى يتفانى فى ارضائه . فهو إذ يجلس إلى المائدة تمتد يد لتلبسه « فوطة » ناصعة البياض .. وتتقدم أخرى لتحمل الملعقة المحملة بالطعام إلى فمه .. أما اللحم فقد تناولته قبل أن يقدم أيد مدربة ماهرة فقطعته قطعاً صغيرة اختلطت بالطعام فى مزيج شهى . وهو بعد هذا كله قد يرضى عن هذا الصنف أو يغضب ، فاذا رضى تكدس أمامه حتى يأخذ كفايته ، وإذا أعرض سارعو إلى ابعاده وعيونهم تنطق بالأسف والاعتذار..!

أين هذه المعاملة إذن من قاعة الطعام بالمدرسة .. القاعة التى تعج بالمئات من الطلبة الذين يتدافعون فى فوضى الطفولة الحبيبة ليحصل الواحد منهم على نصيبه كاملا أو أوفر قليلا . . ؟

وكما تجده فى قاعة الطعام متقززا مشمئزا هكذا تجده فى أوقات الراحة « والفسح » المدرسية وحيدا منزويا . . اذ كيف يلعب لعبة « كالاستغماية » مثلا يطلب منه فيها أن يسلك سلوكا خاصا خاضعا لأحكام هى شروط اللعبة فاذا لم يستطع مثلا أن يخلص من اللاعب « المساك » كان عليه أن يؤدى دور الاخير وتقع على عاتقه مسئوليات جديدة . أقول قد نحمل فى أذهاننا أمثلة متطرفة لأناس من هذا النوع . ويهمنا أن نعلق عليها من الناحية العلمية والنفسية .

أثره على الميدانين الخلقى والاجتماعى : يذكر القراء أنا عند عرضنا للنمو الخلقى للطفل تتبعنا المراحل التى يضعها ماك دوجل فى كتابه « علم النفس الاجتماعى » وقلنا إن السلوك يتحدد أولا حسب اللذة أو الألم المشتقين من الاحساسات الجسدية ، ثم الثواب والعقاب اللذين تفرضهما السلطة المنزلية ، وتأتى بعدهما مرحلة المدح أو الذم الصادرين من المجتمع الخارجى وأخيرا نصل الى ذروة السلوك الخلقى والاجتماعى حيث يتصرف الفرد حسب قوة كامنة داخلية مستقلة عن المجتمع الكبير

وواضح أن مهمتنا هى تسهيل اجتياز النشء الحدود الفاصلة بين كل مرحلة والمرحلة التالية لها ، فكلما سارع الطفل فى الثانية فى التحرر من قيود الجسد واللذه الحسية الى التصرف حسبما يراه الوالدان ، وكلما سارع حوالى السادسة أو السابعة الى الخروج من دائرة المنزل الضيقة الى مجتمع المدارس الابتدائية و نتسب للكشافة والرحلات ، ثم اتسعت نظرته بعد هذا فى الثالثة عشرة والرابعة عشرة لتشمل المجتمع الفسيح بأبطاله وأفكاره السامية ، كلما سارع إلى هذا قرب من الكمال الخلقى .

ومن هنا ندرك مدى الخطأ الذى تتورط فيه منازلنا المدللة ، فالطفل الذى رأيناه فى قاعة الطعام وفى « الفسح » وحيدا منزويا قد تعطل نموه الخلقى والاجتماعى عند مرحلة بادئة مخزية

وفى هذه الجملة القليلة الكلمات العميقة المغزى « لما اشاورهم فى البيت » . تتمثل كل المأساة . فالطفل الذى ندلله ونتفانى فى إرضائه . . الطفل الذى نهيء له فى منازلنا حرية كاملة لاتحد . . الطفل الذى اقتصر رأس ماله على الاخذ وخلف وراءه العطاء ، هذا الطفل تمثال مجسم لجريمة الآباء والأمهات . وكم من شاب أو رجل قطع من العمر مرحلة غير قصيرة وهو يجعل شعاره هذه الجملة « لما أشاورهم فى البيت . . ! » فما يعرض له أمر أو تتشعب أمامه طرق الا ويهرع الى أبويه يلتمس عندهما المخرج . . تماما كالوليد الصغير

والواقع أن له كل العذر فكما أحجم عن الاشتراك فى الرحلات المدرسية التى أقامتها مدرسته لان الرحلات معناها مبيت فى الخارج وغسيل الآنية وحراسة للزملاء النيام أثناء المناوبات . . ، وبالاختصار كما هرب من المجتمع الصغير وانكمش فى حضن أبويه ليلعن الجراح التى أحدثها فيه الآخرون . . هكذا يشب ولديه صورة خاطئة عن نفسه تعززها مرآة المنزل وتعليقات ابويه ، فيظل دائما قعيد المنزل مستمدا آراءه وفلسفته ضمن دائرة ضيقة محدودة متعصبة ، وتضيق بالتالى دائرة نفعه للاخرين . . فما اقربه الى الشخص الأنانى المتبلد الحس الذى يعتصر جهد المجموع دون ان يبذل من نفسه شيئا . . !

بل انه اذا تزوج فمما يعكر صفو منزله ان يرى زوجته تختلف عن امه ولو قليلا . . فى طريقة طهى الطعام او تقديمه على المائدة . . او فى آرائها وتقاليدها . . او مظاهر زينتها وحركاتها . . او طرق التدليل والملاطفة ، وامه دائما مثله الاعلى مذ كان طفلا . . يصطدم بالمجتمع فيهرب اليها فتحتضنه . وهكذا يدب النفور بينه وبين زوجته لان الاخيرة تأتى بآراء وطرق جديدة بطبيعة الحال ، او لانها تعامله معاملة الزوجة لزوجها ، وهو يريد معاملة فيها امومة وتدليل . . معاملة لاتصلح الا للاطفال والصبيان

أثره على المجهود الفردى : وبعد كل هذا فلا ينبغى أن يتبادر الى أذهاننا أننا نسعد الطفل اذ ندلله ونحقق رغباته بهذه الصورة . فالطفل الذى يظهر الرغبة فى امساك عصفور يسمع خفق جناحيه على الشجرة فيسارع والده الى شراء عصفور جميل ملون داخل قفص ويضعه الى جانبه ، هذا الطفل قد يسر لهذا ويبتسم . ولكنه سرور فاتر وابتسامة متضائلة . بينما الطفل الذى يستهويه مرأى العصفور على الشجرة وهو يطعم صغاره فيخلع حذائيه ويتشبث بجذع الشجرة الاملس ويظل يرفع جسده شيئا فشيئا وهو يستفيد من النتوءات البارزة . . وقد يسقط مرة ومرتين وتصطدم قدمه العارية بالأغصان المسننة فتدمى . وتتلاحق أنفاسه وهو يلهث فى مجهود أخير حتى يصل الى العش فيمد

يده الى ضالته المنشودة .. ! أى ظفر هذا الذى يحس به .. أية نشوة هذه التى تسرى فى دمائه .. ، بل انظر الى عينيه اللامعتين المنتصرتين وهو يتحسس العصفور الصغير ، وقارن هذا بالطفل المدلل الذى يستيقظ ليجد العصفور الملون بجواره وقد اشتراه له أبوه وهو يظن بهذا أنه يوفر له قدرا من السعادة قد حرم منه الآخرون .

وكما فقد أفراد عائلة باريت طابع الحياة لأن الارادة الباطشة هى التى تفكر وتقرر وتحرك فلا تترك لهم سبيلا لبذل المجهود ، هكذا يفقد الطفل المدلل كل ما يعطى الحياة نشوتها وتوثبها وحيويتها فقد جنبناه نحن كل تفكير أو جهد ونحن نظن أنا نهيىء له السعادة بينما هو يشب خامدا راكدا متكاسلا لا يتذوق للحياة او للآمال اى طعم

وقس على هذا كافة ميادين النمو . فالطفل فى البيئة العادية يحاول ان يخرج سريعا من مرحلة الصرخات البدائية التى يولد بها الى مرحلة الكلام ، فالكلام سلاح اجتماعى يمكنه من أن ينال ما يرغب من لعب الى طعام الى صداقة الآخرين . بل وكم يؤلمه أن يظل عاجزا عن المشى يرى الشىء قريبا منه ولا يستطيع أن يتناوله . هو يزحف وئيدا معتمدا على يديه وحركات رجليه ، حتى اذا تصلبت عضلات ساقيه ارتفع بجذعه عن الارض وسار على أربع وهى حركة لا بأس بها تدنيه من الاجسام التى يريدها ولكنها لا تزال قاصرة عن أن تحقق ما يرجوه من الوصول الى ما يوضع فوق المقاعد أو المناضد . إذن فليتعلق بيديه فى قطعة من الاثاث ثم يجذب جسمه الى اعلا . هل يستطيع ؟ لا ! حسناً . ليجرب مرة ثانية .. هذا احسن .. ! لقد وصل الى اللعبة التى يريدها . ما اجمل الوقوف هكذا وحيدا .. انه يرى ما امامه الآن بحرية فليجرب أن يخطو قليلا .

وهكذا يتنقل الطفل بطلاقة فى مراحل النمو اللغوى والحركى نتيجة للدافع الذى يحركه ليكن جسما حسيا يريده او ميلا لاظهار السيطرة . اما الطفل

المدلل فيجد كل شيء للاسف الى جانبه . لا عجب اذن اذا تأخر الطفل فى الكلام والجلوس والمشى وضبط الجهاز البولى وتناول الطعام او ارتداء الملابس وحيدا و . . و . . آلاف المواقف التى تميز الطفل النامى الصحيح، بينما نجد هذا المسكين يتعثر فيها ويترنح فقد انتفى الدافع المحرك بفضل مجهوداتنا الكريمة

الغيرة : لعل من الانصاف ان نقول ان الوالدين يقدمان على خلق هذا النظام اللين بحسن نية . فالطفل الوحيد يسترعى فى معظم الحالات الاهتمام . او قد يدفعهم الى هذا ذكريات قديمة مرت بهما منذ عهد الطفولة. فربما شب احدهما فى منزل متطرف فى القسوة كذلك الذى سبق عرضه ، وهكذا تعطلت حريته وامتيازاته ، او ربما كان لديه اخوة اكبر او اقرب الى قلوب والديه فنالا معظم الامتيازات وتركاه تأكل قلبه الغيرة . ولذا فقد آلى على نفسه ان ينشىء طفله نشأة سعيدة يحدوه فى ذلك الآلام التى تجرعها وهو صغير وظلت تنغص حياته حتى اليوم . وحتى فى التعليم قد يتذكر الوالد ما صادفه من عدم توفيق فى المدارس فلم ينل سوى شهادة متواضعة بينما كان يتوق للتعليم العالى فتراه يدفع طفله فى حمى ملتهبة ليحقق ما فشل هو فى تحقيقه

والحق ان هذا خطأ بالغ .. فلا يظن الوالد « العطوف » ان شعور الغيرة الذى أكل قلبه فى منزله الملىء بالموازنات والتفضيل ستخلو منه حياة طفله المدلل . بل ان الامر على العكس ، فالموازنات والتفضيل عناصر موجودة بشكل أوسع وأقوى فى حياة مثل هذا الطفل أكثر من غيره ، فالغيرة تملأ حياته فى المدرسة حيث المعلم يعامل الجميع سواسية ، وهى تصرخ فى وجهه فى الشارع حيث يلعب الاولاد بمبدأ الاخذ والعطاء وهو لم يتعلم هذا الاخير . وسرعان ما ينبذه اخوانه ولا يقبلونه فى ألعابهم ، فيعود إلى منزله باكياً . وهنا يتلقاه والداه ليؤكدا له انه أفضل منهم بكثير وان العيب فيهم وليس فيه ، وانهم لشعورهم بأنه أسمى منهم لا يقبلونه فى ألاعيبهم القذرة المضحكة .

تلك هى شـــيمة الشخص الغيور الذى سنخرج به من نظام الحرية المطلقة . فهو لا يعترف مطلقا بالغيرة ، بل لا يعترف للغير بالفضل وهو الحق الصراح ، وانما هو يرى ان الغير هو المنافق .. وهو « الذى لم يصل لغرضه الا بمسح الجوخ للرؤساء وهى طريقة دنيئة لا يقدم عليها هو ولو نفد آخر ملم فى جيبه » ..! وبينما يصل الآخرون الى الذروة بفضل صفاتهم الاجتماعية الجذابة وبذلهم للجهد فى خدمة العمل والرؤساء فيقربهم هؤلاء اليهم تقديراً ومكافأة اذا بصاحبنا ينزوى فى ركن قصى ، تماماً كما كان فى قاعة الطعام والفسح المدرسية . فاذا ضمه مجلس عائلى انطلق يسخر بالمجتمع الذى « يدين بالمتناقضات » فهو يجعل ممن « لا يملك ذرة من التفكير » رؤساء واصحابا للمناصب ، وهؤلاء « لضعفهم » يحيطون أنفســـهم ببطانة من « المهرجين » الذين يرقصون لهم ويصفقون ويغلقون آذانهم وأعينهم عن فضائحهم .. بينما يكد هو ويكدح .. لا يجدوه سوى الوفاء والاخلاص والصراحة وراحة الضمير ، ولذا يكرهونه لانه يكشف عن أعمالهم المشينة الستر والحجب ..! وتؤمن الام على ما يقول ولا عجب « فنحن فى مصر أم العجائب . » ، سبحان الله ..! لو كان هناك مقياس للعجائب لكان هو وأمه على رأسها ..!

بل ان انفعال الغيرة لقريب الوقوع جداً بالنسبة للطفل المدلل حتى فى نفس المنزل بمجرد ولادة طفل آخر .. لسبب واضح هو اننا قد رفعنا مستوى المعاملة الى القمة فلابد أن يحدث انخفاض مهما جاهدنا فى تجنبه . فاهتمام الام بسلامة طفلها الجديد أثناء الحمل ، وما يتبع هذا من تغير فى ظروف المعيشة منها على الاقل نوم الأم فى سرير منفرد قرب الوضع ، وهكذا يجد الطفل الأكبر نفسه يتباعد بالتدريج عن العطف والتدليل .. ثم يأتى المولود الجديد بمطالبه للرضاعة والتجفيف والتدفئة والحمل على الحجر .. كل هذا يثير فى الطفل الاكبر غيرة مكتسحة .

أثر الغيرة على السلوك : وهو هنا قد يسلك أحد سلوكين كلاهما شاذ ملتو

فاما أن يعكس سلوك الوليد الصغير لظنه أن هذا هو مايجلب العطف والاهتمام وهكذا تحدث حالة « نكوص » ، فاذا به يتبول على نفسه . . ويمص أصابعه مغرقاً فى الخيال .. ويتهته فى كلامه كمن يتعلم الكلام .. ويترنح فى سيره كمن نسى المشى.. ويكثر من « الزن » والبكاء والاستنجاد . والقوم الذين من هذا النوع يشبون فى الغالب ولديهم كل صفات التراجع.. كالوحدة والصمت . والخجل والتردد واليأس .. والاغراق فى الخيال و « والسرحان » فيؤثر هذا على سداد حكمه ونظرته للحقائق .

أو قد يسلك سلوكا مخالفاً لهذا على خط مستقيم . فيغضب ويثور ويمتلىء قلبه بالحقد على المولود الصغير أو أمه أو بيئته بأجمعها فيود لو ينـــال منها وينتقم ، وسرعان ما يتشكل سلوكه فى هذا القالب الاعتدائى فهو يخرب الأثاث ويكسر الأطباق ويقص المفارش الثمينة ، وهو يعض شقيقه الرضيع فى غفلة عنا . ويكبر هذا النوع من الأطفال وسلوكهم الاعتدائى على أشده . فهم يثيرون المشاحنات لأقل الأسباب ، ويعتبرون اللفظ البرىء الذى يوجه اليهم من أحد الزملاء إهانة للكرامة وقضاء على المبادىء . يحدون لذة دائمة فى عصيان أوامر الرئيس أو تسفيه اقتراحات الزملاء ، ويعقدون حتى التافه من الأمور حتى يصلوا به إلى ذروة الصخب والضجيج ، بل وهناك من يستخدم القوة الجسدية فيتصادم مع زملائه بالسباب ثم الأيدى . . تماما كما كان يفعل بالصغير الذى شعر أنه قد سلبه ميزاته فأحس عقارب الغيرة تنهش قلبه

ويهمنا فى هذا الصدد أن نشير إلى أن الغيرة والشعور بالنقص يتعرض لهما كل طفل فى أى منزل بصورة عادية ويزولان فى هدوء لو اتبعنا الطرق السليمة. إن أى رضيع يشعر فى الغالب بثقة فى النفس مطلقة فى نصف السنة الأولى من حياته .. فهو عنيف فى طلباته وحاجاته لا يحتمل التأخير . ونحن لضعفه وعجزه عن التعبير نجيب هذه الطلبات بسرعة وعطف وحنان .

ثم تظهر بعد هذا عوامل جديدة . ظهور الأسنان .. الميل للعض .. الحبو

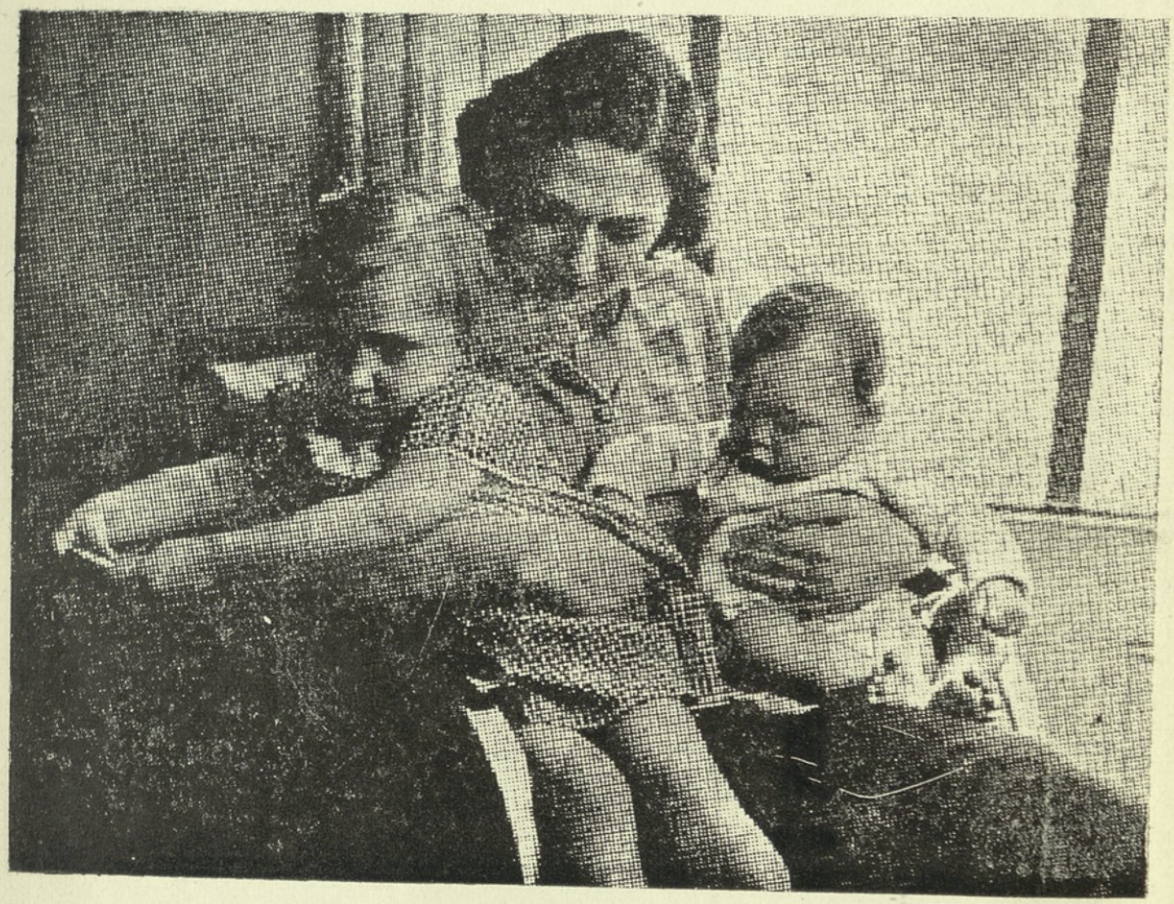

... بل إن انفعال الغيرة لقريب الوقوع بالنسبة للطفل المدلل حتى فى نفس المنزل بمجرد ولادة طفل آخر .

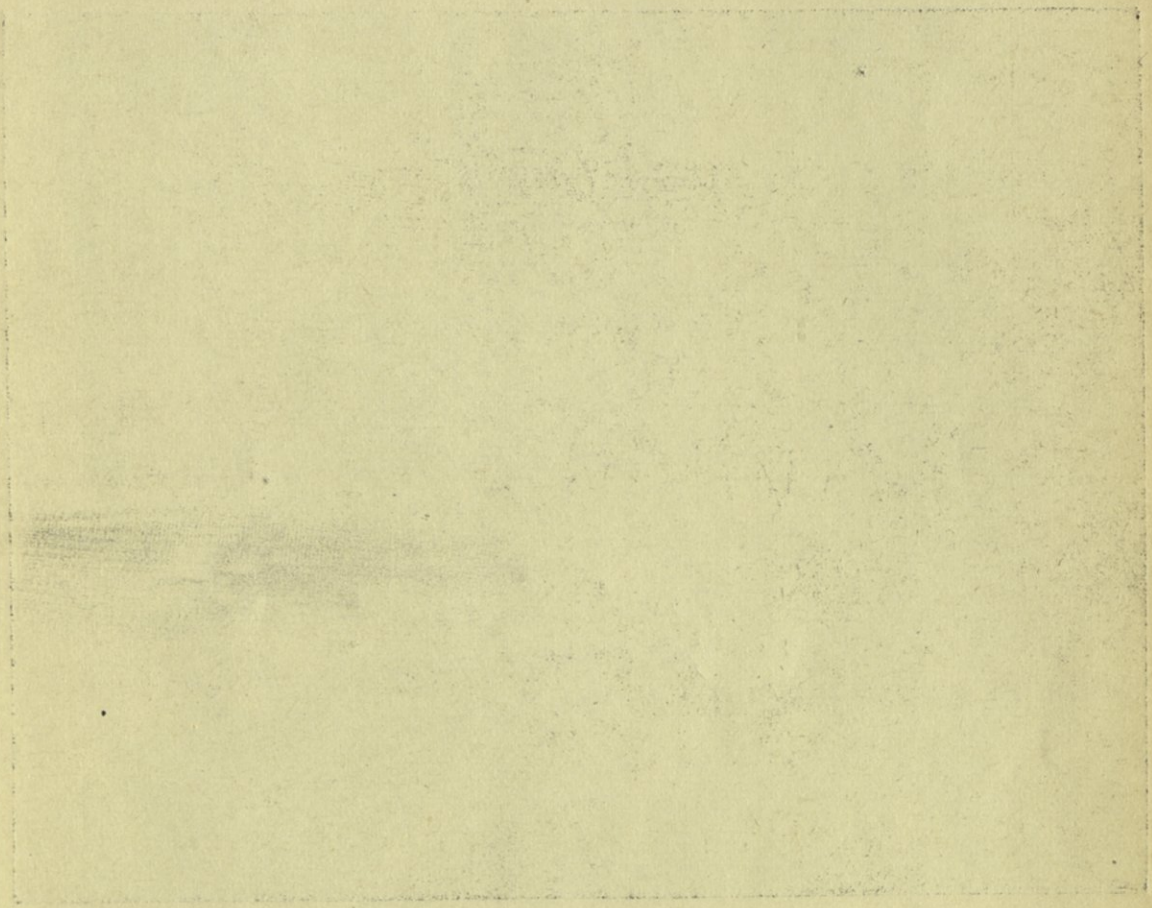

أو المشى والاستقلال الى حد محسوس . . بدء المحاولات للكلام ، كل هذا يشعرنا للاسف انه قد كبر ويمكنه أن يستقل عن عطفنا واهتمامنا البالغين به بعكس الحال عندما كان مستلقيا فى فراشه . وهكذا بين يوم وليلة تتغير طريقة تناول الطعام وما كان يصحبها من رفع وحمل واحتضان الى طريقة جافة مملة قد تتم حتى بواسطة الخادمة . وحتى الطعام وقد بدأ يميل للصلابة يشعره بجمود البيئة وعدائها له . فضلا عن أن قدرته المتزايدة على الحركه والتجريب والفك والتركيب تعارض ما نصر عليه بحماقتنا من الاحتفاظ بكل شىء فى موضعه فنجبره على السكوت . بل وقد يحدث كثيرا أن نعتقد أن الطفل بمجرد أن يبدأ المشى أو الكلام قد أصبح فجأة فاهما يمكن معه استعمال طرائق التهذيب من انتهار وتأنيب الى حرمان أو حتى عقوبات بدينة كالضرب على الأيدى . كل هذه العوامل تؤدى بالطفل العادى الى فقدان الثقة بالبيئة وبأمه ، وبالتالى بنفسه . وهكذا يكون على استعداد لأحد السلوكين اللذين عرضناهما : الاستسلام أو الاجرام . ولكنه فى كل الأحوال يكون قريبا جدا الى الشعور بالغيرة لأى امتياز ولو بسيط يمنح لاى شخص حتى ولو كان اخا مريضاً أو حتى والده .

والطريقة فى هذه الحالة واضحة كل الوضوح . فالغيرة وهى تحمل شعورا بالانانية والاثرة السخيفة ينبغى ان نعالجها بتعويد الطفل منذ الصغر أن يؤثر غيره بأشياء أو مأكولات حبيبة . . أو يتنازل عن ركن من فراشه لطفل من الضيوف ، مع افهامه أن هذا لا يتعارض مع فكرة الملكية أو يعتبر اعتداء عليها بطبيعة الحال .

وعليه أن يتعلم ان عليه واجبات يقتضيها انضمامه الى هذه الجماعة التى تحبه . كما يتعلم عن طريق اللعب مع غيره انه قد يتفوق فى العاب ويتراجع فى أخرى فليبسم لهذا وذاك بدلا من أن يغلف نفسه فى لعبة وحدة هى تلك التى يتفوق فيها . وقد لا يتم هذا فى أول الامر بنعومة ويسر ولكن هذه المبادىء ستصقل

بمرور الزمن حتى يأتى الوقت الذى « يلعب فيه الطفل للفريق » فى مرحلة المدرسة الثانوية ، فيصفق لغريمه ويصافحه بعد انتهاء اللعب وقد صفت نفسه من أى حقد للهزيمة ، فهو يلعب للعبة « وعليه أن يسعى وليس عليه ادراك النجاح » ، هنا نكون قد قضينا على الغيرة كلية .!

ويمكننا بعد كل هذا أن نقتصد فى التلهف الشديد الذى نبديه ازاء مطالب الوليد الرضيع فى الشهور الاولى . فليس من المفيد دائما بالنسبة للصغير أن نحمله باستمرار وندور به فى البيت ونؤرجحه قبل النوم وننام الى جواره . بل لتكن استجاباتنا من النوع المتزن الهادىء فى حنان ، فليست هى بالسريعة المتطرفة بحيث تملاه ثقة مطلقة قد تتزعزع بمجرد ان ينمو أو يولد له شقيق . ولا هى بالبطيئة المتطرفة بحيث تفقده الثقة بالبيئة وتملاه بالمقت والكراهية .

وكما اقتصدنا فى التلهف فى الحنان والطفل وليد رضيع علينا أيضا أن نقتصد فى الزجر وقلة العناية التى تتميز بها بيوتنا بمجرد ان يمشى الطفل ويتكلم ويأكل وحيدا . انا نحطم بذلك ثقته فى نفسه ونثير فيه الخوف والقلق .

فاذا قدرنا بعد هذا أن نوبات الغيرة لا بد منها أثناء نمو الطفل العادى فلنكن أكثر تسامحا مع هذه الخبرة التى تقلقنا أكثر من اللازم ، اذ سرعان ماتزول من تلقاء نفسها لو اتبعنا ما سبق ذكره وقللنا من موازنة الطفل بأطفال الضيوف ، فاذا كان ولا بد من الموازنة فلنوازن الطفل بنفسه فى فترات سابقة ونشير الى انه تحسن او تراجع فى هذه الناحية أو تلك

وإذا كان لنا ان نتحكم بعض التحكم فى فترات الوضع فليتتابع اطفالنا بحيث تمر بين الواحد والآخر فترة كافية تمكن الاكبر من ان «ينفطم» خلقيا واجتماعيا عن الأم الى حد ما فيرى فيها ما هو أكثر من « صدر وذراعين » يشتق منها كل اللذة الحسية عن طريق الالتصاق وهى حالة الطفل الصغير قبل ان يكون ميولا جديدة تتصل بالبيئة . وفى هذه الحالة - والطفل صغير - اذا جاء الوضع الجديد وابتعدت عنه امه ضاق هذ الالتصاق الذى كان يستمد

منه كل لذة حياته ، فانهارت معه البيئة كلها . يستحسن اذن الا يأتى الطفل الجديد الا وصديقنا قد رأى فى أمه شخصا له حياته وكيانه المستقل ، شخصا محبوبا لا عن طريق الالتصاق الجسدى بل بصوته العذب وبشاشته ومشاركته له فى اللعب ، ثم هو قد بدأ يكون ميولا جديدة فى الحياة الخارجية عن طريق اللعب والحل والتركيب والقذف والدفع . وهكذا لا يرى فى ابتعاد أمه أثناء الوضع وبعده ظاهرة قاسية مدمرة . .

ولعل الطفل فى سن سنتين ونصف يمكنه ان يتقبل شقيقا او شقيقة له دون كبير عناء لو احسنا توجيه فكره بالتدريج وعلى قدر سنه الى اننا نتوقع طفلا صغيرا سيكون شريكا له فى اللعب . وهكذا لا يفاجأ الطفل بترتيبات واجراءات غريبة تنتهى بمجىء مولود غريب ليحل محله . هو يستطيع - على عكس ما نميل الى الاعتقاد - أن ينتظر هذه اللحظة بترقب وتلهف ، وان يحول هذه « الغيرة » اذا توافرت الظروف التى نصحنا بها الى رعاية وحماية للرضيع وهكذا يشعر بالقوة بدلا من الشعور بالضعف

المنزل الثالث .. دوامة مقلقلة

القليل منا من يصل فى قسوته إلى « إدوارد باريت » الذى تحدثنا عنه فى النظام الأول . والقليل منا من يدلل الطفل إلى الحد الذى عرضناه فى النظام الثانى . ولكن معظمنا للأسف يجمع بين هذين النظامين فى سرعة وتعاقب هما أخطر ما يكون على أطفالنا ، وكم مرة يحدث أن تشتد مع طفلك وتتشبث بحرمانه مما يريد فاذا بكى أو أضرب عن الطعام سارعت إلى استرضائه باعطائه ما أراد وأكثر وحركاتك تقطر نعومة وتوددا ؟ بل حدثنى كم مرة تستيقظ من نومك مسرورا منتعشا تضحك لأقل الأسباب وتلهو مع طفلك لهوا قد لا يتناسب مع وقارك فى الاحوال العادية . فتمثلان « عربية وحصان » . أو تحمله على ظهرك وتحبو على يديك وركبتيك ، حتى اذا طلع اليوم التالى اذا

بحالتك النفسية مختلفة تماما واذا بك سريع التهيج ، لا يكاد الطفل يحدث أقل جلبة حتى تنتهره ، او يطلب منك قياسا على ما حدث بالأمس ان تلاعبه لعبة القطار او « الحمار » حتى تصيح فى وجهه « عيب . . بابا مش صغير يلعب الحاجات دى .. روح العب بعيد واوعى تعمل هيصة .. ! » ويفاجأ الطفل بالصياح والوجه المربد فيتراجع مأخوذا ولعله يتساءل فى نفسه بطريقته الساذجة لم يتعطل القطار اليوم وقد كان بالأمس سريعا نشطا !

بل ان هذا السلوك المتقلب لا يحدث بين يوم وآخر ، ولكنه موجود أفعلا فى كل لحظة تتدخل فيها زوجتك بآرائها المتباينة عن آرائك فأنت ترى ان يحرم الطفل من امتياز خاص لأنه لم يستذكر دروسه او لم ينم فى الميعاد المعين ، ولكن الزوجة ترى غير هذا الرأى ، فحفظ مواعيد الدراسة او النوم فى نظرها اشياء ثانوية لا تتطلب عقابا ؛ ثم ان طفلها الصغير لا يفهم العقاب فليس هذا اوان عقابه ، ولذا تسارع الى نقض مابدأته انت اما خفية أو جهارا ، وتعيد اليه ما قررت انت ان تحرمه منه ، بل قد يحدث ما هو أسوأ من هذا فينشب الجدل بين الوالدين حول أمر يمس الطفل .. هذا يحبذ عقابه والآخر يرى أنه على حق .. وكل هذا يحدث على مسمع من الطفل !

أثره على التكوين الخلقى والاجتماعى : هذا التذبذب فى السلوك . .

علاوة على نتيجته الحتمية الظاهرة من حب الطفل لمن يقف فى صفه وكرهه لمن يقترح عقابه ، وفى هذا ما فيه من تعطل فى تنفيذ كل ما يراه الطرف الاخير اعتمادا على أن هناك موئلا للطفل ونصيرا .. فان له ضورا أعمق وأشد تأثيراً .. ضررا يتناول نفسية الطفل وتكوينه الاجتماعى بشكل أساسى .

واذا عدنا ثانية الى « ماك دوجل » وتحليله الموفق للمراحل التى يمر بها الفرد حتى يصل فى نمو « الذات » الى حدها الاقصى .. هذه القوة التى قد نسميها بطريقتنا الدارجة « الضمير » ، وقد يسميها النفسانيون أو الباحثون فى اللاشعور الذات العليا .. لرأينا أن هذه القوة الاخيرة ، فى عراكها المستمر ضد دوافع

الانسان الفطرية وشهواته الجامحة والتى تسمى « الذات الدنيا » تحدد قوالب سلوك الفرد .

وواضح أن هذه القوة يشترك فى تكوينها الوعظ والارشاد أو اللذائذ الحسية أو التقليد ، وبالاختصار الاصطدام بالعالم الخارجى سواء أكان يتمثل فى الوالدين أو المجتمع الكبير . واذن فمما يعطل تكون هذه القوة وتشكلها فى القالب النهائى أن تكون التأثيرات التى تأتيها من العالم الخارجى مرتجلة مهوشة . وهكذا تظل تتشكل ذات اليمين أو ذات اليسار دون ما نظام معين. وهذا هو نفس ما يحدث فى حالة الطفل الذى يوقعه سوء حظه فى منزل يحمل طابع النظام المذبذب الذى نحن بصدده . . وهكذا يتعطل تكون « الذات العليا » ، وبالتالى تحديد قوالب ومستويات سلوك الطفل ، وتكوينه الخلقى والاجتماعى الصحيح .

الغضب : إن هذا النوع من المنازل الذى تنعدم فيه السلطة الضابطة هو بمثابة « معمل » مناسب جداً « لتفريخ » نوبات الغضب عند الطفل . وهو معذور فى الحقيقة اذ يتجه هذا السبيل ، فالطفل يطلب أن يصطحبه أبوه عند خروجه فى المساء مثلا فيرفض هذا مشيرا الى أن الجو يميل الى البرودة أو لبعد المسافة أو لاى عذر آخر . ومن الطبيعى أن يغضب الطفل فى هذه الحالة فهنا عائق وضع فى وجه رغبته، ولكن الغريب أن يتراجع الوالد سريعاً عن قراره بالرفض خوفاً من ان « يتنكد » الطفل او تحت تأثير توسط الام او الجدة. ومن المعروف فى قوانين التعلم ان السلوك الذى ينتهى نهاية سارة سيثبت . . وهكذا يجد الطفل فى الغضب وسيلة مفيده تجيب طلبه .

وقد يحدث ان يتنبه الوالدان الى هذا السلوك من جانب الأم فيقرران مبدئيا ألا يجيباه الى مايطلب اذا غضب ، ولكن مما يبعث على الأسف أن هذا القرار لا يتحمل عبء الغضب اذا أضيفت اليه مضاعفات كأن لا يكتفى الطفل بالصراخ بل يحتقن وجهه ويرتمى على الأرض ويرفس بقدميه أو ينقلب

وجهه بالجدار ، وهذه ناحية ايجابية . . أو قد يضرب عن الأكل والكلام وينزوى فى ركن وحيداً لايلعب ، وهى ناحية سلبية . وهنا ينهار كل شىء خصوصاً اذا تذكرنا أن هناك سلطات متعارضة فى المنزل. وسرعان ماتتناول الجدة الطفل الباكى من على الأرض فى حنو واشفاق وتجيبه الى مايرجو وهى تقول « انتوا حاتموتوا الواد .. ياعينى وشه اتزرد وجسمه بيتنفض . بس ياحبيبي تيته حاتجيب لك اللى انت عاوزه .. ! »

وهكذا يدرك الطفل بالمران القدر الكافى من «الغضب» لينال حاجته ، بل والوقت المناسب له . ففى وجود ضيف معين لايستلزم الأمر أكثر من صرخة أو اثنتين ، وفى وجود آخر لابد من انتفاض الجسم واللهث وتمثيل القىء أو الاضراب عن الطعام وجبتين بأكملهما .. وهكذا قد يحدث فعلا أن يغمى على الطفل أو يتشنج ويتقلص جسمه أو يصيبه الصرع .. وهى كلها اساليب لاشعورية يأتيها العقل لنجدة الجسم ، وهى اسلحة مسرحية قوية جدا فى منازل من هذا النوع القلق المذبذب ، وليس من النادر وقوعها فى منازل النوع الثانى المدللة التى يحدث لسبب ما كولادة طفل جديد أن تنقلب معاملتها ولو بعض الشىء . . . فالغضب مظهر اعتدائى من مظاهر الغيرة .

انتقال الغضب للصغار : كما ينتقل الخوف عن طريق المشاركة الوجدانية من الآباء لأطفالهم ، وكما لاحظنا كيف ينتقل الكذب بطريق التقليد للاطفال إذ يسمعون آباءهم ينتحلون معاذير كاذبة ، هكذا ينتقل الغضب من الوالد السريع التهيج الى طفله ، وهناك من الآباء والأمهات من هو متوتر فى كل شىء ، فليس هناك أدعى للغضب والصراخ من أن يجر أحدهم مقعدا على الأرض ، أو يهمل الآخر قطعة من الملابس على فراشه وهو يستعد للنوم ، أو لايجد حذاءه فى المكان الذى خلعه فيه مساء الامس . وهكذا ينتقل الغضب للاطفال ، وليس من النادر ان يظهر فى ألعابهم التى هى تعبير عما يعتمل فى اعماقهم .

بل واسوأ من هذا أنا نغضب الطفل لمجرد التسلية .. ! وكما ان الكثير منا يعمد لايثار أحد الاطفال بلعبة من العاب طفله أو يجلسه على فخذه ويحنو عليه ليلاحظ هو وضيوفه تأثير الغيرة فى طفله المسكين . نجد عدداً كبيرا يقلب وجهه أو عينيه أو يحبو على اربع ليخيف الطفل لمجرد المزاح ..! أو يخبىء منه لعبة ليرى مايفعل فاذا غضب الطفل وبكى كان له فى هذا تسلية مابعدها تسلية .. كأنما الطفل قد خلق لكى يرفه عنا ويخفف متاعب الحياة!

أثر البيئة العادية : الغضب انفعال فطرى موجود عند الاطفال الحديثى الولادة ، يبدو بوضوح لو امسكنا برأس الوليد الصغير بين أيدينا بحيث نمنعه عن الحركة . هذا فضلا عن أن ظروف البيئة كما سبق عرضها أثناء خروج أى طفل من مرحلة الرضاعة والاعتماد الكلى الى الفطام والمشى والكلام . . هذه الظروف تدفع معظم البيوت الى الحد من نشاط الطفل ومعاملته معاملة فيها بعض الجفوة بالمقارنة بالمرحلة السابقة وهكذا لا يملك الطفل سوى أن يشعر بالغضب يعتمل فى اعماقه للحد من حريته .

بل قد تكون ملاسنا الضاغطة الثقيلة بالنسبة للوليد الصغير مما يسبب له الغيظ والغضب نتيجة للضغط الحركى كل هذا ونحن نقصد به خيرا . بل قد نثير غضب الطفل فى الوقت الذى نسعى لخدمته وراحته . فالمنازل التى تساعد الطفل أكثر من اللازم فتلبسه ملابسه كلها .. وتثبت له شريط الحذاء .. وتحمل الطعام الى فمه تسبب لديه الغضب كتلك التى تستثيره بطريق مباشر تماماً .

العض : يقرب جداً من ظاهرة الغضب ، بل هو مظهر اعتدائى له كما أنه مظهر اعتدائى للغيرة . وهو يبدأ بظهور الاسنان فى السنة الاولى وكميل لتجريب هذه القوة الجديدة بعض حلمة الثدى عضاً وديا ، تماما كما يجرب ترديد مقاطع او حروف كلما صقلت حركات اللسان والاحبال الصوتية . ولكن بينما يتم تقدم السلوك الاخير فى الطريق السوى لتشجيعنا وافساحنا له السبيل اذا بالسلوك الاول يتشكل فى قالب اعتدائى خطير لان الأم سرعان ماتضرب

الطفل عل فمه

والمؤلم ان الرضيع يكون متمتعا قبل هذا مباشرة بثقة مطلقة ، والثدى فى نظره يعنى كل شىء فكأنك اذا منعته الثدى منعته الحب أيضا. وهكذا قد يعض الطفل حلمة الثدى فى حنان تماما كما يلعب بها قبل أن ينام فاذا به يفاجأ برد فعل عنيف فكأنما قد ضاع من بيئته كل معانى الحنان والعطف والامن وكل ما يسبب الثقة فى النفس

علينا إذن أن نتسامح مع هذه الخبرة الجديدة فى أول عهدها . وكما رأينا كيف ينشا الغضب حتى فى الأيام الأولى عن طريق تغطيتنا للطفل بحسن نية فنقيد حركاته ، هكذا قد تنتج حالة العض كشىء ملازم لظهور الأسنان ، أو كمظهر نزوعى للغضب فى معظم حالاته . ولكن من المؤكد أن أى اجراء موجه نحو عقاب الطفل «العضاض» عقاباً قاسياً لا يفشل فى علاج هذا التعطل فى النمو العقلى والخلقى فحسب ، بل سيثبت لدى الطفل هذه الطرق البدائية التى يستخدمها وهى الطرق التى نشأت لان البيئة قد انعدم منها الحنان وأسرفت فى العقاب .

ولكن من المؤكد ايضاً أننا لا يمكن أن نسمح للطفل بايذاء أو تخويف الأطفال الآخرين . وما يمكن أن تفعله بطبيعة الحال اذا عض الطفل حلمة الثدى ان نسحبها من فمه فى هدوء ودون اى جزع بحيث يفهم الطفل عن طريق تكرار السلوك وثباته واستقراره انه لا يستطيع ان ينال الثدى اذا كان يغلق عليه اسنانه بهذه الشدة . والمهم ان نتذرع بالصبر فليس الطفل آلة ندير فيها زرا فتعمل على الفور.. اذ قد يعود الى العض مرة او مرتين حتى بعد ان يبدو انه قد اقلع تماماً . فاذا كبر الاطفال قليلا وكان بينهم طفل يحاول ان يعض رفاقه فى اثناء المشاجرات فعلينا اذا كنا قريبين ان نمنعه بابعاده بمنتهى الهدوء ، ويمكننا ان نفسر هذا بالقول «سوف لا ادعك تعض فلانا» دون ان نوحى اليه بأن رغبته فى العض مفزعة أو فيها عنصر الاجرام أو انها قد هزتنا جميعا كما يبدو فى معظم الاحوال للاسف من صراخنا

وإسراعنا الى المكان . فاذا أتينا بعدفوات الوقت وبعدأن عض الطفل أحدرفاقه فان عطفنا واهتمامنا بالطفل المصاب وحدهما كفيلان - ما دمنا لم نفسد العلاقة بيننا وبين الطفل المعتدى من قبل بقسوتنا وعقوباتنا المرتجلة - بأن يحدثا عنده ندماً كافيا . والواقع أن شعور العزلة الذى يحس به عندما يرى الاهتمام الذى يثيره عندنا ألم الطفل الآخر هو من القوة بحيث يتطلب منا أن نؤكد له بعد مدة قصيرة حبنا له وهذا هو المهم حقا ، اذ كلما استطاع أن يفهم بشكل عام أننا نفهم حاجته للقوة والسيطرة ولو أننا نفضل أن يعبر عنهما بطرق لا تؤذينا كلما كان أسرع للتحرر من هذه الوسائل البدائية للسلوك مما لو ظللنا نستعمل طرق القمع والعقاب .

أية أهمية إذن نعلقها على الطعام والفطام إذا كان لهما كل هذا الارتباط بالغضب والعض . . ! واضح من ناحية علاقة الطفل بأمه أن تأخر اعطاء الوجبة وترك الطفل جائعا مدة أطول مما يتوقع لا ينصب ضرره على شعور الطفل بالجوع بل هو يفسد الاشباع الوجدانى للحب والحنان . فالطفل يبكى لا لأنه جائع فحسب ، بل لأنه يفتقد الحب فلا يجده . وهو لقلة خبراته بالناحية الزمنية لا يستطيع أن يفهم أن طلباته قد تأجلت قليلا . فهى إما موجودة أو غير موجودة .

وهو يستطيع بعد مرور الأسابيع الأولى أن يكيف هذا الترقب للطعام ومشاعر الحب حسب وجبات الطعام وكمية الحنان والدفء والالتصاق والتجفيف المنتظمة فهذا يعنى الاشباع المستمر المنتظم . كم نحن فى حاجة اذن الى ثبات المعاملة التى تختط طريقا وسطا ، فهى لا تتركه بطئها فريسة للخوف والقلق والضعف ، كما لا تخلق بسرعتها وحنوها الزائد طفلا عنيفا مسيطرا مدللا لا يحتمل التأجيل . . !

كما يمكننا أن ندرك صعوبة المحنة التى يمر فيها الطفل فى عملية الفطام إذا جاءت مبكرة أكثر من اللازم أو مفاجئة . ان الأكل عن طريق « البزازة »

او الملعقة بدلا من الرضاعة من الثدى يحيل عملية الطعام باردة جافة مملة ، ويفقدها عامل اللذة المشتق من الاتصال الجسدى بالأم . فاذا حدث هذا مبكراً والطفل صغير يعتبر الأم مجرد ثدى يرضعه وذراعين يحتضنانه ، وبمعنى آخر اذا حدث والطفل لا يعرف من الحياة سوى اللذة الحسية فلم تتسع نظرته مثلا ليتمثل حب أمه له فى صوتها وابتسامتها ومشاركتها له فى ألعابه ، فكأن الطفل اذ فقد الالتصاق بأمه والحصول على ثديها وذراعيها فقد الحب وبالتالى أصبحت هذه صدمة شخصية عنيفة . وإذا حدث الفطام مفاجئاً فان الطفل لا يستطيع فى الحال أن يجد وسائل أخرى للراحة ، وقد يحتفر هذا مجرى مؤلماً فى حياته الداخلية.

وبعكس هذا وذاك ، لو أنا توخينا كما عرضنا فى مص الأصابع أن نعلم الطفل منذ الأسابيع الأولى أن يشرب جرعات الماء من الملعقة ، ولو أن هذا التغير من الثدى للبزازة ثم الملعقة جاء تدريجيا بحيث يتهيأ له الوقت الكافى ليعتاده ، لأمكن الطفل أن يقبل هذا التغير بقليل من الصعوبة

ومع كل فالأطفال يختلفون فى السهولة التى يتقبلون بها ذلك التغير، وعلينا أن نرقب استجاباتهم وهكذا نكيف الزمن وسرعة التغير حسب احتياجات كل الشخصية . ولنا اذن أن نعتقد أن الفطام المبكر يجب أن يتجنب الا اذا كانت هناك أسباب صحية ملحة .

وبنفس الطريقة نجد من الأهمية بمكان الطرق التى نستخدمها فى حمل الطفل وخلع ملابسه ولفه بها ومدى الراحة أو الضغط الذى يجب أن تكون عليه هذه الملابس . فاذا كانت الملابس محبوكة غير مريحة أو كنا نستغرق فى خلعها ووضع غيرها وقتا أطول من اللازم . فاننا لا نقتصر فى الضرر على احمرار جسده أو اعطائه قدرا أقل من الهواء أو تمرين الأعضاء ، وإنما نحرمه من دوافعه الأساسية التى بها يتقدم ويترقى عقليا ، ولاعجب فهو فى حركاته يكتسب مهارات جديدة ويستكشف نواحى من الحياة وبذا يتسع أفقه . هذا فضلا عن أننا نبدو أمامه بمثابة أشخاص يمنعونه ويغضبونه . هو

لا يستطيع أن يفهمنا ويحكم علينا الا عن طريق أعمالنا ، فهو لا يملك حتى ذلك الوقت المبكر طريقة للاتصال بأذهاننا . قد نحس حقا أننا نحبه ، ولكن إذا كنا نزعجه باستمرار بأصوات وصرخات حادة ثاقبة، أو بتسليمنا اياه لأخته الصغيرة تحمله وتخلع ملابسه بطرق فجة غير ناضجة ، أو بقماطاتنا وملابسنا الثقيلة الضاغطة ، فلا يمكن أن نبدو هكذا أمامه .

أثر الخوف والغيرة على الغضب : لا يغرب عن أذهاننا بعد كل هذا أن الغضب قد يكون نتيجة للخوف ، فقد يجد الحيوان اذا طورد أن من الخير أن يهرب ، ولكن إذا سدت عليه السبل وتتبعه قانصوه من كل ناحية فقد يقف « وظهره الى الجدار ». وفى المعركة الأخيرة قد يجرح أكثر من واحد قبل أن يسقط مثخنا بالجراح . واذن فلنتذكر أن جرعا قليلة من الخوف تعلم الطفل الحذر ووزن الأمور والحرص والتدقيق ، ولكن الكثير منه يخلق عدوا غضوبا يسبب لنا من المشاكل ما نحن فى غنى عنه .

ونفس هذا الكلام يمكن أن يقال عن الغيرة ، فالطفل كما قلنا قد يسلك اما طريق التراجع أو التحدى ، ولكنه فى كلتى الحالتين قريب جدا للشعور بالغضب . واذن فهذا الانفعال الأخير لا يقتصر على المنزل المذبذب . بل هو مشترك فى المنازل الثلاثة .

فاذا استطعنا بعد علاج الغضب بعلاج مثيراته فى كل حالة . . كالتقليل مما يسبب الخوف وعدم الاستقرار والشعور بالظلم فى منازلنا المستبدة . . والابتعاد عما يسبب الغيرة بالتقليل من التدخل فى كل كبيرة وصغيرة فى منازلنا الناعمة . . ثم تثبيت المعاملة والتقليل من الاهتمام بنوبات الغضب حتى تنتهى نهاية غير سارة بالنسبة للصغير . . أقول اذا استطعنا بعد هذا أن نتثبت من الناحية الصحية كزيادة افراز بعض الغدد أو مسببات الأرق كاللوز والزوائد الى غير ذلك ، فقد نجد أن من المفيد أن نستغل الألعاب الجمعية والفردية العنيفة لاعلاء غريزة المقاتلة ووضعها بالتدريج فى خدمة المجموع البشرى، فما من شك فى أن الغضب المشروع انفعال مفيد فهو الذى يدفع

المصريين اليوم للمطالبة بحقوقهم ونبذ الاستعمار .

ان مصرنا المقدسة تشتبك اليوم فى صراع ، وواجبنا أن نخرج لها أبناءنا ليقفوا فى الصف الأول . فليكن رائدنا أن ننقى منازلنا وندير دفتها بعيدا عن الأنواع الثلاثة السابقة . وفى الوقت الذى نبيح لطفلنا أن يشب فردا له خصائصه المتميزة عن غيره .. له مواهبه وميوله ومشاعره وأطماعه .. عليه أن يذكر أنه فرد وسط مجتمع كبير متكامل . فلتعكس منازلنا أضواء هذا المجتمع الخارجى بين جدران المنزل حتى يألف الطفل ماينتظره فى الخارج فيخرج اليه غير هياب ويندمج فيه كعضو محبوب . ولكن لنكن فيما نعكسه ناقدين حذرين ، فنحن فى اقترابنا من المجتمع لا نلتصق به تماما فنضمن منازلنا السرقة والرشوة والأنانية ، ولا ننقى منه كل الادران فيخرج الطفل ثائرا ساخطا وأنفه فى السماء . علينا أن نعكس مجتمعا أنقى قليلا فنخرج رسلا للاصلاح الاجتماعى .

فهرس

صفحة

مقدمة ا ـ و

الفصل الاول

ما نفيده من دراسة الطفل فى نموه (١ - ٤٣)

أهمية مرحلة الطفولة . أهمية دراسة النمو . طرق دراسته . أنواع التغيرات المصاحبة له . أسباب النمو . دراسة أثر عاملية .

الفصل الثانى

حقائق عن النمو : (٤٤ - ٥٨)

العوامل المؤثرة عليه .. الذكاء ، التغذية ، الجنس ، الغدد الصماء ، الامراض ، المناخ والاجناس ، موقف الطفل فى الاسرة .

الفصل الثالث

الطفل الحديث الولادة (٥٩ - ٩٤)

أحدث الآراء فيما يختص بالتنبؤ بجنس المولود ومحاولة التحكم فيه . العوامل المؤثرة على نمو الجنين . الوليد الصغير . طرق الدراسة . الوظائف الفسيولوجيه . النوم . الجهاز الصوتى . النشاط الحركى . الانفعالات . حساسية الوليد . شعوره .

الفصل الرابع

النمو الجسمانى (٩٥ - ١١٤)
تداخل الاثر الجسمانى والعقلى . موجات النمو . الطول . الوزن . الرأس . الجذع . الاطراف . الاسنان . العضلات . الجهاز العصبى . التنفسى . الدورة الدموية . الجهاز الهضمى . التناسلى . خطر التراجع الجسمانى . عوامل مؤثرة على النمو الجسمانى .

الفصل الخامس

النمو الحركى (١١٥ - ١٤٧)
طرق الدراسة . أسلوب الضبط الحركى . الرأس . الجذع ، الجلوس ، الذراعان واليدان (مص الاصابع) ، العينان واليدان ، الاقتراب ، القبض ، استكشاف الجسم ومعالجته ، تناول الطعام ، معايير ، ارتداء الملابس ، تفضيل احدى اليدين ، الساقان والقدمان ، أوضاع القدمين ، معايير ، خطر التأخر الحركى ، عوامل مؤثرة .

الفصل السادس

اللعب : (١٤٨ - ١٨٨)
ارتباط اللعب بالطفولة . أسلوب اللعب . نظريات : تلخيص لمراحل التطور ، موضح للعالم المادى . والعالم الاجتماعى . إعداد للحياة المقبلة . صمام الامن . مادة اللعب . فى السنتين الاوليين . من ٢ - ٦ : اللعب التى تساعد على النمو الجسمانى . تركيب الاشياء . الايهام . زيادة المعرفة . اللعب فى الطفولة المتأخرة والمراهقة . الجمع والاقتناء . الالعاب الفردية والجمعية . المسليات . عوامل مؤثرة .

الفصل السابع

النمو اللغوى (١٩٠ - ٢٢٩)
طرق الدراسة . أسلوب الكلام . مقدماته . الصرخات . المناغاة . الحركات والاشارات . مرحلة الكلام الفعلى . الفهم . بناء المحصول اللغوى (العام والخاص) تكوين الجمل . النطق . أخطاؤه . الحذف . اختلاف ترتيب الحروف . اللثغة . عدم وضوح الكلمات . التهتهة . العقلة . مادة الكلام . فى الطفولة . فى المراهقة والبلوغ . خطر التراجع اللغوى . عوامل مؤثرة .

الفصل الثامن

النمو الخلقى (٢٢١ - ٢٦٦)
معنى الخلق الحميد . مراحل النمو الخلقى . أمثلة . نظرة عامة : تكوين السلوك الخلقى . تكوين الافكار الخلقية . الخلق عند الصغير . فى الطفولة المبكرة . فى مرحلة العصابات . فى المراهقة . النظام . العقوبة . اجرام الأحداث . عوامل مؤثرة : العامل الدينى . العائلة . الرفاق . المدارس . الكتب . الذكاء .

الفصل التاسع

النمو الجنسى (٢٦٧ - ٣٠١)
قوه الدافع الجنسى وخطره . طرق الدراسة . مراحل النمو الجنسى ، المرحلة النارسسية . الشرج . الاختلاط أو عدم التفرقة . المرحلة الاوديبية . النضال ضد الجنس الآخر . فى المراهقة . دور الاعتزال . عشق البطل من نفس الجنس . من الجنس الآخر . الحب الصبيانى . الحب المصقول . كبت الدافع الجنسى والتربية الجنسية . أخطاره : العادة السرية . الجنسية المثلية . السادية . الماسوكية . الاحتفاظ بالتذكارات وتقديسها . أحلام اليقظة . التراجع . عقدة أوديب . اليكترا . العرض . العلاج : قواعد ثلاث .

الفصل العاشر

نمو المعانى (٣٢٠ - ٣٤٠)

أثر الخبرات القديمة . ادراك العام . خلع الحياة على الاجسام . أسلوب نمو المعانى . دور الاستكشاف الحسى . دور الاسئلة . دور القراءة . دور المنطق . (معايير . نتائج أبحاث بياجيه . نبذة عن المقاييس العقلية وماجاءت به الاتجاهات الحديثة) . دور التدريب . فكرة الطفل عن نفسه . أساليب التعبير عن النفس . ادراك الطفل الاجتماعى . ادراكه المكانى . ادراكه للوزن . للعدد . للزمن . للدعابة . للجمال .

الفصل الحادى عشر

المنزل المصرى فى « قفص الاتهام » . (٣٤١ - ٣٨٨)

أقسامه : المنزل الاول (القسوة المطلقة) . الخوف . أثره على التغذية . على الجهاز البولى . الخوف من الحسى . من المعنوى . أثره على السلوك . الكذب وأنواعه . السرقة وفكرة الملكية . أثره على نمو الشخصية . المنزل الثانى (الحرية المطلقة) . أثرها على الميدانين الخلقى والاجتماعى . أثرها على المجهود الفردى . الغيرة . أثرها على السلوك . علاجها . المنزل الثالث (دوامة مقلقلة) . أثره على التكوين الخلقى والاجتماعى . الغضب . انتقاله للصغار . أثر البيئة العادية . العض . أهمية الفطام . أثر الخوف والغيرة على الغضب . علاجه . المنزل المثالى .

بعض مصادر الكتاب

Arbitt, A. H. 1931 : The child from one to twelve. New York. Mc Graw - Hill

Averill, L. A. 1936 : Adolescence. Boston. Houghton.

Baldwin, B. T. Stecher, L. I. 1927 : The Psychology of the preschool child. New York : Appleton century.

Barker, kounin and wright : 1943 ; Child behaviour and development. New York, Mc Graw - Hill

Blanchard, P. 1920 : The adolescent girl. New York. Moffat, Yard.

Boynton, B. 1939 ; The physical growth of girls. Iowa City : Univ. Iowa Press.

Bridges K. M. B. 1931 ; Social and Emotional development of the preschool child. London Kegan Paul.

Brooks, F. D. 1937; Child psychology. Boston. Houghton.

Buhler, C. 1930 : The first year of life. New york : Day.

Buhler, C. 1935. From birth to maturity. London Kegan Paul.

Buhler, C. 1930. The mental development of the child. New York. Harcourt.

Burt, Cyril. Mental and scholastic tests. London. King.

Carmichael, L. 1946. Manual of child psychology. John Wiley. New York.

Chadwick, M. 1933: Adolescent girlhood. New York. Day.

Chave, E. J. 1937. Personality development in children. Chicago. Univ. Chicago.

طبع هذا الكتاب

في

مطبعة الأمانة

بصاحبها

فرنسيس دوس

في مايو سنة ١٩٤٧

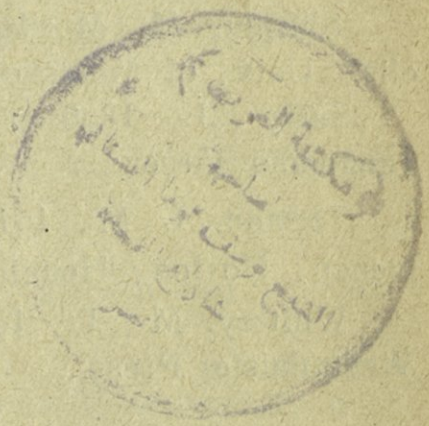

DATE DUE

JAFET LIB
3 APR 1983

JAFET LIB.
23 MAR 1994

JAFET LIB.
21 MAY 2002
Circulation Dept.

JAFET LIB.
04 JUN 2002
Circulation Dept. 2

136.7:I81A:c.1
اسكندر، فايز
نداء الطفولة
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01001583

A.U

136.7
I81A